المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

السنن الإلهية في تغيير ا تمعات في ضوء القرآن الكريم جمعاً ودراسة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب / أيمن بن نبيه بن غنام المغربي
الرقم الجامعي / 42380045

إشراف الأستاذ الدكتور / محمد بن عمر بازمول

1427 هـ ـ 1428 هـ

ملخص الرسالة

❁ عنوان الرسالة : السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم جمعاً ودراسة .

❁ اسم الباحث : أيمن بن نبيه بن غنام المغربي .

❁ الدرجة : الماجستير .

❁ خطة الموضوع : تشتمل الخطة على مقدمة وتمهيد وبابين :

* المقدمة وتشتمل على أهمية الموضوع وسبب اختياره وخطة البحث ومنهج الباحث فيه .

* التمهيد ويتضمن التعريف بموضوع البحث وذلك حسبما يلي :

1/ المراد بالسنن الإلهية . 2/ المراد بتغيير المجتمعات .

* الباب الأول : أساليب السنن الإلهية وخصائصها ومظاهر مواردها في القرآن الكريم وفيه أربعة فصول :

1/ أساليب القرآن الكريم في بيان السنن . 2/ خصائص السنن الإلهية .

3/ مظاهر موارد السنن في القرآن الكريم . 4/ كيفية الاستفادة من السنن في التغيير .

* الباب الثاني : عرض السنن الإلهية في تغيير المجتمعات ، ويتضمن خمسة فصول :

1/ سنة الله في الهدى والضلال . 2/ سنة الله في النصر والهزيمة .

3/ سنة الله في الأمن والخوف . 4/ سنة الله في الرزق . 5/ سنة الله في السعادة والشقاوة .

* الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج والتوصيات التي انتهى إليها الباحث .

❁ هدف الدراسة : تهدف الدراسة إلى ترسيخ مفهوم قوله تعالى {إِن اللّه لاَ يغير ما بِقَوْمٍ حتى يغيرواْ مـا بِأَنفُسِهِم} ـ سورة الرعد 11 ـ في أذهان الناس ، فالتغيير يبدأ من النفس ، فإذا وجـدت الأسـباب فالنتائج تتبعها ؛ إذ أن حدوث التغيير من الله عز وجل مترتب على حدوثه من البشر سلباً وإيجاباً .

❁ وموضوع هذه الرسالة : شرح السنن الإلهية في تغيير المجتمعات للناس وتوضيحها لهم ـ والمتمثلـة في هذا البحث بخمس سنن ـ وتصحيح المفهوم الخاطئ لدى بعض الناس من أن ما يقع في هذا العـالم مـن حوادث ومجريات إنما يقع صدفة أو خبط عشواء ؛ وإنما يقع ذلك وفق سنن إلهية ثابتة لا تحيد ولا تميل ولا يخرج عن مقتضاها شيء .

❁ أبواب الرسالة : تحتوي الرسالة على بابين :

* الباب الأول : أساليب السنن الإلهية وخصائصها ومظاهر مواردها في القرآن الكريم .

* الباب الثاني : عرض السنن الإلهية في تغيير المجتمعات .

❁ أهم النتائج والتوصيات :

1 / أن التغيير لا يتحقق إلا بتغيير الأفراد ولو بجزء قليل منهم فلا يشترط أن يتحقق التغيير في كل الناس .

2 / أن تتصف هذه القلة التي يتحقق ا التغيير بصفات معينة على رأسها الإيمان العميق بالله والإعداد الجيد للتغيير والتنظيم المحكم والتخطيط الدقيق .

3 / أن يعمل العلماء والدعاة في الأمة على نشر هذه السنن بين الناس وجعلها ثقافة عامة في ا تمع وتربية الناس عليها وتذكيرهم الدائم ا . كما يجب عليهم بث روح التفاؤل والأمل والعمل والإيجابية ، وتقديم النماذج المشرقة التي تصلح أن يقتدي ا الناس ويلتفّون حولها .

Research Summary

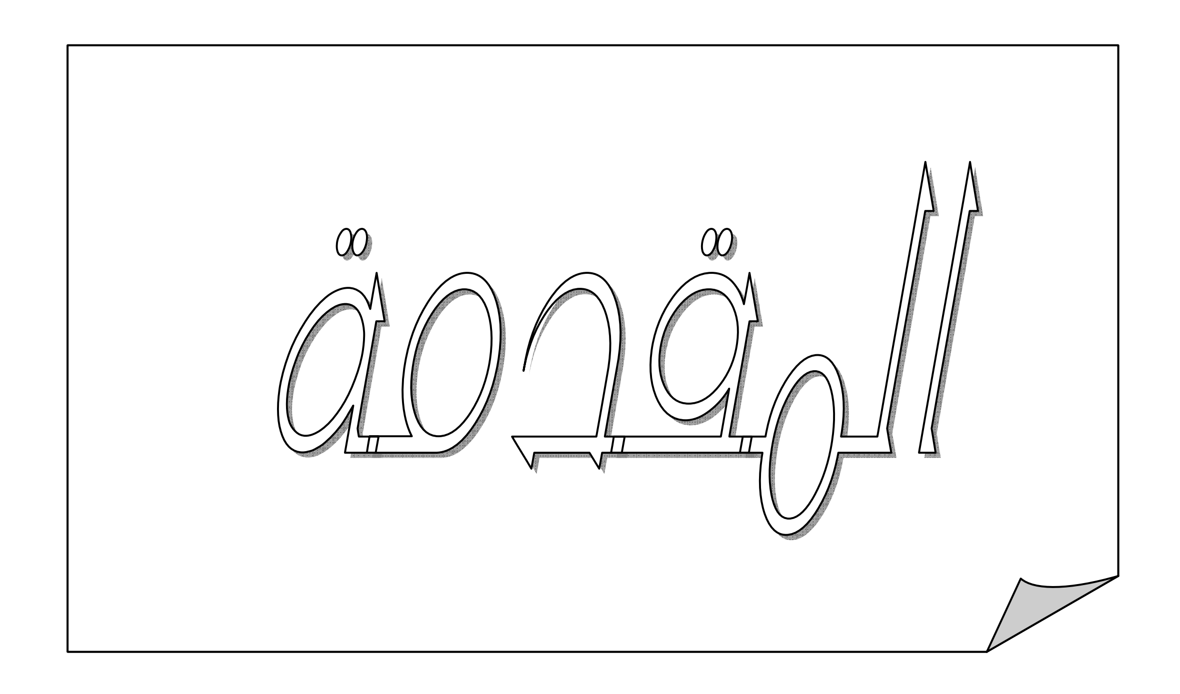
* Address of Research : God's Sunnas in changing of Societies in Light of The Holly Qora'an .
* Name of Researcher : Aymen Nabeeh Ghannam AL – Maghrabe .
* Degree : Master's Degree .
* Plan of Subject : it is in Claude on introduction and Two Chapter .
* The introduction in Clouding on Subject importance and The Reason of Choosing it , Plan of Research and Method Logy of Researcher .
*The Fore Word : it is in Clouding :
1/ The intention of God's Sunnas .
2/ The intention of Changing in The Society .
*Chapter One : is in Clouding , Methods of God's Sunnas, and its Properties, its appearance of resources in The Holy Qora'an and it How To be useful it .
*Chapter Two : Review of God's Sunnas in Changing in The Societies .
*The End ; it in Clouds The important of Results and Recommendation .
*aim of Research : it aims to Establishing of Meaning The Say of Allah (Surat : AL – Ra'ad / 11) in Mind of Humans .
*Subject of Research : Explaining of God's Sunnas in Changing of Societies For People and Explain it and Correct The Fuels Meaning For some People .
*Chapters of Research are in Clouding :

1/ Methods of God's Sunnas, and its Properties, its appearance of resources in The Holly Qora'an and How to be Use Full it .
2/ Chapter Two : Review of God's Sunnas in changing in The Societies .
*The important of Results and The Recommendations :
1/ Verily, Changing don't Materialize unless Peoples Chang and if Few People .
2/ The is a Few Peoples must have Specific Capacities .
3/ The Scientists and heralds must Spread This Sunnas between People and to make it general Culture in Societies and education of People on it .

مفتاح مختصرات ورموز الرسالة

سورة .... /	= اسم السورة / رقم الآية
(... / ....) رقم	= (رقم الجزء / رقم الصفحة) رقم الحديث
أخرجه البخاري	= الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري
أخرجه مسلم	= صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري
أخرجه أبو داود	= سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني
أخرجه الترمذي	= الجامع الصحيح لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي
أخرجه النسائي	= ا تبى من السنن لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي
أخرجه ابن ماجه	= سنن ابن ماجه أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه
أخرجه الدارقطني	= سنن الدارقطني لعلي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي
أخرجه الدارمي	= سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي
أخرجه ابن حبان	= صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي
أخرجه أحمد	= المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل
تفسير أبي حيان	= تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بن حيان الأندلسي
تفسير الشنقيطي	= أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي
تفسير البيضاوي	= أنوار التـ يل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي
تفسير الكلبي	= التسهيل لعلوم التـ يل لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي
تفسير أبي السعود	= إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد
تفسير ابن عاشور	= تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور
تفسير الخازن	= لباب التأويل في معاني التـ يل لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي
تفسير الرازي	= التفسير الكبير ومفاتيح الغيب لمحمد فخر الدين ابن ضياء الدين
تفسير المنار	= تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا
تفسير القرطبي	= الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
تفسير النسفي	= مدارك التـ يل وحقائق التأويل لعبد الله بن أحمد النسفي

تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر
تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي حعفر محمد بن جرير الطبري
تفسير السيوطي = الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي
تفسير الألوسي = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للسيد محمود
تفسير ابن الجوزي = زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي
تفسير الشوكاني = فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير
تفسير الكشاف = الكشاف عن حقائق الت يل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
تفسير القاسمي = محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز لبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي
تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري أبو جعفر
التمهيد لابن عبد البر = التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف
السراج المنير = السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الخبير
شفاء العليل = شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم
مدارج السالكين = مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم
معارج القبول = معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ حكمي
مصنف عبد الرزاق = مصنف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني
مصنف ابن أبي شيبة = المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة


المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه صلى الله عليـه وعلـى آلـه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً .

{يا أيها الذين آمنواْ اتقُواْ اللّه حق تقَاته ولاَ تموتن إلا وأَنتم مسلمونَ} [1] {يا أَيها الناس اتقُواْ ربكُم الذي خلَقَكُم من نفْسٍ واحدة وخلَق منها زوجها وبث منهما رِجالاً كَثيرا ونِساء واتقُواْ اللّه الذي تساءلُونَ بِه والأَرحام إِن اللّه كَانَ علَيكُم رقيبا} [2] {يا أَيها الذين آمنوا اتقُوا اللـه وقُولُوا قَولًا سديدا ـ يصلح لَكُم أَعمالَكُم ويغفر لَكُم ذُنوبكُم ومن يطع الله ورسولَه فَقَد فَاز فَوزا عظيما} [3] .

فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسـلم ، وشـر الأمور محدثا ا ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . ثم أما بعد :

فإن القرآن العظيم كلام الله سبحانه وتعالى ، أودع فيه الهدى والنور وأبان فيه العلم والحكمة ، جعله الله نوراً وكتاباً مبيناً {يهدي بِه اللّه منِ اتبع رِضوانه سبلَ السلاَمِ ويخرِجهم منِ الظُّلُمات إِلَى النورِ بِإِذْنِه ويهديهم إِلَى صراط مستقيمٍ } [4] ، كما جعله الله دستوراً لهذه الأمة ومنهاجاً لها فمن تمسك به نجا ، ومن تنكّب عن طريقه هلك وغوى .

ولقد سعد المسلمون ذا الكتاب الكريم وأقبلوا عليه منذ اللحظة الأولى التي نزل فيهـا إقبـال الظمآن على الماء البارد ، فاستودعوه صدورهم ، وجعلوه ملء سمعهم وبصرهم ، وأنزلـوه في قلو م وحيا م الم لة التي جعلها الله له ، وتجسدت معاني القرآن الكريم في خلقهم وسلوكهم ، وظهرت هدايته على جوارحهم ، فارتقت به حيا م وسمت به نفوسهم .

---

(1) سورة آل عمران / 102 .

(2) سورة النساء / 1 .

(3) سورة الأحزاب / 70 ـ 71 .

(4) سورة المائدة / 16 .

ولقد ظل المسلمون يفهمون القرآن الكريم على حقيقته وصفائه ، ويعملون به على بينـة مـن هديه وضيائه ، فكانوا من أجل ذلك أعزاء لا يقبلون الذل ، أقوياء لا يعرفون الضعف ، كرماء لا يرضون الضيم ، حتى دانت لهم الشعوب وخضعت لهم الدول .

ثم خلف من بعدهم خلف تفرقوا في الدين شيعا وأحدثوا فيه بدعا ، وهان عليهم كتاب ربهم ، بعد أن هانوا على أنفسهم ، فهجروا القرآن الكريم وحجموا مكانه في حياتهم ، وكانت فـتن كقطع الليل المظلم ، لا خلاص منها إلا بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسـوله ﷺ ، ولا نجاة من شرها إلا بالتمسك بالقرآن الكريم الذي طرفه بيد الله تعالى ، وطرفه بأيديهم . [1]

هذا وبعد انتهائي من دراسة السنة الدراسية التمهيدية للماجستير بكلية الدعوة وأصول الدين _ قسم الكتاب والسنة _ فرع التفسير ، وبعد التوجيهات الكريمة من فضيلة شـيخنا الأسـتاذ الدكتور / محمد عمر با زمول ؛ فقد وقع اختياري على موضوع يتعلق بـالسنن الإلهية بعنوان (**السنن الإلهية** في **تغيير المجتمعات** في **ضوء القرآن الكر**يم) . وقد كان الباعث لي لاختيـار هذا الموضوع الأمور التالية :

1 ـ عناية القرآن الكريم ببيان السنن الإلهية عناية فائقة وبأكثر من صيغة فتارة ينص عليها نصاً كما في قوله تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِينَ } [2] ، وتارة يفهم ذلك من النص دلالةً وفحوى كما في قولـه تعـالى {وَلَقَـدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْـتَهْزِؤُونَ}[3] ، وتـارة يذكرها مضافة إلى الله تعالى في قوله تعالى { سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [4] ، ويذكرها تارة أخرى مضافة إلى أقوام كما في قوله تعالى{ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ

---

(1) انظر : كتاب التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة مصر ـ الطبعة الخامسة 1413 هـ ـ 1992 م (1 / 7) .

(2) سورة آل عمران / 137 .

(3) سورة الأنعام / 10 .

(4) سورة غافر / 85 .

الْأولين } [1] ، وغيرها من الصيغ والأساليب التي ستتضح من خلال البحث إن شاء الله ، مما يدلنا على مدى اهتمام القرآن الكريم ببيان السنن الإلهية للناس بقسميها (الكوني والإنسـاني) ليكون الناس من ذلك على بينة ، وليعرفوا عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم ، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف .

2 ـ الرغبة الشخصية بالمساهمة في نشر السنن الإلهية في تغيير المجتمعات بين الناس وتوضيحها لهم ، ليجعلوها محركاً ودافعاً لنفوسهم للعمل الجاد الصحيح الدؤوب وفقاً لمقتضيات سنن الله في التبديل والتحويل من السيئ إلى الحسن ومن حياة الذل إلى حياة العز ومن التبعية الذليلـة للطواغيت والكفرة إلى حيث أراد الله تعالى للمؤمنين من العز والكرامة والقيادة للبشر جميعاً .

3 ـ أن العلم بالسنن الإلهية في تغيير المجتمعات يصحح المفهوم الخاطئ لدى بعض الناس من أن ما يقع في هذا العالم من حوادث ومجريات إنما يقع صدفة أو خبط عشواء ، وإنما يقـع ذلـك وفق سنن إلهية ثابتة لا تحيد ولا تميل ولا يخرج عن مقتضاها شيء .

4 ـ بيان أثر هذه السنن على الأمم والمجتمعات ليعتبر الناس بها ويستفيدوا منها .

5 ـ ترسيخ مفهوم قوله تعالى { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [2]؛ إذ أن من أهم دلالات سنة التغيير أن الله عز وجل لا يغير حال قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؛ فالتغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى ، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسـفل . فـإذا وجدت الأسباب فالنتائج تتبعها ؛ إذ أن حدوث التغيير من الله عز وجل مترتب على حدوثه من البشر سلباً وإيجاباً .

6 ـ جمع ما يتعلق بهذا الموضوع في مكان واحد بحيث يسهل على قارئه الإحاطة به .

" ثم إن البحث في السنن الإلهية التي فطر الله عليها أمور خلقه تنبع أهميته من حقيقة أولية ؛ وهي أن كشف السنن ومعرفة شروطها وخصائصها ، يجعل الأمور التي تخضع لهذه السنن في نطـاق التسخير لنا نحن البشر ... أي أن معرفتنا بالسنن تجعلنا أقدر على تسخير الكون بما فيـه مـن

---

(1) سورة الكهف / 55 .

(2) سورة الرعد / 11 .

حولنا ، والاستفادة من ذلك في تصريف شؤون حياتنا ، فضلاً عن تحديد مسار سلوكنا وفـق ضوابط تحدد المعالم والأهداف والسبل الموصلة إليها " [1] .

هذا وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي :

تشتمل الخطة على مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة .

❁ **المقدمة** وتشتمل على : أهمية الموضوع وسبب اختياره وخطة البحث ومنهج الباحث فيه .

❁ **التمهيد** . ويشتمل على المراد بالسنن الإلهية والمراد بتغيير المجتمعات وذلك حسبما يلي :

أولاً : تعريف السنن الإلهية .حيث عرفت فيه السنة في اللغة والاصطلاح سواء عند المحدثين أو عند الفقهاء وكذلك المقصود بها في التشريع الإسلامي .

ثانياً : المراد بتغيير المجتمعات . حيث بينت المراد بكلمة التغيير في اللغة ، وبينت بعد ذلـك بعض أحوال التغيير ، وختمت ذلك بالمقصود من عنوان البحث على الإجمال .

❁ **الباب الأول** : أساليب السنن الإلهية وخصائصها ومظاهر ورودها. ويتضمن أربعة فصول:

1/ الفصل الأول : أساليب القرآن الكريم في بيان السنن الإلهية في تغيير المجتمعات ، ومنها : الصيغة التصريحية والصيغة الشرطية والصيغة الإخبارية . وقسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : تعريف الأساليب . حيث بينت فيه تعريف الأساليب لغة واصطلاحاً . والمعنى العام لأساليب القرآن الكريم في بيان السنن الإلهية .

المبحث الثاني : بيان هذه الأساليب . حيث بينت فيه أن هذه الأساليب تنقسم إلى أسـاليب مباشرة وأساليب غير مباشرة ثم فصلت في بيانها ممثلاً على كل ذلك بما يناسب المقام .

2/ الفصل الثاني : خصائص السنن الإلهية . وقد قسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : تعريف الخصائص .

المبحث الثاني : بيان هذه الخصائص . حيث بينت فيه أن للسنن الإلهية ثلاث خصائص هي : الثبات ، الشمول والعموم ، الاطراد . معرفاً كل واحدة منها وممثلاً عليها من القرآن الكريم .

---

(1) انظر : كتاب أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق للدكتور أحمد محمد كنعان / 38 . ضمن كتاب الأمة ـ وهي سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر رقم 24 عام 1990 م .

3/ الفصل الثالث : مظاهر ورود السنن الإلهية في القرآن الكريم . وبينت فيه أن مظاهر ورود السنن الإلهية في القرآن الكريم ثلاثة هي : القصص القرآني ، الأمثال القرآنية ، الآيات المشتملة على ربط الأسباب بالمسببات . ومثلت على كل منها بما يناسبه من القرآن الكريم .

4/ الفصل الرابع : كيفية الاستفادة من السنن الإلهية في التغيير . وبينت في هذا الفصل أنـه يمكن الاستفادة من السنن الإلهية في تغيير واقع الأمة أفراداً ومجتمعات بشرط أن ينظر إليها على أنها منهج حياة لو سار عليها الناس لحققوا ما أرادوا من السعادة في الدارين إذ أن الله قد جعل لكل شيء سببا .

❁ **الباب الثاني** :- السنن الإلهية الواردة في القرآن في تغيير المجتمعات ويتضمن خمسة فصول:-

1/ الفصل الأول : سنة التغيير في الهدى والضلال . ويتضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة . وبينت فيه تعريف الهدى والضلال لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : الآيات الواردة في القرآن الكريم عن هذه السنة . وبينت فيه الآيـات الـتي تناولت هذه السنة عن طريق عرض أسباب الهدى والضلال ، ومنها :

قوله تعالى {الله يتوفى الْأنفُس حين موتها والتي لَم تمت في منامها فَيمسِك التي قَضى علَيهـا الْموت ويرسلُ الْأُخرى إِلَى أَجلٍ مسمى إِن في ذَلك لَآيات لقَومٍ يتفَكَّرونَ}[1] . وقوله تعـالى {قَالَ اهبِطَا منها جميعا بعضكُم لبعضٍ عدو فَإِما يأْتينكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضـل ولَا يشقَى} [2] . وقوله تعالى {وكَذَلك أَوحينا إِلَيك روحا من أَمرِنا ما كُنت تدرِي ما الْكتاب ولَا الْإِيمانُ ولَكن جعلْناه نورا نهدي بِه من نشاء من عبادنا وإِنك لَتهدي إِلَى صراط مستقيمٍ}[3] وقوله تعالى {ولَو جعلْناه قُرآنا أَعجميا لقَالُوا لَولَا فُصلَت آياته أَأَعجمي وعربِي قُلْ هو للـذين آمنوا هدى وشفَاء والذين لَا يؤمنونَ في آذَانِهم وقْر وهو علَيهِم عمى أُولَئك ينادونَ من مكَان بعيد} [4] .

---

(1) سورة الزمر / 42 .

(2) سورة طه / 123 .

(3) سورة الشورى / 52 .

(4) سورة فصلت / 44 .

وقوله تعالى {إن الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات يهديهم ربهم بِإِيمانِهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم} [1] . وقوله تعالى {اهدنا الصراطَ المُستقيم} [2] . وقوله تعـالى {وكَيـف تكْفُرونَ وأَنتم تتلَى علَيكُم آيات اللّه وفيكُم رسولُه ومن يعتصم بِاللّه فَقَد هدي إِلَـى صـراط مستقيمٍ} [3] . وقوله تعالى {يا أيها الذين آمنواْ لاَ تتخذُواْ الْيهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعضٍ ومن يتولهم منكُم فَإِنه منهم إن اللّه لاَ يهدي الْقَوم الظالمين} [4] . وقوله تعـالى {قُـلْ أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ فَإِن تولوا فَإِنما علَيه ما حملَ وعلَيكُم ما حملْتم وإِن تطيعوه تهتدوا وما علَى الرسولِ إِلا الْبلَاغُ الْمبِين} [5] . وقوله تعالى {والذين جاهدوا فينا لَنهدينهم سبلَنا وإِن الله لَمع الْمحسِنِين} [6] . وقوله تعالى {ولَقَد ذَرأْنا لجهنم كَثيرا من الْجِن والإِنسِ لَهم قُلُوب لا يفْقَهونَ بِها ولَهم أعين لا يبصرونَ بِها ولَهم آذَانٌ لا يسمعونَ بِها أُولَئك كَالأَنعامِ بلْ هم أضل أُولَئك هم الْغافلُونَ} [7] . وقوله تعالى {سأَصرف عن آياتي الذين يتكَبرونَ في الأَرضِ بِغيـرِ الْحق وإِن يرواْ كُل آية لا يؤمنواْ بِها وإِن يرواْ سبِيلَ الرشد لاَ يتخذُوه سبِيلاً وإِن يرواْ سـبِيلَ الْغي يتخذُوه سبِيلاً ذَلك بِأَنهم كَذبواْ بِآياتنا وكَانواْ عنها غَافلين} [8] . وقوله تعالى {ولأُضلنهم ولأُمنينهم ولآمرنهم فَلَيبتكُن آذَانَ الأَنعامِ ولآمرنهم فَلَيغيرن خلْق اللّه ومن يتخذ الشيطَانَ وليـا من دون اللّه فَقَد خسِر خسرانا مبِينا} [9] . وقوله تعالى {ولَقَد مكناهم فيما إِن مكناكُم فيـه وجعلْنا لَهم سمعا وأَبصارا وأَفْئدةً فَما أَغْنى عنهم سمعهم ولَا أبصارهم ولَا أفْئدتهم من شيءٍ إِذْ

(1) سورة يونس / 9 .
(2) سورة الفاتحة / 6 .
(3) سورة آل عمران / 101 .
(4) سورة المائدة / 51 .
(5) سورة النور / 54 .
(6) سورة العنكبوت / 69 .
(7) سورة الأعراف / 179 .
(8) سورة الأعراف / 146 .
(9) سورة النساء / 119 .

كانوا يجحدونَ بِآيات الله وحاق بِهم ما كانوا به يستهزؤون}[1] . وقوله تعالى {فَـإن لـم يستجِيبوا لَك فَاعلَم أنما يتبِعونَ أهواءهم ومن أضل ممنِ اتبع هواه بِغيرِ هدى من الله إن الله لَا يهدي الْقَوم الظالمين}[2] . وغيرها من الآيات التي تضمنها البحث .

المبحث الثالث : تـ يل هذه السنة على واقع ا تمعات ، وعرضت في هذا الفصـل بعـض النماذج القرآنية التي تحققت فيها سنة التغيير في الهدى والضلال .

2/ الفصل الثاني : سنة التغيير في النصر والرفعة والهزيمة والهوان . ويتضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة . وبينت فيه تعريف النصر والهزيمة لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة ـذه السنة . وبينت فيه الآيات التي تناولت هذه السـنة عن طريق عرض أسباب النصر والهزيمة . ومنها :

قوله تعالى {إنا لَننصر رسلَنا والذين آمنوا في الْحياة الدنيا ويوم يقُوم الْأَشهاد}[3] . وقوله تعالى تعالى {قَالَ موسى لقَومه استعينوا بِاللّه واصبِرواْ إِن الأَرض للّه يورِثُها من يشـاء مـن عبـاده والْعاقبةُ للْمتقين}[4] . وقوله تعالى {إِن تمسسكُم حسنةٌ تسؤهم وإِن تصبكُم سيئَةٌ يفْرحواْ بِها وإِن تصبِرواْ وتتقُواْ لاَ يضركُم كَيدهم شيئًا إِن اللّه بِما يعملُونَ محـيطٌ}[5] . وقولـه تعـالى {وأَعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم وآخرِين من دونِهِم لاَ تعلَمونهم اللّه يعلَمهم وما تنفقُواْ من شيءٍ في سبِيلِ اللّه يـوف إِلَـيكُم وأَنـتم لاَ تظْلَمونَ}[6] . وقوله تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيتم فئَةً فَاثْبتواْ واذْكُرواْ اللّه كَثيرا لعلكُـم تفْلَحونَ ـ وأَطيعواْ اللّه ورسولَه ولاَ تنازعواْ فَتفْشلُواْ وتذْهب رِيحكُم واصبِرواْ إِن اللّـه مـع

---

(1) سورة الأحقاف / 26 .
(2) سورة القصص / 50 .
(3) سورة غافر / 51 .
(4) سورة الأعراف / 128 .
(5) سورة آل عمران / 120 .
(6) سورة الأنفال / 60 .

الصابِرِين}[1] . وقوله تعالى {ولَقَد صدقَكُم اللّه وعده إِذْ تحسونهم بِإِذْنِه حتـى إِذَا فَشـلْتم وتنازعتم في الأَمرِ وعصيتم من بعد ما أَراكُم ما تحبونَ منكُم من يرِيد الدنيا ومنكُم من يرِيـد الآخرةَ ثُم صرفَكُم عنهم ليبتليكُم ولَقَد عفَا عنكُم واللّه ذُو فَضلٍ علَى الْمؤمنِين }[2] . وقولـه تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيتم الذين كَفَرواْ زحفاً فَلاَ تولوهم الأَدبار}[3] . وقوله تعـالى {يا أَيها الذين آمنواْ اصبِرواْ وصابِرواْ ورابِطُواْ واتقُواْ اللّه لَعلكُم تفْلحونَ}[4] . وقولـه تعـالى {الذين أُخرِجوا من ديارِهم بِغيرِ حق إِلا أَن يقُولُوا ربنا الله ولَولَا دفْع الله الناس بعضهم بِبعضٍ لهدمت صوامع وبِيع وصلَوات ومساجِد يذْكَر فيها اسم الله كَثيرا ولَينصرن الله من ينصره إِن الله لَقَوِي عزِيز}[5] . وقوله تعالى {وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهـم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدونني لَا يشرِكُونَ بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هـم الْفَاسقُونَ}[6] . وقوله تعالى {يا أَيها الذين آمنوا إِن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أَقْدامكُم}[7] . أَقْدامكُم}[7] . وقوله تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ ما لَكُم إِذَا قيلَ لَكُم انفروا في سبِيلِ اللّه اثاقَلْتم اثاقَلْتم إِلَى الأَرضِ أَرضيتم بِالْحياة الدنيا من الآخرة فَما متاع الْحياة الـدنيا فـي الآخـرة إِلا قَليلٌ}[8] . وقوله تعالى{لَقَد أَرسلْنا رسلَنا بِالْبينات وأَنزلْنا معهم الْكتاب والْميزانَ ليقُوم النـاس بِالْقسط وأَنزلْنا الْحديد فيه بأْس شديد ومنافع للناسِ وليعلَم الله من ينصره ورسلَه بِالْغيـبِ إِن الله قَوِي عزِيز}[9] . وغيرها من الآيات التي تضمنها البحث .

---

(1) سورة الأنفال / 45 ـ 46 .

(2) سورة آل عمران / 152 .

(3) سورة الأنفال / 15 .

(4) سورة آل عمران / 200 .

(5) سورة الحج / 40 .

(6) سورة النور / 55 .

(7) سورة محمد / 7 .

(8) سورة التوبة / 38 .

(9) سورة الحديد / 25 .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة . وعرضت في هذا الفصل بعض النماذج القرآنية التي تحققت فيها سنة التغيير في النصر والرفعة والهزيمة والهوان .

3/ الفصل الثالث : سنة التغيير في الطمأنينة والأمن والقلق والرعب والخوف . ويتضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة . وبينت فيه تعريف الأمن والخوف لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة بهذه السنة . وبينت فيه الآيات التي تناولت هذه السنة عن طريق عرض أسباب الأمن والخوف ، ومنها :

قوله تعالى {الذين آمنواْ ولَم يلْبِسواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ أُولَئك لَهم الأَمن وهم مهتدونَ}[1]. وقوله تعالى {فَلَولاَ كَانت قَريةٌ آمنت فَنفَعها إِيمانها إِلا قَوم يونس لَماَّ آمنواْ كَشفْنا عنهم عذَاب الخزيِ في الْحياةَ الدنيا ومتعناهم إِلَى حينٍ}[2]. وقوله تعالى {وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدونني لَا يشرِكُونَ بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هم الْفَاسقُونَ}[3]. وقوله تعالى {أَلا إِن أَولياء اللّه لاَ خوف علَيهم ولاَ هم يحزنونَ ـ الذين آمنواْ وكَانواْ يتقُونَ}[4] . وقوله تعالى {إِن الذين قَالُوا ربنا الله ثُم استقَاموا تتنزلُ علَيهم الْملَائكَةُ أَلَّا تخافُوا ولَا تحزنوا وأَبشروا بِالْجنة التي كُنتم توعدونَ}[5]. وقوله تعالى {أَفَأَمن أَهلُ الْقُرى أَن يأْتيهم بأْسنا بياتاً وهم نآئمونَ ـ أَو أَمن أَهلُ الْقُرى أَن يأْتيهم بأْسنا ضحى وهم يلْعبونَ ـ أَفَأَمنواْ مكْر اللّه فَلاَ يأْمن مكْر اللّه إِلا الْقَوم الْخاسرونَ}[6]. وقوله وقوله تعالى {وإِذْ قَالَ إِبراهيم رب اجعلْ هَذَا بلَدا آمنا وارزق أَهلَه من الثمرات من آمن منهم

---

(1) سورة الأنعام / 82 .

(2) سورة يونس / 98 .

(3) سورة النور / 55 .

(4) سورة يونس / 62 ـ 63 .

(5) سورة فصلت / 30 .

(6) سورة الأعراف / 97 ـ 99 .

بِاللَّه والْيومِ الآخرِ قَالَ ومن كَفَر فَأُمتعه قَليلاً ثُم أَضطَره إِلَى عذَابِ النارِ وبِئْس الْمصـير}[1].
وقوله تعالى {لَقَد كَانَ لسبإٍ في مسكَنِهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا مـن رزقِ ربكُـم واشكُروا لَه بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور ـ فَأَعرضوا فَأَرسلْنا علَيهم سيلَ الْعرِمِ وبدلْناهم بِجنتـيهم جنتينِ ذَواتى أُكُلٍ خمط وأَثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قَليلٍ ـ ذَلك جزيناهم بِما كَفَروا وهلْ نجازِي إِلا الْكَفُور}[2]. وقوله تعالى {وضرب اللَّه مثَلاً قَريةً كَانت آمنةً مطْمئنةً يأْتيها رِزقُها رغَدا من كُل مكَان فَكَفَرت بِأَنعمِ اللَّه فَأَذَاقَها اللَّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَـانواْ يصـنعونَ}[3] .
وغيرها من الآيات التي تضمنها البحث .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة . وعرضت في هذا الفصل بعض النمـاذج القرآنية التي تحققت فيها سنة التغيير في الطمأنينة والأمن والقلق والرعب والخوف .

4/ الفصل الرابع : سنة التغيير في الغنى والفقر والرزق . ويتضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة . وبينت فيه تعريف الرزق لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة بهذه السنة . وبينت فيه الآيات التي تناولت هذه السـنة عن طريق عرض أسباب الرزق ، ومنها :

قوله تعالى {ولَو أَن أَهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنا علَيهِم بركَات من السماء والأَرضِ ولَكـن كَذبواْ فَأَخذْناهم بِما كَانواْ يكْسِبونَ}[4]. وقوله تعالى {وأَلَّوِ استقَاموا علَى الطَّرِيقَة لَأَسقَيناهم ماء غَدقًا}[5]. وقوله تعالى {ولَو أَنهم أَقَامواْ التوراةَ والإِنجِيلَ وما أُنزِلَ إِلَيهِم من ربهِم لأكَلُـواْ من فَوقهِم ومن تحت أَرجلهِم منهم أُمةٌ مقْتصدةٌ وكَثير منهم ساء ما يعملُونَ}[6]. وقوله تعالى {ويا قَومِ استغفرواْ ربكُم ثُم توبواْ إِلَيه يرسلِ السماء علَيكُم مدرارا ويزِدكُم قُوةً إِلَى قُوتكُم ولاَ

---

(1) سورة البقرة / 126 .
(2) سورة سبأ / 15 ـ 17 .
(3) سورة النحل / 112 .
(4) سورة الأعراف / 96 .
(5) سورة الجن / 16 .
(6) سورة المائدة / 66 .

تتولواْ مجرمين}[1]. وقوله تعالى {فَقُلْت استغفروا ربكُم إنه كَانَ غَفارا ـ يرسـل السـماء علَيكُم مدرارا ـ ويمددكُم بِأَموالٍ وبنِين ويجعل لكُم جنات ويجعل لكُم أَنهارا}[2]. وقولـه تعالى {وإِذْ قَالَ إِبراهيم رب اجعلْ هَذَا بلَدا آمنا وارزق أَهلَه من الثمرات من آمن منهم بِاللّـه والْيومِ الآخرِ}[3]. وقوله تعالى {قُلْ إِن ربي يبسطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقْدر لَه ومـا أَنفَقْتم من شيءٍ فَهو يخلفُه وهو خير الرازقين}[4]. وقوله تعالى {الشـيطَانُ يعـدكُم الْفَقْـر ويأْمركُم بِالْفَحشاء واللّه يعدكُم مغفرةً منه وفَضلاً واللّه واسع عليم}[5]. وقوله تعـالى {مـن عملَ صالحا من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمن فَلَنحيينه حياةً طَيبةً ولَنجزِينهم أَجرهم بِأَحسـنِ مـا كَانواْ يعملُونَ}[6]. وقوله تعالى {وإِذْ تأَذنَ ربكُم لَئن شكَرتم لأَزِيدنكُم ولَئن كَفَرتم إِن عذَابِي عذَابِي لَشديد}[7]. وقوله تعالى {فَكُلُواْ مما رزقَكُم اللّه حلالاً طَيبا واشكُرواْ نِعمت اللّـه إِن كُنتم إِياه تعبدونَ}[8]. وقوله تعالى {فَبِظُلْمٍ من الذين هادواْ حرمنا علَيهم طَيبات أُحلت لَهـم وبِصدهم عن سبِيلِ اللّه كَثيرا}[9]. وقوله تعالى {يا بنِي إِسرائيلَ قَد أَنجَينـاكُم مـن عـدوكُم وواعدناكُم جانِب الطورِ الْأَيمن ونزلْنا علَيكُم الْمن والسلْوى ـ كُلُوا من طَيبات ما رزقْناكُم ولَا تطْغوا فيه فَيحل علَيكُم غَضبِي ومن يحللْ علَيه غَضبِي فَقَد هوى}[10]. وغيرها من الآيات التي تضمنها البحث .

---

(1) سورة هود / 52 .
(2) سورة نوح / 10 ـ 12 .
(3) سورة البقرة / 126 .
(4) سورة سبأ / 39 .
(5) سورة البقرة / 268 .
(6) سورة النحل / 97 .
(7) سورة إبراهيم / 7 .
(8) سورة النحل / 114 .
(9) سورة النساء / 160 .
(10) سورة طه / 80 ـ 81 .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة . وعرضت في هذا الفصل بعض النماذج القرآنية التي تحققت فيها سنة التغيير في الغنى والفقر والرزق .

5/ الفصل الخامس : سنة التغيير في السعادة والرخاء والشقاوة والشدة . ويتضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة . وبينت فيه تعريف السعادة والشقاوة لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة بهذه السنة . وبينت فيه الآيات التي تناولت هذه السنة عن طريق عرض أسباب السعادة والشقاوة ، ومنها :

قوله تعالى {الذين آمنواْ وتطْمئن قُلُوبهم بِذكْرِ اللّه أَلاَ بِذكْرِ اللّه تطْمئن الْقُلُوب ـ الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات طُوبى لَهم وحسن مآبٍ}[1]. وقوله تعالى {من عملَ صالحا من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمن فَلَنحيِينه حياةً طَيبةً ولَنجزِينهم أَجرهم بِأَحسنِ ما كَانواْ يعملُونَ}[2]. وقوله تعالى {ولاَ يزالُ الذين كَفَرواْ تصيبهم بِما صنعواْ قَارِعةٌ أَو تحل قَرِيبا من دارِهم حتى يأْتي وعد اللّه إِن اللّه لاَ يخلف الْميعاد}[3]. وقوله تعالى {قَالَ اهبِطَا منها جميعا بعضكُم لبعضٍ عدو فَإِما يأْتينكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى}[4]. وقوله تعالى {ولَو أَن أَهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنا علَيهِم بركَات من السماء والأَرضِ ولَكن كَذبواْ فَأَخذْناهم بِما كَانواْ يكْسِبونَ}[5]. وقوله تعالى{ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب}[6] وقوله تعالى {ومن يتقِ الله يجعل له من أمرِه يسرا}[7] . وقوله تعالى {ويا قَومِ استغفرواْ ربكُم ثُم توبواْ إِلَيه يرسلِ السماء علَيكُم مدرارا ويزِدكُم قُوةً إِلَى قُوتكُم ولاَ تتولَّواْ

---

(1) سورة الرعد / 28 ـ 29 .
(2) سورة النحل / 97 .
(3) سورة الرعد / 31 .
(4) سورة طه / 123 .
(5) سورة الأعراف / 96 .
(6) سورة الطلاق / 2 ـ 3 .
(7) سورة الطلاق / 4 .

مجرمين}[1]. وقوله تعالى {ولَو أنهم أقَاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إلَيهم من ربهم لأكَلُوا من فَوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أُمةٌ مقْتصدةٌ وكَثير منهم ساء ما يعملُونَ}[2]. وقوله تعالى {ومن أعرض عن ذكْرِي فَإِن لَه معيشةً ضنكًا ونحشره يوم الْقيامة أعمى}[3]. وقوله تعالى {لنفْتنهم فيه ومن يعرِض عن ذكْرِ ربه يسلُكْه عذَابا صعدا}[4]. وقوله تعالى {فَلْيحذَرِ الذين يخالفُونَ عن أمرِه أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذَاب أليم}[5]. وقوله تعالى {وما أَصابكُم من مصيبة فَبِما كَسبت أيديكُم ويعفُو عن كَثيرٍ}[6]. وقوله تعالى {وأن احكُم بينهم بِمآ أَنزلَ اللّه ولاَ تتبِع أهواءهم واحذَرهم أن يفْتنوك عن بعضِ ما أَنزلَ اللّه إلَيك فَإِن تولوا فَاعلَم أنما يرِيد اللّه أن يصيبهم بِبعضِ ذُنوبِهِم وإِن كَثيرا من الناسِ لَفَاسقُونَ}[7]. وقوله تعالى {واضرِب لَهم مثَلًا رجلَينِ جعلْنا لأحدهما جنتينِ من أعنابٍ وحفَفْناهما بِنخلٍ ..}إلى قوله {وأُحيطَ بِثَمرِه فَأَصبح يقَلب كَفيه علَى ما أَنفَق فيها وهي خاوِيةٌ علَى عروشها ويقُولُ يا لَيتنِي لَم أُشرِك بِربي أحدا}[8]. وغيرها من الآيات التي تضمنها البحث .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة . وعرضت في هذا الفصل بعض النماذج القرآنية التي تحققت فيها سنة التغيير في السعادة والرخاء والشقاوة والشدة .

❁ **الخاتمة** :- وتتضمن أهم النتائج والمقترحات التي ينتهي إليها الباحث .

❁ وأ يت البحث بذكر فهارس عامة للرسالة تسهل للقارئ الوصول إلى ما يريد كفهارس الآيات وفهارس الأحاديث وفهارس الآثار وفهارس الأعلام والفهرس العام للبحث .

---

(1) سورة هود / 52 .
(2) سورة المائدة / 66 .
(3) سورة طه / 124 .
(4) سورة الجن / 17 .
(5) سورة النور / 63 .
(6) سورة الشورى / 30 .
(7) سورة المائدة / 49 .
(8) سورة الكهف / 32 ـ 42 .

❁ أما عن منهجي في البحث فلقد جمعت ما يتعلق بالسنة الواحدة من الآيات مستنبطاً العلاقة بين هذه السنة والآيات المندرجة تحتها ، مسترشداً في ذلك بأقوال أهل العلم والاختصاص بحيث أخلص من هذه الدراسة إلى تقرير السنة وطبيعتها وأسبا ا ونتائجها وأثرهـا علـى الأفـراد والجماعات . هذا وقد راعيت عند كتابتي للبحث الأمور التالية :

1 ـ عزو الآيات إلى مواضعها من المصحف الشريف بذكر رقم الآية واسم السورة .

2 ـ تخريج الأحاديث الواردة في البحث تخريجاً مختصراً ؛ أقتصر فيه على عـزو الحـديث إلى موضعه ، فإن ورد الحديث في صحيحي البخاري ومسلم اكتفيت بذكر رقمه فيهما ورقم الجزء والصفحة ، وإن ورد في أحدهما اكتفيت أيضاً بذكر رقمه ورقم الجزء والصفحة ، وإن ورد في غيرهما ذكرت ما تيسر لي الوقوف عليه مبيناً اسم الكتاب الوارد فيه ورقمـه ورقـم الجـزء والصفحة موضحاً حاله من حيث الصحة والضعف مستعيناً في ذلك بأحكام أهل الشـأن مـا استطعت إلى ذلك سبيلا .

3 ـ الالتزام بالتوثيق العلمي لما أورده في البحث بذكر اسم المرجع أو المصدر بالجزء والصفحة.

4 ـ أزود البحث بالكشافات التي تعين على الوصول إلى معلومة ما في البحث ومـن ذلـك : كشاف الآيات وكشاف الأحاديث وكشاف الآثار وكشاف الأعلام وغيرها .

5 ـ أزود البحث بفهرس للمصادر والمراجع وفهرس عام للبحث .

وفي ختام هذا البحث أتقدم بجزيل الشكر والامتنان والعرفان لمن أسـدى إلي النصـح وشملني بالتوجيه ، فأفدت من علمه الغزير وروحه الأبوية التي غمرني ا ، فوجهني وأرشـدني وبذل معي جهداً مشكوراً طوال فترة الإشراف إلى أن تمكنت بفضل الله ثم بحسن توجيهه مـن إخراج عملي على هذه الصورة . فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور / محمد بن عمـر بـازمول . ومهما قلت فلن أُوفيه حقه ، ولا أستطيع أنْ أقولَ لـه شيئاً إلا جزاك الله عني خير الجـزاء ، ونور الله دربك ، وسدد خطاك .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للمناقشين الفاضلين : الشيخ الدكتور / سليمان بن صـادق البيرة وفضيلة الشيخ الدكتور / محمد عبد المولى جمعة ـ سلمهما الله ورعاهمـا ـ لتفضـلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة . فأسأل الله أن يجزيهما خير الجزاء إنه سميع مجيب .

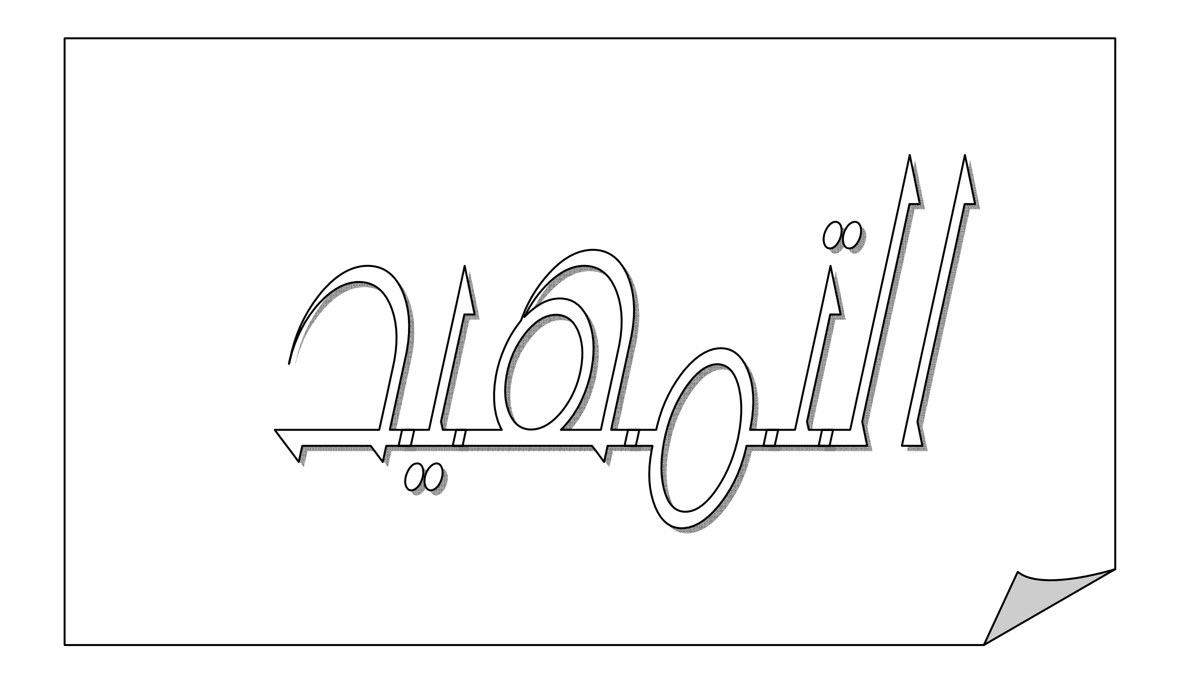
ثم لا أنسى والدي العزيز ، الذي ثابر على تشجيعي في بحثي كثيراً ، وكان دائماً يحثني على العمل الجاد ؛ ووالدتي الكريمة التي تمطرني دائماً بوابلٍ من الدعوات التي كان لها الأثر الكبير على مسيرتي التعليمية ، ثم زوجتي الحبيبة التي ما فتئت تساعدني بما تستطيع وكانت عوناً لي - بعد الله – في إتمام بحثي ، فجزاهم الله عني خير الجزاء .

كما أسجل شكري وتقديري للجهود الكريمة التي تبذلها جامعة أم القرى عامة ، وكلية الدعوة وأصول الدين خاصة ، لتيسير العلم أمام طلابه ، فجزاهم الله خيراً .

والشكر موصول إلى كلية المعلمين بالقنفذة ـ وأخص قسم الدراسات القرآنية ـ ا ـ وعلى رأسهم الدكتور / أسامة أحمد مؤمن رئيس قسم الدراسات القرآنية الذي ما فتئ يشجعني ويذلل لي ما أجده من صعوبات حتى أتم الله علي نعمة إتمام هذا البحث .

ولا يفوتني تسجيل شكري ودعائي لجميع أساتذتي ومشايخي الذين أفـادوني كـثيراً ، ولإخواني وأخواتي وجميع زملائي وأصدقائي ، وكل من أعانني في هذا البحث سـواءً بتقـديم نصيحة ومشورة أو إبداء تشجيع وتحفيز ، فلهم مني كل شكر وتقدير وجزاهم الله عني كـل خير .

وبعد ، فهذا عملي بين أيديكم ؛ عمله إنسان ، من طَبعه الخطأ والنسيان ، فإنْ كان ثم صواب فهو من الرحمن ، وإنْ كان غير ذلك فعذراً على ماكان ، وأسأله سبحانه وتعالى العفو والغفران ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، والله أسأل أن يرزقني الإخلاص والقبـول في القـول والعمل ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



ويتضمن التعريف بموضوع البحث وذلك حسبما يلي :-

أولا :- تعريف السنن الإلهية

ثانيا :- المراد بتغيير المجتمعات

التمهيد :

أولاً : تعريف السنن الإلهية .

❁ تعريف السنة لغة :

السنن: جمع سنة ، والسنن ـ بفتح السين وتشديدها ـ تعني: ج الطريق ، وسنة الكتاب منهجه وطريقته التي كتب ا ، وسنن ـ بفتح السين والنون دون تشديدهما ـ هي ظهر الخيل ، وتقول العرب : تنحى الرجل عن سنن الخيل أي نزل عن ظهرها .

وسنن ـ بكسر السين دون تشديدها ـ تعني السكة التي يحرث ا في الأرض . كما تعني سنن ـ بكسر السين دون تشديدها ـ الغفلة والنعاس كما في قوله تعالى {لاَ تَأْخُذُه سنةٌ ولاَ نوم له ما في السماوات وما في الأَرضِ} [1] . والسنن ـ بضم السين وتشديدها ـ لها معان منها : السنة بمعنى الفهدة والدبة ودائرة الوجه [2] .

وللكلمة أصل صحيح ذه المعاني كلها وغيرها في كلام العرب والقرآن الكريم ، ومن ذلك الدوام والثبات على الأمر ، كما في قولهم : سن الماء ؛ إذا داوم على صبه ، وسن الإبل : بمعنى داوم على رعيها والإحسان إليها ، وسن النصل : إذا صقلها وحدها [3] .

والسنة في الأصل هي الطريقة والسيرة [4] ، سواء كانت مرضية أو غير مرضية [1] . ومنه قول النبي ﷺ (من سن سنة حسنة) [2] ؛ أي طرق طريقة حسنة [3] .

---

(1) سورة البقرة / 255 .

(2) انظر : المثلث لابن السيد البطليموسي مادة (سنن) .

(3) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين لعبد الرؤوف شلبي / 2 .

(4) لسان العرب لابن منظور (13 / 225) ، مختار الصحاح للرازي (1 / 133) ، النهاية في غريب الحديث والأثر والأثر لابن الأثير (2 / 1022) ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (3 / 267) .

وسنة النبي ﷺ طريقته التي كان يتحراها ، وسنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته نحو {سنةَ الله التي قَد خلَت من قَبلُ ولَن تجِد لسنة الله تبديلًا}[4]، و{ لَن تجِد لسنت الله تحويلًا }[5]. فنبه على أن وجوه الشرائع وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود لا يختلف ولا يتبدل وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره[6]. والسنة من الله : حكمه وأمره و يه [7]، وسنها الله للناس: بينها ، وسن الله سنة أي بين طريقاً قويماً[8].

ويعرف ابن تيمية رحمه الله السنة فيقول : السنة هي العادة في الأشياء المتماثلة ، ولفظ السنة يدل على التماثل فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول ، بل هو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين ، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل، وأنه سبحانه يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله تعالى {أَفَنجعلُ الْمسلمين كَالْمجرِمين}[9]. ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار ا ، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن ، وهي كثيرة [10]. وقال في موضع آخر: والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر

---

(1) التعريفات للجرجاني (1 / 161) ، التعاريف للمناوي (1 / 415) .

(2) أخرجه مسلم (4 / 2059) كتاب العلم ـ باب من سن سنة حسنة أو سيئة ـ رقم الحديث (1017) .

(3) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (3 / 267) .

(4) سورة الفتح / 23 .

(5) سورة فاطر / 43 .

(6) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (1 / 245) .

(7) القاموس المحيط للفيروز آبادي (1 / 1558) ، لسان العرب (13 / 225) .

(8) لسان العرب (13 / 225) .

(9) سورة القلم / 35 .

(10) رسالة في لفظ السنة في القرآن ـ ضمن كتاب : جامع الرسائل لابن تيمية (1 / 55) .

سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَد كَانَ في قَصصهم عبرةٌ لأُولي الأَلْبَابِ}[1]، والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه [2] .

ولقد جاءت كلمة (سنة) في القرآن الكريم عادة بمعنى ما بين الله للإنسانية من طرق واتجاهات الأمم السابقة التي جعلها الله قوانين ثابتة في البشر والوجود كله ، دون أن تتغير هذه القوانين أو تتبدل ، كما قال تعالى {فَانظُر إِلَى طَعَامك وشرابِك لَم يتسنه}[3]. أي :لم يتغير [4] .

---

(1) سورة يوسف / 111 .

(2) مجموع الفتاوى لابن تيمية (13 / 20) .

(3) سورة البقرة / 259 .

(4) انظر : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس / 37 .

❁ تعريف السنة اصطلاحاً :

وبمجيء الإسلام وازدهار العلوم الإسلامية التي قامت حول القرآن ، نظر العلماء إلى لفظ أو كلمة (سنة) كمصطلح من خلال اختصاصهم واهتمامهم .

فالسنة عند المحدثين: تطلق على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو صفة خُلُقية راجعة إلى طبائعه النفسية في حالة الرضا والغضب،سواءً كانت قبل البعثة أو بعدها، وزاد بعضهم : أو إشارة منه أو ما هم به . و ذا ترادف السنة الحديث في المضمون وال لة [1].

والسنة القولية هي : الأحاديث التي قالها عليه الصلاة والسلام في مختلف الأغراض والمناسبات ؛ كخطبة الجمعة والأعياد وتوجيهاته بالتربية والإرشاد وتعليم أمور الدين . والسنة الفعلية هي : أفعاله وكيفية القيام ا كأدائه للصلاة والحج في الأفعال والأقوال وجميع الحركات .

والسنة التقريرية هي : ما أقَرّ صحابته عليه من أقوال وأفعال بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه ، مثل ما روي عن الصحابيين اللذين خرجا في سفر فحضر ما الصلاة ولم يجدا ماءً ، فتيمما وصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما الصلاة ولم يعدها الآخر ، فلما قصا أمرهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر كلاً منهما على ما فعل ، فقال عليه الصلاة والسلام للذي لم يعد الصلاة (أصبت السنة وأجزأتك صلاتك) وقال للذي أعاد صلاته (لك الأجر) مرتين [2] .

---

(1) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لمصطفى السباعي / 47 .

(2) أخرجه أبو داود (1 / 146) رقم الحديث 338 ، وأخرجه النسائي (1 / 213) رقم الحديث 433 بلفظ (أما أنت فلك مثل سهم جمع) ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 286) رقم الحديث 632 وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . وقال الألباني عنه : صحيح في كتابه صحيح أبي داود (1 / 69) رقم الحديث 327 .

وتقابل السنة عند أهل الحديث البدعة ، وهي ما لم يكن عليه المسلمون في عهد النبوة والراشدين ، أي ما استحدث في الدين في القرون التالية ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) (1) .

كما ورد هذا اللفظ كثيراً في كلام رسول الله ﷺ وأريد به الطريقة ، سواء طريقته العملية أو القولية ، وفي كل تشريع منه عليه الصلاة والسلام للمسلمين لكي يتعلموا أمور دينهم ودنياهم ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً) (2) (3).

والسنة من حيث النظرة التشريعية العملية والتقريرية منفصلة عن الحديث الذي هو السنة القولية ، أما من حيث العمل والدلالة التشريعية فيتفقان . ولعل الدليل على ذلك هو أن مجاميع الحديث تعنونُ باسم (السنن) كسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه ... وهي مجاميع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لأحاديثه فقط (4) .

كما أصبحت السنة هي المصطلح المأثور الذي يطلق على آراء أهل السنة والجماعة الذين ينأون عن الانحراف العقيدي ويحاربون البدع . واستعمل المصطلح بهذا المعنى مقابلاً لمصطلح (الشيعة) . وانقسام المسلمين إلى سنة وشيعة أمر معروف في الفكر الإسلامي والغربي على السواء .

---

(1) أخرجه أبو داود (2 / 610) رقم 4607 وصححه الألباني ، وأخرجه أحمد في مسنده (4/ 126) رقم 17184 قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح ورجاله ثقات ، وأخرجه النسائي في سننه الكبرى (1 / 550) رقم 1786 (3 / 449) رقم 5892 . وأخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 176) رقم 332 . وأخرجه ابن ماجه في سننه (1 / 18) رقم 46، وأخرجه ابن حبان (1 / 178 ـ 179) رقم 5 .

(2) سبق تخريجه في صفحة 2 / حاشية 6 .

(3) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين / 22 .

(4) دائرة المعارف الإسلامية مادة : سنة .

ونجد في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى أهمية سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك قوله تعالى {والنجمِ إذَا هوى ـ ما ضل صاحبكُم وما غَوى ـ وما ينطق عنِ الْهوى} [1]، وقوله {وما آتاكُم الرسولُ فَخذُوه وما نهاكُم عنه فَانتهوا واتقُوا الله إن الله شديد الْعقَابِ} [2].

أما السنة عند الفقهاء فترد بمعان كثيرة على حسب استعمالها في فروع الفقه ، ففي العبادات ترد في مقابل الفروض أو الفرائض فيقولون : فرائض الصلاة وسننها وفرائض الصوم والحج وسننهما وهكذا ، ويريدون بالسنة في أحكام الطلاق ما قابل البدعة فيقولون : طلاق سني وهو ما كان في طهر لم يمسها فيه وطلاق بدعي وهو ما كان على غير ما عليه السني .

كما تنقسم السنة عند الفقهاء إلى عدة أقسام أخرى : فهي من جهة تنقسم إلى سنة هدى وسنة زوائد ، فما فعله عليه الصلاة والسلام على سبيل العبادة فهي سنة هدى ، وما فعله على سبيل العادة فهي سنة زوائد . ومن جهة ثانية تنقسم إلى سنة مؤكدة وسنة غير مؤكدة أو خفيفة .

كما تعني السنة عند الفقهاء بأ ا عمل يرجح ويستحسن فعله على تركه ، فهي صفة لفعل المكلف كالحرام والفرض والمكروه بما ثبت عن طريق فعل النبي ﷺ ، وتعتبر وحياً من الله على أرجح الأقوال، والدليل قوله تعالى {وما ينطق عنِ الْهوى ـ إنْ هو إلا وحي يوحى}[3] . وإن لم نؤمر بكتابته وتلاوته ، كما أن الله لم يتول حفظه بنفسه كما هو الأمر في القرآن [4].

أما السنة في التشريع الإسلامي فهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في إثبات الأحكام الشرعية وهي ثلاثة أقسام أيضاً : فعلية وقولية وتقريرية وهذا على أرجح الآراء .

---

(1) سورة النجم / 1 ـ 3 .

(2) سورة الحشر / 7 .

(3) سورة النجم / 3 ـ 4 .

(4) البحث المقدم من الأستاذ مصطفى كمال ـ من تونس ـ إلى ملتقى السنة بالجزائر 1402هـ 1982م/ صـ : 9 .

ولقد اهتم علماء الإسلام في مختلف العصور بالسنة قدر اهتمامهم بالقرآن الكريم ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يترقبون النبي صلى الله عليه وسلم عند مشيه وقعوده ونومه ويقظته وأكله وشربه وركوبه الخيل وعبادته واستغفاره ، لأن كل ما صدر منه صلى الله عليه وسلم فهو تشريع على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحسان . ولقد دون علماء الإسلام وخدام السنة هذه الأشياء وصنفوا أحكامها من حيث نسبتها إلى القرآن الكريم من جهة الاستدلال والاحتجاج ، فما لم ينص عليه القرآن حكّمت فيه السنة ، وفي هذه الحالة لا تعد السنة مع القرآن إلا واحدة من ثلاث :

" أحدها أن تكون موافقة له من كل وجه فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظافرها .

الثاني أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيرا له .

الثالث أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه ولا تخرج عن هذه الأقسام . فلا تعارض السنة القرآن بوجه ما ، فما كان منها زائدا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، وليس هذا تقديما لها على كتاب الله بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ﷺ ، ولو كان رسول الله ﷺ لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه ؛لم يكن له طاعة خاصة تختص به ، وقد قال الله تعالى {من يطعِ الرسولَ فَقَد أطَاع اللّه} [(1)] . فلو ساغ لنا رد كل سنة زائدة كانت على نص القرآن لبطلت سنن رسول الله ﷺ كلها إلا سنة دل عليها القرآن ، وهذا هو الذي أخبر النبي ﷺ بأنه سيقع ولابد من وقوع خبره " [(2)] .

" والسنة في الفكر هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله وتتحرك بمقتضاها الحياة . وتحكم جزئيا ا ومفردا ا فلا يشذّ عنها مخلوق ، وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها

---

(1) سورة النساء / 80 .

(2) انظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (2 / 307 ـ 309) .

قانون وسنة . فكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات له قانون ، وما من كوكب أو نجم إلا وله قانون لا إرادي أو لا ذاتي يسير وفقه . وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقْلَة حضارية إلا ولها قانون أيضاً يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها . وسلبت الإرادة من كل الكائنات المخلوقة إلا الإنسان ؛ ولذلك كان هو وحده المطالب بالبحث عن هذه السنن ومعرفتها في الحياة المبثوثة فيها بمثابة الأسرار والألغاز للاضطلاع بإعمار الأرض وأعباء الاستخلاف " [1] .

والسنن من حيث هي قانون رباني في الوجود متاحة لكل إنسان ولا تتبع عقيدة أحد من البشر ، أمؤمن هو أم ملحد ؟ إلا ما كان من السنن الخاصة بالمؤمنين أو الكافرين . وإنما السنن هي قانون الله العادل في الخلق المؤثر في حياة الناس ، لا يحابي أحداً . ويعز الله الأمم حين تأخذ بسنن العزة والتمكين ، ويذيقها من جزاء ما عملت حين تركن إلى الباطل والهوان ، وهذا هو المشاهد في تاريخ الأمم . ولعل من ذلك الأمة الإسلامية التي أنعم الله عليها بالتمكين والاستخلاف والتأمين وفتح عليها بركات من السماء والأرض كما وعدها خلال فترة من التاريخ . ويوم أن تخلت عن السنن التي وصلت ا إلى هذا المقام تغير حالها من الاستخلاف والتأمين إلى الضعف والهوان ، وصارت إلى الصورة التي هي عليها الآن [2] .

وباستقراء آيات القرآن المبنية على الحكمة والتصرف المطلق للإرادة الإلهية نجد أن لله عز وجل في خلقه قسمين من السنن :

أولهما : السنن الكونية ـ والتي يعبر عنها بالإرادة القدرية الخلقية الكونية ـ وهي :

الإرادة والمشيئة المستلزمة لوقوع المراد [3] ، الشاملة لجميع الموجودات [4] ، التي يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . قال تعالى {ولَوْلَا إِذْ دخلْت جنتك قُلْت ما شاء

---

(1) انظر : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها لمحمد هيشور / 27 .

(2) انظر : مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب / 10 .

(3) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 187) .

(4) انظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (1 / 113) .

الله لَا قُوةَ إِلا بِالله إِن ترن أَنا أَقَل منك مالًا وولَدا} [1] وقال تعالى {فَمن يرِد اللّه أَن يهديه يشرح صدره للإِسلاَمِ ومن يرِد أَن يضله يجعلْ صدره ضيقًا حرجا كَأَنما يصعد في السماء كَذَلك يجعلُ اللّه الرجس علَى الذين لاَ يؤمنونَ} [2] وقال تعالى {ولاَ ينفَعكُم نصحي إِنْ أَردت أَنْ أَنصح لَكُم إِن كَانَ اللّه يرِيد أَن يغوِيكُم هو ربكُم وإِلَيه ترجعونَ} [3] وقال تعالى {ولَكن اللّه يفْعلُ ما يرِيد} [4] وأمثال ذلك . وهذه الإرادة متضمنة لما وقع دون ما لم يقع . وقد يكون الشيء مراداً لله غير محبوب ؛ بل أراده لإفضائه إلى وجود ما هو محبوب له ، أو لكونه شرطاً في وجود ما هو محبوب له [5] .

وثانيهما : السنن الشرعية ـ والتي يعبر عنها بالإرادة الدينية الأمرية الشرعية ـ وهي :

الإرادة المتضمنة للمحبة والرضى [6] وهي محبة المراد ورضاه ، ومحبة أهله والرضا عنهم ومجازا م بالحسنى [7] . فهو مراد إرادة شرعية دينية متضمنة أنه يحب ما أمر به ويرضاه [8] . وهذا كقوله تعالى { يرِيد اللّه بِكُم الْيسر ولاَ يرِيد بِكُم الْعسر} [9] وقوله تعالى {يرِيد اللّه ليبين لَكُم ويهديكُم سنن الذين من قَبلكُم ويتوب علَيكُم واللّه عليم حكيم ـ واللّه يرِيد أَن يتوب علَيكُم ويرِيد الذين يتبِعونَ الشهوات أَن تميلُواْ ميلاً عظيما ـ يرِيد اللّه أَن يخفف عنكُم وخلق الإِنسانُ ضعيفًا} [10] وقال تعالى {ما يرِيد اللّه ليجعلَ علَيكُم من حرجٍ ولَكن يرِيد

---

(1) سورة الكهف / 39 .

(2) سورة الأنعام / 125 .

(3) سورة هود / 34 .

(4) سورة البقرة / 253 .

(5) انظر : منهاج السنة النبوية (5 / 412 ـ 413) .

(6) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (1 / 113) .

(7) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 187 ـ 190) .

(8) انظر : منهاج السنة النبوية (5 / 412 ـ 413) .

(9) سورة البقرة / 185 .

(10) سورة النساء / 26 ـ 28 .

ليطَهركُم وليتم نِعمته علَيكُم لَعلكُم تشكُرونَ} [1] وقال تعالى {إنما يريد الله ليذْهب عنكُم الرجس أَهلَ الْبيت ويطَهركُم تطْهيرا} [2] . وهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة [3] .

" وبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق يجتمعان في حق المخلص المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي " [4].

"والله تبارك وتعالى إنما شاء العبادة من جميع عباده وأرادها و قضاها عليهم في الشرع لا في الكون ، فمن أطاع أمره و أتى بما أراده وشاءه منه فله رضاه و الجنة ، ومن خالف في ذلك فله سخطه و النار. ولو شاء الله تعالى من جميعهم العبادة وأرادها في الكون لم يكن لهم بد من ذلك ولم يكن لأحد إلى معصية الله تعالى من سبيل ولا يخرج عن قضائه تعالى و قدره شيء من المخلوقات مثقال ذرة ، فإنه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا مضاد لأمره ولا ناقض لما أبرمه ولا دافع لما قدره ، وهذه المشيئة منه للعبادة من عباده شرعا عامة لمؤمنهم و كافرهم ، وأما مشيئته للعبادة الكونية القدرية فخاصة للمؤمنين فلهذا اتفقت فيهم المشيئتان فوافقوا المشيئة الشرعية لما سبق لهم في المشيئة القدرية الكونية ، وأما الكافر فلم يوافق المشيئة الشرعية لما سبق عليه في المشيئة القدرية من الشقاوة فتبين ذا أن المشيئة الكونية القدرية لا خروج لأحد منها ولا محيد له عنها ، سواء سبقت له بالشقاوة أو السعادة ، وأما المشيئة الشرعية فمن كان سبق له في القدرية أنه يوافقها كان كذلك أو يخالف كان كذلك" [5] "ولهذا كانت الأقسام أربعة : أحدها : ما تعلقت به الإرادتان و هو ما وقع فى الوجود من الأعمال الصالحة فإن الله أراده إرادة دين و شرع فأمر به و أحبه و رضيه و أراده إرادة كون فوقع و لولا ذلك لما كان .

---

(1) سورة المائدة / 6 .

(2) سورة الأحزاب / 33 .

(3) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 187 ـ 190) .

(4) انظر : فتح ا يد شرح كتاب التوحيد (1 / 14) .

(5) انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول للحكمي (1 / 83 ـ 84) .

والثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط و هو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار و الفجار فتلك كلها إرادة دين و هو يحبها و يرضاها لو وقعت ولو لم تقع .
والثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط و هو ما قدره و شاءه من الحوادث التى لم يأمر ا كالمباحات و المعاصي ، فإنه لم يأمر ا ولم يرضها ولم يحبها ؛ إذ هو لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت ، فإنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن .
والرابع : مالم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه ، فهذا مالم يكن من أنواع المباحات والمعاصي [1].
" والذي عليه الأئمة المحققون ودل عليه الكتاب والسنة أن المشيئة والمحبة ليستا واحدا ولا هما متلازمان ، بل قد يشاء ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه ، فالأول : كمشيئته وجود إبليس وجنوده ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه . والثاني : كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين . ولو شاء ذلك لوجد كله فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن " [2] .
" وهذا التقسيم الوارد في اسم الإرادة يرد مثله في اسم الأمر والكلمـات والحكـم والقضـاء والكتاب والبعث والإرسال ونحوه ، فإن هذا كله ينقسم إلى كوني قدري وإلى ديني شرعي [3].

وبالجملة فمعاني (العادة والطريقة والدوام والسنة) متقاربة إن لم تكن متحدة . وهذا ما جعل بعض المفسرين يشرحون السنة بالعادة . قال ابن عطية رحمه الله في تفسير قوله تعالى{سنةَ من قَد أَرسلْنا قَبلَك من رسلنا ولاَ تجِد لسنتنا تحوِيلاً}[4] " ومعنى الآية الإخبار أن سنة الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أ ا إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها نالها العذاب واستأصلها الهلاك فلم تلبث بعده إلا قليلا " [5] . ووافقه أبو حيان في تفسيره لهذه الآية فقال "

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 187 ـ 190) .
(2) انظر : العقيدة الواسطية لابن تيمية (1 / 22)
(3) انظر : مجموع الفتاوى (18 / 132 ـ 133) .
(4) سورة الإسراء / 77 .
(5) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (3 / 477) .

ولن تجد لما أجرينا به العادة تحويلاً منه إلى غيره إذ كل حادث له وقت معين وصفة معينة ونفي الوجدان هنا وفيما أشبهه معناه نفي الوجود " [1] . وقال الألوسي في تفسيره " والسنة في الأصل : الطريقة والعادة ، ومنها قولهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم " [2] ، وجاء فيه أيضاً عند تفسير قوله تعالى {لاَ يؤمنونَ بِهِ وقَد خلَت سنةُ الأولين }[3] " والمراد : عادة الله تعالى فيهم " [4] .

---

(1) انظر : البحر المحيط (5 / 167) .

(2) انظر : روح المعاني (4 / 65) .

(3) سورة الحجر / 13 .

(4) انظر : روح المعاني (14 / 19) .

ثانياً : المراد بـ : تغيير ا تمعات .

التغيير هو : التبديل[1] ، وهو انتقال الشيء من حالة لأخرى [2] ، وتغير الشيء عن حاله تحول ، وغيره حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان ، وفي الت يل العزيز {ذَلك بِأن اللّه لَم يك مغيرا نعمةً أنعمها علَى قَومٍ حتى يغيرواْ ما بِأنفُسِهم}[3] . قال ثعلب : معناه : حتى يبدلوا ما أمرهم الله [4] .

" والتغيير يقال على وجهين : أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال : غيرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي كان ، والثاني : لتبديله بغيره نحو : غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما نحو {إِن اللّه لاَ يغير ما بِقَومٍ حتى يغيرواْ ما بِأنفُسِهم} [5] " [6] .

" أخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم رضي الله عنه قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون إلى معصية الله إلا تحول الله مما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال : إن تصديق ذلك في كتاب الله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) " [7] .

وقال السعدي في تفسير هذه الآية " (إن الله لا يغير ما بقوم) من النعمة والإحسان ورغد العيش (حتى يغيروا ما بأنفسهم) بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية أو من شكر نعم الله إلى البطر ا فيسلبهم الله إياها عند ذلك وكذلك إذا غير العباد ما

---

(1) تفسير البيضاوي (1 / 460) ، المحرر الوجيز (2 / 114) .
(2) التعاريف للمناوي (1 / 191) .
(3) سورة الأنفال / 53 .
(4) لسان العرب (5 / 37) .
(5) سورة الرعد / 11 .
(6) المفردات في غريب القرآن (1 / 368) .
(7) الدر المنثور (4 / 617) .

بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة " أ . هـ . [1]

وتغيير الله لحالة الناس لا يكون نتيجة لتغيير جميع الناس لحالتهم فحسب ، بل قد يحصل التغيير الإلهي بسبب التغيير الحاصل من بعضهم دون بعض . قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى {إِن اللّه لاَ يغير ما بِقَومٍ حتى يغيرواْ ما بِأَنفُسِهم}[2] " أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير إما منهم أو من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم إلى غير هذا من أمثلة الشريعة فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما قال ﷺ وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون قال (نعم إذا كثر الخبث) [3] " [4].

والتغيير من الناس لا يلزم أن يكون من حالة أحسن إلى حالة أسوأ ، أو العكس ، بل قد يكون من حالة أحسن إلى حالة أحسن منها ، أو من حالة أسوأ إلى حالة أسوا منها . جاء في تفسير قوله تعالى {ذَلك بِأَن اللّه لَم يك مغيرا نعمةً أَنعمها علَى قَومٍ حتى يغيرواْ ما بِأَنفُسِهم وأَن اللّه سميع عليم} [5] " وذلك إشارة إلى ما حل بهم ـ أي مشركي مكة ـ يعني ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة ؟ قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين

---

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (1 / 414) .

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن (294/9) وانظر: فتح القدير للشوكاني (3/ 69) وأضواء البيان للشنقيطي (237/2) .

(3) أخرجه البخاري (3 / 1221) رقم الحديث 3168 ، ومسلم (4 / 2207) رقم الحديث 2880 .

(4) انظر تفسير القرطبي (9 / 294) .

(5) سورة الأنفال / 53 .

في إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب " [1] .

والتغيير لا يختص بنعمة دون غيرها بل هو شامل للنعم كلها صغرت أم كبرت . قال الألوسي في تفسير قوله تعالى (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) " أي لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أي نعمة كانت جلت أو هانت أنعم ا على قوم (من الأقوام حتى يغيروا ما بأنفسهم) أي ذوا م من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملابستهم للنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو أهون من الحالة الحادثة " [2] .

وكما أن التغيير لا يختص بنعمة دون غيرها فهو أيضاً لا يختص بقوم دون آخرين ، فهو شامل لكل الأقوام بدون تخصيص ، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، لأن المدلول العام للفظة (قوم) هو عبارة عن الجماعة من الناس [3] ، والحق سبحانه لم يخصص هذه الجماعة من الناس فتبقى اللفظة على عمومها ، كما أن لفظة (قوم) الواردة في الآية نكرة ، والنكرة تفيد العموم بأصلها ، فمتى ما حقق الناس أسباب وجود السنة الإلهية وقعت ما لم يمنعها مانع ، بغض النظر عن دينهم أو أصلهم أو أي اعتبارات أخرى . " فهذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي والطاعة والمعصية والإيمان والكفر والتوحيد والشرك ، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود الله أصاب خير السنة الربانية ، وإذا أهمل الأمر وخالفه وارتكب المنهي عنه ووقع في حدود الله أصاب شر السنة الربانية " [4] . فإذا حقق الناس العدل بينهم مثلاً ؛ وطبقوه في واقع حيا م تحقق لهم النصر والتمكين ولو كانوا كفارا ، وفي المقابل متى ما انتشر الظلم بين الناس وأصبح مسيطراً عليهم عوقبوا بالهزيمة والذل والهوان ولو كانوا مسلمين .

---

(1) الكشاف للزمخشري (2 / 218) .

(2) روح المعاني للألوسي (10 / 19) .

(3) مختار الصحاح (1 / 232) .

(4) مجلة البيان ـ العدد / 115 ـ مقال : أهمية العلم بالسنن الربانية للدكتور / محمد أمحزون ـ ص / 51 .

قال ابن تيمية رحمه الله " فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ، ولهذا يروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة "[1] .

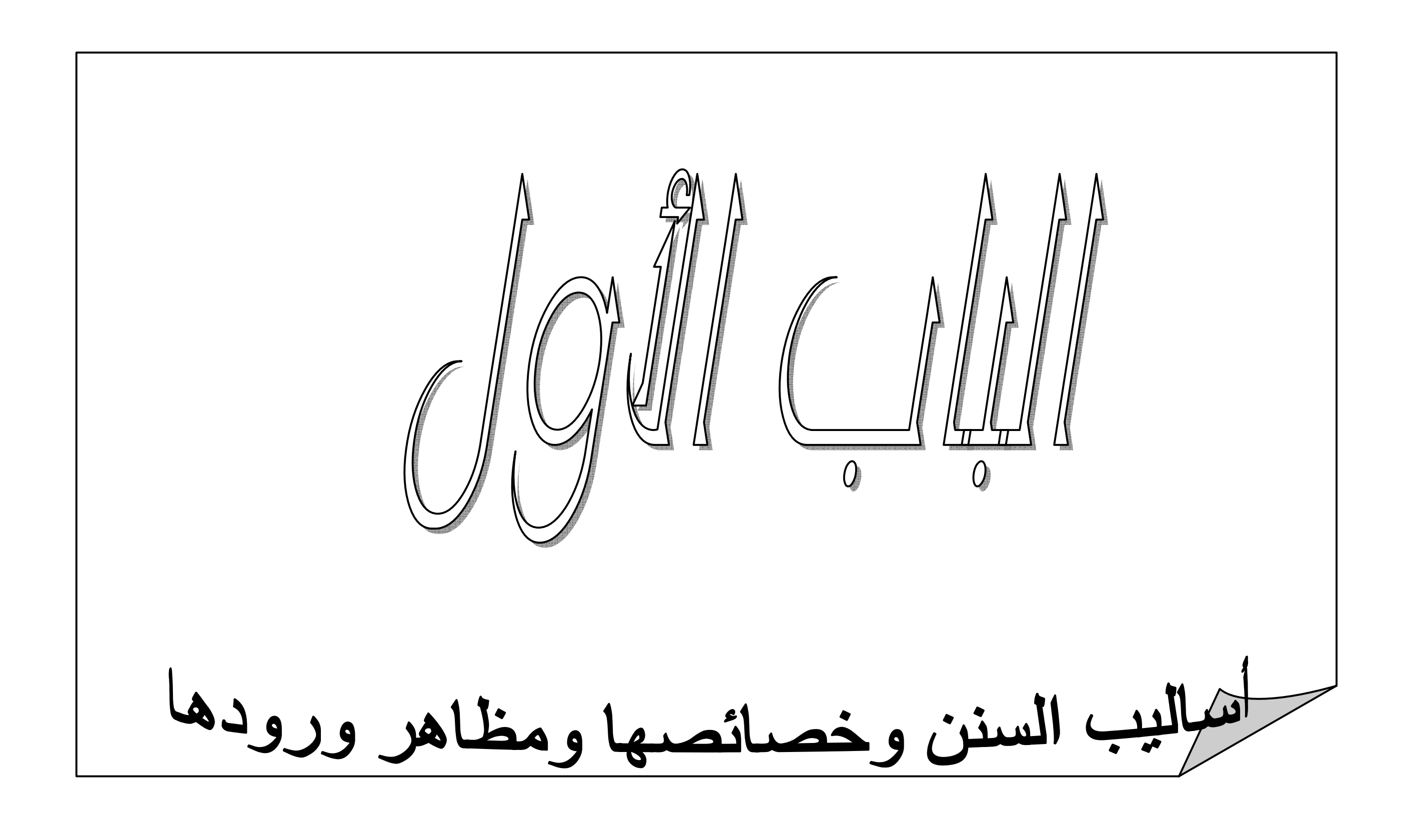
وهكذا يتبين لنا أن من سار على سنن الله من البشرية في أي جانب من جوانب الحياة فاز وظفر وإن كان ملحداً أو وثنياً مشركاً ومن حاد عنها خسر وإن كان مؤمناً موحداً .

ومما سبق يتبين لنا أن السنن الإلهية في تغيير المجتمعات هي :

القوانين الكونية التي جعلها الله تعالى في تبدل أحوال الناس وأمورهم إلى الأحسـن أو الأسـوأ بحسب ما يصدر منهم وفق علمه سبحانه وإرادته وحكمته .

---

(1) مجموع الفتاوى (28 / 63) .



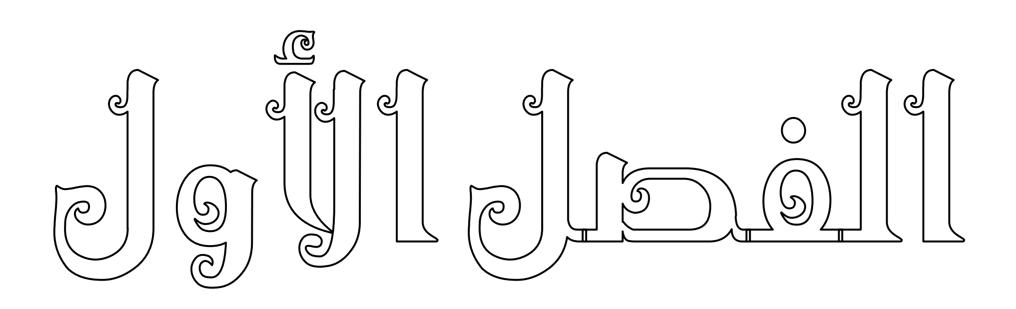
ويتضمن أربعة فصول :-

الفصل الأول :- أساليب القرآن الكريم في بيان السنن الإلهية

الفصل الثاني :- خصائص السنن الإلهية

الفصل الثالث :- مظاهر موارد السنن في القرآن الكريم

الفصل الرابع :- كيفية الاستفادة من السن في التغيير



أساليب القرآن الكريم في بيان السنن الإلهية

وقد قسمته إلى مبحثين : -

المبحث الأول : - تعريف الأساليب

المبحث الثاني : - بيان هذه الأساليب

المبحث الأول : تعريف الأساليب .

الأساليب جمع أسلوب وهو في اللغة : الطريق والوجه والمـذهب ، يقـال : أنـتم في أسلوب سوء ويجمع أساليب ، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه ، والأسلوب بالضم الفن يقـال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه ، وإن أنفه لفي أسلوب إذا كـان متكـبرا [1] . والأساليب : الفنون المختلفة [2] .

والأسلوب في الاصطلاح هو : الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامـه واختيار ألفاظه ، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده مـن كلامه ، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك [3] .

وعليه فإن المراد بأساليب القرآن العظيم في بيان السنن الإلهية :

الطرق والوجوه التي قررها القرآن الكريم القوانين الكونية التي أجرى عليها تبديل حال المجتمعات .

---

(1) انظر : لسان العرب (1 / 473) .

(2) انظر : المفردات في غريب القرآن (1 / 238) .

(3) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (2 / 218) .

المبحث الثاني : بيان هذه الأساليب .

اهتم القرآن الكريم ببيان السنن الإلهية اهتماماً عظيماً ، وتعددت أساليبه في ذلك بين الأسلوب المباشر بالتصريح بلفظ السنة تارة ، وبين الأسلوب غير المباشر تارة أخرى بحيث لا يذكر لفظ السنة نصاً ؛ وإنما يفهم من الآية دلالة وفحوى ، وذلك بترتيب نتيجة ما بناءً على شرط معين أو خبر معين ، أو بذكرها في سياق قصة معينة أو في الحديث عن شأن من شؤون الكفار أو الأمم السابقة . وبناءً على ما سبق فإن أساليب القرآن الكريم في بيان السنن الإلهية تنقسم إلى قسمين :

أولاً : الأسلوب المباشر .

ثانياً : الأسلوب غير المباشر .

القسم الأول : الأسلوب المباشر . وهو التصريح بلفظ السنة .

وقد ورد لفظ السنة في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً ، حيث ورد اللفظ مجموعـاً في موضعين في سورة آل عمران وسورة النساء ؛ وجاءت المواضع الأربعة عشر الباقية بصـيغة الإفراد . كما جاءت تسعة مواضع منها مضافةً إلى الله تعالى ، وجاءت ستة منها مضـافةً إلى الناس ، وبقي موضع واحد فقط بدون إضافة ، والمواضع الستة عشر على الترتيب هي :

1 / قوله تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }[1] أي : قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة ، بإمهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وإدالة أنبيـائي عليهم . وقوله (فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) أي آخر أمر المكذبين وهذا في حرب أحد وكأن الله عز وجل يقول : فأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلته في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم وأوليائه وإهلاك أعدائه "[2] .

2 / قوله تعالى {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْـكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[3] أي"يريد الله أن يهديكم إلى ما شرع لكم من الأحكام والآداب الموافقـة لمصالحكم المحتوية لمنافعكم وتلك سننه تعالى في الذين أنعم عليهم من الأمم السابقة[4] .

3 / قوله تعالى {قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُـودُواْ فَقَـدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ}[5] أي " قل يا محمد للذين كفروا من مشركي قومك ؛ إن ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله ، وقتالك وقتال المؤمنين ، ويثوبوا إلى الإيمان ، يغفر الله لهم ما قد خلا وما مضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسـوله بإيمـانهم

---

(1) سورة آل عمران / 137 .

(2) انظر : معالم التنزيل في التفسير والتأويل للبغوي (1 / 109) .

(3) سورة النساء / 26 .

(4) انظر : تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (5 / 36) .

(5) سورة الأنفال / 38 .

وتوبتهم . وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها م يوم بدر ، فقد مضــت سنتي في الأولين منهم ببدر ومن غيرهم من القرون الخالية ، إذ طغوا وكذبوا رسلي ، ولم يقبلوا نصحهم من إحلال عاجل النقم م ، فأحلّ ؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذين أحللت م [1] . والآية خطاب للذين كفروا في كل عصر ومصر ، والمعنى أن الفرصة أمام أهل الكفــر سانحة لينتهوا عما هم فيه من تجمع وتحزب لمحاربة أهل الحق والإيمان . وفي الآية ما يشبه الإنذار والوعيد . والنذر سنة من سنن الله تسبق التعذيب والهلاك ، وتأتي بعد التبليغ والنصح [2] .

4 / قوله تعالى {ولَقَد أرسلْنا من قَبلك في شيعِ الأَولين ـ وما يأْتيهم من رســولٍ إلا كَانواْ بِه يستهزِؤونَ ـ كَذَلك نسلُكُه في قُلُوبِ الْمجرِمين ـ لاَ يؤمنونَ بِه وقَد خلَت ســنةُ الأَولين } [3] . يخبرنا الله عز وجل في هذه الآيات أن رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لــيس بدعاً من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والسخرية والمعارضة من ا رمين المتكبرين وغيرهم مــن طوائف الباطل ولكن هذه سنة معروفة وموقف متكرر في الرسالات ، وهي ظاهرة من الظواهر المرضية في هؤلاء المنحرفين والمفسدين الذين واجهوا أهل الحق ، ولا ينقصهم الدليل والبرهان ، ولكنه العناد والتكبر الصادر عن الأمراض النفسية المانع من اتباع الحق والتزام الطاعــة طريقــة ومنهجاً في الحياة . وكثيراً ما يكون أهل الجهل أقوى من غيرهم في التمسك بباطلهم حتى ولو علموا ما صار إليه نظراؤهم وأقرا م السابقون ، لأن الجهل يعمي عن رؤية الحق . ولقد شهد التاريخ بوجود هذه الظواهر والحالات في الأمم الماضية ، وظهرت آثارها في حقــب التــاريخ التالية ، فكانت عوامل هدم وتخريب وأسباب تدهور وانحطاط حرمت أمماً من نيل رضــا الله ، والوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة . ومعنى قوله (كذلك نسلكه في قلوب ا رمين) أي " نسلكه في قلو م مكذباً بما فيه مستهزأً به ، لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هــذا

(1) انظر : جامع البيان للطبري (6 / 244) .
(2) انظر : تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب (3 / 1508) .
(3) سورة الحجر / 11 ـ 13 .

النحو ، سواء في هذا الجيل أم في الأجيال اللاحقة ، فالمكذبون أمة واحدة ومن طينة واحـدة ، وتمضي م سنة واحدة من الإضلال وعدم الهداية " [1] .

5 / قوله تعالى {وإن كادواْ ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منهـا وإذًا لا يلْبثُـونَ خلافَك إلا قَليلاً ـ سنةَ من قَد أرسلْنا قَبلَك من رسلنا ولاَ تجِد لسنتنا تحوِيلاً}[2] . الاستفزاز : الحمل على الترحل . ومعنى الآية " الإخبار أن سنة الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أ ـا إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها نالها العذاب واستأصلها الهلاك فلم تلبث بعده إلا قلـيلا " [3] ، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق الانتقام المادي المباشر والكون تدبره سنة الله المطردة الـتي لا تتحول أمام أي اعتبار فردي أو جماعي أو نسب أو غيره . وعادة الله فيمن يخرج رسله قديمـة حيث لا يبقون بعدهم ، فقد خرج هود من ديار عاد إلى مكة ، وخرج صالح من ديار ثمـود ، وخرج إبراهيم ولوط وهلكت أقوامهم .

6 / قوله تعالى {وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الْهدى ويستغفروا ربهـم إلـا أن تأتيهم سنةُ الْأولين أو يأتيهم الْعذَاب قُبلًا} [4] . أي " ما منع الناس عن الإيمان والاسـتغفار إلا انتظار سنة الأولين وهي الهلاك أو انتظار العذاب يعني عذاب الآخرة " [5] . ماذا صدهم عـن الإيمان وقد جاء م أسبابه ورأوا أدلته في الواقع بالخوارق والمعجزات ؟ ولمسوها وعرفوها حيث لم يبق مانع ولا حجة ، ولكنها طبيعة الجحود وحالة النفوس المريضة والعقول الضالة التي تـأبى التصديق والاستقامة إلا إذا رأت العذاب حين لا ينفع نفساً إيما ا لم تكن آمنت من قبل . وقد جبلت الأمم على ألا تصدق بالنذُر ورؤية الآيات في النفس والآفاق ، وهي كثيرة لا تحصـى لتنوعها بمشيئة الله وقدرته {وما يعلَم جنود ربك إلا هو}[6].

---

(1) انظر : فتح القدير (3 / 123) ، في ظلال القرآن (4 / 2129) .

(2) سورة الإسراء / 76 ـ 77 .

(3) انظر : المحرر الوجيز (3 / 477) .

(4) سورة الكهف / 55 .

(5) انظر : تفسير الكشاف (2 / 681) .

(6) سورة المدثر / 31 .

7 / قوله تعالى {وإِذْ تقُولُ للذي أنعم الله علَيه وأنعمت علَيه أمسِك علَيـك زوجـك واتقِ الله وتخفي في نفْسِك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فَلَما قَضى زيـد منها وطَرا زوجناكَها لكَي لَا يكُونَ علَى الْمؤمنِين حرج في أزواجِ أدعيائهم إِذَا قَضوا مـنهن وطَرا وكَانَ أمر الله مفْعولًا ـ ما كَانَ علَى النبِي من حرجٍ فيما فَرض الله لَه سنةَ الله في الذين خلَوا من قَبلُ وكَانَ أَمر الله قَدرا مقْدورا}[1] . ورد لفظ السنة في هذه الآية موضوعاً موضوع المصدر ، أي سنة الله فيك يا محمد كما هي سنته في الأنبياء الماضين وهي ألا يحرج علـيهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره ، وقد كانـت تحتـهم الحرائـر والسراري [2]. فكانت الآية إقرار مبدأ وحكم وإزالة عنصر غريب في الفهم ، اعترى عقـول المؤمنين حين رد الله أمر الزواج بنساء الأدعياء إلى أصولها الأولى ، وأبطل عادة الجاهلين العرب ، وهي تحريم الزواج بنساء الأدعياء . وليس موقف النبي صلى الله عليه وسلم هذا جديـداً ولا بدعاً في الأمر ؛ بل قد مضت سنة الله في الأولين من المؤمنين في إباحة الزواج بنساء الأدعياء . والإنسانية كلها أمة واحدة ، وسنة الله فيها واحدة . ولقد كان الأمر أو الحكم موقوفاً علـى إحانة الوقت المناسب لإقراره وبيانه رغم استحياء النبي صلى الله عليه وسلم من بيانه [3] .

8 / قوله تعالى {لَئن لم ينته الْمنافقُونَ والذين في قُلُوبِهِم مرض والْمرجِفُونَ في الْمدينة لَنغرِينك بِهِم ثُم لَا يجاوِرونك فيها إِلا قَليلًا ـ ملْعونِين أينما ثُقفُوا أُخذُوا وقُتلُوا تقْتيلًا ـ سنةَ الله في الذين خلَوا من قَبلُ ولَن تجِد لسنة الله تبديلًا}[4] . والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عـن عداو م وكيدهم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل م الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم ، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عـن المدينـة وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زمناً قليلاً ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفاسهم ، فإن الله قد سن في

---

(1) سورة الأحزاب / 37 ـ 38 .

(2) انظر : تفسير الكشاف (3 / 552) .

(3) انظر : في ظلال القرآن (5 / 2864) .

(4) سورة الأحزاب / 60 ـ 62 .

الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما وجدوا . وعن مقاتل : يعني كما قتل أهل بدر وأسـروا [1] .

9 / قوله تعالى {وأقْسموا بِالله جهد أيمانِهم لَئن جاءهم نذير ليكُونن أَهدى من إحدى الْأُممِ فَلَما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفُورا ـ استكْبارا في الْأَرضِ ومكْر السيئ ولَا يحيق الْمكْر السيئُ إلا بِأَهله فَهلْ ينظُرونَ إلا سنت الْأَولين فَلَن تجِد لسنت الله تبديلًا ولَن تجِد لسنت الله تحوِيلًا } [2] . حيث تلفت الآيات تصور البشر لإدراك ارتباطات مفردات الحياة ومكونا ـا بسنن الوجود كله ، وليعرف الإنسان أيضاً ما لحق بالأجيال السابقة وما حلّ بـالأمم الخاليـة الذاهبة وما نزل ا من عذاب ، وكيف توارت وراء الوجود وصارت إلى العـدم المـادي أو المعنوي ، ثم يعيد النص القرآني الذهن البشري إلى تلك الحقيقة الكبرى في السنن ، وهي أ ا لا تتحول ولا تتبدل (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) .

10 / قوله تعالى {أَفَلَم يسِيروا في الْأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَـبلهم كَانوا أَكْثَر منهم وأَشد قُوةً وآثَارا في الْأَرضِ فَما أَغْنى عنهم ما كَانوا يكْسِبونَ ـ فَلَما جاءتهم رسلُهم بِالْبينات فَرِحوا بِما عندهم من الْعلْمِ وحاق بِهِم ما كَانوا بِه يستهزِؤون ـ فَلَمـا رأَوا بأْسنا قَالُوا آمنا بِالله وحده وكَفَرنا بِما كُنا بِه مشرِكين ـ فَلَم يك ينفَعهم إِيمـانهم لَمـا رأَوا بأْسنا سنت الله التي قَد خلَت في عباده وخسِر هنالك الْكَافرونَ} [3] حيث يخبر الله تعـالى " عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وما حلّ م من العذاب الشديد مع شدة قواهم ومـا آثروه في الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا رد عنهم ذرة مكن بـأس الله ، وذلك لأ م لما جاء م الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدافعات لم يلتفتـوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جـاء م بـه الرسـل ،

---

(1) انظر : تفسير الكشاف (3 / 570) .
(2) سورة فاطر / 42 ـ 43 .
(3) سورة غافر / 82 ـ 85 .

فأحاط بهم ما كانوا يستبعدون وقوعه ، ولما حلّ بهم العذاب وعاينوه وحدوا الله عـز وجـل وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة " [1] .

11 / قوله تعالى {ولَو قَاتَلَكُم الذين كَفَرَوا لَولوا الْأَدبار ثُم لَا يجِدونَ وليا ولَا نصـيرا ـ سنةَ الله التي قَد خلَت من قَبلُ ولَن تجِد لسنة الله تبديلًا}[2] حيث "يبشر الله عباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولانهزم جيش الكفـر فـاراً مدبراً ولا يجدون ولياً ولا نصيراً ، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين ، وسنة الله وعادته في خلقه اقتضت أنه : ما تقابل الكفر والإيمان في محك وموقف حاسم إلا نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين ، حيث نصـرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم " [3] .

وهكذا أفادت جل استعمالات كلمة (سنة) في القرآن معنى واحداً وهـو: الطريقـة والقانون ، وإن تشعبت تصريفاتها من حيث الإفراد والجمع ، والإسناد إلى ضمير المتكلم وهـو لفظ الجلالة حيناً ، والإضافة إليه سبحانه وإلى الأمم الخالية من الأولين أحياناً أخرى [4] .

وبعد عرض الآيات التي وردت فيها لفظة (السنة) ومشتقاتها في القرآن يتبين لنا أنهـا كالجنس والأصل للآيات التي وردت في كافة السنن الإلهية التي لم يصرح فيها بهذه اللفظـة أو مشتقاتها ، إذ أنها تشتمل في الجملة على ما فُصل من سنن في الآيات الكثيرة المبثوثة في القـرآن سواءً في المكذبين بالرسل وبما جاؤوا به من الحق من عند الله (كما مر في سورة الحجر 10 ـ 13 ، وسورة الأنفال 38 ، وسورة الكهف 55 ، وسورة فاطر 42ـ 43 ، وسورة الإسراء 76 ـ 77) ، أو فيمن يظهرون الإسلام وباطنهم مملوء بالحقد عليـه وعلـى أهلـه ؛ بـل ويحاربونه من طرف خفي أو جلي (كما مر في سورة الأحزاب 60 ـ 62) ، وكذا تلـك

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 90) .

(2) سورة الفتح /22 ـ 23 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 193) .

(4) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (سنة) / صـ : 367 .

السنن التي وردت في تشريع الأحكام والآداب الموافقة لمصلحة الإنسان وغايته التي وجد علـى هذه الأرض من أجلها (كما مر في سورة النساء 26 ، وسورة الأحزاب 37 ـ 38) ، ومنها أيضاً تلك السنن التي قصت علينا مصير الباطل وأهله وعلو الحق وأوليائه ، وأن الباطل مهمـا قوي في الظاهر فمآله إلى الزوال (كما مر في سورة غافر 82 ـ 85) لأن الحق قديم بقـدم الله عز وجل ، وكيف يتأتى للحادث الزائف ـ الباطل ـ أن يقف في وجه الثابت ـ الحق ـ الذي يتعلق بصفة من صفات الأول والآخر .

القسم الثاني : الأسلوب غير المباشر .

ويتمثل هذا الأسلوب في تقرير السنة الإلهية بناء على خبر ما أو شرط معين أو في سياق قصـة من قصص الأمم السابقة . ومن الأمثلة على ذلك :

1 / قوله تعالى {لَقَد كَانَ لسبإٍ في مسكَنِهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رزقِ ربكُم واشكُروا لَه بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور ـ فَأَعرضوا فَأَرسلْنا علَيهم سيلَ الْعرِمِ وبدلْناهم بِجنتـيهم جنتينِ ذَواتى أُكُلٍ خمط وأَثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قَليلٍ ـ ذَلك جزيناهم بِما كَفَروا وهلْ نجازِي إلا الْكَفُور} [1] . حيث قص الله تعالى علينا في هذه الآيات قصة قوم سبأ وما أنعم عليهم به من النعم العظيمة التي يعجز عن وصفها اللسان وبين سبحانه أنه أمرهم بعبادته وحده وشكر نعمته عليهم ووضح لهم طريق الرجوع والإنابة إليه سبحانه لمن أخطأ منـهم بالتوبـة والاسـتغفار فالإنسان بطبعه خطاء ، ولكنهم قابلوا نعمة الله عليهم بالكفر والإعراض عن الله فعاقبـهم الله بأن أرسل عليهم سيل العرم أي السيل المتوعر الذي خرب سدهم وأتلـف جنـا م وخـرب بساتينهم فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة والأشجار المثمرة وصار بدلها أشجار لا نفع فيها ، وهذا من جنس عملهم فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح بدلوا تلك النعمة بما ذكر ولهذا قال (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور) أي وهل نجازي جزاء العقوبة ـ بدليل السياق ـ إلا من كفر بالله وبطر النعمة ، وعليه فكل من فعل مثلهم فعل به كما فعـل م [2] . وبالتالي فالواجب على العبد أن يقابل نعمة الله عليه بالشكر عليها واستعمالها في طاعة الله ومتى خالف العبد هذا الأمر وطغى وتجبر وعبد غير الله تعالى فقد استحق مقت الله وعذابـه كما حدث مع قوم سبأ . ومثله قوله تعالى{وضرب اللّه مثَلاً قَريـةً كَانت آمنةً مطْمئنةً يأْتيها رِزقُها رغَدا من كُل مكَان فَكَفَرت بِأَنعمِ اللّه فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ ـ ولَقَد جاءهم رسولٌ منهم فَكَذبوه فَأَخـذَهم الْعـذَاب وهـم ظَالمونَ ـ فَكُلُواْ مما رزقَكُم اللّه حلالاً طَيبا واشكُرواْ نِعمت اللّه إِن كُنتم إِياه تعبدونَ} [3] .

---

(1) سورة سبأ / 15 ـ 17 .

(2) انظر : تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1 / 677 ـ 678) .

(3) سورة النحل / 112 ـ 114 .

2 / قوله تعالى {كُل نفْسٍ ذَائقَةُ الْموت ونبلُوكُم بِالشر والْخيرِ فتنةً وإِلَينـا ترجعـونَ} [1] .
فيخبرنا الله تعالى بأن سنته قد مضت بابتلاء عباده وامتحانهم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فينظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط فيبتليهم بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال ، وقوله (وإلينا ترجعون) أي فنجازيكم بأعمالكم [2] . ومثله قوله تعالى {ولَنبلُونكُم بِشيءٍ من الْخوف والْجوعِ ونقْصٍ من الأَموالِ والأنفُسِ والثمرات وبشرِ الصابِرِين } [3] ، وقوله تعالى {الم ـ أَحسِب الناس أن يتركُوا أن يقُولُوا آمنا وهم لَا يفْتنونَ ـ ولَقَد فَتنا الذين من قَبلهم فَلَيعلَمن الله الذين صـدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذبِين} [4] .

3 / قوله تعالى {ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب ومن يتوكَّـلْ علَى الله فَهو حسبه إِن الله بالغُ أَمرِه قَد جعلَ الله لكُل شيءٍ قَدرا} [5] . حيث جعل الله تعالى تقواه سبحانه بفعل أوامره واجتناب نواهيه شرطاً لتحقق المشروط وهو تيسير المخرج للعبد المتقي من كل شدائد الدنيا والآخرة ، وتوفير الرزق له من الأبواب التي لم تكن في الحسبان وتلك هي سنته سبحانه [6] . ومثله قوله تعالى {ولَو أَن أَهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنا علَيهِم بركَات من السماء والأَرضِ ولَكن كَذبواْ فَأَخذْناهم بِما كَانواْ يكْسِبونَ} [7] ، وقوله تعالى {فَقُلْت استغفروا ربكُم إِنه كَانَ غَفارا ـ يرسلِ السماء علَيكُم مدرارا ـ ويمددكُم بِأَموالٍ

(1) سورة الأنبياء / 35 .
(2) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 179) .
(3) سورة البقرة / 155 .
(4) سورة العنكبوت / 1 ـ 3 .
(5) سورة الطلاق / 2 ـ 3 .
(6) انظر : تفسير ابن كثير(380/4) ، روح المعاني للألوسي (28 / 135) ، تفسير القرطبي (18 / 160 ـ 161).
(7) سورة الأعراف / 96 .

وبنين ويجعل لكُم جنات ويجعل لكُم أنهارا} [1] ، وقوله تعالى {يا أيها الذين آمنواْ إَن تتقُواْ اللّه يجعل لكُم فُرقَاناً ويكَفر عنكُم سيئَاتكُم ويغفر لَكُم واللّه ذُو الْفَضلِ الْعظيمِ} [2] .

4 / قوله تعالى {تلْك من أَنباء الْغيبِ نوحيها إِلَيك ما كُنت تعلَمها أَنت ولاَ قَومك من قَبـلِ هذَا فَاصبِر إِن الْعاقبةَ للْمتقين}[3] . حيث أورد الله تعالى هذه الآية بعد ذكره قصة نـوح مـع قومه وكيف أن الله قد نصر رسوله وأهلك أعدائه بإغراقهم في الطوفان ، وفي ذلك بيان للسنة الإلهية القاضية بأن العاقبة للمتقين وأن الهلاك والدمار للمكذبين المعاندين ، ولقد تكرر مشـهد هذه السنة الإلهية مع كل الأمم المكذبة لرسلها وإن اختلفت صورة المشهد إلا أن المحصلة واحدة . قال الله تعالى بعد أن ذكر قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم{فَكُلًا أَخذْنا بِذَنبِه فَمنهم من أَرسلْنا علَيه حاصبا ومنهم من أَخذَته الصيحةُ ومنهم من خسفْنا بِه الْأَرض ومنهم من أَغْرقْنا وما كَانَ الله ليظْلمهم ولَكن كَانوا أَنفُسهم يظْلمونَ}[4] .

وسوف يستمر مشهد هذه السنة في الظهور كلما وجد المتقون المستحقون لنصر الله وتأييده ، وكلما وجد المكذبون المستحقون لمقت الله وعذابه . قال الله تعالى {ولَقَد كَتبنا في الزبورِ من بعد الذكْرِ أَن الْأَرض يرِثُها عبادي الصالحونَ}[5] . ويقول تعالى {أَفَلَم يسِيروا فـي الْـأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم دمر الله علَيهِم ولِلْكَافرِين أَمثَالُها}[6] . ويقول تعالى {أَهم خير أَم قَوم تبعٍ والذين من قَبلهم أَهلَكْناهم إِنهم كَانوا مجرِمين } [7] .

---

(1) سورة نوح / 10 ـ 12 .
(2) سورة الأنفال / 29 .
(3) سورة هود / 49 .
(4) سورة العنكبوت / 40 .
(5) سورة الأنبياء / 105 .
(6) سورة محمد / 10 .
(7) سورة الدخان / 37 .

5 / قوله تعالى {واتقُواْ فتنةً لا تصيبن الذين ظَلَمواْ منكُم خآصةً واعلَمـواْ أن اللّـه شـديد الْعقَابِ}[1] حيث يحذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة ـ أي اختبارا ومحنة ـ يعم ـا المسـيء وغيره ولا يخص ا أهل المعاصي ولا من باشر الذنب [2] ، قال ابن عباس رضي الله عنه " أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب " [3] . فالناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن فمن المفروض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكت عليه فكلهم عاصٍ ؛ هذه بفعله وهـذا برضاه ، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بم لة العامل ، ومقصود الآية : واتقوا فتنـة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح [4] .

---

(1) سورة الأنفال / 25 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 299) .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 300) ، تفسير القرطبي (7 / 391) .

(4) انظر : تفسير القرطبي (7 / 393) .

الفصل الثاني

خصائص السنن الإلهية

وقد قسمته إلى مبحثين : -

المبحث الأول : - تعريف الخصائص

المبحث الثاني : - بيان هذه الخصائص

المبحث الأول : تعريف الخصائص .

الخصائص : جمع خصيصة ، والخصيصة هي : الصفة التي تميز الشيء وتحدده ، واختص بالشيء أي : انفرد به [1] . وخصه بالشيء أفرده به دون غيره ، ويقال : اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد [2] .

" والخاص : هو كل لفظ وضع لمعنى معلوم على الإنفراد المراد بالمعنى الذي وضع له اللفظ عينا كان أو عرضا وبانفراد اختصاص اللفظ بذلك المعنى وإنما قيده بالإنفراد ليتميز عن المشترك . والخاصة كلية مقولة على أفراد حقيقة واحدة فقط قولا عرضيا سواء وجد جميع أفراده كالكاتب بالقوة بالنسبة إلى الإنسان أو في بعض أفراده كالكاتب بالفعل بالنسبة إليه فالكلية مستدركة . وخاصة الشيء ما لا يوجد بدون الشيء والشيء قد يوجد بدو ا مثل الألف واللام لا يوجدان بدون الاسم والاسم يوجد بدو ما كما في زيد " [3] .

---

(1) انظر : المعجم الوسيط (1 / 238) .

(2) انظر : لسان العرب (7 / 24) .

(3) انظر : كتاب التعريفات للجرجاني (1 / 128 ـ 129) .

المبحث الثاني : بيان هذه الخصائص .

ويمكننا أن نحصر هذه الخصائص في ثلاث . وذلك على النحو التالي :

❁ الخاصية الأولى : الثبات ؛ ومعنى ذلك : أن السنن الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتأثر بعوامل الزمان والمكان " وأن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة ، لأ ا مقتضى حكمته وعلمه فلا تجري متعلقا ا إلا على سنن واحد " [1] . والحكمة من صرامة وثبات السنن الإلهية : هي أن تنضبط الموازين ، وتستقر معايير الحكم على الأشياء والمواقف والأحداث والرجال [2]. وقد جاءت الآيات صريحة في هذا المعنى حيث تكرر قوله تعالى {ولَن تجِد لسنة الله تبديلًا}[3] أي " ولن تجد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييراً ، بل ذلك دائم للإنسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر والعقاب والنكال"[4]. ووقوع النكرة (تبديلا) في سياق النفي (ولن تجد) يفيد عموم عدم وقوع أي تبديل من أي وجه لسنة الله عز وجل . وقد أكدت بعض الآيات هذا المعنى فقرنت بين عدم التبديل وعدم التحويل فقالت {فَلَن تجِد لسنت الله تبديلًا ولَن تجِد لسنت الله تحويلًا }[5] " وبقوله (فلن تجد لسنة الله تبديلا) حصل العلم بأن هذه السنة لا تبديل لها بغيرها ، وبقوله (ولن تجد لسنة الله تحويلا) حصل العلم بأن هذه السنة تخص صاحبها ولا تتحول عنه إلى غير مستحقها " [6] . ولما كانت السنن من قبيل الأفعال والأخبار لم يدخلها النسخ الذي يشمله معنى التبديل ، كما هو الحال في الأحكام الجزئية التكليفية . وتترى الآيات مؤكدة أن ما قضاه الله وسنه وأبرمه لا يعتريه تبديل من الله ، فضلاً عن أن يقدر أحد على تغييره [7] كما قال تعالى {وتمت كَلمت

---

(1) انظر : مدخل إلى دراسة السنن الإلهية دي عاشور / 81 .

(2) انظر : مجلة البيان ـ العدد 115 ـ ص / 55 ـ مقال : أهمية العلم بالسنن الربانية للدكتور / محمد أمحزون .

(3) سورة الأحزاب / 62 ، فاطر / 43 ، الفتح / 23 .

(4) انظر : تفسير الطبري (26 / 93) .

(5) سورة فاطر / 43 .

(6) انظر : التفسير الكبير للرازي (26 / 32) .

(7) انظر : تفسير التحرير والتنوير (8 / 21) .

ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته}[1] . وبثبات القانون الإلهي تثبت النفس وتطمئن ويحيطها الاستقرار ، الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه ، فيتعبر المُبصر ويحذر المخطئ ، ويتحسس كل إنسان أن تسير به قدماه ، ويحجم أو يقدم ـ مستنداً إلى ظنه ـ لمصيره ومآله في دنياه وأخراه .

فمن سنن الله أنه : وعد بنصر المؤمنين على أعدائه الكافرين متى ما حققوا أسباب النصر وبذلوا ما بوسعهم . يقول الله تعالى {ولَو قَاتلَكُم الذين كَفَروا لَولوا الْأَدبار ثُم لَا يجِدونَ وليا ولَا نصيرا ـ سنةَ الله التي قَد خلَت من قَبلُ ولَن تجِد لسنة الله تبديلًا }[2]. حيث يبشر الله عباده " المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فارا مدبرا (لا يجدون وليا ولا نصيرا) لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين ثم قال تبارك وتعالى (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أي : هذه سنة الله وعادته في خلقه ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم " [3] . وقال الشوكاني [4] في تفسيره لهذه الآية " (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا) يواليهم على قتالكم (ولا نصيرا) ينصرهم عليكم (سنة الله التي قد خلت من قبل) أي طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أي لن تجد لها تغييرا بل هي مستمرة ثابتة " [5] .

---

(1) سورة الأنعام / 115 .

(2) سورة الفتح / 22 ـ 23 .

(3) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (4 / 193) .

(4) الشوكاني : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني . فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ولد سنة سنة 1173 هـ وتوفي سنة 1250 هـ . انظر : الأعلام للزركلي (6 / 298) .

(5) انظر : فتح القدير للشوكاني (5 / 51 ـ 52) .

ومن سنن الله أيضاً أن الرسل إذا كذبتهم الأمم فإن الله لا يعذ م ما دام بين أظهرهم مصداقاً لقوله تعالى {وما كَانَ اللّه ليعذبهم وأنت فيهم}[1] ؛ فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذ م يقول الله تعالى {وإن كَادواْ لَيستفزونك من الأَرضِ ليخرِجوك منها وإِذًا لا يلْبثُونَ خلافَك إِلا قَليلاً ـ سنةَ من قَد أَرسلْنا قَبلَك من رسلنا ولاَ تجِد لسنتنا تحوِيلاً}[2] قال القاسمي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية " يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أي : تغييرا "[3] وقال ابن كثير رحمه الله " نزلت هذه الآية في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم فتوعدهم الله ذه الآية وأ م لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا ، وكذلك وقع ؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره م فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ولهذا قال تعالى (سنة من قد أرسلنا) الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به "[4] .

" ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم، وهذا الكون تصرفه سنن مطردة لا تتحول أمام اعتبار فردي ، وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون ، إنما هي السنن المطردة الثابتة ، فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشاً بعذاب الإبادة كما أخذ المكذبين من قبل لحكمة علوية لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة ، بل أوحى إليه بالهجرة ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول "[5] .

---

(1) سورة الأنفال/ 33 .

(2) سورة الإسراء / 76 ـ 77 .

(3) انظر : محاسن التأويل للقاسمي (6 / 501) .

(4) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (3 / 54) .

(5) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2246) .

❁ الخاصية الثانية : الشمول والعموم ؛ ومعنى ذلك : أن السنن الإلهية تشمل كل البشر بلا استثناء ، ولا تفريق ولا محاباة ، فهي عامة ؛ يسري حكمها على الجميع دون محاباة ولا تمييز ، بغض النظر عن أديا م وجنسيا م ، غير مقتصرة على فرد دون فرد ، ولا على قوم دون قوم . ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى {ليس بِأَمانِيكُم ولا أَمانِي أَهلِ الْكتابِ من يعملْ سوءًا يجز بِه ولاَ يجِد لَه من دون اللّه وليا ولاَ نصيرا}[1] . نقل الطبري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية أنه قال " تحاكم أهل الأديان ، فقال أهل التوراة : كتابنا خير الكتب أنزل قبل كتابكم ، ونبينا خير الأنبياء . وقال أهل الإنجيل مثل ذلك . وقال أهل الإسلام : لا دين إلا الإسلام ، كتابنا نسخ كل كتاب ، ونبينا خاتم النبيين ، وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا . فقضى الله بينهم وأنزل الآية المذكورة " [2]. والمعنى : أن كل من يعمل سوءاً يلق جزاءه ، لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف عنه ، وميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني ، وإنما يرجع إلى أصل ثابت وسنة محكمة وقانون لا يحابي . قانون تستوي أمامه الأمم ، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ، ويعطّل لحسابه القانون [3] .

" فالقضية ليست مجرد تمنيات وأحلام ، أو أقوال وادعاءات ؛ بل القضية عمل وجزاء، فالذي يعمل السوء يجازى به في الدنيا والآخرة ، فالله تعالى لا يحابي أحداً ولا يجامله ، وقد قال لرسوله ﷺ {ولَقَد أُوحي إِلَيك وإِلَى الذين من قَبلك لَئن أَشركْت لَيحبطَن عملُك ولَتكُونن من الْخاسرِين ـ بلِ الله فَاعبد وكُن من الشاكرِين}[4] " [5] .

---

(1) سورة النساء / 123 .

(2) انظر : جامع البيان (5 / 289) .

(3) انظر : تفسير المنار (5 / 434) ، في ظلال القرآن (2 / 762) .

(4) سورة الزمر / 65 ـ 66 .

(5) انظر : السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية لـ : عبد الكريم زيدان ـ ص/ 15 .

ومنه أيضاً قوله تعالى {قَد خلَت من قَبلكُم سنن فَسِيروا في الأَرضِ فَانظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذبِين ـ هذَا بيانٌ للناسِ وهدى وموعظَةٌ للْمتقين}[1] . فالله جل وعلا يرشد الناس إلى أنه قد مضت سنن من قبلهم أجراها الله على الأمم السابقة فالواجب عليهم أن يتفكروا فيها ويعتبروا ا ، ومن ذلك سنته تعالى في أنه قد جعل العاقبة للمتقين وجعل النهاية تدور على المكذبين الظالمين ، ولهذا قال تعالى (سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي ايتهم وهي العذاب والهلاك ، والفوز والتمكين للمتقين وفي قوله تعالى (هذا بيان للناس) . أي هذا القرآن فيه توضيح وتوجيه في كل ما تحتاجه الإنسانية .

ومن صريح الآية (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) يتبين أن هذه سنة عامة لا تتعلق بعقيدة أو جنس ، ولكن الموعظة والاهتداء ا خاصة بأهل التقوى لأ م هم الذين يعملون حواسهم ويشغلون عقولهم في التماس سنن الله في الحياة باجتناب المحارم والتزام الاستقامة وهي طاعة الله .

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى {أَكُفاركُم خير من أُولَئكُم أَم لَكُم براءةٌ في الزبرِ}[2] . حيث تخاطب الآية مشركي مكة ، والمعنى : ليس الذين فروا منكم خيراً من أولئكم الأمم التي تقدم ذكرها ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب ، فلا تظنوا أن يشملهم العذاب دونكم ، أم مع كفار مكة من الله براءة أن لا ينالهم عذاب ولا نكال ؟ [3] . ولولا ثبات السنن واطرادها وعمومها لما كان معنى في ذكر قصص الأمم السابقة مطلب الاعتبار بما حلّ م ، ولكن لما كان ما جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم ؛ حسن ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ ا . ولذلك ختمت هذه الآيات التي تحذر كفار قريش من تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما يؤكد عموم هذه

---

(1) سورة آل عمران / 137 ـ 138 .

(2) سورة القمر / 43 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 267) .

السنة فقال تعالى {ولَقَد أَهلَكْنا أَشياعكُم فَهلْ من مدكرٍ}[1] . يعني " لقد حق الهلاك على أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين ، فلتكن لكم فيهم عبرة وعظة " [2]. والحاصل من صفة العموم للسنن الإلهية هو أن أي مجتمع أخطأ أو انحرف متنكباً عن سنن القانون الإلهي لقي جزاء خطئه أو انحرافه وتنكبه، ولو كان خير المجتمعات. وحسبنا في هذا ما دفعه الصحابة ثمناً لخطئهم في غزوة أحد ، وهو ما سجله القرآن عليهم بوضوح في قوله {أَولَما أَصابتكُم مصيبةٌ قَد أَصبتم مثْلَيها قُلْتم أَنى هذَا قُلْ هو من عند أَنفُسِكُم}[3] . وبين في آية أخرى هذا الذي عند أنفسهم بقوله {حتى إِذَا فَشلْتم وتنازعتم في الأَمرِ وعصيتم}[4] . والمقصود أنه لا محاباة ولا تمييز ولا استثناءات في اتصاف السنن والقوانين الإلهية بالعموم والشمول ، وفي ذلك تحقيق لسابغ عدل الله وحكمته {إِن اللّه لاَ يظْلم الناس شيئًا ولَكن الناس أَنفُسهم يظْلمونَ}[5] [6] .

❁ الخاصية الثالثة : الاطراد ؛ ومعنى ذلك : التكرار أينما وجدت الظروف المناسبة مكاناً وزماناً وأشخاصاً وأفكاراً ، فهي مطردة لا تتخلف ، ويدل على اطرادها أن الله تعالى قص علينا قصص الأمم السابقة وما حل بها لنتعظ ونعتبر ولا نفعل فعلهم لئلا يصيبنا ما أصابهم ، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها . [7] " فإن الله عز وجل في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته ، القاضية بالتسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين " [8] .

---

(1) سورة القمر / 51.

(2) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 269) .

(3) سورة آل عمران / 165 .

(4) سورة آل عمران / 152.

(5) سورة يونس / 44.

(6) انظر : مدخل إلى دراسة السنن الإلهية لمجدي عاشور / 87 .

(7) انظر : السنن الإلهية لـ : عبد الكريم زيدان ـ ص / 14 .

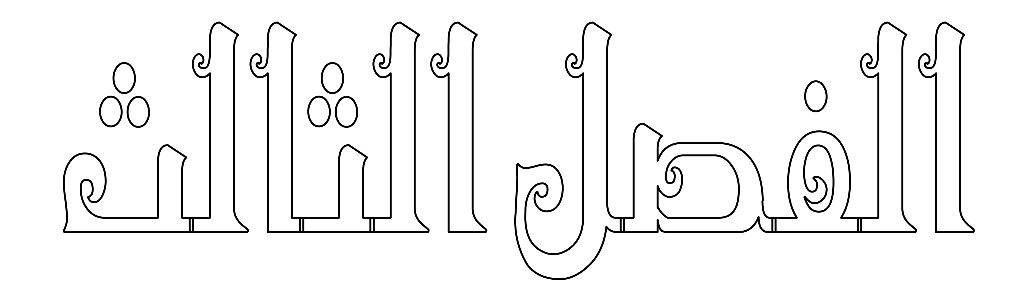
(8) انظر : كتاب النبوات لابن تيمية (1 / 233) .

ومن ذلك قوله تعالى {وما ظَلَمناهم ولَكن ظَلَمواْ أَنفُسهم فَما أَغْنت عنهم آلِهتهم التي يدعونَ من دون اللّه من شيءٍ لما جاء أَمر ربك وما زادوهم غَير تتبِيبٍ ـ وكَذَلك أَخذُ ربك إِذَا أَخذَ الْقُرى وهي ظَالمةٌ إِن أَخذَه أَليم شديد ـ إِن في ذَلك لآيةً لمن خاف عذَاب الآخرة} [1]. فهذه الآيات تبين لنا أن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة حيث قال (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) أي ما ظلمناهم بالعذاب والإهلاك ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية ، فاستوجبوا من الله العذاب ، وقوله (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) بين أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم بل الحال في أخذ كل الظالمين يكون كذلك [2] " وهذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ، ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام مختصة بأولئك المتقدمين لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظـالمة) فبين أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد " [3].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى {فَهلْ ينتظرونَ إِلا مثْلَ أَيامِ الذين خلَواْ من قَبلهم قُلْ فَانتظرواْ إِني معكُم من الْمنتظرِين ـ ثُم ننجي رسلَنا والذين آمنواْ كَذَلك حقا علَينا ننجِ الْمؤمنِين }[4] . أي : أن من سننه سبحانه أنه إذا نزل عذابه بالكافرين الظالمين فإنه الله ينجي ينجي رسله وأتباعهم المؤمنين م ، وهذه سنة مطردة مع كل أنبيائه ورسله . قال القرطبي رحمه الله عن هذه الآية " قوله تعالى (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) أي من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين ؛ وثم معناه ثم اعلموا أنا ننجي رسلنا (كذلك حقا علينا) أي واجبا علينا لأنه أخبر ولا خلف في خبره " [5] .

---

(1) سورة هود / 101 ـ 103 .
(2) انظر : التفسير الكبير للرازي (18 / 46) .
(3) المرجع السابق (18 / 47) .
(4) سورة يونس / 102 ـ 103 .
(5) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (8 / 387) .



مظاهر ورود السنن في القرآن الكريم

الفصل الثالث : مظاهر ورود السنن في القرآن الكريم .

من أغزر موارد السنن في القرآن خاصة في السنن الاجتماعية: التاريخ (القصص القرآني) عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها . والأمثال القرآنية المتعلقة بكيفية معاملة الله للبشر بناءً على سلوكهم وتصرفاتهم ، وكذلك الآيات الوارد فيها ربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج فيما يخص نظام الحياة الذي وضعه الله في علاقة البشر بربهم أو فيما بينهم .

أولاً : القصص القرآني .

إن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير ، لأن وراءها سنناً ثابتة تحركها وتكيفها ، وعبر العرب عن هذا المعنى بقولهم : ما أشبه الليلة بالبارحة .. وأفصح عنها القرآن في قولـه تعـالى {وتلْك الأيام نداوِلُها بين الناسِ}[1] . وقد أشار القرآن إلى تشابه المواقف والأقوال والأعمـال نتيجة لتشابه الأفكار والتصورات التي تصدر عنها ، وفي هذا جاء قوله تعالى {وقَالَ الـذين لاَ يعلَمونَ لَولاَ يكَلمنا اللّه أَو تأْتينا آيةٌ كَذَلك قَالَ الذين من قَبلهم مثْلَ قَولهم تشابهت قُلُوبهم}[2] . وقال تعالى عن مشركي قريش {كَذَلك ما أَتى الذين من قَبلهم من رسولٍ إِلا قَالُوا ساحر أَو مجنونٌ ـ أَتواصوا بِه بلْ هم قَوم طَاغُونَ }[3] . أي : إن هذا الاشتراك والتشابه في الموقف من الرسل بين الأولين والآخرين والمسارعة إلى الاتهام بالسحر أو الجنون ، لم ينشأ نتيجة تواصٍ بين هؤلاء وأولئك ، بل السبب أنهم جميعاً طغاة ظالمون ، فلما تشابهوا في السبب وهو الطغيان تشابهوا في النتيجة وهي الاتهام المذكور . وقال عنهم أيضاً {فَلاَ تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدونَ إِلا كَما يعبد آباؤهم من قَبلُ وإِنا لَموفوهم نصيبهم غَير منقُوصٍ}[4] . أي " ما يعبدون شيئاً إلا مثل الذي عبدوه من الأوثان ، وقد بلغك ما لحق آباءهم بسنن ذلك فيلحقهم مثلـه ، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات"[5] .

---

(1) سورة آل عمران / 140 .

(2) سورة البقرة / 118 .

(3) سورة الذاريات / 52 ـ 53 .

(4) سورة هود / 109 .

(5) انظر : روح المعاني للألوسي (12 / 147) .

إن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبرها ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول وكانا مشتركين في المقتضى والحكم ، فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كـان في نفوس المكذبين للرسل ـ فرعون ومن قبله ـ لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا يشبهه قط ، لكن الأمر كما قال الله تعالى {قَد خلَت من قَبلكُم سنن فَسِيروا في الأَرضِ فَانظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذِّبِين}[1]. ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته في مكذبي الرسل كقول شـعيب {ويا قَومِ لاَ يجرِمنكُم شقَاقي أَن يصيبكُم مثْلُ ما أَصاب قَوم نوحٍ أَو قَوم هود أَو قَوم صـالحٍ وما قَوم لُوط منكُم بِبعيد}[2]. وقال مؤمن آل فرعون {يا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم مثْـلَ يـومِ الْأَحزابِ ـ مثْلَ دأْبِ قَومِ نوحٍ وعاد وثَمود والذين من بعدهم وما الله يرِيد ظُلْما للْعباد}[3]. ولذلك كثر بعد إيراد القصص في القرآن أن تختم بآيات تدعو إلى الاتعاظ والعبرة . ومن ذلك قوله تعالى {تلْك الْقُرى نقُص علَيك من أَنبآئها ولَقَد جاءتهم رسلُهم بِالْبينات فَما كَانواْ ليؤمنواْ بِما كَذبواْ من قَبلُ كَذَلك يطْبع اللّه علَى قُلُوبِ الْكَافرِين ـ وما وجدنا لأَكْثَرِهم من عهد وإِن وجدنا أَكْثَرهم لَفَاسقين}[4]، وقوله {فَاقْصصِ الْقَصص لَعلهم يتفَكَّرونَ}[5]، وقوله {تلْك من أَنباء الْغيبِ نوحيها إِلَيك ما كُنت تعلَمها أَنت ولاَ قَومك من قَبلِ هـذَا فَاصـبِر إِن الْعاقبـةَ للْمتقين}[6]، وقوله {ذَلك من أَنباء الْقُرى نقُصه علَيك منها قَآئم وحصيد ـ ومـا ظَلَمنـاهم ولَكن ظَلَمواْ أَنفُسهم فَما أَغْنت عنهم آلهتهم التي يدعونَ من دون اللّه من شيءٍ لما جاء أَمـر ربك وما زادوهم غَير تتبِيبٍ ـ وكَذَلك أَخذُ ربك إِذَا أَخذَ الْقُرى وهي ظَالمةٌ إِن أَخذَه أَلـيم شديد ـ إِن في ذَلك لآيةً لمن خاف عذَاب الآخرة ذَلك يوم مجموع له الناس وذَلـك يـوم

---

(1) سورة آل عمران / 137 .

(2) سورة هود / 89 .

(3) سورة غافر / 30 ـ 31 .

(4) سورة الأعراف / 101 ـ 102 .

(5) سورة الأعراف / 176 .

(6) سورة هود / 49 .

مشهود}[1]، وقوله {لَقَد كَانَ في قَصصهم عبرةٌ لأُولي الأَلْبابِ ما كَانَ حديثًا يفْترى ولَكـن تصديق الذي بين يديه وتفْصيلَ كُل شيءٍ وهدى ورحمةً لقَومٍ يؤمنونَ}[2] . وغير ذلك مـن الآيات الدالة على الاعتبار بقصص السابقين .

ثانياً : الأمثال القرآنية .

والمقصود ا هنا تلك الأمثال التي وردت في سياق قصة أو منفردة مع الإلحاح على الاتعاظ ا وأخذ العبرة منها . فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام ، وتنفر من الغربة والوحـدة وعدم النظير . ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره ، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعـنى ظهـوراً ووضـوحاً ، فالأمثال شواهد المعنى المراد ومزكية له وهي {كَزرعٍ أَخرج شطْأَه فَآزره فَاستغلَظَ فَاستوى علَى سوقه}[3] ، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته [4] .

ومن الأمثال التي وردت في سياق قصص للعبرة والتفكر قوله تعالى {وضرب اللّه مـثَلاً قَريـةً كَانت آمنةً مطْمئنةً يأْتيها رِزقُها رغَدا من كُل مكَان فَكَفَرت بِأَنعمِ اللّه فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ ـ ولَقَد جاءهم رسولٌ منهم فَكَذبوه فَأَخـذَهم الْعـذَاب وهـم ظَالمونَ ـ فَكُلُواْ مما رزقَكُم اللّه حلالاً طَيبا واشكُرواْ نِعمت اللّه إِن كُنتم إِياه تعبدونَ} [5] . . وقد ذكر أكثر السلف أن المقصود بالقرية هنا مكة [6] ، ومن ثمّ الاعتبار بالآيات هو علـى مستوى الأمم . ومثلها قوله تعالى {واضرِب لَهم مثَلاً أَصحاب الْقَرية إِذْ جاءها الْمرسـلُونَ ـ إِذْ أَرسلْنا إِلَيهم اثْنينِ فَكَذبوهما فَعززنا بِثَالث فَقَالُوا إِنا إِلَيكُم مرسلُونَ } إلى قوله تعالى { وما

---

(1) سورة هود / 100 ـ 103 .
(2) سورة يوسف / 111 .
(3) سورة الفتح / 29 .
(4) انظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (1 / 239 ـ 240) .
(5) سورة النحل / 112 ـ 114 .
(6) انظر : جامع البيان للطبري (14 / 186) .

أنزلْنا علَى قَومه من بعده من جند من السماء وما كُنا مـ ِلين ـ إن كَانت إلا صيحةً واحـدةً فَإِذَا هم خامدونَ}[1] .

وعلى مستوى الأفراد ورد قوله تعالى {واضرِب لَهم مثَلًا رجلَينِ جعلْنا لأَحدهما جنتـينِ مـن أَعنابٍ وحفَفْناهما بِنخلٍ وجعلْنا بينهما زرعا } إلى قوله {ولَم تكُن له فئَةٌ ينصرونه مـن دون الله وما كَانَ منتصرا}[2] . وكذلك جاء قوله تعالى {واتلُ علَيهِم نبأَ الذي آتيناه آياتنا فَانسلَخ منها فَأَتبعه الشيطَانُ فَكَانَ من الْغاوِين ـ ولَو شئْنا لَرفَعناه بِها ولَكنه أَخلَد إِلَى الأَرضِ واتبـع هواه فَمثَلُه كَمثَلِ الْكَلْبِ إِن تحملْ علَيه يلْهثْ أَو تتركْه يلْهث ذلك مثَلُ الْقَومِ الذين كَـذبواْ بِآياتنا فَاقْصصِ الْقَصص لَعلهم يتفَكَرونَ }[3] .

ومن الآيات التي تلفت النظر وتنبه العقول إلى الوقوف على السنن الإلهية الخاصة بالبشر هـي تلك الآيات التي تحث على السير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم السـابقة وإدراك عواقبـها في القيام والسقوط ، والإصلاح والإفساد والعدل والظلم ، وما هي السنن التي كانت تنقلب فيها هذه الأمم حال قو ا وضعفها وسعاد ا وشقائها ؟ . لذلك وردت عدة آيات في أكثـر مـن سورة تدعو إلى السياحة بالأبدان أو الأذهان ، بالعيان أو بالإخبار ، وقد ذكر الأمر بالسير في القرآن ست مرات [4] فيما يخص موضوع دراستنا ، ووردت مادة السير بصـيغة الاسـتفهام المتعدد الأغراض سبع مرات [5] ، وكلها حثّ على الاعتبار بعواقب الأمم السابقة التي حادت عن الطريق ، وأخذت في الانحراف والتكذيب . وسيقت هذه الآيات للحذر مما وقع فيه أهلها ، حتى لا تدور علينا رحى السنن الإلهية التي طافت م .

(1) سورة يس / 13 ـ 29 .

(2) سورة الكهف / 32 ـ 43 .

(3) سورة الأعراف / 175 ـ 176 .

(4) وهي : (137) آل عمران ، (11) الأنعام ، (36) النحل ، (69) النمل ، (20) العنكبوت ، (42) الروم.

(5) وهي : (109) يوسف ، (46) الحج ، (9) الروم ، (44) فاطر ، (21) غافر ، (82) غافر ، (10) محمد ، وللاستزادة انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / 374 .

ثالثاً : الآيات المشتملة على ربط الأسباب بالمسببات .

من مظاهر موارد السنن في القرآن تلك الآيات الوارد فيهـا ربـط الأسـباب بالمسـببات ، والمقدمات بالنتائج فيما يتعلق بالجزاء الإلهي المترتب على فعل البشر ، إذ مجال السـنن الإلهيـة الحقيقي قائم على قدم وساق بقانون السببية الذي مؤداه أن الأخذ بالسبب يؤدي إلى الوصول للنتيجة إذا تحققت الشروط وانتفت الموانع بإذن الله تعالى . ومن هذه الآيات قوله تعالى {ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب } [1] ، وقوله {ومن يتقِ الله يجعل له من أمره يسرا} [2]، وقوله تعالى {إَن تتقُواْ اللّه يجعل لكُم فُرقَاناً}[3] ، وقوله {إِن تنصـروا الله ينصركُم ويثَبت أَقْدامكُم}[4] ، وقوله {ولَو أَن أَهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنـا علَـيهم بركَات من السماء والأَرضِ}[5] ، وقوله {وتلْك الْقُرى أَهلَكْناهم لَما ظَلَمـوا} [6] ، وقولـه {ورفَع بعضكُم فَوق بعضٍ درجات ليبلُوكُم في ما آتاكُم}[7] ، وغير ذلك من الآيـات الـتي يتعلق فيها فعل الله وجزاؤه بالسلوك البشري .

---

(1) سورة الطلاق / 2 ـ 3 .

(2) سورة الطلاق / 4 .

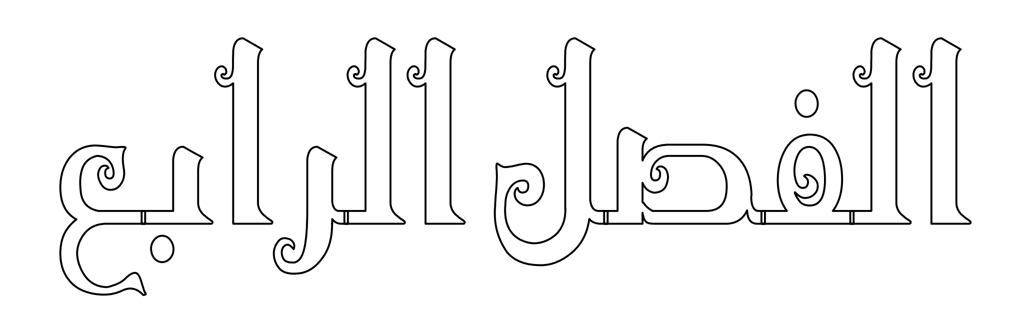
(3) سورة الأنفال / 29 .

(4) سورة محمد / 7 .

(5) سورة الأعراف / 96 .

(6) سورة الكهف / 59 .

(7) سورة الأنعام / 165 .



كيفية الاستفادة من السنن الإلهية في تغيير المجتمعات

كيفية الاستفادة من السنن الإلهية في تغيير المجتمعات

إن الحديث عن كيفية الاستفادة من هذه السنن في التغيير يتوقف على النظرة والطريقة التي نتعامل بها مع القرآن الكريم ، فإذا كانت النظرة للقرآن على أنه منهج حياة ودستور أمة فإن هذه النظرة ستنسحب على السنن الإلهية ، لأن هذه السنن جعلها القرآن الكريم قوانين للتغيير ، وإن الناظر إلى القرآن الكريم بتدبر وعمق يرى دلالة القرآن القاطعة على أن كل شيء يحدث بسبب ، سواء كان هذا الحدث يتعلق بالجماد أو بالنبات أو بالحيوان أو بالإنسان أو بالأجرام السماوية أو الظواهر الكونية المادية المختلفة . فقانون السببية ؛ أي ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها ، هذا القانون عام شامل لكل ما في الكون ، ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة . يقول ابن تيمية " فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات " [1] . فمن الأسباب المادية قوله تعالى{وأنزلَ من السماء ماء فأخرج بِهِ من الثمرات رِزقاً لكُم} [2] . ومن الأسباب المعنوية قوله تعالى{إن تتقُواْ اللّهَ يجعل لكُم فُرقاناً}[3] .

هذا ويمكن الحديث عن كيفية الاستفادة من السنن الإلهية في تغيير المجتمعات فيما يلي :

أولاً : ربط الأسباب بمسبباتها .

فالله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها شرعاً وقدراً ، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الكوني القدري ، ومحل ملكه وتصرفه . " وقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة ، كل ذلك مرتبطاً بالأسباب قائماً بها ، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات ، والشرع كله أسباب ومسببات ، والمقادير أسباب ومسببات ، والقدر جارٍ

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 70) .

(2) سورة البقرة / 22 .

(3) سورة الأنفال / 29 .

عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر " [1] . ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى {وما كَانَ اللّه ليطْلعكُم علَى الْغيبِ} [2] . لأن الله جعل نظام هذا العالم مؤسساً على استفادة المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها [3]. وأقام الكون ونظام الحياة على الأخذ بالأسباب والسعي فيما أمر به ، وكل ذلك ينتفي إذا اطلعنا على الغيب الذي استأثر به ؛ لأننا سنتكل عليه ولا نسعى إلا فيما كتب لنا السعي فيه، ومن ثمّ يرفع التكليف وتنتفي سنة الابتلاء والجزاء. كما أن الناظر في القرآن بتدبر وعمق يرى أن الله عز وجل قد كفل أموراً لعباده بموجب فضله وكرمه ، فحتى في هذه الأمور المكفولة حثنا ورغبنا على الأخذ بالأسباب ، والدليل على ذلك قوله تعالى{هو الذي جعلَ لَكُم الْأَرض ذَلُولًا فَامشوا في مناكبِها وكُلُوا من رزقه وإِلَيه النشور}[4] . فقد تكفل الله برزق مخلوقاته بدليل قوله تعالى { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها }[5] . وقوله تعالى {وفي السماء رِزقُكُم وما توعدونَ} [6] ، وقوله تعالى {وكَأَين من دابة لَا تحملُ رِزقَها الله يرزقُها وإِياكُم}[7] . لكنه سبحانه جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة . ولذلك ورد في الحديث عن النبي ﷺ (إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف) [8] في مقابل قوله ﷺ (لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها) [9] .

---

(1) انظر : شفاء العليل لابن القيم / 188 .

(2) سورة آل عمران / 179 .

(3) انظر : تفسير التحرير والتنوير (4 / 179) .

(4) سورة الملك / 15 .

(5) سورة هود / 6 .

(6) سورة الذاريات / 22 .

(7) سورة العنكبوت / 60 .

(8) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (8 / 380) رقم 8934 ، والبيهقي في شعب الإيمان (2 / 88) رقم 1237.

(9) أخرجه الشافعي في مسنده (1 / 233) رقم 1153 ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (2 / 67) رقم 1185.

وموجز القول أن المراد من الآيات والأحاديث الواردة في كفالة الرزق للخلق هو ضمان الرزق وليس المراد نفس التسبب إلى الرزق ، بل الرزق المتسبب إليه . ولو كان المراد نفس التسبب لما كان المكلف مطلوباً بتكسب فيه على كل حال ، ولو بجعل اللقمـة في الفـم ومضـغها ، أو ازدراع الحب أو التقاط النبات أو الثمرة المأكولة ، لكن ذلك باطل باتفاق ، فثبت أن المراد من النصوص الشرعية هو عين المتسبب إليه [1] . والإنسان ليس بدعاً في هـذه الطريـق ، وإنمـا تشاركه الكائنات الحية في السعي إلى رزقها والعمل من أجل تحصيل مـا يقـوم بـه حيا ـا ومعيشتها ، وهذا ما بينه قول النبي صلى الله عليه وسلم (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) [2] . حيث أثبت لها رواحاً وغدواً لطلب لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل ، وهو المسخر المسير المسبب [3] . ولذلك لا يخلـو حال من أحوال الإنسان من التسبب والسعي إلا أن يكون ذا عجز مزمن لا يقدر معـه علـى الكسب ، أو في حال وجب على غيره كفالته فيها .

ومظهر آخر يربط فيه الخالق جل وعلا بين ما كفله لبعض عباده بتحققهم بما أوجب عليهم من السعي في الأسباب وامتثال أمر الله فيها ، ذلك المظهر هو الوعود التي وعد الله ا عباده شريطة أن يتصفوا بما أمرهم وينتهوا عما اهم ، ومن ذلك قوله تعالى {وعد الله الذين آمنوا مـنكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدونَنِي لَـا يشـرِكُونَ بِـي شـيئًا}[4] . فالتكاليف التي تضمنتها هذه الآية من التوحيد والإيمان وعمل الصالحات ، والـتي جعلـها الله قواماً لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن ـ صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها ، وكانت الموعدة كالمسبب عليها فشا ت من هذه الحالـة خطـاب

---

(1) انظر : الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي (1 / 190) .

(2) أخرجه ابن ماجه (2 / 1394) رقم 4164 ، وأخرجه أحمد (1 / 30) رقم 205 قال الألباني : صحيح . وقال الأرناؤوط : إسناده قوي ورجاله ثقات .

(3) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (4 / 399) .

(4) سورة النـور / 55 .

الوضع ، وهذا ما أشير إليه في آية أخرى حيث يقول تعالى {ولَقَد كَتبنا في الزبورِ مـن بعـد الذكْرِ أن الْأَرض يرِثُها عبادي الصالحونَ ـ إن في هذَا لَبلَاغًا لقَومٍ عابِدين}[1] [2] .

وإن المتأمل في القرآن الكريم ليجد مواضع كثيرة فيه تدل على أن الله ربط الأسباب بمسببا ا ، ومن ذلك قوله تعالى{فَقُلْنا اضرِب بعصاك الْحجر فَانفَجرت منه اثْنتا عشرةَ عينـاً}[3]. فعنـد التأمل في الآية نجد أن في الكلام حذف تقديره : فضرب فانفجرت " وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب ، لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب ، حكمـة منه للعباد في وصولهم إلى المراد ، وليرتب على ذلك ثوا م وعقا م في المعاد " [4] .

وقوله تعالى فيما أمر الله به مريم عليها السلام في حالة ضعفها ساعة ولادة عيسى عليه الصـلاة والسلام حيث جاء قوله تعالى لها {وهزي إِلَيك بِجِذْعِ النخلَة تساقطْ علَيك رطَبا جنِيا} [5] . فقد استدل من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً ، فإن الله قد وكل ابن آدم إلى سـعي ما فيه ، ففي" أمرها بالهز إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب ، وهـو لا ينافي التوكل ، وما أحسن ما قيل :

ألم تر أن الله أوحى لمريم   وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء الله أحنى الجذع من غير هزه   إليها ولكن كل شيء له سبب " [6] .

وفي المعنى نفسه يأتي قوله تعالى في قتال الملائكة مع المؤمنين في غزوة بدر {إِذْ تستغيثُونَ ربكُـم فَاستجاب لَكُم أَني ممدكُم بِأَلْف من الْملآئكَة مردفين ـ وما جعلَه اللّه إِلا بشرى ولتطْمئن بِه قُلُوبكُم وما النصر إِلا من عند اللّه إِن اللّه عزِيز حكيم ـ إِذْ يغشيكُم النعاس أَمنةً منه وينـزلُ علَيكُم من السماء ماء ليطَهركُم بِه ويذْهب عنكُم رِجز الشيطَان وليرْبِطَ علَى قُلُوبِكُم ويثَبت بِه

---

(1) سورة الأنبياء / 105 ـ 106 .

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (18 / 284) .

(3) سورة البقرة / 60 .

(4) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (1 / 419) .

(5) سورة مريم / 25.

(6) انظر : تفسير روح المعاني للألوسي (16 / 85) .

الأَقْدَام ـ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [1] . وقد سئل أحد السلف عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي صلى الله عليه وسلم مع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه فأجاب " وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش ، رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده " [2] . ومن الأمثلة العملية لحياة النبي صلى الله عليه وسلم مما يمكن أن تدخل معنا في هذا المضمار ، هو ما نصر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار ساعة الهجرة ، حيث كان من الممكن أن يحول بينهما وبين الشر الذي يلاحقهما ـ على أيدي المشركين ـ بقدرته المباشرة وبغير وسائط ، ولكنه شاء أن تكون نصرته لنبيه صلى الله عليه وسلم وصاحبه تجري على سبب من الأسباب ، سواء عهد الناس هذا السبب أو لم يعهدوه يتمثل ذلك في نسج العنكبوت على فم الغار ، وكذلك في رقود الحمامة على بيضها بما يوحي خلو المكان من أثر إنسان كما ورد في بعض الآثار [3].

ثانياً : يئة الأسباب .

من ضرورات الاستفادة من هذه السنن في التغيير أن نفهم منها أن الله عز وجل إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه التي يقع ا ، وأمر ـ التهيئة هذا ـ منتظم في كل ما يقدر الله عز وجل وقوعه ، مما حدا بنا أن نسميه بـ (قانون التهيئة) . وذلك لأن الله تعالى جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرم وقوانين لا تنخرق إلا بمشيئته سبحانه وتعالى ، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات ، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب حقيقة في الوصول إلى مسببا ا ، وقد قيل : إذا أراد الله أمراً يسر أسبابه .

---

(1) سورة الأنفال / 9 ـ 12 .

(2) انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (7 / 313) .

(3) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (3 / 181) .

ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حيثيات غزوة بدر وملابسا ا؛ حيث هيأ الله تعالى أسباب النصر للمسلمين في هذا اليوم ، ولم يجعل نصرهم في ظاهر الأمر من قبيل الخوارق المحضة التي ليس للسبب فيها نصيب ، خاصة في مثل هذا الموقف الشديد الـذي عانى فيه المسلمون من قلة العدد والعتاد ، كل ذلك ليتبين للمسلمين قبل غيرهم أن السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظام الكون لا تتخلف عادة .

وقد تجلّت هذه الأسباب وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر {إِذْ يغشيكُم النعـاس أمنةً منه وينزلُ عليكُم من السماء ماء ليطَهركُم بِه ويذْهب عنكُم رِجز الشيطَان وليرِبطَ علَـى قُلُوبِكُم ويثَبت بِه الأَقْدام}(1). فإن إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر لأ م لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم ، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً . ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب (2) .

ومن الأمثلة التي تبين يئة الأسباب لوقوع مراد الله تعالى ما كان من مفارقة الأنبياء أقـوامهم بعد إنذارهم ليخصهم الاستئصال دو م مع أن الله قادر على إهلاكهم وإنقاذ المـؤمنين وهـم بينهم ، ولكن سنة الله في ذلك أن يأمر الرسل وأتباعهم بالخروج والانزواء بعيداً عمـن حـق عليهم العذاب ، ولذلك نجد كثيراً ما يأتي قوله تعالى لبعض رسله {قَالُواْ يا لُوطُ إِنا رسلُ ربك لَن يصلُواْ إِلَيك فَأَسرِ بِأَهلك بِقطْعٍ من الليلِ ولاَ يلْتفت منكُم أَحد إِلا امرأَتك إِنه مصيبها مـا أَصابهم إِن موعدهم الصبح أَلَيس الصبح بِقَرِيبٍ} (3). هذا في لوط عليه السلام وقومه ، وجاء فيه أيضاً {فَأَسرِ بِأَهلك بِقطْعٍ من الليلِ واتبِع أَدبارهم ولاَ يلْتفت منكُم أَحد وامضـواْ حيـثُ تؤمرونَ ـ وقَضينا إِلَيه ذَلك الأَمر أَن دابِر هؤلاء مقْطُوع مصبِحين } (4) . وقال لنوح عليـه السلام {حتى إِذَا جاء أَمرنا وفَار التنور قُلْنا احملْ فيها من كُلٍ زوجينِ اثْنينِ وأَهلَك إِلا مـن

---

(1) سورة الأنفال / 11 .

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (9 / 278) .

(3) سورة هود / 81 .

(4) سورة الحجر / 65 ـ 66 .

سبق عليه الْقَولُ ومن آمن وما آمن معه إلا قَليلٌ}[1] . وفي آية أخرى عن قوم نوح {فَكَـذبوه فَنجيناه ومن معه في الْفُلْك وجعلْناهم خلائف وأَغْرقْنا الذين كَذبواْ بِآياتنا}[2] . وفي موضـع ثالث {فَكَذبوه فَأَنجَيناه والذين معه في الْفُلْك وأَغْرقْنا الذين كَذبواْ بِآياتنا} [3] . ويندرج تحت هذه الأمثلة ما حدث مع موسى عليه السلام حين ولادته وخوف أمه عليه من بطش فرعـون وقتله لجميع ذكور بني إسرائيل الذين يولدون في عصره ، حيث خاف من أن ينتزع أحد منهم الملك منه ، كما أخبره بذلك بعض كهنته ، فألهم الله أم موسى أن تضعه في اليم ووعدها بأنـه سيرده إليها سالماً ، بل وسيكون من المرسلين ، فتحقق وعد الله من خلال سننه القائم عليهـا نظام الكون . وفي بيان ذلك جاء قوله تعالى {وأَوحينا إِلَى أُم موسى أَنْ أَرضعيه فَـإِذَا خفْـت علَيه فَأَلْقيه في الْيم ولَا تخافي ولَا تحزنِي إنا رادوه إِلَيك وجاعلُوه من الْمرسلين ـ فَالْتقَطَه آلُ فرعونَ ليكُونَ لَهم عدوا وحزنا إِن فرعونَ وهامانَ وجنودهما كَانوا خاطئين ـ وقَالَت امرأَت فرعونَ قُرت عينٍ لي ولَك لَا تقْتلُوه عسى أَن ينفَعنا أَو نتخذَه ولَدا وهم لَا يشعرونَ ـ وأَصبح فُؤاد أُم موسى فَارِغًا إِن كَادت لَتبدي بِه لَولَا أَن ربطْنا علَى قَلْبِها لتكُونَ مـن الْمـؤمنِين ـ وقَالَت لأُخته قُصيه فَبصرت بِه عن جنبٍ وهم لَا يشعرونَ ـ وحرمنا علَيه الْمراضع من قَبـلُ فَقَالَت هلْ أَدلكُم علَى أَهلِ بيت يكْفُلُونه لَكُم وهم لَه ناصحونَ ـ فَرددناه إِلَى أُمه كَي تقَـر عينها ولَا تحزنَ ولتعلَم أَن وعد الله حق ولَكن أَكْثَرهم لَا يعلَمونَ} [4] . ورد الله عـز وجـل موسى عليه السلام إلى أمه وحقق لها وعده بنظم هذه الأسباب الواردة في الآيات ؛ بل وأغرق فرعون وقومه بعد أن نجى موسى من بطشه ، وفي ذلك تعليم للناس ـ خاصـة المسـلمين ـ " فالله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ، ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معـه بحـادث سماوي ، ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة ، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاءً أسـرع ،

---

(1) سورة هود / 40 .

(2) سورة يونس / 73 .

(3) سورة الأعراف / 64 .

(4) سورة القصص / 7 ـ 13 .

ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداءً من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه فتكون في ذلك عبرة للمشركين " [1] .

ثالثاً : توافر الشروط لعمل الأسباب .

إن المتدبر لكتاب الله تعالى يجد أن من أركان يئة الأسباب لوقوع ما قدره الله عز وجل هو أن تتوفر لهذه الأسباب شروط عملها ، وأن تنتفي عنها الموانع التي تعيق عمل هذه الأسباب ، فالأكل مثلاً سبب للغذاء والشبع واستدامة الحياة ، ولكن بشرط سلامة أعضاء الإنسان الضرورية لتلقي الطعام والاستفادة منه ، وانتفاء الموانع ؛ أي انتفاء العوائق التي تعيق عمل هذه الأعضاء في انتفاعها من الأكل .

والزرع سببه حرث الأرض وإلقاء البذر ، وشرط صلاحية الأرض للإنبات وصلاحية هذا البذر للنبات وتوفر الماء الكافي ، وانتفاء الموانع من خروج النبات والثمر ، كانتفاء الآفات التي لك الزرع والثمر أو تمنع نموه ، وهكذا . وفي ذلك جاء قوله تعالى {أَفَرَأَيتم ما تحرثُونَ ـ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارِعونَ}[2] أي : إذا كانت منكم الحراثة والبذر ـ مع إعانتنا لكم على ذلك ـ فإن إتمام الزرع والإثمار وتوفير الشروط وإزالة الموانع من شأننا نحن . ويؤكد ذلك قوله تعالى {أَمن خلَق السماوات والْأَرض وأَنزلَ لَكُم من السماء ماء فَأَنبتنا بِه حدائق ذَات بهجة ما كَانَ لَكُم أَن تنبِتوا شجرها أَإِلَه مع الله بلْ هم قَوم يعدلُونَ} [3] . فقد ذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلق الله ، ولقطع شبهة أن يقولوا : قد ذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلق الله ، ولقطع شبهة أن يقولوا : إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء ، اغتراراً بالسبب فبودر بالتذكير بأن الله خلق الأسباب وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب ، وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب ، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب . فقد يـ ل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر أو يقتلهما ، ولذلك جمع بين قوله (وأنزل)

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير (20 / 86) .

(2) سورة الواقعة / 63 ـ 64 .

(3) سورة النمل / 60 .

وقوله (فأنبتنا) تنبيهاً على إزالة الشبهة [1] . وقد صرح المحققون من العلماء بضرورة تحقق شروط السبب وانتفاء موانعه حتى ينتج هذا السبب مسببه ، قال ابن تيمية " فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع " [2] . وقال في موضع آخر " فلابد من تمام الشروط وزوال الموانع ـ أي في إنتاج الأسباب ـ وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه ، ولابد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود . فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له . والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى " [3] وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله " المسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته " [4] وقال بعضهم " وأما إذا لم تفعل الأسباب على ما ينبغي ، ولا استكملت شرائطها ، ولم تنتف موانعها ، فلا تقع مسببا ا ، شاء المكلف أو أبى ، لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره . وأيضاً فإن الشارع لم يجعلها أسباباً مقتضية لمسببا ا إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها ، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سبباً شرعياً سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا فالثمرة واحدة " [5] .

رابعاً : الهمة العالية والإرادة القوية في التغيير .

فإن الفئة التي تريد أن تستفيد من هذه السنن في التغيير ليست كأي فئـة ، فهـي فئـة ذات مواصفات خاصة وسمات معينة ، ففي قلو م إيمان قد تتزحزح الجبال ولا يتزحزح ، وعنـدهم إرادة أقوى من الجبال الشم الرواسي ، وعندهم همة يبلغون ا الجوزاء ويطاولون ـا عنـان

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير (20 / 11) .

(2) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 133) .

(3) انظر : مجموع الفتاوى (8 / 167) .

(4) انظر : إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (4 / 285) .

(5) انظر : الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي (1 / 218) .

السماء . فقد أقام الله عز وجل الكون على ألا يكون للكسالى والقاعدين والمثبطين والمعوقين أثر فاعل في جنباته أو تحقق لما يتمنونه ويشتهونه ، لأنه ربط فيه الأعمال بأسبابها وشرع أن لا وصول لأثر بغير سببه ، وقضى أن الجزاء يكون على العمل وليس على التمني والغرور ، وأن كل من يعمل سوءاً يلقى جزاءه ؛ لأن الجزاء ـ بحسب سنة الله تعالى ـ أثر طبيعي للعمل .

قال تعالى {ليس بِأَمانِيِكُم ولا أَمانِي أَهلِ الْكتابِ من يعملْ سوءًا يجز بِهِ ولاَ يجِد لَه من دون اللّه وليا ولاَ نصيرا ـ ومن يعملْ من الصالحات من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمن فَأُولَئك يدخلُونَ الْجنةَ ولاَ يظْلَمونَ نقيرا} [1] . وقد ورد في المأثور من التفسير أن هذه الكلية العامة (من يعمل سوءاً يجز به) راعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأخافته ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها وقال : من ينجو مع هذا يا رسول الله ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (أما تحزن ؟ أما تمرض ؟ أما تصيبك اللأواء ؟) قال : بلى . قال (فهو مما تجزون به) [2] .

هذا وإن في هاتين الآيتين من العبرة والموعظة ما يدك صروح الأماني ومعاقل الغرور التي يأوي إليها ويتحصن فيها الكسالى والجهال والفساق من المسلمين الذين جعلوا الدين كالأعراف السياسية ، وظنوا أن الله العزيز الحكيم يحابي من يسمي نفسه مسلماً . ويفضله على من يسميه يهودياً أو نصرانياً بمجرد اللقب ، وأن العبرة بالأسماء والألقاب لا بالعلم والعمل . وقد خاب ظنهم وخسر سعيهم ، لأن أمر النجاة بل السعادة منوط بالعمل والإرادة معاً كما هو صريح الآية الثانية . فما ظنك بقومٍ ادعوا الإيمان وتركوا العمل به فلا نجد لهم أفضل مما قاله الحسن البصري رحمه الله " وإن قوماً غرتهم الأماني وقالوا نحن نحسن الظن بالله وقد كذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل " ، فما ظننا بمن ترك الإيمان والعمل جميعاً ـ أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ـ فمما ينبغي أن يترسخ في الأذهان ويتثبت في القلوب أن المسلمين أمروا كغيرهم بالأخذ بالأسباب والسير على منوالها ؛ لأن الله تعالى أراد أن يعلم الأمة المسلمة أن تعيش بين

(1) سورة النساء / 123 ـ 124 .

(2) أخرجه أحمد (1 / 11) رقم 68 ، وابن حبان (7 / 170) رقم 2910 ، وأخرجه الحاكم (3 / 78) رقم 4450 وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي عنه في التلخيص : صحيح .

الأمم ـ كما يعيشون ـ تصطنع الأسباب وتتخذ الوسائل إلى النتائج ، ثم تتميز بعد ذلك على سائر الأمم بمنهجها الذي تتبعه إخلاصها لر ا ، فتضفي منه شيئاً غير قليل على علاقا ا بأبنـاء نوعها، وعلى علاقا ا بالكون والحياة على السواء .

وعقيدة المسلمين تقتضي أن يصطنع المسلم الأسباب التي خلقها الله في الكون مرتبطة بالمسببات، ولكنه في الوقت ذاته لا يتوجه إلى هذه الأسباب بالعبادة بحيث يعتقد فيها أ ا مستقلة بالفعـل. ولا غرو أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وكذا أمته مطالبين جميعاً أن يصـطنعوا في كـل حدث من الأحداث المعتادة الأسباب التي تؤدي بالحدث أن يصل إلى غايته المرادة منه ، حتى لو نفدت بعض الأسباب وجب عليهم البحث عن غيرها مما أناط الله ا الوصول إلى مسـببا ا . ونستطيع أن نضرب مثالاً لذلك بما حدث في الغار إبان الهجرة ، حيث انتهى أبو بكر الصديق رضي الله عنه بتفكيره في الأسباب العادية بعد أن ذهب عنه الروع فحزن لذلك حزناً شديداً ، والنبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يرفع عنه هذا الحزن وآثاره فقال له (يا أبا بكر {لاَ تحزنْ إن اللّه معنا}[1]) [2]. وفي هذه الجملة من الرسول صلى الله عليه وسلم صرف لأبي بكر رضي الله عنه عن المنهج الذي اتبعه في التفكير إلى منهج آخر مختلف تماماً ، سيؤدي به ـ ولاشك ـ إلى نتيجة مغايرة للنتيجة التي انتهى إليها من المنهج الذي كان يفكر على أساس منه . والمنـهج الذي كان أبو بكر يفكر على أساس منه منهج مشروع ، لأنه يعتمد على سـنن الله الجاريـة المعتمدة على الأسباب ، وهي مخلوقة لله سبحانه ، قد أقام نظام كونه على أساس منها ، ولكنها قد انتهت به في هذه الحال إلى الحزن والخوف على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يلفته إلى المنهج الآخر ، وهو لتكراره في الحالات المماثلة يشبه أن يكون سنة أخرى من سنن الله الجارية ، ومن الأسباب التي حثنا الله عليها في مثل هذه الحال ، وهي إجابة المضطر والوقوف بجانب المستغيث به من خلقه ، فما بالنا والمضطر هو أكرم خلقـه عليـه ،

---

(1) سورة التوبة / 40

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1323) رقم 3419، وأخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2308)رقم 2009.

والحاضر دائماً لديه . يقول تعالى {أمن يجيب الْمضطَر إِذَا دعاه ويكْشف السوءَ ويجعلُكُـم خلَفَاء الْأَرضِ أَإِلَه مع الله قَليلًا ما تذَكَرونَ} [1]. وهو نفس المنهج الذي لفت النبي صـلى الله عليه وسلم أبا بكر إليه ليتأمله بقلبه وعقله (لا تحزن إن الله معنا) . ويؤخذ أبو بكر من جميع أقطاره ، حيث ذهل عن هذا المنهج وانصرف عنه ، وشغله عنه بقية من علم وشيء من تعلقـه بمنهجه الذي انتهجه ، فسأله : أو نحن في معية الله عز وجل ؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأن (نعم) . فهدأ وسكن [2] .

و ـذا المثال وغيره يتبين لنا أن الله أراد من خلقه عموماً ـ ومن المسلمين على وجه الخصـوص ـ أن يتخذوا من (قانون السببية وقانون التهيئة) أصلاً يتعاملون على أساسه وهم يمارسـون حيا ـم مع الكون ومع الأحياء بشرط واحد ، وهو أن يكون راسخاً في قلب الأمة أن الأسباب من خلق الله ، وأننا مأمورون بالأخذ ـا ، وأن اصطناعها لا يكون عبادة لها ؛ إذ لـيس مـن الضرورة أن تفضي ـم هذه الأسباب إلى نتائجها .

إن نظام أمور الدنيا وترتب مسبباته على أسبابه أمر قد وضعه الله تعالى وأمر بالحفاظ عليـه ، وأرشد وهدى إليه ، فمن فرط في شيء من ذلك فقد استحق ما تسبب فيه ، يقول تعالى {إِن علَينا لَلْهدى ـ وإِن لَنا لَلْآخرةَ والْأُولَى} [3] .

خامساً : طلب النتائج من غير مقدما ا مذموم .

ومن الشواهد على ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى {وأَن تستقْسِمواْ بِالأَزلاَمِ ذَلكُم فسق}[4]. فالاستسقام هو : طلب القسم وهو النصيب ، أو القَسم بفتح القاف وهو المصدر [5]. والأزلام

(1) سورة النمل / 62 .
(2) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (2 / 74) .
(3) سورة الليل / 12 ـ 13 .
(4) سورة المائدة / 3 .
(5) انظر : تفسير المحرر الوجيز لابن عطية (2 / 153) .

جمع زلم كجمل ، أو زلم كصرد ، وهو القدح [1]. وعلى ذلك فمعنى الآية : وحـرم علـيكم الاستقسام بالأقداح ، وذلك أ م كانوا إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح ، مكتـوب علـى أحدها : أمرني ربي . وعلى الثاني : اني ربي . وأبقوا الثالث غُفْلاً لم يكتب عليه شيء . فـإن خرج الآمر مضوا لحاجتهم ، وإن خرج الناهي تجنبوا ، وإن خرج الثالث أجالوها ثانيـة [2] .

وقد جعل الله الاستقسام فسقاً ؛ لأن منه ما هو مقامرة ، ومنه ما هو مـن شـرائع الشـرك ، لتطلب المسببات من غير أسبا ا ؛ إذ ليس الاستقسام سبباً عادياً مضبوطاً ، ولا سبباً شـرعياً ، فتمحض لأن يكون افتراء ، مع أن ما فيه من توهم الناس إياه كاشفاً عن مراد الله م ، مـن الكذب على الله . لأن الله نصب لمعرفة المسببات أسباباً عقلية ؛ هي العلوم والمعارف المتنوعـة من العقل ، أو من أدلته كالتجربة ، وجعل أسباباً لا تعرف سببيتها إلا بتوقيف منه على لسـان الرسل ، كجعل الزوال سبباً للصلاة ، وما عدا ذلك كذب و تان ، فمن أجل ذلك كان فسقاً ولذلك قال فقهاؤنا بجرحة من ينتحل ادعاء معرفة الغيوب [3] .

وليس من ذلك تعرف الأسباب من أسبا ا ، كتعرف زوال المطر من السحاب ، وترقّب خروج الفرخ من البيضة بانقضاء مدة الحضانة ، وفي الحديث (إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غُديقة) [4] ومعنى (بحرية) أي : سحابة من جهة بحرهم ، و(تشاءمت) أي : أخذت نحـو الشام ، ومعنى (عين غديقة) : أ ا كثير المطر [5] . هذا وقد أغنانا الشرع عن اللجوء إلى هذه هذه التخرصات المحرمة التي وقع فيها أهل الشرك والجهالة ، وذلك بما ندب إليه من الاستخارة الشرعية الواردة في الحديث الصحيح فيما جاء عن جابر بن عبد الله أنه قال : كان رسـول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن يقول (إذا هم أحدكم بـالأمر فليركـع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من

---

(1) انظر : تفسير روح المعاني للألوسي (6 / 58) .

(2) انظر : جامع البيان للطبري (6 / 76) ، وتفسير روح المعاني للألوسي (6 / 58) .

(3) انظر : تفسير التحرير والتنوير (6 / 99) .

(4) أخرجه مالك في موطأه برواية يحيى الليثي (1 / 1092) .

(5) انظر : التمهيد لابن عبد البر (24 / 378) ، وتنوير الحوالك بشرح موطأ مالك للسيوطي (1 / 154) .

فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنـت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال : عاجل أمري وآجلـه ـ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديـني ومعاشـي وعاقبة أمري ـ أو قال : عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه واقـدر لي الخـير حيث كان ثم أرضني به . قال : ويسمي حاجته) [1]. وليس في هذه الاستخارة إشارة مـا إلى معنى يقرب من معنى الاستقسام ـ ولا التفاؤل ـ وإنما هي أمر عبادة ودعاء عنـد الاهتمـام بالأمر والعزم عليه ، حتى لا ينسى المؤمن ربه تعالى عند اهتمامه بالشأن من شؤون الدنيا . وفي ذلك وضع الأشياء مواضعها ، وإرجاع الأمور لأهلها ؛ إذ لا يعلم الغيب أحد إلا الله تعـالى ، وهو في ذات الوقت السبب الأول الدائم الذي ترجع إليه جميع الأسباب ، بـل والمسـببات . يقول تعالى {ولِلّه غَيب السماوات والأَرضِ وإِلَيه يرجع الأَمر كُله فَاعبده وتوكلْ علَيـه} [2]. ولذا فالاستخارة ـذا الاعتبار تعد سبباً من الأسباب الموصلة إلى مسببا ا ، أو بالأحرى هي علة باعثة على الإقدام أو الإحجام . و ـذا يتضح أن أية أسباب ـ مهمـا كـان شـأ ا ـ إذا لم يعتبرها الشرع ، فهي أسباب في الحقيقة ولكنها لا توصل إلى مطلوب أصحا ا ، وإنما توصـله إلى جهنم والعياذ بالله ؛ لأن الاعتماد عليها وتفويضها في المقادير وفي الوصول إلى ما لا يعلمـه إلا الله يجر إلى تعطيل الشريعة والطعن فيها ، ويكر على مقصد الدين بالبطلان .

فالنتائج مرتبطة بمقدما ا شرعاً وقدراً ، ولذلك فطلبها من غير مقدما ا مذموم ، كما أن إنكار المقدمات لأن تكون موصلة لغايا ا أمر مردود . وقد رد ابن تيمية على من لم يعتبر الأسـباب وينكر أن تكون مسببا ا ناتجة عنها فقال " ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقـل ، وهو طعن في الشرع أيضاً ، فالله تعالى يقول {وما أَنزلَ اللّه من السماء من ماء فَأَحيا بِه الأرض بعد موتها} [3]. وقال تعالى {يهدي بِه اللّه منِ اتبع رِضوانه سبلَ السلاَمِ} [4] ، وأمثال ذلك .

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (1 / 391) رقم 1109 .

(2) سورة هود / 123

(3) سورة البقرة / 164 .

(4) سورة المائدة / 16 .

فمن قال يفعل الله تعالى عندها ؛ أي عند هذه الأسباب لا ا فقد خالف لفظ القرآن ، مع أن الحس والعقل يشهدان أ ا أسباب. ويعلم أن الفرق بين الجبهة والعين في اختصاص أحدهما بقوة ليس في الآخر ، ويعلم الفرق بين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر" [1].

والحاصل أنه قد ثبت بالقطع أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة {إنا كُل شيءٍ خلَقْناه بِقَدرٍ}[2] ، {وخلَق كُل شيءٍ فَقَدره تقْديرا}[3]. فكل أمـر لحكمـة ، ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة {وعسى أَن تكْرهواْ شيئًا وهو خير لكُم وعسى أَن تحبواْ شيئًا وهو شر لكُم واللّه يعلَم وأَنتم لاَ تعلَمونَ} [4] ، {فَعسى أَن تكْرهواْ شيئًا ويجعلَ اللّه فيه خيرا كَثيرا} [5] . والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها ، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبـها ، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة التي تنشئ الآثار والنتائج و يء الظروف لتحققها ، كما تنشئ الأسباب والمقدمات {لَا تدرِي لَعل اللـه يحدثُ بعد ذَلك أَمرا} [6]، {وما تشاؤونَ إِلَّا أَن يشاء الله} [7]. والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه لأنه مأمور بالأخذ ا والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها . والاطمئنان إلى رحمة الله وعدلـه وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين ، والنجاة من الوساوس والهـواجس {الشـيطَانُ يعدكُم الْفَقْر ويأْمركُم بِالْفَحشاء واللّه يعدكُم مغفرةً منه وفَضلاً واللّه واسع عليم}[8] [9] .

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 175) .
(2) سورة القمر / 49 .
(3) سورة الفرقان / 2 .
(4) سورة البقرة / 216 .
(5) سورة النساء / 19 .
(6) سورة الطلاق / 1 .
(7) سورة التكوير / 29 .
(8) سورة البقرة / 268 .
(9) انظر : في ظلال القرآن (1 / 12 ـ 13) .

ومن التطبيقات القرآنية في وجوب الأخذ بالأسباب وبيان أن ذلك ضروري للنهوض الحضاري للأمم ؛ ما ورد في قصة ذي القرنين ، التي تبين كيف ربط الإسلام إمكـان الإنجـاز بمعرفـة الأسباب وكشف السنن التي تحكم الكون وعالم الحياة والأحياء. وقد قدم القرآن (ذا القرنين) أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج ، واعتبر ذلك مقدمة لابد منـها للنهوض والإنجاز الحضاري ، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن والأسباب نظرياً .

لقد مكّن الله له في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ، ويسر له أسباب الحكـم والفـتح ، وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع ، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة {فَأَتبع سببا }[1] .

سار ذو القرنين في الأرض ، وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغر ا ، وتعرف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري والتحديات والمعاناة التي تواجه البشـر ، وأيقـن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة ، ووقف على أسباب التردي ، ووسـائل التمكين في الأرض ، فوضع الخطط ، وأشرك الأيدي العاملة ، واستحضر الموارد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز ، وبذلك استكمل الأسباب المادية التي توصله إلى ما يريده مع ما فيه من التقوى والصلاح ، فاكتملت لديه الأسباب المادية والمعنوية المكلف ا كل مؤمن ليواجه الحياة ويسـير وفق سننها ونظامها الذي وضعه الله قانوناً لها ولمن يريد أن يتعامل معها [2].

إن قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثل ا في الدلالة على القدرة الفائقة لأصـحا ا ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين ، ولكن ذلك بواسطة ما سنه الله من أسـباب في هـذا الكون ، ووسائل تؤدي إلى غايا ا المرادة منها ، لتمثل بذلك أنموذجاً لكل مسـلم يريـد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق ، وليتيقن كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة إنما يتحصل بأسباب ووسائط سواء المادي منها أو المعنوي ، مـن قبيل ما تحقق به ذو القرنين ، كما تسوقه إلينا الآيات الكريمة في قوله تعالى {ويسألونك عن ذي

---

(1) سورة الكهف / 85 .

(2) انظر : السنن الإلهية في الأمم والأفراد دي محمد عاشور / 165 ـ 166 .

الْقَرنين قُلْ سأَتلُو علَيكُم منه ذكْرا ـ إنا مكنا لَه في الْأَرضِ وآتيناه من كُلِّ شيءٍ سببا ـ فَأَتبع سببا ـ حتى إِذَا بلَغَ مغرِب الشمسِ وجدها تغرب في عينٍ حمئَة ووجد عندها قَوما قُلْنا يا ذَا الْقَرنينِ إِما أَن تعذب وإِما أَن تتخذَ فيهِم حسنا ـ قَالَ أَما من ظَلَم فَسوف نعذبه ثُم يرد إِلَى ربه فَيعذبه عذَابا نكْرا ـ وأَما من آمن وعملَ صالحا فَلَه جزاء الْحسنى وسنقُولُ لَه من أَمرِنا يسرا ـ ثُم أَتبع سببا ـ حتى إِذَا بلَغَ مطْلع الشمسِ وجدها تطْلُع علَى قَومٍ لم نجعل لهم من دونِها سترا ـ كَذَلك وقَد أَحطْنا بِما لَديه خبرا ـ ثُم أَتبع سببا ـ حتى إِذَا بلَغَ بين السدينِ وجد من دونِهِما قَوما لا يكَادونَ يفْقَهونَ قَولًا ـ قَالُوا يا ذَا الْقَرنينِ إِن يأْجوج ومأْجوج مفْسِدونَ في الْأَرضِ فَهلْ نجعلُ لَك خرجا علَى أَن تجعلَ بيننا وبينهم سدا ـ قَالَ ما مكَني فيه ربي خير فَأَعينونِي بِقُوة أَجعلْ بينكُم وبينهم ردما ـ آتونِي زبر الْحديد حتى إِذَا ساوى بين الصدفَينِ قَالَ انفُخوا حتى إِذَا جعلَه نارا قَالَ آتونِي أُفْرِغْ علَيه قطْرا ـ فَما اسطَاعوا أَن يظْهروه وما استطَاعوا لَه نقْبا ـ قَالَ هذَا رحمةٌ من ربي فَإِذَا جاء وعد ربي جعلَه دكَّاء وكَانَ وعد ربي حقا} [1] . فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتبعها واستقصاها ، حتى إن القرآن يلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه في العمل بالأسباب ، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها ، حيث يقول (فأتبع سببا) وبعدها يكرر (ثم أتبع سببا) وقرن ذو القرنين ذلك بما انطوى عليه من أسباب معنوية ، وما كان عليه من إيمان وتقوى وعمل صالح في قوله (هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم .

وإن مما تقرر شرعاً وديناً أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فإننا كي نستفيد من هذه السنن في إنجاز التغيير الحضاري المطلوب فإن هذا التغيير لا يتم إلا بدراسة هذه السنن دراسة عميقة وفهمها فهماً مستوعباً لكل جزئيا ا . ومعلوم أن العلم قبل العمل قال تعالى {فَاعلَم أَنه لَا إِلَه إِلَّا اللَّه واستغفر لذَنبِك وللْمؤمنِين والْمؤمنات واللَّه يعلَم متقَلَّبكُم ومثْواكُم}[2]. بناء على

---

(1) سورة الكهف / 83 ـ 98 .

(2) سورة محمد / 19 .

ذلك نقول : إن هذه السنن التي بينها الله في كتابه أو بينها الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وتقريراته جديرة بالدراسة والفهم ؛ بل إن دراستها وفهمها من الأمور الواجبة ديانة ؛ لأن معرفتها معرفة لبعض الدين ، قال تعالى {ونزلْنا علَيك الْكتاب تبيانا لكُل شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى للْمسلمين}[1] " والمراد من (كل شيء) ما يتعلق بأمور الدين ، أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك ، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم " [2].

ومن الواضح أن أحوال الأمم مع أنبيائهم ، تعني ما جرى لهم مع أنبيائهم وما حلّ بهم بسبب سلوكهم معهم وموقفهم منهم وفقاً لسنة الله في إهلاك المعاندين ونصرة أهل الحق ، ولذلك حثّ الله المسلمين على الاتعاظ والاعتبار بهم .

" فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين ، وأن هذه المعرفة ضرورية ومن الواجبات الدينية ، لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة ، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه ، ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين المتقين " [3] .

سادساً : ضرورة دراسة السنن وفهمها فهماً عميقاً .

إن عدم دراسة السنن الإلهية دراسة مستوعبة وإغفال علماء الأمة وحكمائها لتفصيلها وبيانها للأمة على فترات طويلة من تاريخها ، أورث الأمة آثاراً سيئة تمثلت في اعتقاد الكثيرين بعدم ثبات السنن واطرادها ، وعدم النظر في علة الأشياء وأسبابها ، والظن بأن المقدمات توصل إلى النتائج يتعارض مع الإيمان بقدرة الله الذي شرع المقدمات وقدر أن تكون موصلة للنتائج ، وأن التوكل يناقض ويتعارض مع قضاء الله وقدره . فكان العدول عن كشف السنن وتوجيه البحوث القرآنية لدراستها والاستفادة من الوقوف على معطياتها مما أورثنا التأخر الحضاري الذي نعيشه ونعاني منه ، في الوقت الذي نظن أننا أكثر إيماناً ويقيناً مما مضى ، فأوقعنا ذلك

---

(1) سورة النحل / 89 .

(2) انظر : تفسير الألوسي (14 / 214) .

(3) انظر : السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان (16 ـ 17) .

الوهم في دائرة التأخر والخسارة التي نبه الله إليها في كتابه الكريم {قُلْ هلْ ننبئُكُم بِالْأخسـرين أعمالًا ـ الذين ضل سعيهم في الْحياة الدنيا وهم يحسبونَ أنهم يحسِنونَ صنعا} (1) ، تمامـاً مثل ما فعل رجال الكنيسة فأوقفوا عجلة الحضارة والتقدم العلمي .

ويبدو أن المسلمين قد اعتورهم النقص بمعرفة سنن حركة التاريخ والحضارة وإن عايشوا هـذه السنن ومارسوها عملياً ، ولذلك لم تظهر الاهتمامات بحقيقة السنن كبحوث ونظريات إلا في عصور متأخرة بدأت فيها نجوم الحضارة الإسلامية تغيب ، كما هو معـروف في حيـاة ابـن خلدون ، وبعد تلك الحقبة التاريخية قلّت الدراسات المعنية ببيان سنن الله في الأنفس والآفاق ، وصار البحث فيها كالومضات التي تظهر بين الحين والآخر . وحتى مع ظهور هذه الومضـات الفكرية العلمية بقي فقه المسلمين لسنن الحياة متخلفاً لا يتجاوب مع التكثيف القرآني لقصـص الأمم البائدة (2) . " لقد أدى إغفال السنن وعدم فقهها في ميدان الدراسات الحضارية في واقع المسلمين الحالي إلى ضياع طاقات كثيرة بذلها مفكرون ومربون إسلاميون عظام ، وذهب الكثير منها سدى في ظل مشكلة الإنسان المسلم صاحب المنهج الفقيه بسنن التحضر ، الخبير بـربط عناصر الكون وطاقاته المعنوية بالحياة الاجتماعية لخدمة الإنسان " (3) .

سابعاً : دراسة السنن الإلهية دليل العقل والفهم .

إن القرآن الكريم يحدثنا في مواضع عديدة أن الفئة التي قدر الله عز وجل لها أن تحدث التغيير المطلوب في واقع الحياة وأن تواجه الظلم والاستكبار والبغي والعدوان مواجهة فكريـة عقليـة علمية قاطعة وحاسمة هم الذين درسوا هذه السنن وفهموها ، فمثلت بالنسبة لهـم زاداً ثقافيـاً ملهماً في المواجهة ومثبتاً عند اللقاء . ومن نماذج ذلك :

1. الجنود المؤمنون الذين صحبوا طالوت في قتاله للبغاة وعلى رأسهم جالوت حيث حكى القرآن عنهم {قَالَ الذين يظُنونَ أنهم ملاَقُو اللّه كَم من فئَة قَليلَة غَلَبت فئَةً كَثيرةً بِإِذْن

---

(1) سورة الكهف / 103 ـ 104 .

(2) انظر : السنن الإلهية مجدي عاشور / 116 .

(3) انظر : سنن الله في المجتمع من خلال القرآن لمحمد صادق عرجون / 27 .

اللّه واللّه مع الصابِرِين ـ ولَما برزواْ لجالُوت وجنوده قَالُواْ ربنا أَفْرِغْ علَينا صبرا وثَبت أَقْدامنا وانصرنا علَى الْقَومِ الْكَافرِين ـ فَهزموهم بِإِذْنِ اللّه} [1] حيث فهمـوا سـنن النصر على العدو مع القلة ، ومنها الثقة والثبات والدعاء . وجاء تأكيد ذلك في قولـه تعالى {إِن يكُن منكُم عشرونَ صابِرونَ يغلبواْ مئَتينِ وإِن يكُن منكُم مئَةٌ يغلبواْ أَلْفًا من الذين كَفَرواْ بِأَنهم قَوم لا يفْقَهونَ ـ الآنَ خفف اللّه عنكُم وعلم أَن فيكُم ضعفًا فَإِن يكُن منكُم مئَةٌ صابِرةٌ يغلبواْ مئَتينِ وإِن يكُن منكُم أَلْف يغلبواْ أَلْفَينِ بِإِذْنِ اللّه واللّه مـع الصابِرِين} [2] ، مع قوله تعالى للمسلمين في بدر {يا أَيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيـتم فئَـةً فَاثْبتواْ واذْكُرواْ اللّه كَثيرا لعلكُم تفْلَحونَ} [3] ، حيث تحققوا بالثبات والثقة والـذكر فكان النصر حليفهم .

2. ما حدث في قصة قارون حيث تبينت فيها فطنة أهل العلم العالمين بقانون الله في البشر ، حيث لم يغتروا كقارون ومن شاكله ، بالمال والجاه في ضمان الطمأنينة والسـعادة في الدنيا والآخرة . قال الله تعالى عن قارون في تكبره وعتوه ونسبة الفضل لنفسه {قَـالَ إِنما أُوتيته علَى علْمٍ عندي} [4] . ثم تمر الآيات فتحكي اعتقاده هـو ومـن يشـبهه {فَخرج علَى قَومه في زِينته قَالَ الذين يرِيدونَ الْحياةَ الدنيا يا لَيت لَنا مثْلَ مـا أُوتـي قَارونُ إِنه لَذُو حظ عظيمٍ} [5] . ثم يستوقفهم أهل المعرفة بفعل الله في الخلق وبتصرفاته في الكون {وقَالَ الذين أُوتوا الْعلْم ويلَكُم ثَواب الله خير لمن آمن وعملَ صالحا ولَـا يلَقاها إِلا الصابِرونَ} [6] . فتحقق مراد الله وحكمه في الطغاة المتكبرين {فَخسـفْنا بِـه

---

(1) سورة البقرة / 249 ـ 251 .
(2) سورة الأنفال / 65 ـ 66 .
(3) سورة الأنفال / 45 .
(4) سورة القصص / 78 .
(5) سورة القصص / 79 .
(6) سورة القصص / 80 .

وبداره الْأرض فَما كَانَ لَه من فئَة ينصرونه من دون الله وما كَانَ من الْمُنتصـرِين}[1] .

وعاد المغرورون به إلى صوا م وتبينوا حقيقة ما قاله أهل الفهم عن الله {وأصبح الذين تمنوا مكانه بِالْأمسِ يقُولُونَ ويكَأَن الله يبسطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقْدر لَولَا أَن من الله علَينا لَخسف بِنا ويكَأَنه لَا يفْلح الْكَافرونَ}[2] . ثم يـبين الله السـنة القائمـة والحقيقة الدائمة فيقول {تلْك الدار الْآخرةُ نجعلُها للذين لَا يرِيدونَ علُوا في الْأَرضِ ولَا فَسادا والْعاقبةُ للْمتقين }[3] .

3. وكذلك كان مؤمن آل فرعون الذي نصح قومه أشد النصح وحـذرهم مـن جـراء تكذيبهم لموسى عليه الصلاة والسلام أن يحل م العذاب كما حل بالأمم السابقة الـتي كذبت بنبيها ، فيحكي القرآن عنه {وقَالَ الذي آمن يا قَومِ إِني أَخاف علَيكُم مثْلَ يومِ الْأَحزابِ ـ مثْلَ دأْبِ قَومِ نوحٍ وعاد وثَمود والذين من بعدهم وما الله يرِيـد ظُلْمـا للْعباد}[4] . وظل يذكرهم الآخرة، وأن فعلهم هذا صار سجية عندهم بسبب إسرافهم إسرافهم في العناد {ولَقَد جاءكُم يوسف من قَبلُ بِالْبينات فَما زِلْتم فـي شـك ممـا جاءكُم بِه حتى إِذَا هلَك قُلْتم لَن يبعثَ الله من بعده رسولًا كَذَلك يضل الله من هـو مسرِف مرتاب}[5] . ثم يدعوهم إلى ما يعلمه من دعوة إلى الله ورجاء فيما عنده مـن الخير {وقَالَ الذي آمن يا قَومِ اتبِعونِ أَهدكُم سبِيلَ الرشاد ـ يا قَومِ إِنما هذه الْحيـاةُ الدنيا متاع وإِن الْآخرةَ هي دار الْقَرارِ ـ من عملَ سيئَةً فَلَا يجزى إِلا مثْلَها ومن عملَ صالحا من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمن فَأُولَئك يدخلُونَ الْجنةَ يرزقُونَ فيها بِغيرِ حسابٍ}[6] . ويظل على دعوته إياهم وهم يستنكرون منطقه ودعوته ويتربصون بـه ليقتلـوه

---

(1) سورة القصص / 81 .

(2) سورة القصص / 82 .

(3) سورة القصص / 83 .

(4) سورة غافر / 30 ـ 31 .

(5) سورة غافر / 34 .

(6) سورة غافر / 38 ـ 40 .

{فَستذْكُرونَ ما أَقُولُ لَكُم وأُفَوض أَمرِي إِلَى الله إِن الله بصير بِالْعباد ـ فَوقَـاه اللـه سيئَات ما مكَروا وحاق بِآلِ فرعونَ سوءُ الْعذَابِ ـ النار يعرضونَ علَيها غُدوا وعشيا ويوم تقُوم الساعةُ أَدخلُوا آلَ فرعونَ أَشد الْعذَابِ}[1] . فضلاً عن أنـه لاقـى جـزاء تكذيبه في الدنيا فغرق هو وملؤه {فَأَخذْناه وجنوده فَنبذْناهم في الْيم فَانظُر كَيف كَانَ عاقبةُ الظَّالمين ـ وجعلْناهم أَئمةً يدعونَ إِلَى النارِ ويوم الْقيامة لَا ينصرونَ ـ وأَتبعناهم في هذه الدنيا لَعنةً ويوم الْقيامة هم من الْمقْبوحين} [2] .

4. وفي عصر النبوة تستدل السيدة العاقلة الواعية عن الله خديجة بنت خويلـد أم المـؤمنين رضي الله عنها وتحتكم لعدل الله وسنته في خلقه ، فتهدئ من روع سيدنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم عندما فاجأه الوحي أول مرة ، وجبريل على صـورته الملائكيـة المهيبة التي تثير الخوف والرهبة ، فيقول لها رسول الله صلى الله عليـه وسـلم (لقـد خشيت على نفسي) فقالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتقري الضيف وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحـق [3] . فاستدلت بما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال على أن الله لا يخزيه ولقد صدقها القرآن حيث يقول تعالى {أَلا إِن أَولِياء اللّه لاَ خوف علَيهِم ولاَ هم يحزنونَ } [4] .

5. ومن استدل بسنن الله في خلقه على الوقوف على ماهية الحق هرقل عظـيم الـروم ، عندما أتى بأبي سفيان ـ وكان لا يزال مشركاً ـ ليسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله وعما يدعو إليه ، فأجابه أبو سفيان وصدقه القول ، فقال هرقل : وسـألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أ م يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

---

(1) سورة غافر / 44 ـ 46 .

(2) سورة القصص / 40 ـ 42 .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (1 / 4) رقم 3 ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1 / 139) رقم 160 .

(4) سورة يونس / 62 .

وسألت : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أنْ لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . ولما أيقن الرجل بهذه الصفات أقر بنبوته وأن التمكين في الأرض سيكون حليفه يوماً. فقال : فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين [1] . فهذا وعي من هرقل بسنن الله في خلقه ، ومنها التمكين والنصرة لأولياء الله في الأرض ، وهذا معنى قوله تعالى {وَلَقَد كَتبنا في الزبورِ من بعد الذِكْرِ أن الأرض يرِثُها عبادي الصالحونَ} [2] . حيث أخبر تعالى " عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى {إن الأرض للّه يورِثُها من يشاء من عباده والْعاقبةُ للْمتقين} [3] . وقال تعالى {وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم} [4] ، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة " [5] .

---

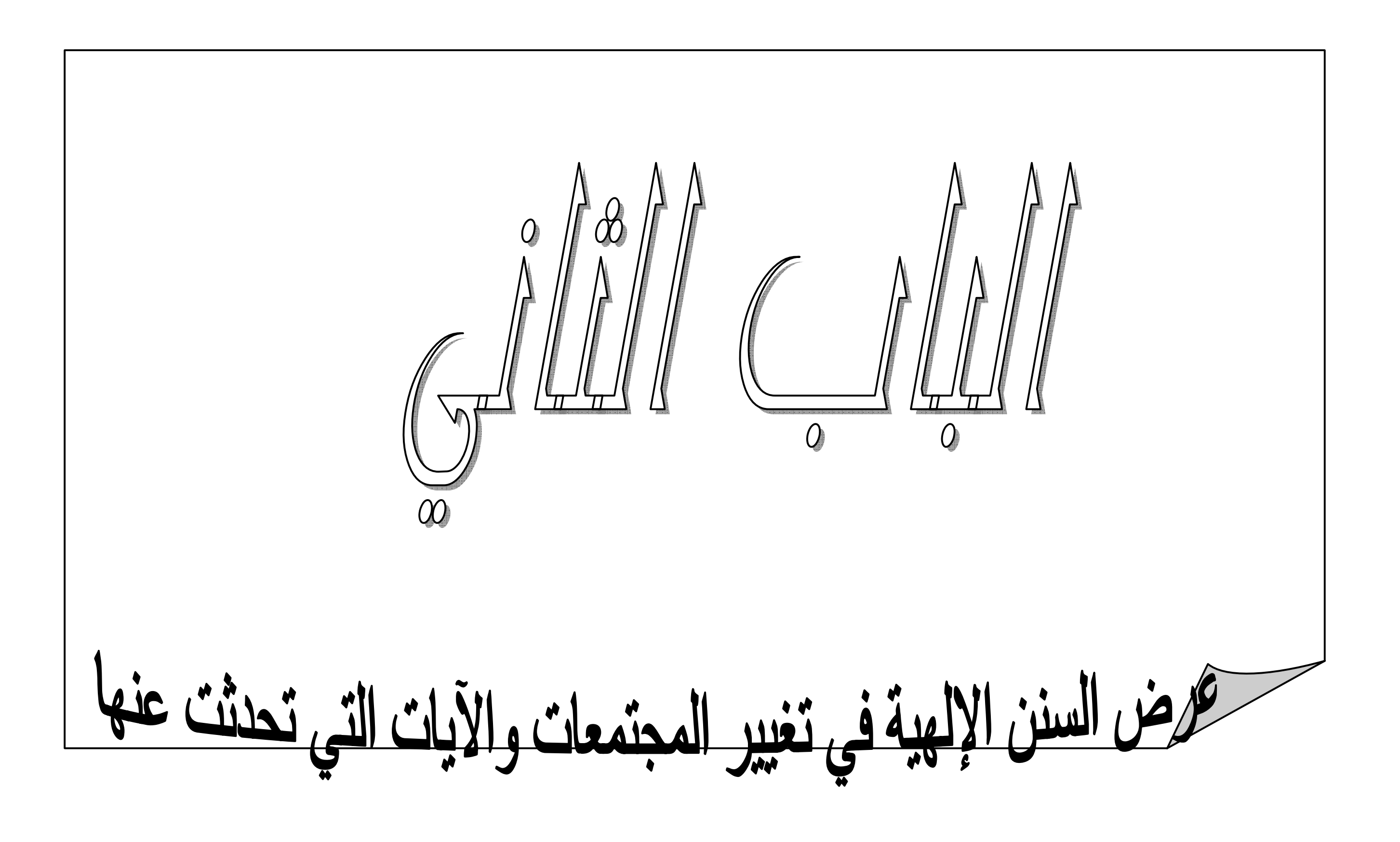
(1) أخرجه البخاري في صحيحه (1 / 7) رقم 7 .

(2) سورة الأنبياء / 105 .

(3) سورة الأعراف / 128 .

(4) سورة النور / 55 .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 202) . وتفسير التحرير والتنوير (17 / 164) .



ويتضمن خمسة فصول :-

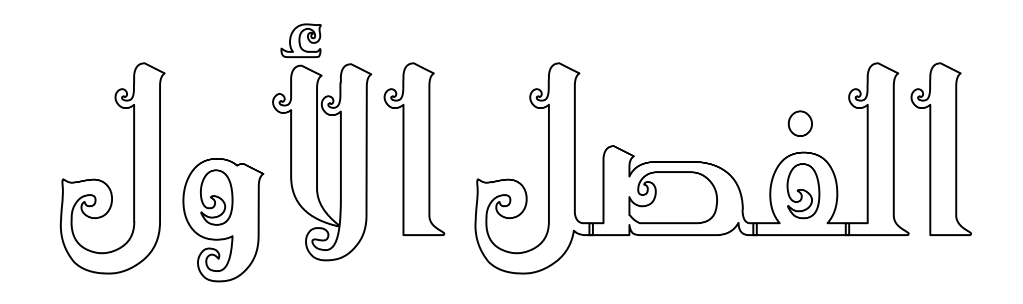
الفصل الأول :- سنة الله في الهدى والضلال

الفصل الثاني :- سنة الله في النصر والهزيمة

الفصل الثالث :- سنة الله في الأمن والخوف

الفصل الرابع :- سنة الله في الرزق

الفصل الخامس :- سنة الله في السعادة والشقاوة



الفصل الأول

سنة الله في الهدى والضلال

ويحتوي على تمهيد وثلاثة مباحث :-

المبحث الأول :- التعريف العام بالسنة

المبحث الثاني : - عرض الآيات المتعلقة بهذه السنة

المبحث الثالث :- تطبيقات قرآنية على هذه السنة

❁ تمهيد :

إن الله جل وعلا قادر على هداية الناس جميعا ، كما هو قادر على إضلالهم ، فهم خلقه وعبيده وله حق التصرف فيهم كما يشاء {لَا يسأَلُ عما يفْعلُ وهم يسأَلُونَ}[1]، ولا يستطيع أحد أن يعارض المشيئة الإلهية . قال تعالى {ولَو شاء اللّه لَجعلَكُم أُمةً واحدةً ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولَتسأَلُن عما كُنتم تعملُونَ}[2] وقال تعالى {وإِن كَانَ كَبر علَيك إِعراضهم فَإِن استطَعت أَن تبتغي نفَقًا في الأَرضِ أَو سلما في السماء فَتأْتيهم بِآية ولَو شاء اللّه لَجمعهم علَى الْهدى فَلاَ تكُونن من الْجاهلين}[3] وقال تعالى {والذين كَذبواْ بِآياتنا صم وبكْم في الظُّلُمات من يشإِ اللّه يضللْه ومن يشأْ يجعلْه علَى صراط مستقيمٍ}[4] وقال تعالى {وترى الشمس إِذَا طَلَعت تزاور عن كَهفهم ذَات الْيمينِ وإِذَا غَربت تقْرِضهم ذَات الشمالِ وهم في فَجوة منه ذَلك من آيات الله من يهد الله فَهو الْمهتدي ومن يضللْ فَلَن تجِد لَه وليا مرشدا}[5].

ولكن الله تبارك وتعالى لا يظلم أحدا من خلقه ، فهو يهدي من أراد لنفسه الهداية وسار على طريقها ، ويضل من أراد الغواية وسلك سبلها .

هذا وسوف يتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة ذه السنة .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة .

---

(1) سورة الأنبياء / 23 .

(2) سورة النحل / 93 .

(3) سورة الأنعام / 35 .

(4) سورة الأنعام / 39 .

(5) سورة الكهف / 17 .

المبحث الأول : التعريف العام بسنة الهدى والضلال .

أولاً : تعريف الهدى :

❁ تعريف الهدى لغة :

الهدى بضم الهاء وفتح الدال : الرشاد والدلالة [1] قال تعالى {اهدنا الصراطَ المُستقيم}[2] ، والمعنى : أرشدنا ، وقيل : قدمنا إليه ، وقيل : ثبتنا عليه ، وقيل : وفقنا ، وقيل: ارزقنا ، وكلها أقوال متقاربة . ولم يذكر أهل اللغة فيها إلا أ ا بمعنى الإرشاد [3] .

❁ تعريف الهدى اصطلاحاً .

الهداية الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، وقد يقال : هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب [4] .

و الهادي من أسماء الله سبحانه ، وهو الذي بصر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته ، و هدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده [5] .

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه [6] :

الأول : الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال تعالى {قَالَ ربنا الذي أَعطَى كُل شيءٍ خلْقَه ثُم هدى}[1] .

---

(1) انظر : لسان العرب (15 / 353) ، القاموس المحيط (1 / 1733) .

(2) سورة الفاتحة / 6 .

(3) انظر : بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (5 / 45) .

(4) انظر : التعريفات للجرجاني (1 / 319) .

(5) انظر : لسان العرب (15 / 353) .

(6) انظر : المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (1 / 538 ـ 539) .

الثاني : الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى {وجعلْنا منهم أئمةً يهدونَ بِأمرنا لَما صبروا وكانوا بِآياتنا يوقنونَ} [2].

الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله تعالى {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقْواهم}[3] ، وقوله { ومن يؤمن بِالله يهد قَلْبه }[4] ، وقوله تعالى {إن الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات يهديهم ربهم بِإِيمانِهم }[5] ، وقوله {والذين جاهدوا فينا لَنهدينهم سبلَنا }[6] ، وقوله {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}[7]، وقوله { فَهدى اللّه الذين آمنواْ لما اختلَفُواْ فيه من الْحق بِإِذْنِه واللّه يهدي من يشاء إِلَى صراط مستقيمٍ}[8] .

الرابع : الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله تعالى{سيهديهم ويصلح بالَهم}[9]، وقوله {ونزعنا ما في صدورِهم من غل تجرِي من تحتهم الأَنهار وقَالُواْ الْحمد للّه الذي هدانا لهذَا وما كُنا لنهتدي لَولا أَنْ هدانا اللّه}[10].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية ؛ بل لا يصح تكليفه ، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة ، ومن حصل له الرابع فقد حصل

---

(1) سورة طه / 50 .

(2) سورة السجدة / 24 .

(3) سورة محمد / 17 .

(4) سورة التغابن / 11 .

(5) سورة يونس / 9 .

(6) سورة العنكبوت / 69 .

(7) سورة مريم / 76 .

(8) سورة البقرة / 213 .

(9) سورة محمد / 5 .

(10) سورة الأعراف / 43 .

له الثلاث التي قبلها ، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله ، ثم ينعكس ؛ فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث ، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات . وإلى الأول أشار بقوله تعالى { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم }[1]، وقوله سبحانه { يهدونَ بِأمرنا }[2]، وقوله { ولكُل قَومٍ هاد }[3]؛ أي أي داع ، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى {إنك لا تهدي من أحببت}[4]. وكل هداية ذكر الله عز وجل أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة نحو قوله عز وجل {كَيف يهدي اللّه قَوما كَفَرواْ بعد إيمانِهم وشهدواْ أن الرسولَ حق وجاءهم الْبينات واللّه لاَ يهدي الْقَوم الظالمين}[5]، وكقوله {ذَلك بِأنهم استحبواْ الْحياةَ الْدنيا علَى الآخرة وأن اللّه لاَ يهدي الْقَوم الْكَافرِين}[6]. وكل هداية نفاها الله عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن البشر وذكر أ م غير غير قادرين عليها ؛ فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة كقوله عز ذكره {ليس علَيك هداهم ولَكن اللّه يهدي من يشاء}[7]، وقوله {ولَو شاء اللّه لَجمعهم علَى الْهدى}[8] ، وقوله {وما أنت بِهادي الْعمي عن ضلَالَتهم}[9]، وقوله {ومن يضللِ الله فَما لَه من هاد}[1]، وقوله {ومن يهد الله فَما لَه من

---

(1) سورة الشورى / 52 .

(2) سورة السجدة / 24 .

(3) سورة الرعد / 7 .

(4) سورة القصص / 56 .

(5) سورة آل عمران / 86 .

(6) سورة النحل / 107 .

(7) سورة البقرة / 272 .

(8) سورة الأنعام / 35 .

(9) سورة النمل / 81 .

مضل}[2] ، وقوله {إنك لَا تهدي من أحببت ولَكن الله يهدي من يشاء}[3] ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى {أَفَأَنت تكْرِه الناس حتى يكُونواْ مؤمِنِين} [4] ، وقوله {ومن يهد اللّه فَهو الْمهتد}[5] ؛ أي : طالب الهدى ومتحريه هو الذي يوفقه ويهديه إلى طريق الجنة لا من ضاده فيتحرى طريق الضلال والكفر كقوله {واللّه لاَ يهدي الْقَوم الْكَافرِين} [6] ، وفي أخرى {والله لَا يهدي الْقَوم الظالمين} [7] .

وقوله {إن الله لَا يهدي من هو كَاذب كَفار} [8] ، الكاذب الكفار : هو الذي لا يقبل هدايته فإن ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعا لذلك ، ومن لم يقبل هدايته لم يهده كقولك : من لم يقبل هديتي لم أهد له ، ومن لم يقبل عطيتي لم أعطه ، ومن رغب عني لم أرغب فيه . وعلى هذا النحو {والله لا يهدي القوم الظالمين} وفي أخرى (الفاسقين) [9].

---

(1) سورة غافر / 33 .

(2) سورة الزمر / 37 .

(3) سورة القصص / 56 .

(4) سورة يونس / 99 .

(5) سورة الإسراء / 97 .

(6) سورة التوبة / 37 .

(7) سورة الصف / 7 .

(8) سورة الزمر / 3 .

(9) انظر : بصائر ذوي التمييز (5 / 313 ـ 315) .

ثانياً : تعريف الضلال :

تعريف الضلال لغة :

❁ الضلال : الضلال والضلالة ضد الهدى والرشاد[1]. وضللت بعيري : إذا كان معقولاً فلم تهتد لمكانه ، وأضللته : إذا كان مطلقاً فمر ولم تدر أين أخذ . وأضللت خاتمي ، وضل في الدين ، وهو ضال وضليل ، وصاحب ضلال وضلالة ومضلل . ووقع في أضاليل وأباطيل . وضل عني كذا : ضاع . وضللته : أُنسيته . وأضلني أمر كذا : لم أقدر عليه[2]. يقال يقال : أضللت فلانا إذا وجهته للضلال عن الطريق . والأصل في كلام العرب وجه آخر يقال أضللت الشيء إذا غيبته و أضللت الميت دفنته ، وقوله في التنزيل العزيز {رب إنهن أَضلَلْن كثيرا من الناس}[3] ؛ أي ضلوا بسببها لأن الأصنام لا تفعل شيئا ولا تعقل ، وهذا كما تقول : قد أفتنتني هذه الدار ، أي : افتتنت بسببها وأحببتها ، وضللت المسجد والدار إذا لم تعرف موضعهما ، وضللت الدار والمسجد والطريق وكل شيء مقيم ثابت لا تهتدي له وضل هو عني ضلالا وضلالة [4] .

---

(1) انظر : لسان العرب لابن منظور (11 / 390) ، مختار الصحاح (1 / 160)

(2) انظر : بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (3 / 481) .

(3) سورة إبراهيم / 36 .

(4) انظر : لسان العرب لابن منظور (11 / 391 ـ 392) .

تعريف الضلال اصطلاحاً .

الضلال هو : العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية قال تعالى {فَمَنِ اهتدى فَإِنما يهتدي لنفْسِه ومن ضل فَإِنما يضل علَيها}[1]. ويقال : الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا ، يسيرا كان أو كثيرا ؛ فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدا . وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدا كان أو سهوا قليلا كان أو كثيرا ؛ صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما ، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بين الضلالين بون بعيد . ألا ترى أنه قال في النبي صلى الله عليه وسلم { ووجدك ضالا فهدى }[2] أي : غير مهتد لما سيق إليك من النبوة . وقال في يعقوب عليه السلام { إنك لفي ضلالك القديم }[3]، وقال أولاده { إن أبانا لفي ضلال مبين }[4]، إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه وكذلك { قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين }[5] ، وقال عن موسى عليه السلام { وأنا من الضالين }[6]؛ تنبيه أن ذلك منه سهو[7].

---

(1) سورة يونس / 108 .

(2) سورة الضحى / 7 .

(3) سورة يوسف /95 .

(4) سورة يوسف /8 .

(5) سورة يوسف / 30 .

(6) سورة الشعراء / 20 .

(7) انظر : المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (1 / 297 ـ 298)

المبحث الثاني : الآيات المتعلقة بسنة الهدى والضلال .

تحدث القرآن الكريم كثيراً عن سنة الله في الهدى والضلال وعن الأسباب المؤدية لكل واحد منهما . وبعد الاطلاع على تلك الآيات والنظر فيما احتوته كتب التفسير من فوائد علمية جمة تتعلق بها تمخض ما يلي :

❁ **أولاً : تنوع الخلق في إتباع الحق :**

بين الله عز وجل في كتابه العزيز أنه خلق الإنسان ليكون خليفته في الأرض قال تعالى {وإِذْ قَالَ ربك لِلْملآئكَة إِني جاعلٌ في الأَرضِ خليفَةً قَالُواْ أَتجعلُ فيها من يفْسِد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بِحمدك ونقَدس لَك قَالَ إِني أَعلَم ما لاَ تعلَمونَ }[1]، وأول شيء في هذه الخلافة أن يعرف هذا المخلوق ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته يقول تعالى {وما خلَقْت الْجِن والْإِنس إِلا ليعبدون ـ ما أُرِيد منهم من رزقٍ وما أُرِيد أَن يطْعمون ـ إِن الله هو الرزاق ذُو الْقُوة الْمتين }[2].

وهذه الشهادة على ربوبيته وما تستلزمه من ألوهيته سبحانه هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني آدم قبل أن يخلقهم وسجله في فطرهم البشرية ، كما جاء في قوله تعالى {وإِذْ

---

(1) سورة البقرة / 30 .

(2) سورة الذاريات / 56 ـ 58 .

أخذَ ربك من بنِي آدم من ظُهورِهم ذُريتهم وأَشهدهم علَى أَنفُسِهِم أَلَست بِربكُم قَالُواْ بلَى شهدنا أَن تقُولُواْ يوم الْقيامة إِنا كُنا عن هذَا غَافلين}[1] ؛ ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول من رسل الله تعالى{يا قَومِ اعبدواْ اللّه ما لَكُم من إِلَه غَيره أَفَلاَ تتقُونَ }[2]

ولهذا أنكر الله على من ظن أن الله خلقه عبثا أو تركه سدى بقوله {أَيحسب الْإِنسانُ أَن يترك سدى}[3]، إذ أن كثيراً من الناس في القديم والحديث ينظر إلى الحياة على أ ا " حركة لا علة لها ، ولا هدف ، ولا غاية .. أرحام تدفع وقبور تبلع .. وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ومتاع قريب من متاع الحيوان . والذي يميز الإنسان عن الحيوان أن حياته وراءها هدف وحكمة ، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء . فشعور الإنسان بوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ، ومن الوجود كله من حوله ، وارتقاؤه في سلم الإنسانية ينبع نحو شعوره هذا وسعته ودقة تصوره لوجود الناموس وارتباط الأحداث والأشياء ذا الناموس، ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة .لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدى " [4]. فلا عجب إذن أن يكون المقصود من بعث الأنبياء وإنزال الكتب معهم ؛ إقامة الحجة على الناس ، وتذكيرهم بذلك العهد القديم وإزالة ما تراكم على الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد الأعمى كما قال تعالى {رسلاً مبشرِين ومنذرِين لئَلا يكُونَ للناسِ علَى اللّه حجةٌ بعد الرسلِ وكَانَ اللّه عزِيزا حكيما }[5] " أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى {ولَو أَنا أَهلَكْناهم بِعذَابٍ من قَبله لَقَالُوا ربنا لَولَا أَرسلْت إِلَينا رسولًا فَنتبِع آياتك من قَبلِ أَن

---

(1) سورة الأعراف / 172 .

(2) سورة الأعراف / 65 .

(3) سورة القيامة /36 .

(4) انظر : تفسير الظلال (6 / 3773 ـ 3774) .

(5) سورة النساء / 165 .

نذل ونخزى} [1] وكذا قوله {ولَولَا أَن تصيبهم مصيبةٌ بِما قَدمت أَيديهم }[2] الآية . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال (لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل من أجل ذلك مدح نفسه ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين) [3] وفي لفظ آخر (من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه) [4] " [5] .

قال تعالى {وما كَانَ ربك مهلك الْقُرى حتى يبعثَ في أُمها رسولاً يتلُو علَيهم آياتنا وما كُنا مهلكي الْقُرى إِلا وأَهلُها ظَالمونَ}[6] وقال تعالى{ إِنا أَرسلْناك بِالْحق بشيراً ونذيراً وإِنْ من أُمة إِلا خلا فيها نذير}[7] وقال تعالى{منِ اهتدى فَإِنما يهتدي لنفْسِه ومن ضل فَإِنما يضل علَيها ولا تزِر وازِرةٌ وِزر أُخرى وما كُنا معذِّبِين حتى نبعثَ رسولاً}[8] وقال تعالى { وما أَهلَكْنا من قَرية إِلا لَها منذرونَ}[9] وقال تعالى {ولَقَد بعثْنا في كُلِّ أُمة رسولاً أَنِ اعبدواْ اللّه واجتنِبواْ الطَّاغُوت فَمنهم من هدى اللّه ومنهم من حقت علَيه الضلالَةُ فَسِيرواْ في الأَرضِ فَانظُرواْ كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذِّبِين}[10]. والمعنى " أنا بعثنا في كل أمة رسولا يأمرهم بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت فأمروهم فتفرقوا فمنهم من هداه الله تعالى بعد صرف قدرته

---

(1) سورة طه / 134 .

(2) سورة القصص / 47 .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (6 / 2698) رقم 6980 ، ومسلم في صحيحه (2 / 1136) رقم 1499 .

(4) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2113) رقم 2760 .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 589) .

(6) سورة القصص / 59 .

(7) سورة فاطر / 24 .

(8) سورة الإسراء / 15 .

(9) سورة الشعراء / 208 .

(10) سورة النحل / 36 .

واختياره الجزئي إلى تحصيل ما هدي إليه ، ومنهم من ثبت على الضلالة لعناده وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق . والذي ذكره القاضي في قوله تعالى { ولقد بعثنا .... الخ } أنه يبين فيه أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد سبحانه اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه " [1] .

.

وحيث إن الله خلق الإنسان وركب فيه ميلاً إلى الهدى والضلال فقد اقتضت سنته سبحانه انقسام الناس انقساماً محتوماً على أساس الإيمان والكفر والهدى والضلال إلى مصدقين بالحق متبعين له ، ومكذبين به معارضين له ، ثم تتوالى سنن الله بعد ذلك تعمل عملها في الفريقين . ولهذا أخبر الله تعالى بوجود الانقسام في الآية التي ذكر فيها بعثة الرسل إلى الأمم حيث قال ﴿ ولَقَد بعثْنا في كُل أُمة رسولاً أَن اعبدوا الله واجتنِبوا الطاغُوت فَمنهم من هدى الله ومنهم من حقت علَيه الضلالَةُ فَسِيروا في الْأَرضِ فَانظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذِّبِين﴾[2] " " ففريق استجاب وفريق شرد في طريق الضلال ، وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله ، وكلاهما لم يقسره الله قسراً على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه بعد ما زودته بمعالم الطريق في نفسه وفي الآفاق . كذلك ينفي القرآن الكريم ذا النص وهم الإجبار الذي لوح به المشركون ، والذي يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين . والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة في هذه النقطة ، فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر ويعاقب المذنبين أحياناً في الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم ، فلا مجال بعد هذا لأن يقال: إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متركون لاختيار طريقهم وهذه هي إرادة الله . وكل ما يصدر عنهم من خير أو شر ـ من هدى ومن ضلال ـ يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذي فصلناه . ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر سنة الله في الهدى

---

(1) انظر : روح المعاني للألوسي (14 / 139) .

(2) سورة النحل / 36 .

والضلال {إن تحرص علَى هداهم فَإن اللّه لاَ يهدي من يضل وما لَهم من ناصرِين} [1] ، فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه فوظيفته البلاغ . أما الهدى أو الضلال فيمضي وفق سنة الله وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها . فمن أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله فإن الله لا يهديه، لأن لله سنناً تعطى نتائجها . وهكذا شاء ، والله فعال لما يشاء " [2] .

" وقدر الله نافذ في بريته ؛ فإنه هو الذي قدر فهدى ، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وفي الصحيحين (فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة) [3] ولهذا قال تعالى {فَرِيقًا هدى وفَرِيقًا حق علَيهم الضلاَلَةُ }[4]. [5] " والعلة في استحقاقهم للضلالة هو توليهم الشيطان عدو الإنسان {إِنهم اتخذُوا الشياطين أَولياء من دون اللّه ويحسبونَ أَنهم مهتدونَ}[6]. ومن اتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد استحق الضلالة بتوليه غير الله وتوليه عدواً حذره الله إياه [7]. قال تعالى { وعلَى الله قَصد السبِيلِ ومنها جائر ولَو شاءَ لَهداكُم أَجمعين }[8] " ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال ، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر وكلاهما لا يخرج على

---

(1) سورة النحل / 37 .

(2) انظر : تفسير الظلال (4 / 2171) .

(3) أخرجه البخاري (4 / 1891) رقم الحديث 4666 ، وأخرجه مسلم (4 / 2039) رقم الحديث 2647 .

(4) سورة الأعراف / 30 .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 210) .

(6) سورة الأعراف / 30 .

(7) انظر : تفسير الظلال (3 / 1281) .

(8) سورة النحل / 9 .

مشيئة الله التي قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار[1] " . فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ، مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير والشر سواء ، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة {ونفْسٍ وما سواها ـ فَألْهمها فُجورها وتقْواها}[2]، ويعبر عنها بالهداية تارة {وهديناه النجدينِ}[3]، النجدينِ}[3]، فهي كامنة في صورة استعداد. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقاً ؛ لأ ا مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة إلهاما ، وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تناط ا التبعة . فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر ؛ فقد أفلح ، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب [4]{قَد أفْلَح من زكاها ـ وقَد خاب من دساها} وقال تعالى { وما أرسلْنا في قَرية من نذيرٍ إلا قَالَ مترفُوها إنا بِما أُرسلْتم بِه كَافرونَ} [5] ، وقال {إناهديناه السبِيلَ إما شاكراً وإما كَفُوراً }[6] .

✺ ثانياً : أركان الهداية :

---

(1) انظر : تفسير الظلال (4 / 2162) .

(2) سورة الشمس / 7 ـ 8 .

(3) سورة البلد / 10 .

(4) انظر : الظلال (6 / 3917 ـ 3918) .

(5) سورة سبأ / 34 .

(6) سورة الإنسان / 3 .

1. الهادي . وهو الله سبحانه ، فهو المصدر الأساس للهداية قال تعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾[2] فمن شاء الله هداه ومن شاء أضله . وليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافاً بدون حكمة ، أو بدون سنة ماضية في هذا الشأن ، وإنما تقوم على أساس ترتب المسببات على أسبا ا ، والنتائج على مقدما ا ، كما دل على ذلك كثير من الآيات ، ومنها قوله تعالى {ويضل اللّه الظالمين ويفعلُ اللّه ما يشاء}[3] وقوله تعالى {ويهدي إليه من ينيب}[4] . فيبين سبحانه وتعالى في الآية الأولى أن سبب إضلاله لبعض عباده هو الظلم ، ويبين في الآية الثانية أن سبب هدايته لبعض عباده هو إنابتهم إليه . وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله " تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى ، اقتضاء السبب لمسببه والأثر لأثره ، وكذلك الضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد ، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها بالهدى والفلاح ، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء " [5]. وحديث الرسول ﷺ قاضٍ بذلك بذلك حيث قال (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) [6] .

---

(1) سورة النحل / 9 .

(2) سورة الفرقان / 31 .

(3) سورة إبراهيم / 27 .

(4) سورة الشورى / 13 .

(5) انظر : الفوائد لابن القيم (1 / 129) .

(6) أخرجه البخاري (5 / 2261) رقم الحديث 5743 ، وأخرجه مسلم (4 / 2012) رقم الحديث 2607 .

2. المهتدي . وهو الإنسان وهو محل الاهتداء ، وقد جعل الله كماله واستقامته مربوطاً بهدايته ، كما أن منفعة هدايته عائدة عليه لا على غيره ، فانتظام حياته واستقامتها مرهونة بهدايته ، كما أن إنزال الله للكتب وإرساله للرسل لهداية الإنسان فيه تشريف للإنسان وتكريم له . قال تعالى {ولَقَد كَرمنا بنِي آدم وحملْناهم في الْبر والْبحرِ ورزقْناهم من الطيبات وفَضلْناهم علَى كَثيرٍ ممن خلَقْنا تفْضيلاً}[1] " وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقدر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير "[2] .

3. سبل الهداية وهما : الرسل والكتب .

أ ـ الرسل .

حيث اقتضت حكمته سبحانه ورحمته بعباده أن لا يكلهم إلى ما أودع في فطرهم من معرفته والتوجه إليه ومحبته ، بل أرسل إليهم من يدلهم إليه ، ويبصرهم بهداه الذي يأتي من عنده ، ويحفظ عليهم فطرتهم ، وأعلمهم أن من اتبع هذا الهدى {فَلاَ خوف علَيهم ولاَ هم يحزنونَ ـ والذين كَفَرواْ وكَذبواْ بِآياتنا أُولَئك أَصحاب النارِ هم فيها خالدونَ}[3]. ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب في كل أمة بالهدى والنور ، وجعل لهم من السلطان المادي والمعنوي ما يبلغون بواسطته ما أنزل إليهم ، وجعل الثواب في الدارين مبنياً على متابعتهم والإيمان بهم وبما جاؤوا به ، وأرصد العقوبة لمن خالفهم وكفر بما جاؤوا به ، ولم يجعل على ما سوى ذلك من آياته وبراهينه الدالة على وحدانيته تعالى عقوبة ، وهذا غاية العدل ومنتهى الحكمة والرحمة . ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يحاسبهم ويجازيهم على ما يأتيهم من عنده بقوله { فَمنِ اتبع هداي فَلَا

---

(1) سورة الإ سراء / 70 .

(2) انظر : تفسير السعدي (1 / 463) .

(3) سورة البقرة / 38 ـ 39 .

يضل ولَا يشقَى ـ ومن أَعرض عن ذكْرِي فَإِن لَه معيشةً ضنكًا ونحشره يوم الْقيامة أَعمى}[1] ، ثم لم يترك أمة أو قرية بلا رسول يتلو عليهم آياته ، وهي الهدى الذي وعد أنه يأتي من عنده ، فليس أمر عبادته وطاعته متروكاً لاجتهادهم ، بل تكفّل سبحانه ببيان كيفية ذلك ، قال تعالى {رسلاً مبشرِين ومنذرِين لئَلا يكُونَ للناسِ علَى اللّه حجةٌ بعد الرسلِ وكَانَ اللّه عزِيزا حكيما }[2]، كما أخبر سبحانه أنه لا يعذب أمة غافلة ، ولا يؤاخذهم حتى يبعث إليهم رسولا فيكذبوه ويعاندوه { وما كُنا معذِّبِين حتى نبعثَ رسولاً}[3]، وقال تعالى {ذَلك أَن لم يكُن ربك مهلك الْقُرى بِظُلْمٍ وأَهلُها غَافلُونَ}[4]، وقال تعالى {وما كَانَ ربك مهلك الْقُرى حتى يبعثَ في أُمها رسولًا يتلُو علَيهِم آياتنا وما كُنا مهلكي الْقُرى إِلا وأَهلُها ظَالمونَ}[5]. فجعل الله إصلاح الدارين والفوز فيهما منوطاً باتباع الرسول والإيمان به ، وجعله شاملاً لكل خير فيهما ، فما من خير في الدنيا إلا كان فيما جاءت به الرسل دلالة عليه وأمراً به ، وما من شر إلا وفيما جاءت به الرسل تحذيراً منه فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ف لنا م لا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة . فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم) الحديث [6]. ولقد مر

---

(1) سورة طه / 123 ـ 124 .

(2) سورة النساء / 165 .

(3) سورة الإسراء / 15 .

(4) سورة الأنعام / 131 .

(5) سورة القصص / 59 .

(6) أخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1472) رقم الحديث 1844 .

معنا سابقاً قوله ﷺ (وليس أحد أحب إليه العذر من الله ؛ من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه) [(1)] .

ب ـ الكتب . فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يجعل لكل أمة كتاباً بمثابة المنهج ينظم لهم شؤو م ويحتكمون إليه عند اختلافهم . قال الله تعالى { لكُل جعلْنا منكُم شرعةً ومنهاجا }[(2)] .

قال تعالى عن التوراة { إنا أَنزلْنا التوراةَ فيها هدى ونور يحكُم بِها النبِيونَ الذين أَسلَموا للذين هادوا والربانِيونَ والْأَحبار بِما استحفظُوا من كتابِ الله وكَانوا علَيه شهداءَ فَلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بِآياتي ثَمناً قَليلاً ومن لَم يحكُم بِما أَنزلَ الله فَأُولَئك هم الْكَافرونَ }[(3)] .

وقال تعالى عن الإنجيل { وقَفينا علَى آثَارِهم بِعيسى ابنِ مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظَةً للْمتقين} [(4)] .

وقال تعالى عن القرآن {ولَو جعلْناه قُرآناً أَعجمياً لَقَالُوا لَولا فُصلَت آياته أَأَعجمي وعربِي قُلْ هو للذين آمنوا هدى وشفَاءٌ والذين لا يؤمنونَ في آذَانِهِم وقْر وهو علَيهِم عمى أُولَئك ينادونَ من مكَان بعيد}[(5)]. فالقرآن الكريم هو مصدر الهداية الأساسي للناس ، وهو كتاب يهدي للأخلاق الحميدة والمبادئ القويمة ولكل ما هو أفضل وأقوم . قال تعالى {إِن هذَا الْقُرآنَ يهدي

---

(1) راجع تخريجه في صفحة / 83 .

(2) سورة المائدة / 48 .

(3) سورة المائدة / 44 .

(4) سورة المائدة / 46 .

(5) سورة فصلت / 44 .

للتي هي أَقْوم }[1] ، وقال تعالى {شهر رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه الْقُرآنُ هدى للناسِ وبينات من الْهدى والْفُرقَان }[2] . وهو كتاب واضح لا لبس فيه ولا غموض {وكَذَلك أَنزلْناه آيات بينات وأَن الله يهدي من يرِيد }[3]. وهو من الهدى الذي وعد الله به بني آدم منذ أن أنزل أباهم إلى الأرض في أكمل صورة ، فمن تمسك به كان من السعداء المهتدين ، ومن حاد عنه كان من الأشقياء الضالين { فَإِما يأْتينكُم مني هدى فَمن تبِع هداي فَلاَ خوف علَيهِم ولاَ هم يحزنونَ}[4]، وهو النور الوضاء الذي ينير للناس طريقهم ويضيء لهم مسالكهم {كتاب أَنزلْناه إِلَيك لتخرِج الناس من الظُّلُمات إِلَى النورِ بِإِذْنِ ربهِم إِلَى صراط الْعزِيزِ الْحميد}[5]، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم ، فمن تمسك به كان من الناجين ، ومن سار على هديه كان من الفائزين قال تعالى {وأَن هذَا صراطي مستقيما فَاتبِعوه ولاَ تتبِعواْ السبلَ فَتفَرق بِكُم عن سبِيله ذَلكُم وصاكُم بِه لَعلكُم تتقُونَ}[6] ، وقد شهد له الجن بالهداية فقالوا {يا قَومنا إِنا سمعنا كتابا أُنزِلَ من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إِلَى الْحق وإِلَى طَرِيقٍ مستقيمٍ }[7] }[7] ، كما شهد له العلماء بذلك {ويرى الذين أُوتوا الْعلْم الذي أُنزِلَ إِلَيك من ربك هو الْحق ويهدي إِلَى صراط الْعزِيزِ الْحميد}[8]، وهو كتاب مبارك يفيض بالرحمة ويؤدي إلى

---

(1) سورة الإسراء / 9 .

(2) سورة البقرة / 185 .

(3) سورة الحج / 16 .

(4) سورة البقرة / 38 .

(5) سورة إبراهيم / 1 .

(6) سورة الأنعام / 153 .

(7) سورة الأحقاف / 30 .

(8) سورة سبأ / 6 .

الشفاء من كل الأسقام النفسية والخلقية والاجتماعية قال تعالى{يا أيها الناس قَد جاءتكُم موعظَةٌ من ربكُم وشفَاء لما في الصدورِ وهدى ورحمةٌ للْمؤمنِين}[1] .

4. منهج الهداية . وهو الإسلام الذي فيه الهدى كله ليس وراءه هدى قال تعالى { ولَن ترضى عنك الْيهود ولا النصارى حتى تتبِع ملتهم قُلْ إِن هدى الله هو الْهدى ولَئنِ اتبعت أَهواءَهم بعد الذي جاءَك من الْعلْمِ ما لَك من الله من ولي ولا نصيرٍ}[2] " فهدى الله الذي هو هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى ، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما تدعون إلى اتباعه ما هو ـدى إنما هو هوى " [3] وهو الذي يدعو به الناس في صلا ـم (17) مرة على أقل تقدير { اهدنا الصراطَ الْمستقيم } [4] " أي دلنا وأرشدنا ووفقنا للصراط للصراط المستقيم ؛ وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به ، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط ، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان ، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا . فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك " [5] .

❁ **ثالثاً : آثار الهداية :**

في البداية يجدر بنا أن نطرح سؤالاً وهو : ما السبب وراء انصراف كثير من الناس عن طريق الهداية والاستقامة ؛ رغم الإلحاح في الدعوة إليهما في القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم . وللإجابة على هذا السؤال أقول :

---

(1) سورة يونس / 57 .

(2) سورة البقرة / 120 .

(3) انظر : الكشاف للزمخشري (1 / 209) .

(4) سورة الفاتحة / 6 .

(5) انظر : تفسير السعدي (1 / 39) .

إن هناك أسباباً كثيرة لهذا الانصراف يأتي في مقدمتها عدم معرفة الناس بآثار الهداية في الدنيا والآخرة وهذا ما سأبينه الآن فأقول وبالله التوفيق :

إن أهم هذه الآثار هي : ـ

1 _ انتفاء الخوف والحزن عن المهتدي في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال تعالى { قُلْنَا اهْبِطُوا منها جميعاً فَإِما يأتينكُم مني هدى فَمن تبِع هداي فَلا خوف علَيهم ولا هم يحزنونَ} [1] أي " من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل (فلا خوف عليهم) فيما يستقبلونه من أمر الآخرة (ولا هم يحزنون)على ما فا م من أمور الدنيا[2]. " فالمهتدون ـدى الله تعالى لا يخافون مما هو آت ولا يحزنون على ما فات ، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم سبيل اكتساب الخيرات ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ومن كانت هذه وجهته يسهل عليه كل ما يستقبله ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده لأنه موقن بأن الله يخلفه " [3].

2 _ زيادة الاهتداء قال تعالى{والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقْواهم}[4] قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : (والذين اهتدوا) بالإيمان والانقياد واتباع ما يرضي الله (زادهم هدى) شكرا منه تعالى على ذلك (وآتاهم تقواهم) أي وفقهم للخير وحفظهم من الشر فذكر للمهتدين جزاءين العلم النافع والعمل الصالح [5] .

3 ـ السلامة من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة قال تعالى { قَالَ اهبِطَا منها جميعاً بعضكُم لبعضٍ عدو فَإِما يأتينكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلا يضل ولا يشقَى}[6]. " فمتبع

---

(1) سورة البقرة / 38 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 83) .

(3) انظر : تفسير المنار (1 / 285) .

(4) سورة محمد / 17 .

(5) انظر : تفسير السعدي (1 / 787) .

(6) سورة طه / 123 .

هدى الله في أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله . وهما ينتظران خارج عتبات الجنة ، ولكن الله يقي منهما من اتبع هداه . والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع . فهذا المتاع ذاته شقوة . شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة ، وما من متاع حرام إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه . وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه . والشقاء قرين التخبط ولو كان في المراتع الممرعة . ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء . ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود .[1]

والمعنى : أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه[2] . وهذا بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله ، فإنه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى . وهذا حال متبعي الشرائع غير الإلهية وهي الشرائع الوضعية فإن واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلب الحق لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غفلات ، أو تعارض أدلة ، أو انفعال بعادات مستقرة ، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أن من المصلحة طلب مرضا م[3] .

4 _ طيب العيش والحياة الطيبة في الدنيا .. فالشأن بمتبع هدى الله أنه مؤمن ويعمل الصالحات ؛ وإلا لما كان متبعاً لهدى الله . قال تعالى ﴿من عملَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أُنثَى وهو مؤمن فَلَنحيينه حياةً طَيبةً ولَنجزينهم أجرهم بِأحسنِ ما كَانوا يعملُونَ﴾[4] " فهذا وعد من الله

---

(1) انظر : تفسير الظلال (4 / 2355) .

(2) انظر : تفسير الزمخشري (3 / 94 ـ 95) .

(3) انظر : تفسير ابن عاشور (16 / 330) .

(4) سورة النحل /97 .

تعالى لمن عمل صالحا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ؛ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت . كما جاء في الحديث الذي روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه) [1] " [2] . والحياة الطيبة التي يحياها لا يشقى فيها قطعا ، لأن الشقاء ينافي الحياة الطيبة التي يتمتع ا متبع هدى الله ، فالشقاء إذن منفي عنه في الدنيا ، وكذلك الضلال . ولأن متبع هدى الله همّه مرضاة الله فهو قانع بما قسمه الله له في الدنيا غير متسخط على ذلك ، لأنه سعيد بما أنعم الله عليه من نعمة الدين ، فهو في عيش طيب رغيد ، لأن تطلعه ـ بعد أن أنعم الله عليه بالإسلام ـ إلى ما عند الله لا إلى الدنيا ومتاعها الزائل ، فهو لا يحرص على تحصيله وإن كان لا يرفضه إذا جاءه ولا يأسف إذا فاته فهو في طيب عيش وحياة طيبة قطعاً [3] .

5 _ الثقة بالله والتوكل عليه . فمن اهتدى دى الله توكل عليه وازدادت ثقته به سبحانه قال تعالى {وما لَنا ألا نتوكلَ علَى اللّه وقَد هدانا سبلَنا ولَنصبِرن علَى ما آذَيتمونا وعلَى اللّه فَلْيتوكلِ الْمتوكلُونَ}[4]. " أي أي عذر لنا في عدم التوكل عليه تعالى ، وتعليل

---

(1) أخرجه أحمد (2 / 168) رقم الحديث 6572 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 586) .

(3) انظر : السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان / 39 ـ 40 .

(4) سورة إبراهيم / 12 .

التوكل (وقد هدانا) أي والحال أنه سبحانه قد فعل بنا ما يوجب ذلك ويستدعيه حيث هدانا (سبلنا) أي أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين " [1].

6 ـ انشراح الصدر وقبوله للحق والخير والإيمان قال تعالى {فَمن يرِد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإِسلاَمِ ومن يرد أن يضله يجعلْ صدره ضيقًا حرجا كأَنما يصعد في السماء كَذَلك يجعلُ اللّه الرجس علَى الذين لاَ يؤمنونَ}[2] أي " من يرد الله أن يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان (يشرح صدره للإسلام) فيتسع له وينفسح ، وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها ، مصفاة عما يمنعه وينافيه كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم حين قيل له: كيف الشرح يا رسول الله ؟ فقال (نور يقذف في الصدر فينشرح له وينفسح) فقيل : هل لذلك من آية يعرف ا يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت) [3] " [4] .

7 ـ خشية الله والإنابة إليه . قال الله تعالى{هل لك إِلَى أَن تزكى ـ وأَهديك إِلَى ربك فَتخشى}[5] أي " قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به وتسلم وتطيع (وأهديك إلى ربك) أي أدلك إلى عبادة ربك (فتخشى) أي فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشعا بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير " [6] .

❁ **رابعاً : آثار الضلال** :

---

(1) انظر : روح المعاني للألوسي (13 / 198) .

(2) سورة الأنعام / 125 .

(3) أخرجه الحاكم في مستدركه (4 / 346) رقم الحديث 7863 .

(4) انظر : روح المعاني للألوسي (8 / 22) .

(5) سورة النازعات / 18 ـ 19 .

(6) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 469) .

وكما أن للهداية آثاراً على الإنسان في الدنيا والآخرة ، فكذلك للضلال آثاراً عليه في الدنيا والآخرة وذلك حسبما يلي :

1- العيش الضنك في الدنيا للمعرض عن هدى الله الضال عن طريقه قال تعالى {ومن أعرض عن ذكْرِي فَإِن لَه معيشةً ضنكاً ونحشره يوم الْقيامة أَعمى} [1] " أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، من شقائه في الدنيا والآخرة . وهذا الشقاء بقسميه هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذي بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به في جر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه " [2] . فالمعرض عن هدى الله له المعيشة الضنك أي الضيقة في الدنيا ، لأن الضنك أصله الضيق والشدة . ووجه ضيق معيشته أنه شديد الحرص على الدنيا متهالك عليها وعلى الزيادة منها خائف من انتقاصها ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك لا يحس بسعادة ولا بطيب عيش [3] .

2 ـ أن الله توعد من أعرض عن هداه أن يحشره يوم القيامة أعمى قال تعالى {ومن أعرض عن ذكْرِي فَإِن لَه معيشةً ضنكًا ونحشره يوم الْقيامة أَعمى ـ قَالَ رب لم حشرتنِي أَعمى وقَد كُنت بصيرا ـ قَالَ كَذَلك أَتتك آياتنا فَنسِيتها وكَذَلك الْيوم تنسى}[4]

والمعنى : أن هذا المعرض عن هدى الله يحشر يوم القيامة أعمى فيقول (رب لم حشرتنِي

---

(1) سورة طه / 124 .

(2) انظر : محاسن التأويل للقاسمي (7 / 161) .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 169) ، وروح المعاني للألوسي (16 / 276 ـ 277) .

(4) سورة طه / 124 ـ 126 .

أعمى وقَد كُنت بصيرا) أي في الدنيا فيقول الله تعالى له (كَذَلك أَتتك آياتنا فَنسِيتها) أي لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، فأنت قد عميت عنها ، لأن من عمي عن شيء نسيه وتركه ، (وكَذَلك الْيوم تنسى) أي تترك في العمى كما كنت أعمى عن آيات الله . جزاءً وفاقا لأن الجزاء من جنس العمل [1].

3- أن من يعرض عن هدى الله ؛ يقيض الله له شيطانا يصاحبه ولا يفارقه ، يزين له عمل الشر ويصده عن سبيل الحق ، وهو يحسب أنه على هدى وصواب . قال الله تعالى {ومن يعش عن ذكْرِ الرحمنِ نقَيض لَه شيطَانا فَهو لَه قَرِين ـ وإِنهم لَيصدونهم عنِ السبِيلِ ويحسبونَ أَنهم مهتدونَ}[2]. حيث يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره فقال (ومن يعش) أي يعرض ويصد (عن ذكر الرحمن) الذي هو القرآن العظيم ؛ الذي هو أعظم رحمة رحم ا الرحمن عباده ، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب وفاز بأعظم المطالب والرغائب ، ومن أعرض عنها وردها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدا ، وقيض له الرحمن شيطانا مريدا يقارنه ويصاحبه ويعده ويمنيه ويؤزه إلى المعاصي أزا يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية[3]، وما تزال الشياطين تصد أولئك المعرضين عن هدى الله عن سبيل الحق ، وهم يحسبون أ م على الحق ، فيصدق عليهم قول الحق تبارك وتعالى {قُلْ هلْ ننبئُكُم بِالْأَخسرِين أَعمالًا ـ الذين ضل سعيهم في الْحياة الدنيا وهم يحسبونَ أَنهم يحسِنونَ صنعا}[4] .

4- ضيق الصدر وامتناعه عن قبول الحق والخير والإيمان . قال تعالى {فَمن يرِد اللّه أَن يهديه يشرح صدره للإِسلاَمِ ومن يرِد أَن يضله يجعلْ صدره ضيقًا حرجا كَأَنما

---

(1)انظر : تفسير ابن كثير (3 / 170) ، وروح المعاني للألوسي (16 / 278) .

(2) سورة الزخرف / 36 ـ 37 .

(3) انظر : تفسير السعدي (1 / 766) ، تفسير القرطبي (16 / 89) .

(4) سورة الكهف / 103 ـ 104 .

يصعد في السماء كَذَلك يجعلُ اللّه الرجس علَى الذين لاَ يؤمنونَ}[1] أي : يجعل صدره ضيقا حرجا بحيث ينبو عن قبول الحق ، فلا يكاد يكون فيه للخير منفذ ، وأصل معنى الحرج : مجتمع الشيء . ومنه قيل للضيق : حرج ، وقال بعض المحققين أصل معناه شدة الضيق فان الحرجة غيضة أشجارها ملتفة بحيث يصعب دخولها . قال عمر رضي الله تعالى عنه : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير (كأنما يصعد في السماء) والمراد المبالغة في ضيق صدره حيث شبه بمن يزاول ما لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود [2] .

5- أن من يترك هدى الله فلا يتبع الإسلام الذي هو سبيل المؤمنين فإن الله يتركه وما اختاره لنفسه قال تعالى {ومن يشاقق الرسولَ من بعد ما تبين لَه الْهدى ويتبِع غَير سبِيلِ الْمؤمنِين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا}[3] أي " من سلك غير طريق الشريعة التي جاء ا الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له "[4] (نوله ما تولى) أي " نتركه وما اختاره لنفسه ونكله إلى ما توكل عليه "[5] . ومن المعلوم أن ما اختاره لنفسه هو سبيل الضلال لأنه ليس بعد الحق ـ الإسلام الذي تركه ـ إلا الضلال . قال تعالى {فَماذَا بعد الْحق إلا الضلاَلُ فَأَنى تصرفُونَ}[6] .

---

(1) سورة الأنعام / 125 .

(2) انظر : روح المعاني للألوسي (8 / 22 ـ 23) .

(3) سورة النساء / 115 .

(4) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 555 ـ 556) .

(5) انظر تفسير الرازي (11 / 35) .

(6) سورة يونس / 32 .

6 - الوعيد الأكيد والتهديد الشديد لمن يتبع غير هدى الله قال تعالى {ولَن ترضى عنك الْيهود ولاَ النصارى حتى تتبِع ملتهم قُلْ إِن هدى اللّه هو الْهدى ولَئنِ اتبعت أَهواءهم بعد الذي جاءك من الْعلْمِ ما لَك من اللّه من ولي ولاَ نصيرٍ} [1] " في هذه الآية ـديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام والأمر لأمته" [2] . وقال تعالى {ولَئن أَتيت الذين أُوتواْ الْكتاب بِكُلِّ آية ما تبِعواْ قبلَتك وما أَنت بِتابِعٍ قبلَتهم وما بعضهم بِتابِعٍ قبلَةَ بعضٍ ولَئنِ اتبعت أَهواءهم من بعد ما جاءك من الْعلْمِ إِنك إِذَاً لمن الظالمين} [3] " هذا الخطاب ـذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً عند الله تعالى وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ هو أشد وعيد لغيره ممن يتبع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراـم على ما هم عليه من الباطل ، فإنه أورده بالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم مع أن المراد أمته ، ليعلم المؤمنين أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق ويردي الناس في مهاوي الباطل " [4] .

❁ خامساً : أسباب الهداية وأسباب الضلال .

تمهيد :

يخبرنا القرآن الكريم أن لكل شيء سببا ، وأن النتائج تتوقف على مقدماـا ، قال الله تعالى {ليس بِأَمانِيكُم ولا أَمانِي أَهلِ الْكتابِ من يعملْ سوءًا يجز بِه ولاَ يجِد لَه من دون اللّه وليا ولاَ نصيرا} [5] ، وقال تعالى {ونزلْنا من السماء ماء مباركًا فَأَنبتنا بِه جنات وحب

---

(1) سورة البقرة / 120 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 164) .

(3) سورة البقرة / 145 .

(4) انظر : تفسير المنار (2 / 18) .

(5) سورة النساء /123 .

الْحصيد}[1]، وقال تعالى {فَأَما من أَعطَى واتقَى ـ وصدق بِالْحسنى ـ فَسنيسره للْيسرى ـ وأَما من بخلَ واستغنى ـ وكَذب بِالْحسنى ـ فَسنيسره للْعسرى}[2] ، وقد قرأ الرسول ﷺ هذه الآيات حينما قال له رجل : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال (من كان من أهل السعادة فسيصير إل عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . فقال اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة) ثم قرأ الآيات [3] . " وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع ا، وكل ميسر لما خلق له ، لا يقدر على غيره " [4] قال ابن تيمية رحمه الله " ومن قال أنا لا أدعو ولا أسأل الله تعالى ولا أستغفره اعتمادا على القدر كان مخطئا لأن الله تعالى جعل الدعاء ونحوه من العبادات أسبابا تنال ا مغفرته ورحمته وهداه ونصره ، وإذا قدر الله للعبد خيرا يناله بالدعاء أو بغيره من الأسباب ،لم يحصل ما قدره له بغير هذا السبب من الدعاء وغيره وما قدره الله وقضاه وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم ، فإنما قدره بأسباب تقع فيقع ما ارتبط ا من مسببات ، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات [5].

من هنا علمنا أن للهدى أسبابا وللضلال أسبابا فمن أراد الهدى أخذ بأسبابه وإلا فإنه من أهل الضلال قال تعالى {ومن أَراد الآخرةَ وسعى لَها سعيها وهو مؤمن فَأُولَئك كَانَ سعيهم

(1) سورة ق / 9 .

(2) سورة الليل / 5 ـ 10 .

(3) تم تخريجه سابقاً في صفحة / 85 .

(4) انظر : شرح النووي على مسلم (16 / 196) .

(5) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (8 / 69 ـ 70) .

مشكُورا}[1] . وسأحاول فيما يأتي أن أبين أسباب الهدى وأسباب الضلال كما ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

✺ أولاً / أسباب الهداية ووسائل الثبات عليها :

1 / التدبر في **آيا ت الله عز وجل** في **الأنفس والآفاق .**

" إذا أحسن الإنسان استخدام مواهبه وحواسه ومشاعره ومداركه ، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس وما يجيء به الرسل من آيات وبينات ؛ فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص " [1].

---

(1) سورة الإسراء / 19 .

ومن هنا ندرك سر عناية القرآن الكريم بدعوة الإنسان إلى النظر في هذا الكون ، وندرك السر أيضا من نعيه وتشنيعه على الذين يعطلون عقولهم وأنظارهم من التفكر فيما حولهم من الآيات الباعثة على الهدى . وبسبب هذا التعطيل فإ م يقعون في مهاوي الضلال في الدنيا ، وينتهي م الأمر إلى الجحيم في الآخرة . قال تعالى {وقَالُوا لَو كُنا نسمع أَو نعقلُ ما كُنا في أَصحابِ السعيرِ فَاعترفُوا بِذَنبِهِم فَسحقًا لأَصحابِ السعيرِ}[2]. فالعقلاء هم الذين ينظرون في هذا الكون ويتدبرون أسراره ، وهذا لا محالة يفضي م إلى الهدى والخشية والخوف من عذاب الله عز وجل . قال الله تعالى { إِن في خلْقِ السماوات والأَرضِ واختلاَف الليلِ والنهارِ لآيات لأُولي الأَلْبابِ ـ الذين يذْكُرونَ اللّه قياما وقُعودا وعلَى جنوبِهِم ويتفَكَّرونَ في خلْقِ السماوات والأَرضِ ربنا ما خلَقْت هذا باطلاً سبحانك فَقنا عذَاب النارِ }[3].

كما أن التفكر واستخدام العقل في بعض مظاهر الحياة ، يؤدي بصاحبه إلى الإيمان بالبعث واليوم الآخر وهو من أعظم بواعث الهداية . قال تعالى {الله يتوفى الْأَنفُس حين موتها والتي لَم تمت في منامها فَيمسِك التي قَضى علَيها الْموت ويرسلُ الْأُخرى إِلَى أَجلٍ مسمى إِن في ذَلك لَآيات لقَومٍ يتفَكَّرونَ}[4] ؛ فالذين يفكرون في ظاهرة الحياة بعد الموت يرون أن النوم هو موت أصغر إذ يفقد الإنسان فيه حاسة السمع والبصر فيوقنون بأن الذي بعث الحياة في هذه النفس قادر على بعثها إذا ماتت الموتة الكبرى . قال تعالى {ومن آياته أَنك ترى الْأَرض خاشعةً فَإِذَا أَنزلْنا علَيها الْماء اهتزت وربت إِن الذي أَحياها لَمحيي الْموتى إِنه علَى كُلِّ شيءٍ قَدير}[5].

2 / مداومة النظر والتدبر في كتاب الله تعالى .

---

(1) انظر : الظلال (3 / 1821) .

(2) سورة الملك / 10 ـ 11 .

(3) سورة آل عمران / 190 ـ 191 .

(4) سورة الزمر / 42 .

(5) سورة فصلت / 39 .

قال تعالى {قَالَ اهبِطَا منها جميعا بعضكُم لبعضٍ عدو فَإما يأْتينكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى}[1] . " في هذه الآية وصاية الله آدم وذريته الوحي الإلهي . وبذلك يعلم أن طلب الهدى مركوز في الجبلة البشرية ، حتى قال كثير من علماء الإسلام : إن معرفة الإله الواحد كائنة في العقول أو شائعة في الأجيال والعصور . وإنه لذلك لم يعذر أهل الشرك في مدد الفترة التي لم تجيء فيها رسل للأمم . وأما قوله (فلا يضل) فمعناه : أنه إذا اتبع الهدى الوارد من الله على لسان رسله ؛ سلم من أن يعتريه شيء من ضلال ، وهذا مأخوذ من دلالة الفعل في حيز النفي على العموم كعموم النكرة في سياق النفي ، أي فلا يعتريه ضلال في الدنيا ، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله فإنه وإن استفاد هدى في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى . وهذا حال متبعي الشرائع غير الإلهية وهي الشرائع الوضعية فإن واضعيها وإن أفرغوا جهودهم في تطلب الحق لا يسلمون من الوقوع في ضلالات بسبب غفلات ، أو تعارض أدلة ، أو انفعال بعادات مستقرة ، أو مصانعة لرؤساء أو أمم رأوا أن من المصلحة طلب مرضا م . وهذا سقراط وهو سيد الحكماء من اليونان قد كان يتذرع لإلقاء الأمر بالمعروف في أثينا بأن يفرغه في قوالب حكايات على ألسنة الحيوان ، ولم يسلم من الخنوع لمصانعة اللفيف فإنه مع كونه يرى تأليه آلهتهم لم يسلم من أن يأمر قبل موته بقربان ديك لعطارد رب الحكمة ، وحالهم بخلاف حال الرسل الذين يتلقون الوحي من علام الغيوب الذي لا يضل ولا ينسى ، وأيدهم الله ، وعصمهم من مصانعة أهل الأهواء ، وكو م تكوينا خالصا مناسبا لما سبق في علمه من مراده منهم ، وثبت قلو م على تحمل اللأواء ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، وإن الذي ينظر في القوانين الوضعية نظرة حكيم يجدها مشتملة على مراعاة أوهام وعادات . والشقاء المنفي في قوله تعالى (ولا يشقى) هو شقاء الآخرة لأنه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة [2]. فسبحان الحكيم القائل {ثُم جعلْناك علَى شرِيعة من الْأَمرِ فَاتبِعها ولَا تتبِع أَهواء الذين لَا يعلَمونَ ـ إِنهم لَن يغنوا عنك من الله شيئًا وإِن

---

(1) سورة طه / 123 .

(2) انظر : تفسير ابن عاشور (16 / 330 ـ 331) .

الظالمين بعضهم أولياء بعضٍ والله ولي الْمتقين ـ هذَا بصائر للناسِ وهدى ورحمةٌ لقَومٍ يوقنونَ }[1]. فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشدد مع أصحابه رضوان الله عليهم في أمر التلقي في شأن العقيدة والشريعة ، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة ، كشؤون الزرع وخطط القتال ، وفرق بين هذا وذاك ؛ فلا يجوز بحال من الأحوال أن نستمد الهداية في شأن العقيدة والشريعة من أي مصدر آخر سوى الوحي الإلهي المعصوم . فعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإ م لن يهدوكم وقد ضلوا . وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق . وإنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) وفي رواية (لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا إتباعي) [2].

فإذا افتقد الإنسان النظر والتدبر والفهم لكتاب الله تبارك وتعالى فهو يتخبط في دياجير الظلمات ويخبط في الحياة خبط عشواء ، وأليق به أن يحسب في عداد الأموات لأنه قد سلب الروح ومنع الهداية . قال تعالى {وكَذَلك أَوحينا إِلَيك روحا من أَمرنا ما كُنت تدرِي ما الْكتاب ولَا الْإِيمانُ ولَكن جعلْناه نورا نهدي بِه من نشاء من عبادنا وإِنك لَتهدي إِلَى صراط مستقيمٍ } [3] . أي : وكالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك ؛ أوحينا إليك (روحا من أمرنا) المراد به القرآن وقيل النبوة ، قال مقاتل يعني الوحي بأمرنا ومعناه القران لأنه يهتدي به ففيه حياة من موت الكفر . ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه فقال (ما كنت تدري ما الكتاب) أي : أي شيء هو . لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك أدخل في الإعجاز وأدل على صحة نبوته . ومعنى (ولا الإيمان) أنه كان صلى الله عليه

---

(1) سورة الجاثية / 18 ـ 20 .

(2) أخرجه أحمد في مسنده (3 / 338) رقم الحديث 14672 ، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (5 / 312) رقم الحديث 26421 . وقال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(3) سورة الشورى / 52 .

وسلم لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها ، وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها (ولكن جعلناه نورا دي به من نشاء) أي ولكن جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياء ودليلا على التوحيد والإيمان دي به من نشاء هدايته من عبادنا ونرشده إلى الدين الحق . (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) أي وإنك لتدعو إلى الإسلام فهو الصراط المستقيم . ثم بين الصراط المستقيم بقوله (صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض) وفي هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له والتفخيم لشأنه مالا يخفى [1]. ومثل هذه الآية قوله تعالى {ولَو جعلْناه قُرآنا أعجميا لقَالُوا لَولَا فُصلَت آياته أَأعجمي وعربِي قُلْ هو للذين آمنوا هدى وشفَاء والذين لَا يؤمنونَ في آذَانِهم وقْر وهو علَيهِم عمى أُولَئك ينادونَ من مكَان بعيد}[2].

3 / الإيمان .

وهذا السبب يأتي في موضعه بعد سابقه إذ أنه لا ينتفع بآيات القرآن الكريم ، ولا يهتدي إنسان بأحكامه إلا إذا كان مؤمنا ، لأن الكفر حجاب وحاجز كثيف وران على القلب يحول بين أنوار القرآن وبينه ؛ فإذا زال هذا الران وذلك الحاجز انتفع الإنسان بآيات الله الهادية . وما أكثر الآيات التي تبين أن المنتفع دي القرآن الكريم هو المؤمن وحده لا غير. قال تعالى {يا أَيها الناس قَد جاءتكُم موعظَةٌ من ربكُم وشفَاء لما في الصدورِ وهدى ورحمةٌ للْمؤمنِين }[3] وقال تعالى { ألم ـ ذَلك الْكتاب لاَ ريب فيه هدى للْمتقين ـ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ـ والذين يؤمنون بما أنزل أليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ـ أولئك على هدى من ر م وأولئك هم المفلحون }[4]. " ولو كان نورا لغير المتقين

---

(1) انظر : فتح القدير للشوكاني (4 / 545) .
(2) سورة فصلت / 44 .
(3) سورة يونس / 57 .
(4) سورة البقرة / 1 ـ 5 .

وإرشادا لغير المؤمنين لم يخصص الله عز وجل المتقين بأ م لهم هدى ، بل كان يعم به جميع المنذرين ، ولكنه هدى للمتقين ، وشفاء لما في صدور المؤمنين ، ووقر في آذان المكذبين ، وعمى لأبصار الجاحدين وحجة الله بالغة على الكافرين ، فالمؤمن به مهتد، والكافر به محجوج " [1].

وإذا كان الإيمان سبباً في اهتداء العبد إلى الحق ، وانكشاف الحجب أمام بصيرته فإنه كذلك سبب في توفيق الله للعبد وإعانته وزيادته هدى إلى الصراط المستقيم ، وتثبيته عليه وقد جاءت آيات كثيرة تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها ، منها قوله تعالى {وليعلَم الذين أُوتوا الْعلْم أنه الْحق من ربك فَيؤمنوا بِه فَتخبِت لَه قُلُوبهم وإِن الله لَهاد الذين آمنوا إِلَى صراط مستقيمٍ}[2] وقوله سبحانه {ما أَصاب من مصيبة إِلا بِإِذْن الله ومن يؤمن بِالله يهد قَلْبه والله بِكُل شيءٍ عليم}[3] وقوله تعالى {إِن الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات يهديهم ربهم بِإِيمانِهم تجري من تحتهم الأَنهار في جنات النعيمِ}[4].

4 / الدعاء .

إن الدعاء من أعظم ما يستعين به المؤمن على تحقيق مطلوبه وتحصيل مبتغاه ، وليس أعظم من الهداية يسألها المؤمن من ربه تبارك وتعالى ، كما أرشدنا الله عز وجل في الحديث القدسي (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) [5] ، وقد بين ابن تيمية رحمه الله السر في دعاء المسلم ربه الهداية في كل ركعة من ركعات الصلاة بقوله{اهدنا الصراطَ الُمستقيم} امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) [6] حيث قال : "

---

(1) انظر : تفسير الطبري (1 / 98) .

(2) سورة الحج / 54 .

(3) سور التغابن / 11 .

(4) سورة يونس / 9 .

(5) أخرجه مسلم (4 / 1994) رقم الحديث : 2577 .

(6) أخرجه البخاري (1 / 263) رقم الحديث : 723 .

" ولما كان العبد في كل حال مفتقرا إلى هذه الهداية ـ الهداية إلى الصراط والهداية فيه ـ في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها ، وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها ، أو هدي إليها من وجه دون وجه ، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى ، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي ، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها هو محتاج إلى الهداية فيها ، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية ، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات ، فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله ، وهي الصلاة ، مرات متعددة في اليوم والليلة "[1]. قال القرطبي رحمه الله " اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب والمعنى دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك قال بعض العلماء فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعا في هذه السورة نصفها فيه مجمع الثناء ونصفها فيه مجمع الحاجات وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به الداعي لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به وفي الحديث (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) [2] " [3] .

5 / الاعتصام بالله .

قال الله تعالى {يا أيها الذين آمنواْ إِن تطيعواْ فَرِيقًا من الذين أُوتواْ الْكتاب يردوكُم بعد إِيمانِكُم كَافرِين ـ وكَيف تكْفُرونَ وأَنتم تتلَى علَيكُم آيات اللّه وفيكُم رسولُه ومن يعتصم بِاللّه فَقَد

---

(1) انظر : شفاء العليل لابن القيم (1 / 81) .

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (1 / 249) رقم 712 وقال عنه الألباني : حسن ، وأخرجه أحمد في مسنده (2 / 362) رقم 8733 وقال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده قابل للتحسين ، كما أخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 666) رقم 1801 وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(3) انظر : تفسير القرطبي (1 / 147) .

هدي إلى صراط مستقيمٍ }[1]. والاعتصام بالله معناه : الاستمساك بحبله المتين ودينه القويم " أي من يتمسك بالدين فلا يخشى عليه الضلال ، فالاعتصام هنا استعارة للتمسك" [2] " فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد وحصول المراد " [3]. ونقل الفخر الرازي في سبب نزول هذه الآية " أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد فاتفق أنه مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فرآهم في مجلس لهم يتحدثون وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام ، فشق ذلك على اليهودي فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار ، فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح فوصل الخبر إلى النبي عليه الصلاة والسلام فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار وقال (أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم) فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان ومن كيد ذلك اليهودي فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم فأنزل الله تعالى هذه الآية " [4] فالتمسك بكتاب الله ودينه وشرعه ، هو العصمة من الضلال والمنقذ من الغواية والوبال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله) [5] . وفي بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك في حجة الوداع ، دلالة على أهمية الاعتصام ، وأنه هو العاصم من الضلال ، والمنجي من التردي في عذاب الله .

---

(1) سورة آل عمران / 100 ـ 101 .

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (4 / 29) .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 388) .

(4) انظر : التفسير الكبير للرازي (8 / 139) .

(5) أخرجه مسلم (2 / 886) رقم الحديث : 1218 .

ونظرا لأهمية الاعتصام بالله ؛ فقد جاءت عدة آيات في كتاب الله تدعو المؤمنين وتذكرهم بالاعتصام بالله وبعهده ، من ذلك قوله سبحانه وتعالى {واعتصمواْ بِحبلِ اللّه جميعا ولاَ تفَرقُواْ واذْكُرواْ نِعمةَ اللّه علَيكُم إِذْ كُنتم أعداء فَأَلف بين قُلُوبِكُم فَأَصبحتم بِنِعمته إِخوانا وكُنتم علَى شفَا حفْرة من النارِ فَأَنقَذَكُم منها كَذَلك يبين اللّه لَكُم آياته لَعلكُم تهتدونَ }[1] وقال { فَأَقيموا الصلَاةَ وآتوا الزكَاةَ واعتصموا بِالله هو مولَاكُم فَنِعم الْمولَى ونِعم النصير}[2].

6 / البراءة من الكافرين .

اقتضت سنة الله عز وجل في الهدى والضلال كما هو مقرر في القرآن الكريم أن عدم موالاة الكفار ، والتبرؤ منهم سبب من أسباب الهداية ، وأن موالا م سبب من أسباب الضلال . قال تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ لاَ تتخذُواْ الْيهود والنصارى أَولياء بعضهم أَولياء بعضٍ ومن يتولهم منكُم فَإِنه منهم إِن اللّه لاَ يهدي الْقَوم الظالمين}[3]. بيان ذلك أن موالاة الكفار تستلزم بالضرورة تقليدهم والتشبه م ، ومحبة أفعالهم ، وهذا مما يبعد الإنسان ـ لا محالة ـ عن هدى الله عز وجل ، ويوقعه في الضلال المبين . وفي الآية " خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم . ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر على الإنزجار عما وا عنه بقوله عز وجل (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) فإن تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالا ما ، أي : لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الحباب ، ومعاشر م لا بمعنى لا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فإنه أمر ممتنع في نفسه لا يتعلق به النهي (بعضهم أولياء بعض) أي بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر ، وإنما أوثر الإجمال في البيان تعويلا على ظهور

---

(1) سورة آل عمران / 103 .

(2) سورة الحج / 78 .

(3) سورة المائدة / 51 .

المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقي اليهود والنصارى رأساً . والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي وتأكيد إيجاب الاجتناب عن المنهي عنه ، أي : بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون ، ومن ضرورته إجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة وقوله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) حكم مستنتج منه ، فإن انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعي كون من يواليهم منهم ، ضرورة أن الاتحاد في الدين الذي عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكو م ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك بكون من يواليهم منهم ، وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة ، وقوله تعالى (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) تعليل لكون من يتولاهم منهم أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأ م فيقعون في الكفر والضلالة ، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد ووضع للشيء في غير موضعه " [1] . وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبنَآؤُكُم وَإِخوانكُم وَأَزواجكُم وَعشيرتكُم وَأَموالٌ اقْترفْتموها وتجارةٌ تخشونَ كَسادها ومساكن ترضونها أَحب إِلَيكُم من اللّه ورسوله وجِهاد في سبِيله فَتربصواْ حتى يأْتي اللّه بِأَمرِه واللّه لاَ يهدي الْقَوم الْفَاسقين}[2]. فقد وسم الله عز وجل بالفسق من يوالي القرابة الكافرة ، ويقدمها على اتباع دين الله عز وجل واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتكون هذه القرابة الفاسدة مانعة له من الجهاد في سبيل الله . فمن كان ـذه المثابة لا يهديه الله أبدا . لذا كان أمر الله عز وجل للمؤمنين جميعا في كل زمان ومكان أن يقتدوا بأبيهم إبراهيم عليه السلام في تبرأه من قومه ـ وعلى رأسهم أبوه ـ قال تعالى {قَد كَانت لَكُم أُسوةٌ حسنةٌ في إِبراهيم والَّذين معه إِذْ قَالُوا لقَومهِم إِنا برآء منكُم ومما تعبدونَ من دون الله كَفَرنا بِكُم وبدا بيننا وبينكُم الْعداوةُ والْبغضاء أَبدا حتى تؤمنوا بِالله وحده إِلا قَولَ إِبراهيم لأَبِيه

---

(1) انظر : تفسير أبي السعود (3 / 47 ـ 48) .

(2) سورة التوبة / 24 .

لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيءٍ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير}[1].

7 / اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقد جعل الله عز وجل اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم من آكد أسباب الهدى وجعل مخالفته والإعراض عن سنته من آكد أسباب الضلالة . ففي قول جزل فصل يقول عز وجل {قُلْ أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ فَإن تولوا فَإنما عليه ما حملَ وعليكُم ما حملْتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسولِ إلا الْبلَاغُ الْمبِين}[2] . فأخبر سبحانه وتعالى أن الهداية إلى المنهج القويم المؤدي إلى الفوز والفلاح ، في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لا في غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه ، وليس عليه إلا البلاغ والبيان [3]. وقال ﷺ (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي) [4] .

وقد جعل الله عز وجل الرسل عامة قادة في الخير وأدلة على الهدى قال تعالى {وجعلْنا منهم أئمةً يهدونَ بِأَمرِنا لَما صبروا وكَانوا بِآياتنا يوقنونَ} [5] أي " قادة في الخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا "[6] " فلماّ كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره وتصديق رسله وإتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلو م قاسية يحرفون

---

(1) سورة الممتحنة / 4 .

(2) سورة النور /54 .

(3) انظر : تفسير الظلال (4 / 2528) .

(4) أخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 172) رقم 319 . والدارقطني في سننه (4 / 245) رقم 149 .

(5) سورة السجدة / 24 .

(6) انظر : تفسير محاسن التأويل (7 / 628) .

الكلام عن مواضعه فلا عمل صالحا ولا اعتقاد صحيحا. وقيل أيضا : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسا قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين " [1] . وقال تعالى{ويقُولُ الذين كَفَروا لَولآ أُنزِلَ علَيه آيةٌ من ربه إنما أنت منذر ولكُل قَومٍ هاد}[2] قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية "(إنما أنت منذر) مرسل للإنذار من سوء عاقبة ما ى الله تعالى عنه كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيان بما يعلم به نبوتك ، وقد حصل بما لا مزيد عليه ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجر بالإتيان بما اقترحوه (ولكل قوم هاد) أي نبي داع إلى الحق مرشد إليه بآية تليق به وبزمانه والتنكير للإ ام " [3] كما قال تعالى {هو الذي أَرسلَ رسولَه بِالْهدى ودينِ الْحق ليظْهره علَى الدينِ كُله وكَفَى بِالله شهيدا}[4]. لذلك فقد جاءت الآيات جازمة حاسمة بأن من لا يتبع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اختار لنفسه مصيراً مظلماً ؛ هو جهنم والعياذ بالله . قال تعالى {ومن يشاققِ الرسولَ من بعد ما تبين لَه الْهدى ويتبِع غَير سبِيلِ الْمؤمنِين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا}[5] أي " ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ويعانده فيما جاء به (من بعد ما تبين له الهدى) بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية (ويتبع غير سبيل المؤمنين) وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم (نوله ما تولى) أي نتركه وما اختاره لنفسه ونخذله فلا نوفقه للخير لكونه رأى الحق وعلمه وتركه فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائرا ويزداد ضلالا إلى ضلاله كما قال تعالى {فَلَما زاغُوا أَزاغَ الله قُلُوبهم }[6] وقال تعالى {ونقَلِّب أَفْئدتهم وأَبصارهم كَما لَم

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 464) .

(2) سورة الرعد / 7 .

(3) انظر : تفسير روح المعاني للألوسي (13 / 107) .

(4) سورة الفتح / 28 .

(5) سورة النساء / 115 .

(6) سورة الصف / 5 .

يؤمنواْ بِه أَولَ مرة} [1] . ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ويتبع سبيل المؤمنين بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين ثم صدر منه من الذنوب أو الهم ا ما هو من مقتضيات النفوس وغلبات الطباع ، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء كما قال تعالى عن يوسف {كَذَلِك لنصرف عنه السوءَ والْفَحشاء إِنه من عبادنا الْمخلَصين} [2]. أي بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء ، وكذلك كل مخلص ، كما يدل عليه عموم التعليل . وقوله (ونصله جهنم) أي نعذبه فيها عذابا عظيما (وساءت مصيرا) أي مرجعا له ومآلا . وهذا الوعيد المترتب على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرا وكبرا فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان ومنه ما هو دون ذلك " [3].

8 / الجهاد . فقد

جعل الله تعالى الجهاد من أسباب الهداية حيث قال تعالى {والذين جاهدوا فينا لَنهدينهم سبلَنا وإِن الله لَمع الْمحسِنِين} [4]. فهل المراد بالجهاد في الآية الكريمة مجاهدة النفس أو جهاد الأعداء الأعداء ؟ خلاف بين العلماء . وقد رجح العلامة أبو السعود رحمه الله العموم حيث يقول " (والذين جاهدوا فينا) أي في شأننا ولوجهنا خالصا ، أطلق ا اهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا) سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا ، أو ل يد م هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً لسلوكها ، كقوله تعالى {والذين اهتدوا زادهم هدى} [5] وفي الأثر : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم [6] (وإن الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة " [1]. فقد "

---

(1) سورة الأنعام / 110 .

(2) سورة يوسف / 24 .

(3) انظر : تفسير السعدي (1/ 202 ـ 203) .

(4) سورة العنكبوت / 69 .

(5) سورة محمد / 17 .

(6) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (10 / 15) .

فقد " ختم توبيخ المشركين وذمهم بالتنويه بالمؤمنين إظهارا لمزيد العناية م ، فلا يخلو مقام ذم أعدائهم عن الثناء عليهم ، لأن ذلك يزيد الأعداء غيظا وتحقيرا . والذين جاهدوا في الله هم المؤمنون الأولون ، وهذا الجهاد هو الصبر على الفتن والأذى ، ومدافعة كيد العدو ، وهو المتقدم في قوله أول السورة (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال ، ومعنى (جاهدوا فينا) جاهدوا في مرضاتنا أو الدين الذي اخترناه لهم ، والهداية : الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي ، أي ل يدهم هدى ، وسبل الله : الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه ، شبهت بالطرق الموصلة إلى م ل الكريم المكرم للضيف[2] ". " فالذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ويتصلوا به ؛ الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا ، الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس ، الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيما م ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم ، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم . وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم . وسينظر إلى صبرهم وإحسا م فيجازيهم خير الجزاء " [3]. قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذه الآية " علق سبحانه الهداية بالجهاد ، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا ، وأفرض الجهاد : جهاد النفس ، وجهاد الهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الدنيا ، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه ، الموصلة إلى الجنة . ومن ترك الجهاد فإنه ترك من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد . قال الجنيد : والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً ، فمن نصر عليها نصر على عدوه ، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه " [4]. " ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله

---

(1) انظر : تفسير أبي السعود (7 / 48) .
(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (21 / 36 ـ 37) .
(3) انظر : تفسير الظلال (5 / 2752) .
(4) انظر : الفوائد لابن القيم (1 / 59) .

، كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج ، وأصلاً له ، فإن من لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما يت عنه ، ويحار ا في الله ، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه ، لم يجاهده ولم يحاربه في الله بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج . فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما ، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده ، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذله ، ويرجف به ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق ، وترك الحظوظ ، وفوت اللذات والمشتهيات ، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده ، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان ، قال تعالى {إِن الشيطَانَ لَكُم عدو فَاتخذُوه عدوا إِنما يدعو حزبه ليكُونوا من أَصحابِ السعيرِ}[1] والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته ، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس ، فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتهما ، ثم هناك عدو رابع وهم المنافقون .

وجهاد النفس : أن تجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق ، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فا ا علمه ، شقيت في الدارين . وأن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا علم إن لم يضرها لم ينفعها . وأن يجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه من لا يعلم وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله . وأن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله .

وأما جهاد الشيطان : فجهاده على دفعه ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان . وجهاده على دفع ما يلقي إليه من الإيرادات الفاسدة والشهوات ، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين ، والثاني يكون بعده الصبر . قال تعالى {وجعلْنا منهم أَئمةً يهدونَ بِأَمرِنا لَما صبروا وكَانوا بِآياتنا يوقنونَ}[2]. فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع

(1) سورة فاطر / 6 .

(2) سورة السجدة / 24 .

الشهوات والإيرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات . وأما جهاد الكفار والمنافقين : فيكون بالقلب واللسان والمال والنفس ، وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان " [1]. وقد خص الله تعالى المقاتلين في سبيله بالهداية والتوفيق للعمل بما يرضاه ويحبه من الأعمال والأقوال [2] . فقال تعالى { والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ـ سيهديهم ويصلح بالهم } [3] .

" إنه إذا كان في هذه الدنيا موقع للحق ، وطريق للهدى ووجه للعزة والكرامة ، فإن ذلك هو مما نبتت مغارسه بين المجاهدين في سبيل الله ، وارتوت أصوله بدم الشهداء الذين قتلوا تحت رايته . وامتدت حياته بجنود الله الذين رصدوا أنفسهم لحراسته ، وأعدوها للدفاع عنه ، والموت في سبيله .. وإنه في اليوم الذي ينضب فيه معين هذه المشاعر المستعدة ـ للتضحية والفداء في أي مجتمع من المجتمعات ، وفي أي وطن من الأوطان ـ في هذا اليوم لن تجد في هذا المجتمع أو ذلك الوطن موقعاً للحق ، ولا طريقاً للهدى ، ولا وجهاً للعزة والكرامة .. وإنه بقدر ما يحمل أي مجتمع من مشاعر الفداء والتضحية بقدر ما تشع فيه أضواء الهدى ، وتعلو فيه راية الحق ، ويبرز فيه وجه العزة والكرامة . والذي يتحسس هذه المشاعر مشاعر التضحية والفداء ـ في الأمة الإسلامية ـ ويضبط حسابها في دقة وإحكام ، ويضعها في كفة ميزان ، ثم ينظر في الكفة الأخرى ، ليرى فيها حظنا من مجاني الخير ، ونصيبنا من الحياة العزيزة الكريمة ، ويجد دائماً توازناً بين الكفتين . . وأنه كلما ثقلت الكفة الحاملة لمشاعر التضحية والفداء عندنا ، ثقلت الكفة الحاملة لمعطيات الحياة لنا من المادة والعزة والسيادة .. والعكس صحيح . وإنه لم يثقل ميزاننا في الحياة الإنسانية الكريمة إلا إذا امتلأت نفوسنا بمشاعر التضحية والبذل في سبيل الله ، وفي إعلاء كلمة الله فهذا هو الباب الصحيح الذي ندخل منه إلى حيث الحياة العزيزة الكريمة ، ولا باب غيره . وإن أي إعداد من البشر نضيفهم إلى حسابنا ، كل هذا لن يقيمنا على جناح

---

(1) انظر : زاد المعاد (3 / 5 ـ 10) .

(2) انظر : تفسير الطبري (26 / 44) ، وتفسير فتح القدير (5 / 31) .

(3) سورة محمد / 4 ـ 5 .

أمن ، ولن يدفع عنا يد البغي والعدوان إلا إذا أظلتنا روح من الإيمان بالله ، وسرت فينا مشاعر قوية صادقة من التضحية والفداء في سبيل الله ، وعندئذ يمكّن الله تعالى لنا في الأرض ، ويخلع علينا خلع العزة والسيادة ، مهما يكن حظنا من القوى المادية ، فإن قليل هذه القوى مع الإيمان بالله ومع الاستعداد للتضحية والفداء ، هو كثير مبارك فيه . فإذا كان إلى ذلك استزادة إلى أقصى ما يمكن من العلم ، وأعداد إلى أبعد الحدود لما يكون من أحدث عدد الحرب ، ومعدات القتال ، وحشد لكل ما يتاح من قوى بشرية ومادية ، فذلك كله مما يؤكد النصر ، ويحقق للمؤمنين ما وعدوا به في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أقْدامكُم}[1]. فنصر المؤمنين لله ، هو منوط بالاستقامة على صراطه المستقيم ، وبالاستجابة لما دعاهم إليه من إعداد أنفسهم ، ورصدها للقتال ، والاستشهاد في سبيل الله . فإذا نصروا الله نصرهم الله {وما جعلَه اللّه إلا بشرى لَكُم ولتطْمئن قُلُوبكُم بِه وما النصر إلا من عند اللّه الْعزِيزِ الْحكيمِ}[2] " [3].

9 / العلم .

لقد جاء القرآن الكريم يكشف لنا بوضوح عن تلك العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية في آيات كثيرة ، وذلك بحديثه عن العلماء واستعدادهم بما لهم من علم لخشية الله وحسن النظر في آياته والاعتبار ا ، وإدراك ما فصله الله م لاً على رسله ، وشهود وحدانيته سبحانه وتعالى . قال تعالى مبيناً أن العلماء هم الذين ينتفعون بالآيات المبثوثة في الكون ، وهم الذين يستشعرون عظمة الله وقدرته فيخشونه فيهديهم الله قال {أَلَم تر أَن الله أَنزلَ من السماء ماء فَأَخرجنا بِه ثَمرات مختلفًا أَلْوانها ومن الْجِبالِ جدد بِيض وحمر مختلف أَلْوانها وغَرابِيب سود ـ ومن الناسِ والدواب والْأَنعامِ مختلف أَلْوانه كَذَلك إنما يخشى الله من عباده الْعلَماء إن الله عزِيز

---

(1) سورة محمد / 7 .

(2) سورة آل عمران / 126 .

(3) انظر : الحرب والسلام في الإسلام لعبد الكريم الخطيب / 77 ـ 79 .

غَفُور }[1] . فالذين يستفيدون من اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس هم العلماء ، وهم الذين يخشونه حق خشيته ؛ لأ م هم العارفون به وبصفاته جل جلاله ، وكلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ؛ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل وكانت هدايتهم كذلك أتم وأكمل . والعلماء هم الذين يعرفون قدر كلام الله وعظمته وإعجازه ، وإن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر ، فيدفعهم ذلك إلى الإيمان والتسليم والإذعان والاستفادة مما حوى من هدى وبيان . قال تعالى {وما كُنت تتلُو من قَبله من كتابٍ ولَا تخطه بِيمينِك إِذًا لارتاب الْمبطلُونَ ـ بلْ هو آيات بينات في صدورِ الذين أُوتوا الْعلْم وما يجحد بِآياتنا إلا الظالمونَ }[2] . بخلاف الجهلة فإن حالهم كما صوره الله عز وجل في قوله {وكَذَلك نصرف الآيات وليقُولُواْ درست ولنبينه لقَومٍ يعلَمونَ}[3]. فالجاهلون هم الذين لم يفهموا تلك الآيات التي صرفها الله على أنواع وأشتات في فنون المعاني وأفنان البيان ، ولم يفقهوا سرها وما يجب من إيثارها على منافع الدنيا بأسرها ، وأما الذين يعلمون مدلولا ا وحسن عاقبة الاهتداء ا فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن ، أو ما في التصريف من أنواع البيان المؤيد بالحجة والبرهان [4]. والعلماء هم الأبعد عن إلقاءات الشيطان ونزغاته ووسوسته ، وذلك لعلمه بمداخله وأحابيله ، فلا تزيدهم وسوسته إلا إيماناً ويقيناً وتسليماً ، بخلاف الجهلة الذين ينقادون لوسوسته وهم يحسبون أ م يحسنون . قال تعالى{ليجعلَ ما يلْقي الشيطَانُ فتنةً للذين في قُلُوبِهم مرض والْقَاسية قُلُوبهم وإِن الظالمين لَفي شقَاقٍ بعيد ـ وليعلَم الذين أُوتوا الْعلْم أَنه الْحق من ربك فَيؤمنوا بِه فَتخبِت لَه قُلُوبهم وإِن الله لَهاد الذين آمنوا إِلَى صراط مستقيمٍ }[5] . فالذين يقبلون إلقاءات الشيطان هم الذين في قلو م مرض وهم المنافقون والمشركون ، القاسية قلو م ، وهؤلاء هم في ضلال ومخالفة وعناد بعيد عن الحق والصواب .

---

(1) سورة فاطر / 27 ـ 28 .

(2) سورة العنكبوت / 48 ـ 49 .

(3) سورة الأنعام / 105 .

(4) انظر : تفسير المنار (7 / 660) .

(5) سورة الحـج / 53 ـ 54 .

وأما أهل العلم النافع فلا تزيدهم إلقاءات الشيطان إلا تصديقاً وانقياداً لله وخضوعاً وذلاً له ، ويكون لهم جزاءً (وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) فالمؤمنون المتصفون بالعلم سيهديهم الله في الدنيا والآخرة [1] .

❁ ثانياً / أسباب الضلال (الحرمان من الهداية) :

وكما أن للهدى أسباباً فإن للضلال أسباباً ، وقد فصلها ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، وهذا من تمام رحمته تعالى بعباده ، إذ أنه ما من طريق موصلة إلى الضلال ؛ إلا وقد وضحها الله تعالى حتى ينجو الناس من الوقوع في مهاوي الضلال . وتعرف أسباب الضلال بطريقين :

* الأول : مفهوم المخالفة بمعنى أن أي سبب من أسباب الهدى فإن ضده سبب من أسباب الضلال ، فإذا قلنا مثلاً أن مجاهدة النفس من أسباب الهدى فإن ضدها وهو إطلاق العنان لشهوات النفوس وملذا ا وتحصيل كل مرغوبا ا يلقي بالإنسان إلى التهلكة وصدق من قال :

والنفس كالطفل إن ملمه شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فا م

مولاي صل وسلم دائماً أبدا ... على حبيبك خير الخلق كلهم

وقال الآخر :

إني بليت بأربع ما سلّطوا ... إلا لشدة شقوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي وبناءً

عليه فإن كل سبب تقدم ذكره في أسباب الهدى فإن ضده سبب من أسباب الضلال .

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 231) .

* الثاني : ما ذكرها القرآن الكريم صراحة على أ ا أسباب للضلال ، وبيا ا كالتالي :

1 / عدم انتفاع الإنسان بما وهبه الله عز وجل من نعم تقوده إلى الهدى . قال تعالى {ولَقَد ذَرأْنا لجهنم كَثيرا من الْجِن والإِنسِ لَهم قُلُوب لا يفْقَهونَ بِها ولَهم أَعين لا يبصرونَ بِها ولَهم آذَانٌ لا يسمعونَ بِها أُولَئك كَالأَنعامِ بلْ هم أَضل أُولَئك هم الْغافلُونَ}[1].

" يقول تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم) أي خلقنا وجعلنا لجهنم (كثيرا من الجن والإنس) أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كو م فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) [2] . وعن عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أ ا قالت : دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو غير ذلك يا عائشة . إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم) [3] وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود (ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد) [4] وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى {وإِذْ أَخذَ ربك من بنِي آدم من ظُهورِهم} [5] فقال (إن الله عز وجل خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت

---

(1) سورة ا لأعراف / 179 .

(2) صحيح مسلم (4 / 2044) رقم الحديث : 2653 .

(3) أخرجه مسلم (4 / 2050) رقم الحديث : 2662 .

(4) أخرجه البخاري (3 / 1174) رقم الحديث : 3036 ، ومسلم (4 / 2036) رقم الحديث : 2643 .

(5) سورة الأعراف / 172 .

هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار) [1] والأحاديث في هذا كثيرة ، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها . وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون ا ولهم أعين لا يبصرون ا ولهم آذان لا يسمعون ا) يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية كما قال تعالى {وجعلْنا لَهم سمعا وأَبصارا وأَفْئدةً فَما أَغْنى عنهم سمعهم ولَا أَبصارهم ولَا أَفْئدتهم من شيءٍ إِذْ كَانوا يجحدونَ بِآيات الله}[2] الآية . وقال تعالى {صم بكْم عمي فَهم لاَ يرجِعونَ}[3] . هذا في حق المنافقين ، وقال في حق الكافرين {صم بكْم عمي فَهم لاَ يعقلُونَ }[4] . ولم يكونوا صما ولا بكما ولا عميا إلا عن الهدى كما قال تعالى {ولَو علم اللّه فيهم خيرا لَّأسمعهم ولَو أَسمعهم لَتولواْ وهم معرِضونَ} [5]، وقال{فَإِنها لَا تعمى الْأَبصار ولَكن تعمى الْقُلُوب التي في الصدورِ}[6] ، وقال {ومن يعش عن عن ذكْرِ الرحمنِ نقَيض لَه شيطَانا فَهو لَه قَرِين ـ وإِنهم لَيصدونهم عنِ السبِيلِ ويحسبونَ أَنهم مهتدونَ}[7] ، وقوله تعالى (أولئك كالأنعام) أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع ـذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا . كقوله تعالى {ومثَلُ الذين كَفَرواْ كَمثَلِ الذي ينعق بِما لاَ يسمع إِلا دعاء

---

(1) أخرجه أبو داود (2 / 639) رقم الحديث : 4703 ، والترمذي (5 / 266) رقم الحديث : 3075 . وقال عنه الألباني : صحيح إلا مسح الظهر .

(2) سورة الأحقاف / 26 .

(3) سورة البقرة / 18 .

(4) سورة البقرة / 171 .

(5) سورة الأنفال / 23 .

(6) سورة الحج / 46 .

(7) سورة الزخرف / 36 ـ 37 .

ونِداء}[1] . أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال في هؤلاء (بل هم أضل) أي من الدواب ، لأ ا قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس ا وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء ، ولأ ا تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فأنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به . ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ولهذا قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) "[2] .

2 / الذنوب والمعاصي .

حيث بين الله تعالى أن الذنوب والمعاصي إذا أصر الإنسان عليها حتى علت على قلبه حينها يتكون الران الذي حذر الله منه بقوله {وما يكَذب بِه إلا كُل معتد أثيمٍ ـ إذَا تتلَى علَيه آياتنا قَالَ أَساطير الْأَولين ـ كَلا بلْ رانَ علَى قُلُوبِهم ما كَانوا يكْسِبونَ}[3] " قال الفراء هو أ ا كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلو م فذلك الرين عليها . قال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . قال مجاهد القلب مثل الكف ورفع كفه فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه ، قال وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ثم قرأ هذه الآية "[4] . وقال تعالى {وما كَانَ اللّه ليضل قَوما بعد إِذْ هداهم حتى يبين لَهم ما يتقُونَ إِن اللّه بِكُل شيءٍ عليم}[5] : أي ما كان الله ليوقع ليوقع الضلالة في قلو م بعد الهدى حتى يبين لهم ما يتقون ، فلا يتقوه ، فعند ذلك يستحقون

---

(1) سورة البقرة / 171 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 269) .

(3) سورة المطففين / 12 ـ 14 .

(4) انظر : تفسير فتح القدير (5 / 400) .

(5) سورة التوبة / 115 .

الإضلال . وفي هذا أدلّ دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت وانتهك حجا ا كانت سبباً إلى الضلالة والردى ، وسلّماً إلى ترك الرشاد والهدى [1] .

وكلما عظم الذنب غلظ الحجاب على القلب فامتنعت أنوار الهدى من الوصول إل أعماق القلوب ، وقد ضرب الله عز وجل لنا مثلاً بالكبر الذي هو من أعظم الذنوب فتكاً بالإنسان قال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ}[2] حيث بينت الآية " عاقبة من يتكبرون في الأرض بغير الحق ويعرضون عن الآيات في عناد ، ويتجنبون طريق الرشد ويهرعون إلى طريق الغواية " [3] . فقوله تعالى (سأصرف) " أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ؛ قلوب المتكبرين عن طاعتي والمتكبرين على الناس فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل " [4] كما أ م مهما يرون من " الآيات والحجج الد لة عليهم فإ م (لا يؤمنون ا) تكبرا عليها ، (وإن يروا سبيل الرشد) يعني طريق الحق والهدى والاستقامة واضحا وظاهرا (لا يتخذوه سبيلا) لمنافاته أهويتهم (وإن يروا سبيل الغي) أي الضلال عن الحق والهلاك (يتخذوه سبيلا) أي طريقا يميلون إليه (ذلك بأ م كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أي لاهين لا يتفكرون فيها ، ولا يتعظون ا " [5] " مع أ ا معروضة لمن يفتح بصيرته ولا يستكبر على الإيمان بالآيات والتسليم لله رب العالمين " [6] فحجم الغواية والضلال الذي يقع فيه الإنسان بحسب كثرة الذنوب والمعاصي وقلتها . ففي الحديث الصحيح يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عودا . فأي قلب أشر ا نكت في قلبه

---

(1) انظر : تفسير القرطبي (8 / 277) .
(2) سورة الأعراف / 146 .
(3) انظر : تفسير الظلال (3 / 1371) .
(4) انظر : تفسير محاسن التأويل (5 / 185) .
(5) انظر : تفسير محاسن التأويل (5 / 185) .
(6) انظر : تفسير الظلال (3 / 1372) .

نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت في قلبه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، وعلى أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه) [1] .

3 / إتباع الشيطان .

فقد علق الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم الضلالة والخسران والخيبة في الدنيا والآخرة على اتباع الشيطان . ومعنى اتباعه : أي اتباع مسالكه وطرقه ووساوسه بحيث يتمكن من الإنسان فيقوده إلى مهاوي الردى والضلال ، ولا يتركه إلا بعد أن يستقر به في قاع جهنم . قال تعالى {وَقَالَ الشيطَانُ لَما قُضي الأمر إِن اللّه وعدكُم وعد الْحق ووعدتكُم فَأَخلَفْتُكُم وما كَانَ لي علَيكُم من سلْطَان إِلا أَن دعوتكُم فَاستجبتم لي فَلاَ تلُومونِي ولُوموا أَنفُسكُم ما أَناْ بِمصرِخكُم وما أَنتم بِمصرِخي إِني كَفَرت بِمآ أَشركْتمونِ من قَبلُ إِن الظالمين لَهم عذَاب أَليم}[2] . وفي أتم بيان يقول عز وجل عن الشيطان {ولأُضلنهم ولأُمنينهم ولآمرنهم فَلَيبتكُن آذَانَ الأَنعامِ ولآمرنهم فَلَيغيرن خلْق اللّه ومن يتخذ الشيطَانَ وليا من دون اللّه فَقَد خسِر خسرانا مبِينا} [3] . والخلاصة أن إضلال العباد وإغواءهم هو عهد أخذه الشيطان على نفسه . قال تعالى {قَالَ فَأَنظرنِي إِلَى يومِ يبعثُونَ ـ قَالَ إِنك من المُنظَرِين ـ قَالَ فَبِما أَغْويتنِي لأَقْعدن لَهم صراطَك الْمستقيم ـ ثُم لآتينهم من بينِ أَيديهم ومن خلْفهم وعن أَيمانِهم وعن شمآئلهم ولاَ تجِد أَكْثَرهم شاكرِين}[4]. وقال تعالى {قَالَ رب بِمآ أَغْويتنِي لأُزينن لَهم في الأَرضِ ولأُغْوِينهم أَجمعين ـ إِلا عبادك منهم الْمخلَصين} [5] . لذلك فقد أمرنا الله عز وجل بعداوته بعداوته حتى لا تصل سهامه إلينا قال تعالى {إِن الشيطَانَ لَكُم عدو فَاتخذُوه عدوا إِنما يدعو

---

(1) أخرجه مسلم (1 / 128) رقم الحديث : 144 .

(2) سورة إبراهيم / 22 .

(3) سورة النساء / 119 .

(4) سورة الأعراف / 14 ـ 17 .

(5) سورة الحجر / 39 ـ 40 .

حزبه ليكُونوا من أَصحابِ السعيرِ}[1] " (إن الشيطان لكم عدو) عداوة عامة قديمة لا تكاد تزول ويشعر بذلك الجملة الأسمية و (لكم) وتقديمه للإهتمام (فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم إياه في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم (إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى إتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس إلا توريطهم وإلقاءهم في العذاب المخلد من حيث لا يشعرون " [2] .

والشيطان يريد أن يظفر بالإنسان في عقبة من سبع عقبات بعضها أصعب من بعض ، لا يـ ل منه من العقبة الشاقة إلى ما دو ا إلا إذا عجز عن الظفر به فيها وهي على النحو التالي :

❁ العقبة الأولى : عقبة الكفر والشرك بالله وبدينه ولقائه ، وبصفات كماله ، وبما أخبرت به رسله عنه ، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح . فإن نجا العبد من هذه العقبة طلبه على :

❁ العقبة الثانية : عقبة البدعة إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأمور المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئا . فإن وفق الله العبد لقطع هذه العقبة طلبه الشيطان على :

❁ العقبة الثالثة : عقبة الكبائر ، فإن ظفر به فيها زينها له وحسنها في عينه . فإن قطع العبد هذه العقبة بتوفيق الله طلبه على :

❁ العقبة الرابعة : عقبة الصغائر ، فكال له منها بالمكاييل العظيمة ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه ، فالإصرار على الذنب أقبح منه ، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . فإن نجا العبد من هذه العقبة طلبه الشيطان على :

---

(1) سورة فاطر / 6 .

(2) انظر : تفسير روح المعاني للألوسي (22 / 168) .

❁ العقبة الخامسة : عقبة المباحات التي لا حرج فيها فيشغله ا عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن ، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات ، وأقل ما ينال منه تفويت الأرباح والمكاسب العظيمة . فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ، ونور هاد ومعرفة بقدر الطاعات طلبه على :

❁ العقبة السادسة : عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات فأمره ا وحسنها في عينه ، وزينها له ، ليشغله ا عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً ، فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح . فإن نجا من هذه العقبة بفقه الأعمال ومراتبها عند الله ومنازلها في الفضل ، لم يبق هناك عقبة يطلبها عليها سوى واحدة لابد منها وهي :

❁ العقبة السابعة : تسليط جنده عليه بأنواع الأذى ، باليد واللسان والقلب ، على حسب مرتبته في الخير ، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله ، وظاهر عليه بجنده ، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط ، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها ؛ فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله جد العدو في إغراء السفهاء به ، والله المستعان وعليه التكلان [1] .

هذا وقد بين الله تعالى لنا في القرآن الكريم خطط الشيطان ومداخله في إضلال بني آدم منها :

❁ الجدال بغير علم . قال الله تعالى {ومن الناسِ من يجادلُ في الله بِغيرِ علْمٍ ويتبِع كُل شيطَان مرِيد ـ كُتب علَيه أنه من تولاه فَأنه يضله ويهديه إِلَى عذَابِ السعيرِ} [2] " وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ولا يرجع إلى علم ولا يعض فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق والباطل ويتبع في ذلك خطوات كل شيطـان عات علم من حاله

---

(1) انظر : مدارج السالكين لابن القيم (1 / 222 ـ 227) .

(2) سورة الحج / 3 ـ 4 .

وظهر وتبين أنه من جعله وليا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار " [1] .

❁ الأمر بالسوء . قال تعالى {يا أيها الناس كُلُواْ مما في الأَرضِ حلاَلاً طَيباً ولاَ تتبِعواْ خطُوات الشيطَان إنه لَكُم عدو مبِين ـ إنما يأْمركُم بِالسوءِ والْفَحشاء وأَن تقُولُواْ علَى اللّه ما لاَ تعلَمونَ} [2] .

❁ تزيين الأعمال الباطلة والمحرمة . قال تعالى {وقَيضنا لَهم قُرناء فَزينوا لَهم ما بين أَيديهم وما خلْفَهم وحق علَيهم الْقَولُ في أُممٍ قَد خلَت من قَبلهم من الْجِن والْإِنسِ إِنهم كَانوا خاسرِين} [3] . وقد بين القرآن الكريم أن الردة والكفر والضلال في الأمم السابقة كان الشيطان هو المزين له . قال تعالى {وعادا وثَمود وقَد تبين لَكُم من مساكنِهم وزين لَهم الشيطَانُ أَعمالَهم فَصدهم عنِ السبِيلِ وكَانوا مستبصرِين} [4] . وقال تعالى {إِن الذين ارتدوا علَى أَدبارِهم من بعد ما تبين لَهم الْهدى الشيطَانُ سولَ لَهم وأَملَى لَهم} [5] .

❁ الوعود والأماني الكاذبة . قال تعالى {يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطَانُ إِلا غُرورا} [6] ومن وعوده الباطلة التي يعد ا أتباعه أ م سيحل م الفقر إن هم أنفقوا في سبيل الله . قال تعالى {الشيطَانُ يعدكُم الْفَقْر ويأْمركُم بِالْفَحشاء واللّه يعدكُم مغفرةً منه وفَضلاً واللّه واسع عليم} [7] .

---

(1) انظر : تفسير الكشاف (3 / 144) .
(2) سورة البقرة / 168 ـ 169 .
(3) سورة فصلت / 25 .
(4) سورة العنكبوت / 38 .
(5) سورة محمد / 25 .
(6) سورة النساء / 120 .
(7) سورة البقرة / 268 .

4 / الجهل وإتباع الظن . قال تعالى {اهدنا الصراطَ المُستقيم ـ صراطَ الذين أنعمت علَيهم غَيرِ المَغضوبِ علَيهم ولاَ الضالين}[1] . وقد كان كفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ، ويقولون على الله ما لا يعلمون ، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . ومن هنا فقد جاء وصف النصارى بالضالين ؛ لأ م قصدوا الخير فوقعوا في الضلالة لقلة علمهم وجهلهم [2] . وقال الله تعالى {سيقُولُ الذين أشركُوا لَو شاءَ الله ما أشركْنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيءٍ كَذَلك كَذب الذين من قَبلهم حتى ذَاقُوا بأسنا قُلْ هلْ عندكُم من علْمٍ فَتخرجوه لَنا إنْ تتبِعونَ إلا الظن وإنْ أنتم إلا تخرصونَ}[3] . وقال تعالى مبيناً جهل قريش بدعو م رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة ما يعبدون من الأصنام والأوثان {الله خالق كُل شيءٍ وهو علَى كُل شيءٍ وكيلٌ ـ لَه مقَاليد السماوات والْأَرضِ والذين كَفَروا بِآيات الله أُولَئك هم الْخاسرونَ ـ قُلْ أَفَغير الله تأْمروني أعبد أَيها الْجاهلُونَ}[4] . ثم بين تبارك وتعالى بعد ذلك سنته في الذين لا يعلمون فقال {ولَقَد ضربنا للناسِ في هذَا الْقُرآن من كُل مثَلٍ ولَئن جِئْتهم بِآية لَيقُولَن الذين كَفَروا إنْ أَنتم إلا مبطلُونَ ـ كَذَلك يطْبع الله علَى قُلُوبِ الذين لَا يعلَمونَ}[5] " (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل كل مثل) أي من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بذلك ، أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد (ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) أي ما أنت يا محمد وأصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان (

---

(1) سورة الفاتحة / 6 ـ 7 .
(2) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم (1 / 5) .
(3) سورة الأنعام / 148 .
(4) سورة الزمر / 62 ـ 64 .
(5) سورة الروم / 58 ـ 59 .

كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أي مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق وينجون به من الباطل " [1] .

5 / التقليد .

فالمتتبع لسيرة الكافرين الضالين في القديم والحديث يرى بوضوح أ م كانوا يواجهون الحق وما دعا إليه أنبياء الله ؛ من توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية ونبذ عبادة الأصنام والأوثان وتحكيم شرع الله فيما بينهم ؛ يواجهون ذلك بالإعراض والإنكار وعدم الإيمان ، ويجعلون مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل : أنه لم يكن عليه أسلافهم ، ولا عرفوه منهم ، وهذا يدل على أ م في ربقة التقليد غارقون ؛ لا يكون لهم رأياً ولا يعملون فكرا ، وهذا يدل على سوء مداركهم وجمود قرائحهم ، ولو كانت لهم أعين يبصرون ا ، أو آذان يسمعون ا لعرفوا الحق بدليله ، وانقادوا لليقين ببينته وحجته . ومن هنا فإن القرآن الكريم وهو يقرر سنة الله في الهداية والضلال ، يبين لنا من أسباب الضلال عند الكافرين من الأولين والآخرين التقليد للآباء دون نظر أو فكر [2] . قال تعالى {وكَذَلك ما أَرسلْنا من قَبلك في قَرية من نذيرٍ إلا قَالَ مترفُوها إنا وجدنا آباءنا علَى أُمة وإنا علَى آثَارِهم مقْتدونَ}[3]. ومن الأقوام التي حدثنا القرآن الكريم عنها ، وكان من أسباب ضلالها تقليد الآباء : قوم نوح عليه السلام الذين قابلوا دعوة نبيهم بالرفض والجحود بدون دليل أو سند سوى أ م لم يسمعوا بمثل دعوته في آبائهم الأولين ، وكأن الحجة والدليل هو ما سمعوه من آبائهم قال تعالى {ولَقَد أَرسلْنا نوحا إِلَى قَومه فَقَالَ يا قَومِ اعبدوا الله ما لَكُم من إِلَه غَيره أَفَلَا تتقُونَ ـ فَقَالَ الْملَأُ الذين كَفَروا من قَومه ما هذَا إِلا بشر مثْلُكُم يريد أَن يتفَضلَ علَيكُم ولَو شاء الله لَأَنزلَ ملَائكَةً ما سمعنا بِهذَا في آبائنا

---

(1) انظر : تفسير فتح القدير (4 / 232) .

(2) انظر : رسالة التقليد لابن القيم / 14 .

(3) سورة الزخرف / 23 .

الأولين}[1] . إنه التقليد يطمس على حركة الفكر وحرية التفكر ، فلا يتدبر الناس ما بين أيديهم من القضايا ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها ، إنما يبحثون في ركام الماضي عن سابقة يستندون إليها ، فإن لم يجدوا هذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها [2] . فهم لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد ، والرجوع إلى قول الآباء ، فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها [3] .

كما أن أثر التقليد للآباء لا يقتصر على الكفر بالله والإعراض عن الإيمان فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى فعل الفواحش ، فهاهم كفار قريش لما عوتبوا على فعلهم الفاحشة وذلك " بتعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له ، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه قالوا : وجدنا ـ على مثل ما نفعل ـ آباءنا فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون ، ونقتدي بهديهم ونستن بسنتهم " [4] . كما قال تعالى {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[5] . هكذا كانت سنة الله تعالى فيما يؤدي إليه التقليد من الكفران والضلال ، ولهذا جاء القرآن الكريم يدعو إلى الفكر والاعتبار والاتباع عن دليل ، فالإسلام رسالة التحرر الفكري والانطلاق الشعوري ؛ لا تقر التقليد المزري ولا تقر محاكاة الآباء والأجداد اعتزازاً بهم بلا سند ولا حجة ولا تدبر ولا تفكير [6] .

6 / الجحود .

حيث بين الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم أن الجحود ـ والذي يعني الإنكار مع العلم [7] ـ بآيات الله تعالى سبب في منع الإنسان من الإيمان بالله ، وبالتالي يكون سبباً في إضلاله ،

---

(1) سورة المؤمنون / 23 ـ 24 .
(2) انظر : تفسير الظلال (4 / 2464) .
(3) انظر : تفسير الرازي (23 / 81) .
(4) انظر : تفسير الطبري (8 / 154) .
(5) سورة الأعراف / 28 ،
(6) انظر : تفسير الظلال (3 / 1280) .
(7) انظر : مختار الصحاح (1 / 40) .

ومن ذلك قوله تعالى { ولَقَد مكناهم فيما إنْ مكناكُم فيه وجعلْنا لَهم سمعاً وأبصاراً وأفْئدةً فَما أَغْنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أَفْئدتهم من شيءٍ إذْ كَانوا يجحدونَ بِآيات الله وحاق بِهم ما كَانوا به يستهزِئُونَ} [1]. " والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعا فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها في تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذا لا فلا جرم (ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئد م) من عذاب الله شيئا . ثم بين تعالى أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئد م لأجل أ م كانوا يجحدون بآيات الله ، فقوله تعالى (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) بم لة التعليل لسلبه إياهم ما أنعم عليهم به من السمع والبصر والعقل ، حتى وقعوا في الضلال . وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل م عذاب الله ولم تغن عنهم قو م ولا كثر م فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا " [2] .

ومن الأقوام الذين تحققت فيهم سنة الله في الضلال بسبب جحودهم قوم عاد ، حيث أرسل الله إليهم نبيه هوداً وأيده بالآيات البينات والدلائل الواضحات التي تدل على صدقه فيما يدعو إليه من الإيمان بالله وإخلاص العبادة له وحده ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ولم ينتفعوا بما أُرسل به ؛ بل جحدوا هذه الدلائل والآيات وإن كانوا مقرين بصدقها في حقيقة أنفسهم ، فكان عاقبتهم أن حلّ عليهم عذاب الله وسخطه . قال الله تعالى {ولَما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنواْ معه بِرحمة منا ونجيناهم من عذَابٍ غَليظ ـ وتلْك عاد جحدواْ بِآيات ربهم وعصواْ رسلَه واتبعواْ أمر كُل جبارٍ عنِيد ـ وأُتبِعواْ في هذه الدنيا لَعنةً ويوم الْقيامة أَلا إِن عادا كَفَرواْ ربهم أَلاَ بعدا لعاد قَومِ هود}[3] . فبعد أن ذكر سبحانه كيف أيد نبيه هوداً بالآيات التي تدل على صدقه وتدعوهم إلى الإيمان والهدى ، ذكر جحودهم لتلك الآيات والنعم [4] ، والذي كان سبباً في

---

(1) سورة الأحقاف / 26 .

(2) انظر : التفسير الكبير للرازي (28 / 25 ـ 26) .

(3) سورة هود / 58 ـ 60 .

(4) انظر : تفسير الظلال (4 / 1900) .

نزول عذاب الله م . ومثل ذلك يقال عن قوم فرعون الذين جحدوا الآيات العظيمة التي أُرسل ا موسى عليه السلام مع أ ا بلغت تسع آيات ، كلها باعثة على الهدى ، إلا أن فرعون وقومه جحدوا ا بالرغم من كثر ا وشدة ظهورها قال تعالى {وأَدخلْ يدك في جيبك تخرج بيضاء من غَير سوءٍ في تسع آيات إِلى فرعونَ وقَومه إِنهم كَانوا قَوما فَاسقين ـ فَلَما جاءتهم آياتنا مبصرةً قَالُوا هذَا سحر مبِين ـ وجحدوا بِها واستيقَنتها أَنفُسهم ظُلْما وعلُوا فَانظُر كَيف كَانَ عاقبةُ الْمفْسِدين}[1] .

7 / حب الدنيا والاغترار با .

فقد بين الله تعالى في كتابه الكريم في أكثر من آية أن حب الدنيا والاغترار ا والتعلق بزينتها من أسباب الضلال . قال الله تعالى {وقَالَ الذين كَفَروا هلْ ندلكُم علَى رجلٍ ينبئُكُم إِذَا مزقْتم كُلَّ ممزقٍ إِنكُم لَفي خلْقٍ جديد ـ أَفْترى علَى الله كَذبا أَم بِه جِنةٌ بلِ الذين لَا يؤمنونَ بِالْآخرة في الْعذَابِ والضلَالِ الْبعيد} [2] . فالذي يستبعد الآخرة ويستغر ا لا شك أنه في ضلال بعيد ، كما وصف الله عز وجل ، إذ هو يتعجب مما ليس فيه عجب فالذي خلقهم ابتداءً قادر على أن يعيدهم ثانية . وقد كان ذلك الاستبعاد والاستغراب لليوم الآخر يدعوهم إلى رفض الدين الذي يربط مصيرهم في الآخرة بسعيهم في الدنيا ، رغبة منهم في الاستمتاع بشهوا ا دون حدود ، وذلك لا ريب أنه من أعظم الضلال . قال السعدي في تفسير هذه الآية " (وقال الذين كفروا) على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد أي قال بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) يعنون بذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه رجل أتى بما يستغرب منه حتى صار ـ بزعمهم ـ فرجة يتفرجون عليه وأعجوبة يسخرون منه وأنه كيف يقول (إنكم مبعوثون) بعدما مزقكم البلى وتفرقت أوصالكم واضمحلت أعضاؤكم فهذا الرجل الذي أتى بذلك هل (افترى على الله كذبا) فتجرأ عليه وقال ما قال (أم به جنة) فلا يستغرب منه فإن الجنون فنون وكان هذا

---

(1) سورة النمل / 12 ـ 14 .

(2) سورة سبأ / 7 ـ 8 .

منهم على وجه العناد والظلم ، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم ، ومن علمهم أ م أبدأوا وأعادوا في معادا م وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه فلو كان كاذبا مجنونا ـ يا أهل العقول غير الزاكية ـ لم ينبغ أن تصغوا لما قال ولا أن تحتفلوا بدعوته فإن ا نون لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كل مبلغ ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته ولبيتم دعوته ولكن {وما تغنِي الآيات والنذُر عن قَومٍ لا يؤمنونَ}[1] . ولهذا قال تعالى (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة) ومنهم الذين قالوا تلك المقالة (في العذاب والضلال البعيد) أي في الشقاء العظيم والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب . وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به واستهزائهم به وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق فرأوا الحق باطلا والباطل والضلال حقا وهدى " [2]. وقال تعالى {إِن الذين لاَ يرجونَ لقَاءنا ورضواْ بِالْحياة الدنيا واطْمأَنواْ بِها والذين هم عن آياتنا غَافلُونَ ـ أُولَئك مأْواهم النار بِما كَانواْ يكْسِبونَ}[3]. ومن مظاهر حب الدنيا والاغترار ا الانكباب على جمع المال من أي مصدر كان . قال تعالى {كَلَّا بل لَّا تكْرِمونَ الْيتيم ـ ولَا تحاضونَ علَى طَعامِ الْمسكينِ ـ وتأْكُلُونَ التراثَ أَكْلًا لما ـ وتحبونَ الْمالَ حبا جما} [4]. ولذلك فإن الإنسان إذا استحوذ حب المال على قلبه أنساه ذلك واهب المال ـ وهو الله عز وجل ـ فيعتقد أن المال ماله وليس مال الله ، ولذلك فهو لا ينضبط في تعامله مع هذا المال بأي ضوابط شرعية وهذا بداية الضلال الذي قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر ـ عياذاً بالله ـ وما قصة قارون منا ببعيد قال تعالى {إِن قَارونَ كَانَ من قَومِ موسى فَبغى علَيهِم وآتيناه من الْكُنوزِ ما إِن مفَاتحه لَتنوءُ بِالْعصبة أُولي الْقُوة إِذْ قَالَ لَه قَومه لَا تفْرح إِن الله لَا يحب الْفَرِحين ـ وابتغِ فيما آتاك الله الدار الْآخرةَ ولَا تنس نصيبك من الدنيا وأَحسِن كَما أَحسن الله إِلَيك ولَا تبغِ الْفَساد في الْأَرضِ إِن الله لَا يحب الْمفْسِدين ـ قَالَ إِنما أُوتيته علَى علْمٍ عندي أَولَم يعلَم أَن الله قَد

---

(1)سورة يونس / 101 .

(2) انظر : تفسير السعدي (1 / 675 ـ 676) .

(3) سورة يونس / 7 ـ 8 .

(4) سورة الفجر / 17 ـ 20 .

أهلَك من قَبله من القُرون من هو أشد منه قُوةً وأكْثَر جمعا ولَا يسأَلُ عن ذُنوبِهم الْمجرِمونَ ـ فَخرج علَى قَومه في زِينته قَالَ الذين يرِيدونَ الْحياةَ الدنيا يا لَيت لَنا مثْلَ ما أُوتي قَارونُ إِنه لَذُو حظ عظيمٍ ـ وقَالَ الذين أُوتوا الْعلْم ويلَكُم ثَواب الله خير لمن آمن وعملَ صالحا ولَا يلَقاها إِلَا الصابِرونَ ـ فَخسفْنا بِه وبِدارِه الْأَرض فَما كَانَ لَه من فئَة ينصرونه من دون الله وما كَانَ من الْمنتصرِين ـ وأَصبح الذين تمنوا مكَانه بِالْأَمسِ يقُولُونَ ويكَأَن الله يبسطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقْدر لَولَا أَن من الله علَينا لَخسف بِنا ويكَأَنه لَا يفْلح الْكَافرونَ ـ تلْك الدار الْآخرةُ نجعلُها للذين لَا يرِيدونَ علُوا في الْأَرضِ ولَا فَسادا والْعاقبةُ للْمتقين}[1] .

8 / **إتباع الهوى .** وقد بين لنا القرآن الكريم بجلاء أن اتباع الهوى أحد أسباب الضلال ، ولذلك جاء التحذير منه في آيات متعددة . فمن ذلك قوله تعالى{فَإِن لم يستجِيبوا لَك فَاعلَم أَنما يتبِعونَ أَهواءهم ومن أَضل ممنِ اتبع هواه بِغيرِ هدى من الله إِن الله لَا يهدي الْقَوم الظالمين}[2]. وقال تعالى {أَفَرأَيت منِ اتخذَ إِلَهه هواه وأَضله الله علَى علْمٍ وختم علَى سمعه وقَلْبِه وجعلَ علَى بصرِه غشاوةً فَمن يهديه من بعد الله أَفَلَا تذَكَّرونَ}[3] " حيث يرسم التعبير القرآني المبدع نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب وحين تتعبد هواها وتخضع له وتجعله مصدر تصورا ا وأحكامها ومشاعرها وتحركا ا وتقيمه إلهاً قاهراً لها مستولياً عليها ، تتلقى إشاراته المتقلّبة بالطاعة والتسليم والقبول . ومن كان هذه حاله فإنه يستحق من الله أن يضله فلا يتداركه برحمة الهدى . فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض " [4] ومعنى (أضله الله على علم) أنه حقّهم بأسباب الضلالة من عقول مكابرة ونفوس ضعيفة ؛ اعتادت اتباع ما تشتهيه ، لا تستطيع حمل المصابرة والرضى بما فيه كراهية لها ـ مع أ م أهل علم ؛ أي : عقول سليمة ، أو مع أ م بلغهم العلم بما يهديهم ، وذلك بالقرآن ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم ـ فصارت أسماعهم كالمختوم عليها في عدم الانتفاع ،

---

(1) سورة القصص / 76 ـ 83 .

(2) سورة القصص / 50 .

(3) سورة الجاثية / 23 .

(4) انظر : الظلال (5 / 3230) .

وقلوبهم كالمختوم عليها في عدم نفوذ النصائح ودلائل الأدلة عليها ، وأبصارهم كالمغطاة بغشاوات فلا تنتفع بمشاهدة المصنوعات الإلهية الدالة على انفراد الله بالإلهية وعلى أنّ بعد هذا العالم بعثاً وجزاءً . وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى الباعث للمؤمنين على أعمالهم ، ويتركوا اتباع أدلة الحق ، فإذا كان الحق محبوباً لأحد فذلك من التخلق بمحبة الحق تبعاً للدليل ، مثل ما يهوى المؤمن الصلاة والجماعة وقيام رمضان وتلاوة القرآن [1] . وإننا إذا استنطقنا التاريخ وجدنا أن معظم الأفكار المنحرفة والمذاهب الهدامة إنما تأسست على أيدي أناس اتخذوا الهوى أصلاً والدليل تابعاً فضلوا وأضلوا .

9 / صحبة أهل الضلال .

إن من المعروف شرعاً وطبعاً أن كل نظير يأنس إلى نظيره ، وأن كل مثيل ينجذب إلى مثيله ، قال تعالى {والذين كَفَرواْ بعضهم أولياء بعضٍ إلا تفْعلُوه تكُن فتنةٌ في الأرضِ وفَساد كَبِير}[2]. لذا فإن القوم الذين اجتمعوا في الدنيا على أمر معين فإنهم يجتمعون عليه في الآخرة كذلك . قال تعالى {يوم ندعو كُل أُناسٍ بِإمامهم فَمن أُوتي كتابه بِيمينِه فَأُولَئك يقْرؤونَ كتابهم ولاَ يظْلَمونَ فَتيلاً}[3]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية " أن المراد بإمامهم أي كل قوم بمن يأتمون به فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال {وجعلْناهم أئمةً يدعونَ إِلَى النارِ}[4]، وفي الصحيحين (من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت) [5] " [6] . ولذا فإن من أوجب الواجبات على المؤمن ألا يصحب أهل الضلال من الكفار والمنافقين والفسقة وأهل البدع والأهواء حتى لا يتأثر بهم

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير (25 / 358 ـ 359) .

(2) سورة الأنفال / 73 .

(3) سورة الإسراء / 71 .

(4) سورة القصص / 41 .

(5) أخرجه البخاري (6 / 2704) رقم الحديث : 7000 ، ومسلم (1 / 163) رقم الحديث : 182 .

(6) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 53) .

قال تعالى {وإِذَا رأيت الذين يخوضونَ في آياتنا فَأعرِض عنهم حتى يخوضواْ في حديث غَيره وإما ينسِينك الشيطَانُ فَلاَ تقْعد بعد الذكْرى مع الْقَومِ الظالمين}[1]. والمتأمل يجد أن أرباب السلوك منعوا مصاحبة ضعيفي الهمة وواهني العزائم لأ م يثبطون العزائم ويقعدون الإنسان عن العمل فما بالك بأهل الضلال . يقول القائل :

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليد سريعة كالجمر يوضع في الرماد فيخمد [2] .

قال تعالى {وذَرِ الذين اتخذُواْ دينهم لَعبا ولَهوا وغَرتهم الْحياةُ الدنيا وذَكر بِه أَن تبسلَ نفْس بِما كَسبت لَيس لَها من دون اللّه ولي ولاَ شفيع وإِن تعدلْ كُلَّ عدلٍ لا يؤخذْ منها أُولَئك الذين أُبسِلُواْ بِما كَسبواْ لَهم شراب من حميمٍ وعذَاب أَليم بِما كَانواْ يكْفُرونَ}[3] وقال تعالى {ويوم يعض الظالم علَى يديه يقُولُ يا لَيتنِي اتخذْت مع الرسولِ سبِيلًا ـ يا ويلَتى لَيتنِي لَم أَتخذْ فُلَانا خليلًا ـ لَقَد أَضلنِي عنِ الذكْرِ بعد إِذْ جاءنِي وكَانَ الشيطَانُ للْإِنسان خذُولًا}[4] قال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية " (ويوم يعض الظالم) بشركه وكفره وتكذيبه للرسل (على يديه) تأسفا وتحسرا وحزنا وأسفا (يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) أي طريقا بالإيمان به وتصديقه واتباعه (يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا) وهو الشيطان الإنسي أو الجني (خليلا) أي حبيبا مصافيا عاديت أنصح الناس لي وأبرهم بي وأرفقهم بي وواليت أعدى عدو لي الذي لم تفدني ولايته إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله (وكان الشيطان للإنسان خذولا) يزين له الباطل ويقبح له الحق ويعده الأماني ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه كما قال لجميع أتباعه حين قضي الأمر وفرغ الله من

---

(1) سورة الأنعام / 68 .

(2) انظر : قرى الضيف لابن أبي الدنيا (4 / 275) .

(3) سورة الأنعام / 70 .

(4) سورة الفرقان/ 27 ـ 29 .

حساب الخلق {وقَالَ الشيطَانُ لَما قُضي الأَمر إِن اللّه وعدكُم وعد الْحق ووعدتكُم فَأَخلَفْتكُم وما كَانَ لي علَيكُم من سلْطَان إِلا أَن دعوتكُم فَاستجبتم لي فَلاَ تلُومونِي ولُوموا أَنفُسكُم ما أَناْ بِمصرِخكُم وما أَنتم بِمصرِخي إِني كَفَرت بِمآ أَشركْتمون من قَبلُ}[1] الآية . فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن وليوال من ولايته فيها سعادته وليعاد من تنفعه عداوته وتضره صداقته " [2] .

(1) سورة إبراهيم / 22 .

(2) انظر : تفسير السعدي (1 / 582) .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على سنة الهدى والضلال .

لقد تحققت سنة الله تعالى في هداية عباده وإضلالهم على مدار التاريخ ، يتجلى ذلك بوضوح عند الاطلاع على القصص القرآني المبثوث في ثنايا كتاب الله الكريم .

فقد ضرب الله عز وجل في القرآن نماذج للمهتدين وأخرى للضالين ، وذلك لتحبيب الناس في الهدى وتبغيضهم في الضلال ، ومن هذه النماذج ما يلي :

أولاً : نموذج المهتدين .

عرض القرآن لنا في مواضع كثيرة نماذج للمهتدين من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين كصاحب يس وذي القرنين وغيرهم . ولعل من أشهر تلك النماذج امرأة فرعون حيث ضربت مثلاً رائعاً في البراءة من الكافرين ، وذلك حينما تخلت عن قصر فرعون المنيف طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة ، وتبرأت من صلتها بفرعون وهو زوجها ؛ فسألت النجاة منه ، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به ، وتبرأت من قوم فرعون جميعاً وهي تعيش بينهم [1] ، فكان جزاؤها أن جعلها الله مثالاً وقدوةً ونبراساً للمؤمنين المهتدين بهدى الله تعالى على مر الأزمان . قال تعالى {وضرب الله مثَلًا للذين آمنوا امرأَةَ فرعونَ إِذْ قَالَت رب ابنِ لي عندك بيتا في الْجنة ونجنِي من فرعونَ وعمله ونجنِي من الْقَومِ الظالمين}[2] " وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم كما قال تعالى{لا يتخذ الْمؤمنونَ الْكَافرِين أَولياء من دون الْمؤمنِين ومن يفْعلْ ذَلك فَلَيس من اللّه في شيءٍ إِلا أَن تتقُواْ منهم تقَاةً} [3]. قال قتادة كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدا إلا بذنبه . وعن ابن جرير عن سليمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها

---

(1) انظر : تفسير الظلال (6 / 3621 ـ 3622) .

(2) سورة التحريم / 11 .

(3) سورة آل عمران / 28 .

وكانت ترى بيتها في الجنة . وعن ابن جرير عن القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال غلب موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون فأرسل إليها فرعون فقال انظروا أعظم صخرة تجدو ا فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فإ ا امرأتي فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح فقولها (رب بن لي عندك بيتا في الجنة) قالت العلماء : اختارت الجار قبل الدار . (ونجني من فرعون وعمله) أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله (ونجني من القوم الظالمين) وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها . وفي رواية أخرى : فأطلع الله فرعون على إيما ا فقال للملأ ما تعلمون من آسية بنت مزاحم فأثنوا عليها فقال لهم إ ا تعبد غيري فقالوا له اقتلها فأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ر ا فقالت (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون ألا تعجبون من جنو ا إنا نعذ ا وهي تضحك فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها " [1] .

ثانياً : نموذج الضالين .

وكما أن القرآن قد عرض نماذج كثيرة للمهتدين ؛ فقد عرض أيضاً نماذج للضالين . ومن الأقوام التي حلت فيهم سنة الضلال بسبب جحودهم : قوم عاد الذين أرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام بالآيات البينات والدلائل الواضحات التي تدل على صدقه فيما يدعو إليه عن التوحيد والإيمان به ، وغير ذلك مما أقام عليه الحجج ولكنهم لم ينتفعوا بذلك بل جحدوا هذه الآيات وإن كانوا مقرين ا في نفوسهم ظلماً وعلواً واتباعاً لشهوات أنفسهم ، وإنما قص علينا القرآن الكريم قصتهم بياناً لسنته تعالى فيمن جحد آيات الله اعتباراً واحترازاً من الوقوع فيما وقعوا فيه ، فيحل بنا ما حلّ م . وقد جاء ذكر جحودهم في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل :

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 394 ـ 395) .

❁ فأما الموضع الأول : ففي سورة هود ، حيث بين سبحانه كيف أيد نبيه هوداً بالآيات البينات التي تدل على صدقه وتدعوهم إلى الإيمان والهدى ، ثم ذكر جحودهم لتلك الآيات والنعم فقال { وتلْك عاد جحدواْ بِآيات ربهم وعصواْ رسلَه واتبعواْ أمر كُل جبارٍ عنِيد}[1] .

❁ وأما الموضع الثاني : فيشير إلى ما أنعم الله تعالى به عليهم من التمكين في الأرض ، ومن نعمة السمع والبصر والعقل ، التي ا يدركون الآيات الباعثة على الهدى ، ثم بينت الآيات أن سمعهم وبصرهم وعقلهم لم ينفعهم ولم يستفيدوا مما أوصلهم إليه من حقائق لأ م جحدوا تلك الحقائق عناداً وعلواً في الأرض واستكباراً . قال تعالى {ولَقَد مكناهم فيما إِن مكناكُم فيه وجعلْنا لَهم سمعا وأَبصارا وأَفْئدةً فَما أَغْنى عنهم سمعهم ولَا أَبصارهم ولَا أَفْئدتهم من شيءٍ إِذْ كَانوا يجحدونَ بِآيات الله وحاق بِهِم ما كَانوا بِه يستهزِؤون}[2] .

❁ وأما الموضع الثالث : فقد كان في سورة فصلت حيث جاء ذكر قوم عاد بعد أن ساق القرآن الكريم حججه وأدلته على التوحيد والهدى ، مخاطباً ا كفار قريش وأ م إذا لم يذعنوا للحق ويؤمنوا ظاهراً بما يؤمنون به في أنفسهم مع إبائهم الانقياد والإذعان جحوداً وعناداً فإنه سيحل م ما حل بعاد من العذاب نظراً لجحودهم . قال تعالى مقيماً الأدلة والآيات على الهدى مبيناً جحود عاد بعد ذلك : {قُلْ أَئنكُم لَتكْفُرونَ بِالذي خلَق الْأَرض في يومينِ وتجعلُونَ لَه أندادا ذَلك رب الْعالَمين ـ وجعلَ فيها رواسي من فَوقها وبارك فيها وقَدر فيها أَقْواتها في أَربعة أَيامٍ سواء للسائلين ـ ثُم استوى إِلَى السماء وهي دخانٌ فَقَالَ لَها وللْأَرضِ ائْتيا طَوعا أَو كَرها قَالَتا أَتينا طَائعين ـ فَقَضاهن سبع سماوات في يومينِ وأَوحى في كُل سماء أَمرها وزينا السماء الدنيا بِمصابِيح وحفْظًا ذَلك تقْدير الْعزِيزِ الْعليمِ ـ فَإِنْ أَعرضوا فَقُلْ أَنذَرتكُم صاعقَةً مثْلَ صاعقَة عاد وثَمود ـ إِذْ جاءتهم الرسلُ من بينِ أَيديهم ومن خلْفهم أَلَا تعبدوا إِلَّا الله قَالُوا لَو شاء ربنا لَأَنزلَ ملَائكَةً فَإِنا بِما أُرسلْتم

---

(1) سورة هود / 59 .

(2) سورة الأحقاف / 26 .

بِهِ كَافِرُونَ ـ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ـ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [1] .

(1) سورة فصلت / 9 ـ 16 .

الفصل الثاني

سنة الله في النصر والهزيمة

ويحتوي على تمهيد وثلاثة مباحث : -

المبحث الأول : - التعريف العام بالسنة

المبحث الثاني : - عرض الآيات المتعلقة بهذه السنة

المبحث الثالث : - تطبيقات قرآنية على هذه السنة

❁ تمهيد :

إن من سنن الله في هذا الكون سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، وهي طرف من الناموس الأكبر الذي يحكم الحياة الإنسانية ، وقد ربط الله عز وجل بين نصره للمؤمنين وبين الحق الذي تقوم عليه السماء والأرض والنظام الكوني بشكل عام [1]، وهذه السنة شأ ا كشأن بقية سنن الله نافذة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورا ا المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة التي ي ل عليها الماء [2] ، بل إن هذه السنة أكثر مضياً ونفاذاً من كل ذلك ، لأن هذه السنة المادية قد تنخرق لتتحقق سنة النصر ، أو لحكمة يريدها الله عز وجل .

ثم إن لتحقق سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين أجلاً مقدراً وزمناً محدداً ، مغيباً عن الناس لا يعلمه إلا مقدره سبحانه وتعالى ، وإن هذا الأجل المقدر لا يتقدم ، وإن عذب المؤمنون في سبيل الله وأوذوا ، فالله عز وجل لا يتعجل بعجلة أحد ، فالنصر يجيء في الزمان الذي يقدره الله ، والذي يكون قد هيأت له الأسباب ، وهيئ له الزمان والمكان[3]. وقد يكون الأجل بعيداً ، ولكن لا خلف في وعد الله وسنته لأ ا صادرة عن إرادته سبحانه وتعالى الطليقة وحكمته العميقة ، و هو قادر على تحقيقه لا راد لمشيئته ولا مبدل لحكمه ولا معقب له ، ولا يكون في هذا الكون إلا ما شاء سبحانه وتعالى [4] .

هذا وسوف يتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة ذه السنة .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2438) .

(2) انظر : المرجع السابق (5 / 3002) .

(3) انظر : المرجع السابق (2 / 1082) ، (5 / 3085) ، (6 / 3996) .

(4) انظر : المرجع السابق (5 / 2758) .

المبحث الأول : التعريف العام بسنة النصر والهزيمة .

❁ تعريف النصر :

تعريف النصر لغة :

نصر ينصر نصراً ونصوراً بمعنى : أعان . ويقال : نصر الغيثُ الأرض : عمها بالجود . ونصرت الأرض فهي منصورة أي : ممطورة . ونصره منه : نجاه وخلصه . وانتصر الرجل : إذا امتنع من ظالمه [1] . وانتصر منه : انتقم . واستنصره عليه : سأله أن ينصره . والنصير : الناصر قال الله تعالى {نِعم الْمولَى ونِعم النصير}[2]. والجمع أنصار [3]. والانتصار والاستنصار : طلب النصرة واستمداد النصر . والتناصر : التعاون . يقال : تناصروا : تعاونوا على النصر ، وأيضاً : نصر بعضهم بعضاً [4]. والاسم من هذه المادة ـ بهذا المعنى ـ النصرة وهي حسن المعونة [5] . ومن معاني النصر : العطاء . والمستنصر : السائل . فقد وقف أعرابي على قوم فقال : انصروني نصركم الله ، أي : أعطوني أعطاكم الله [6].

❁ تعريف النصر اصطلاحاً .

النصر والهزيمة كلمتان متقابلتان في دلالتهما من الناحية الاصطلاحية ، فالنصر ضد الهزيمة ومقابلها . وأصل النصر العون والمنع ، وأصل الهزيمة من الهَزم ، وهو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم ، فهي بمعنى الحطم والكسر [7].

---

(1) انظر : القاموس المحيط (1 / 621) ، ولسان العرب (5 / 210) .
(2) سورة الأنفال / 40 .
(3) انظر : لسان العرب (5 / 210) .
(4) انظر : تاج العروس (1 / 3538 ـ 3539) .
(5) انظر : لسان العرب (5 / 210) .
(6) انظر : لسان العرب (5 / 211) .
(7) انظر : مفردات الراغب (1 / 543) .

وللنصر عدة معان ذُكر أشهرها في كتاب الله تعالى [1] :

أحدها : المنع . ومنه قوله تعالى{فَلاَ يخفف عنهم الْعذَاب ولاَ هم ينصرونَ}[2] ، {هلْ ينصرونكُم أَو ينتصرونَ}[3]. أي : يمنعونكم من عذاب الله . وقوله تعالى {فَمن ينصرنا من بأْسِ الله إِنْ جاءنا} [4]. وقوله تعالى {ما لَكُم لَا تناصرونَ}[5] .

والثاني : الإعانة والتأييد وبه جاءت عامة معاني النصر في الآيات القرآنية . ومن ذلك قوله تعالى {ولَينصرن الله من ينصره إِن الله لَقَوِي عزِيز}[6]. وقوله تعالى {وإِن قُوتلْتم لَننصرنكُم}[7]. وقوله تعالى{إِن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أَقْدامكُم}[8] " ونصرة الله للعبد ظاهرة . ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق أحكامه واجتناب يه " [9] .

والثالث : الظفر . ومنه قوله تعالى {وانصرنا علَى الْقَومِ الْكَافرِين}[10] .

والرابع : الانتقام ومنه قوله تعالى{ولَمنِ انتصر بعد ظُلْمه فَأُولَئك ما علَيهِم من سبِيلٍ}[11] وقوله تعالى{ولَو يشاء الله لَانتصر منهم}[12]وقوله تعالى {فَدعا ربه أَني مغلُوب فَانتصر}[13]

---

(1) انظر : الأشباه والنظائر / 239 .

(2) سورة البقرة / 86 .

(3) سورة الشعراء / 93 .

(4) سورة غافر / 29 .

(5) سورة الصافات / 25 .

(6) سورة الحـج / 40 .

(7) سورة الحشر / 11 .

(8) سورة محمد / 7 .

(9) انظر : المفردات في غريب القرآن (1 / 495) ، بصائر ذوي التمييز (5 / 69) .

(10) سورة البقرة / 250 . وكذلك في سورة آل عمران / 147

(11) سورة الشورى / 41 .

(12) سورة محمد / 4 .

(13) سورة القمر / 10 .

كأنه قال لربه : انتقم منهم . وإنما قال (انتصر) ولم يقل : انصر ؛ تنبيهاً على أن ما يلحقني يلحقك من حيث إني جئتهم بأمرك ، فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك [1] .

والخامس : النجاة كما في قوله تعالى عن نوح عليه السلام {ونصرناه من الْقَومِ الذين كذبوا بِآياتنا} [2] .

والسادس : الإغاثة . فيقال : استنصر بفلان ؛ أي استغاث به. واستنصر فلاناً : طلب نصرته، ومنه قوله تعالى {فَإِذَا الذي استنصره بِالْأَمسِ يستصرِخه} [3] .

ومن هذه المعاني اللغوية يتضح معنى النصر وأنه ليس له صورة خاصة بمعنى واحد ؛ بل أية صورة وأي معنى تحقق في عالم الواقع ، سواء كان تحققه حسياً أو معنوياً فإنه يعد نصراً ، وصاحبه منصوراً ـ خصوصاً في جانب المؤمنين ـ ، وإن بدا لأكثر الناس بخلاف ذلك .

والناظر في آيات القرآن والمتتبع لمعانيها يجد أن الآيات التي ذُكر فيها معنى النصر ـ بصيغه المختلفة ـ تنبئ بالقَطْع الذي لا يعتريه شائبة شك أو ظن أن الناصر الحقيقي الذي يمد خلقه المطيعين بالتأييد والإعانة والنصرة على العدو إنما هو الله عز وجل ، سواء أكان هذا التأييد على مستوى الجماعة أم الفرد . ومن الآيات التي تذكر هذا المعنى صراحة وتبين تلك الحقيقة الإيمانية :

❁ قوله تعالى {وما لَكُم من دون اللّه من ولي ولاَ نصيرٍ} [4].

❁ قوله تعالى {وما النصر إلا من عند اللّه الْعزيزِ الْحكيمِ} [5].

❁ قوله تعالى {إن ينصركُم اللّه فَلاَ غَالب لَكُم }[6].

---

(1) انظر : بصائر ذوي التمييز (5 / 69) .

(2) سورة الأنبياء / 77 .

(3) سورة القصص / 18 .

(4) سورة البقرة / 107 .

(5) سورة آل عمران / 126 .

(6) سورة آل عمران / 160 .

❁ قوله تعالى {ولاَ يجِد لَه من دون اللّه وليا ولاَ نصيرا}[1].
❁قوله تعالى{فَلَم تقْتلُوهم ولَكن اللّه قَتلَهم وما رميت إِذْ رميت ولَكن اللّه رمى}[2].
❁ قوله تعالى {قَاتلُوهم يعذبهم اللّه بِأَيديكُم ويخزِهم وينصركُم علَيهم}[3].
❁ قوله تعالى {ولَم تكُن له فئَةٌ ينصرونه من دون الله وما كَانَ منتصرا}[4].
❁ قوله تعالى {أَمن هذَا الذي هو جند لَكُم ينصركُم من دون الرحمنِ}[5].

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، سواء أكانت بالتصريح أم بالتلميح ، إلا أن الآية القاطعة في هذا الصدد هي قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله) الذي جاء بعد ذكر المدد بالملائكة وتأييد المؤمنين م . والمعنى : لا تحسبوا النصر بعدة أو عدد ، ولا تحسبوا النصر من الملائكة أو غيرهم ، فإن الناصر هو الله ، لكم وللملائكة ، أو ما النصر الذي أيدكم به بسبب الملائكة وغيرها إلا من عند الله [6] . والغرض من هذا الحصر الحقيقي في الآية هو أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة ، وهذا تنبيه على أن إيمان العبد لا يكمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب [7] .

وهكذا يقرر السياق القرآني رد الأمر كله إلى الله ، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة : قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة ، وإرادته الفاعلة ، وقدره المباشر . وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة ، وإنما هي أداة تحركها المشيئة وتحقق ا ما تريده . وبذلك تبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب ، بين قلب المؤمن وقدر الله ، بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائط .

---

(1) سورة النساء / 123 .
(2) سورة الأنفال / 17 .
(3) سورة التوبة / 14 .
(4) سورة الكهف / 43 .
(5) سورة الملك / 20 .
(6) انظر : جامع البيان للطبري (4 / 84) ، التحرير والتنوير (4 / 78) .
(7) انظر : التفسير الكبير للرازي (8 / 189) ، روح المعاني (4 / 47) .

لقد نزلت هذه الآية في بيان الناصر الحقيقي لمتبعي الشرع ومطيعي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك في النموذج الرباني الذي يمثل هذه الحقيقة الإيمانية ، ذلك النموذج هو (غزوة بدر) التي بين الله فيها قوانين النصر الرباني ، ورأينا فيها كيف أن الله ينصر المؤمنين إذا شاء ، حتى لو تخلفت بعض أسباب النصر المادية من تكافؤ بالعدة والعدد . وبسبب بيان هذه الحقيقة القرآنية واتفاقها مع واقع المسلمين تركت غزوة بدر آثارها البعيدة على عقلية المسلمين القتالية من يومها حتى هذه اللحظة ، فمن يومها لم يعد المسلمون يكترثون بعدة أو عدد ، مع بذلهم الجهد لتحصيل العدة والعدد ثقة بنصر الله ، ويقيناً جازماً بهذه الحقيقة العظمى .

❁ تعريف الهزيمة :

تعريف الهزيمة لغة : الهزم غمزك الشيء تهزمه بيدك فينهزم في جوفه وهزم الشيء يهزمه هزما فانهزم غمزه بيده فصارت فيه وقرة كما يفعل بالقثاء ونحوه . وهزوم الجوف مواضع الطعام والشراب لتطامنها والهزوما و الهزمة ما تطامن من الأرض . والهزيمة في القتال الكسر والفل هزمه يهزمه هزما فانهزم ، وهزم القوم في الحرب والاسم الهزيمة والهزيمى . وأصابتهم هازمة من هوازم الدهر أي داهية كاسرة [1] .

تعريف الهزيمة اصطلاحاً :

هزم أصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى ينحطم ومنه الهزيمة لأنه كما يعبر عنه بذلك يعبر عنه بالحطم والكسر قال تعالى {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ}[2] وقال تعالى{جند ما هنالك مهزوم من الْأحزابِ}[3] [4] . وقال أبو إسحق في قوله عز وجل (فهزموهم بإذن الله) معناه كسروهم كسروهم وردوهم وأصل الهزم كسر الشيء وثني بعضه على بعض [5] .

المبحث الثاني : الآيات المتعلقة بسنة النصر والهزيمة .

---

(1) انظر : لسان العرب لابن منظور (12 / 610) .

(2) سورة البقرة / 251 .

(3) سورة ص / 11 .

(4) انظر : المفردات في غريب القرآن (1 / 543) .

(5) انظر : لسان العرب لابن منظور (12 / 610) .

من المهم جداً قبل أن نفصل الحديث عن هذه السنة أن نبين أن الله تبارك وتعالى أوضح في القرآن الكريم أن هذه السنة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسنن كونية أعم منها وبيا ا كالتالي :

أولاً : سنة الصراع بين الحق والباطل .

حيث وردت آيات كثيرة تبين أن الكون قائم على التنازع بين الحق والباطل ، وأن هذه سنة من سنن الله في الأمم والأفراد ، فضلاً عن كو ا سنة كونية لا يستثنى منها مخلوق . وتقرر هذه الآيات أن هذه السنة جارية على إقرار الحق وإحقاقه في التكوين ، وإزهاق الباطل وإبطاله ، وأن الباطل يفنى ويعفى أثره ويبقى الحق على جلاله ؛ إذ الدولة في اية المطاف له ، وإن كانت للباطل جولة أحيانا . ومن هذه الآيات التي تقرر ذلك المبدأ :

❁ قوله تعالى في سياق عرض أحداث وقعة بدر {ويرِيد اللّه أَن يحق الحَق بِكَلماته ويقْطَع دابِر الْكَافرِين ـ ليحق الْحق ويبطلَ الْباطلَ ولَو كَرِه الْمجرِمونَ}[1] . والمراد بإحقاق الحق هنا إظهاره ، وهو أن يظهر الإسلام . والحق حق أبدا ، ولكن إظهاره تحقيق له ، من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل [2]. والمراد من الإرادة في صدر الآية إرادة خاصة ، وهي المشيئة والتعلق التنجيزي للإرادة التي هي صفة ذات الله تعالى [3] .

❁ ما جاء على صورة حقائق كلية وقواعد مطردة في سياق قوله تعالى {بلْ نقْذف بِالْحق علَى الْباطلِ فَيدمغه فَإِذَا هو زاهق ولَكُم الْويلُ مما تصفُونَ } [4]. فالحق فيها عام في القرآن والرسالة والشرع وكل ما هو حق ، والباطل أيضاً عام كذلك ، وقوله (فيدمغه) معناه : يصيب دماغه ، وذلك مهلك في البشر ، فكذلك الحق يهلك الباطل [5] . وفي قوله تعالى (نقذف) بصيغة المضارع ـ المفيدة للاستمرار ـ دلالة على كون ذلك سنة جارية . وفي قوله (نقذف

---

(1) سورة الأنفال / 7 ـ 8 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (3 / 1481) .

(3) انظر : التحرير والتنوير (9 / 271) .

(4) سورة الأنبياء / 18 .

(5) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية (4 / 77) .

... فيدمغه) دلالة على علو الحق على الباطل . وفي قوله (فإذا هو زاهق) دل حرف المفاجأة على سرعة محق الحق الباطل عند وروده ؛ لأن للحق صولة ، فهو سريع المفعول إذا ورد وصح . و ـذا يتبين أنه قد جرت سنة الله تعالى بأن يمهل الباطل ، حتى إذا اعترض الحق ليبطله ويحل محله قذفه بالحق فإذا هو زاهق ، فالاعتقاد الحق لا يقطع دابره ، وإن قلت حملته أحياناً أو ضعفوا ، والكمال الحق لا يهلك من أصله وإن تكاثرت أضداده . فنتيجة التنازع بين الحق والباطل هي دائماً انتصار الحق وغلبته في ـاية الأمر ؛ لأن الباطل ضعيف وإن بدا وظهر ، والحق قوي وإن اختفى في بعض الأحيان .

وقد جاء أصدق تمثيل لهذه الحقيقة في قوله تعالى { قُلِ اللّه خالق كُل شيءٍ وهو الْواحد الْقَهار ـ أنزلَ من السماء ماء فَسالَت أَودِيةٌ بِقَدرِها فَاحتملَ السيلُ زبدا رابِيا ومما يوقدونَ علَيه في النارِ ابتغاء حلْية أَو متاعٍ زبد مثْلُه كَذَلك يضرب اللّه الْحق والْباطلَ فَأَما الزبد فَيذْهب جفَاء وأَما ما ينفَع الناس فَيمكُثُ في الأَرضِ كَذَلك يضرِب اللّه الأَمثَالَ}[1] فقد اشتملت الآية الثانية على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه.

قال ابن القيم رحمه الله " وقد ذكر سبحانه المثلين المائي والناري في سورة الرعد ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها كما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاء وزبدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فتكرب ـا شاربه وهي من تمام نفع الدواء فانه أثارها ليذهب ـا فإنه لا يجامعها ولا يساكنها وهكذا يضرب الله الحق والباطل ثم ذكر المثل الناري فقال ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية

(1) سورة الرعد / 16 ـ 17 .

أو متاع زبد مثله وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يسقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما " [1] . فالمثل الأول : مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض فاحتملته الأودية بملئها ، الكبير بكبره ، والصغير بصغره ، فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء زبداً عالياً فوق السيل . فهذا أحد مثلي الحق والباطل ، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء ، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل . والمثل الآخر للحق والباطل : في قوله تعالى (ومما يوقدون عليه ... إلخ) مثل فضة أو ذهب يوقد عليها الناس في النار طلَب حلية يتخذو ا أو متاع ، وذلك من النحاس والرصاص والحديد ، يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفع به (زبد مثله) أي : ومما يوقدون عليه من هذه الأشياء زبد مثله ، بمعنى : مثل زبد السيل لا ينتفع به ويذهب باطلاً ، كما لا ينتفع بزبد السيل ويذهب باطلاً (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي : كما مثل الله الإيمان والكفر في بطول الكفر وخيبة صاحبه عند مجازاة الله بالباقي النافع من ماء السيل وخالص الذهب والفضة ، كذلك يمثل الله الحق والباطل (فأما الزبد فيذهب جفاء) أي : فأما الزبد الذي علا السيل والذهب والفضة والنحاس والرصاص عند الوقود عليها ، فيذهب بدفع الرياح وقذف الماء به وتعلقه بالشجار وجوانب الوادي (وأما ما ينفع الناس) من الماء والذهب والفضة والرصاص والنحاس فيمكث ، فالماء يمكث في الأرض فتشربه ، والذهب والفضة تمكث للناس [2] . وقيل أن الحق هنا مخصوص بالقرآن ، والباطل بالكفر وعدم التعقل ، قال الألوسي في تفسير هذه الآية " إنه تعالى مثل الحق وهو القرآن العظيم عند الكثير ، في

---

(1) انظر : الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم (1 / 11 ـ 12) .

(2) انظر : جامع البيان (13 / 134) ، تفسير ابن كثير (2 / 509) ، تفسير القرطبي (9 / 304 ـ 305) .

فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد ، وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا ، وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة ، مع كونه ممداً لحيا ا الروحانية وما يتلوها من الملكات بذلك سيلاً مقدراً بمقدار اقتضته الحكمة في إحياء الأرض وما عليها الباقي فيها ، حسبما يدور عليه منافع الناس ، وفي كونه حلية تتحلى ا النفوس وتصل إلى البهجة الأبدية ، ومتاعاً يتمتع به في المعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعاً ا مدة طويلة . ومثل الباطل الذي ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما وإخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعاً " [1] ، ومآل التفسيرين واحد ، وهو بقاء الحق وزوال الباطل . وعلى نحو هذا التمثيل وتفسيره جاء ما يبينه من التمثيل الوارد في قول النبي صلى الله عليه وسلم (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكل والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله ا الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) [2] . فهذا مثل مائي يشبه ما ورد في المثل الأول في الآية ، والمثل الثاني الوارد في الآية يشبهه المثل الناري الذي ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال (مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني فتقتحمون فيها) [3] [4] .

وربطاً لهذه السنة الكونية بما نحن بصدد تناوله من سنة الله في النصر والهزيمة ، نستطيع أن نقرر أن الباطل وإن راج في البداية بحيله وخداعه ، فلابد أن ينقشع في النهاية ، تحقيقاً لسنة

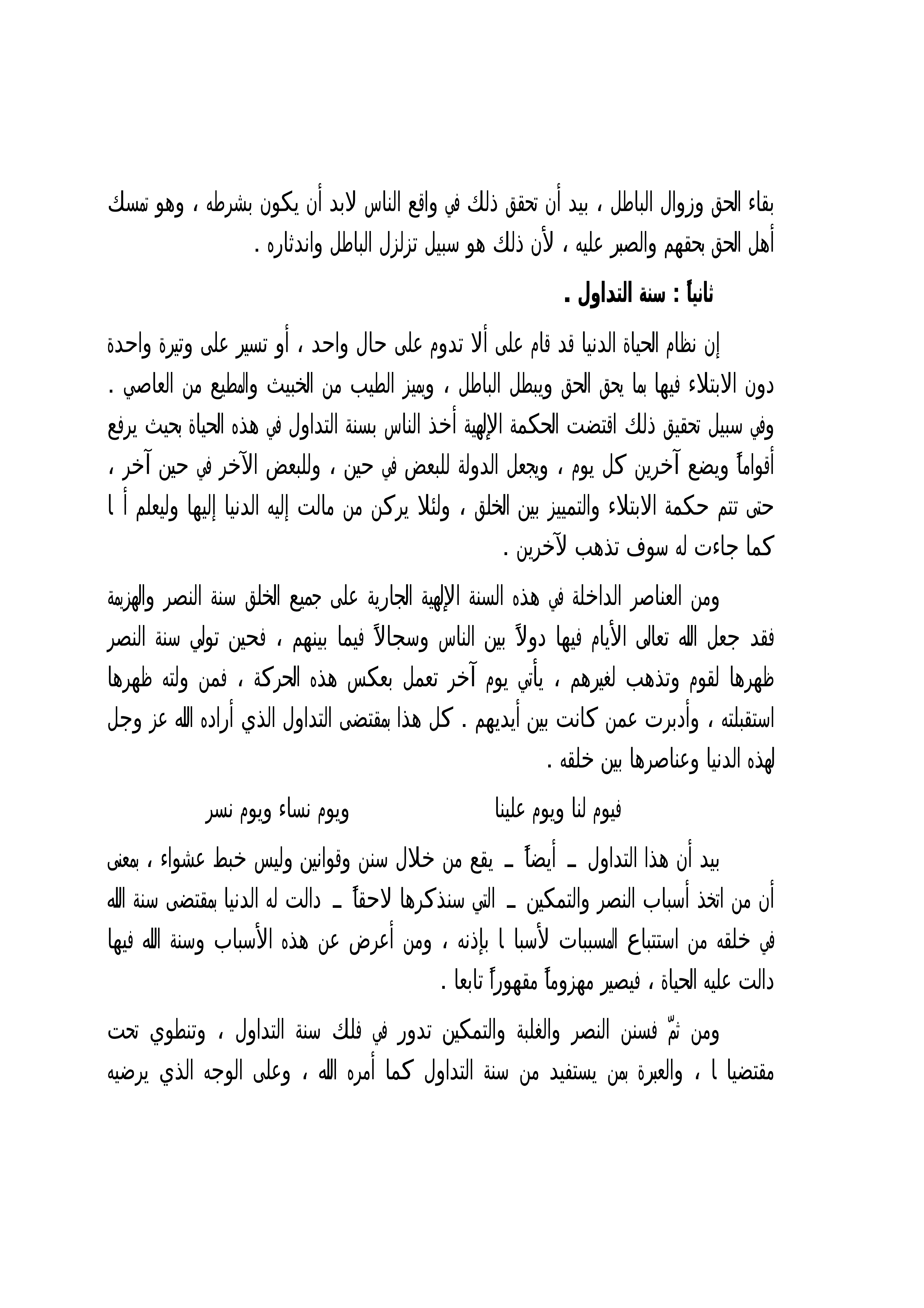
---

(1) انظر : روح المعاني (13 / 129 ـ 132) .

(2) أخرجه البخاري (1 / 42) رقم الحديث : 79 .

(3) أخرجه البخاري (5 / 2379) رقم الحديث : 6118 ، وأخرجه مسلم (4 / 1789) رقم الحديث 2284 .

(4) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 510) .



بقاء الحق وزوال الباطل ، بيد أن تحقق ذلك في واقع الناس لابد أن يكون بشرطه ، وهو تمسك أهل الحق بحقهم والصبر عليه ، لأن ذلك هو سبيل تزلزل الباطل واندثاره .

ثانياً : سنة التداول .

إن نظام الحياة الدنيا قد قام على ألا تدوم على حال واحد ، أو تسير على وتيرة واحدة دون الابتلاء فيها بما يحق الحق ويبطل الباطل ، ويميز الطيب من الخبيث والمطيع من العاصي . وفي سبيل تحقيق ذلك اقتضت الحكمة الإلهية أخذ الناس بسنة التداول في هذه الحياة بحيث يرفع أقواماً ويضع آخرين كل يوم ، ويجعل الدولة للبعض في حين ، وللبعض الآخر في حين آخر ، حتى تتم حكمة الابتلاء والتمييز بين الخلق ، ولئلا يركن من مالت إليه الدنيا إليها وليعلم أ ا كما جاءت له سوف تذهب لآخرين .

ومن العناصر الداخلة في هذه السنة الإلهية الجارية على جميع الخلق سنة النصر والهزيمة فقد جعل الله تعالى الأيام فيها دولاً بين الناس وسجالاً فيما بينهم ، فحين تولي سنة النصر ظهرها لقوم وتذهب لغيرهم ، يأتي يوم آخر تعمل بعكس هذه الحركة ، فمن ولته ظهرها استقبلته ، وأدبرت عمن كانت بين أيديهم . كل هذا بمقتضى التداول الذي أراده الله عز وجل لهذه الدنيا وعناصرها بين خلقه .

فيوم لنا ويوم علينا   ويوم نساء ويوم نسر

بيد أن هذا التداول ـ أيضاً ـ يقع من خلال سنن وقوانين وليس خبط عشواء ، بمعنى أن من اتخذ أسباب النصر والتمكين ـ التي سنذكرها لاحقاً ـ دالت له الدنيا بمقتضى سنة الله في خلقه من استتباع المسببات لأسبا ا بإذنه ، ومن أعرض عن هذه الأسباب وسنة الله فيها دالت عليه الحياة ، فيصير مهزوماً مقهوراً تابعا .

ومن ثمّ فسنن النصر والغلبة والتمكين تدور في فلك سنة التداول ، وتنطوي تحت مقتضيا ا ، والعبرة بمن يستفيد من سنة التداول كما أمره الله ، وعلى الوجه الذي يرضيه

فيتحقق له القدر الأكبر من هذه السنة ، فهو وإن دالت عليه مرة ستدول له مرات والعاقبة له وإنما الأعمال بالخواتيم .

والحاصل : أن الدولة لا تكون لفريق دون آخر جزافا ، وإنما تكون لمن عرف أسبا ا ورعاها حق رعايتها ، ولذلك جاءت الآية الصريحة الدالة على تلك السنة وسط الآيات التي تقص أحداث غزوة أحد ، وما أحرزه المسلمون في أولها من نصر ، ثم دالت عليهم الدائرة عندما أخلوا بأسباب النصر ووقعوا في شراك إغفال هذه السنة . قال تعالى {إِن يمسسكُم قَرح فَقَد مس الْقَوم قَرح مثْلُه وتلْك الأيام نداوِلُها بين الناسِ وليعلَم اللّه الذين آمنواْ ويتخذَ منكُم شهداء واللّه لاَ يحب الظالمين ـ وليمحص اللّه الذين آمنواْ ويمحق الْكَافرِين}[1] . " أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقُتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح (وتلك الأيام نداولها بين الناس) أي : نديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة ، لما لنا في ذلك من الحكمة "[2] . ونقل الطبري في تفسيره " أن الربيع بن أنس رحمه الله قال في قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) : فأظهر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين يوم بدر ، وأظهر عليهم عدوهم يوم أحد . وقد يدال الكافر من المؤمن ويبتلى المؤمن بالكافر ؛ ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ويعلم الصادق من الكاذب، وأما من ابتلي منهم من المسلمين يوم أحد فكان عقوبة بمعصيتهم رسول الله ﷺ "[3] .

إن الآيات تشير إلى بعض وجوه الحكمة في مداولة الله تعالى الأيام بين الناس ، وحاصل هذه الوجوه هو أن غرض تلك المداولة إنما هو الامتحان ، وتمييز المؤمن من الكافر ، وتمحيص المؤمنين ومحق الكافرين .

ونلمح من سياق هذه الآيات مع سابقها ولاحقها أن المؤمنين كان يظن أكثرهم أن كو م على دين الحق سبب تام في غلبتهم أينما غزوا ، وظهورهم على الباطل كيفما كانوا ،

---

(1) سورة آل عمران / 140 ـ 141 .
(2) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 409) .
(3) انظر : جامع البيان (4 / 105) .

فهم يملكون الأمر لا يدفعون عن ذلك ، وقد دفعهم إلى هذا الحسبان ما شاهدوه يوم بدر من ظهورهم العجيب على عدوهم وإمدادهم بملائكة النصر في المعركة . وهذا ظن غير صحيح يوجب بطلان نظام الامتحان والتمحيص ، وفي ذلك بطلان مصلحة الأمر والنهي والثواب والعقاب ، ويؤدي ذلك إلى ا ـدام أساس الدين ، والدين دين الفطرة ، غير مبني على خرق العادة الجارية والسنة الإلهية القائمة في الوجود ، بابتناء الغلبة والهزيمة على أسبا ـما العادية . ودلالة الآية صريحة في أ ـا تعم المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، جاء في تفسير قوله تعالى (نداولها بين الناس) " أي البشر كلهم ؛ لأن هذا من السنن الكونية ، فلا يختص بالقوم المتحدث عنهم " [1] .

ثالثاً : سنة التدافع .

جرت مشيئة الله تعالى وإرادته أن يحفظ دينه ـذا الدفع " فالله تعالى يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفا ، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو ، مهما يسلك هذا الخير من طرق سليمة موادعة ، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر ، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل ، ولابد أن يجنح الشر إلى العدوان ، ولابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة .. فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله ، والباطل وحزبه . وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا " [2] . وهي سنة فطرية جارية بين الناس حفظاً لاستقامة حال العيش ، واعتدالاً لميزان الحياة .

ولو شاء الله تعالى لقهر الناس عل الهدى ، فلا يستطيعون المخالفة والانحراف ، قال تعالى {ولَو شاء ربك لَجعلَ الناس أُمةً واحدةً ولاَ يزالُونَ مختلفين ـ إلا من رحم ربك ولذَلك خلَقَهم }[3]. ولكن الله تعالى كرم الإنسان فلم يجعله " شيئاً يقهر على غير إرادة منه؛ بل جعله

---

(1) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور (4 / 100) .

(2) انظر : الظلال (2 / 742) عند تفسير قوله تعالى من سورة النساء { لا يستوي القاعدون }رقم : 95 .

(3) سورة هود / 118 ـ 119 .

كائناً فعالاً قادراً على اختيار أحد الطريقين ، إما الهدى وإما الضلال " [1] ، ليكون إما في حزب الحق وإما في حزب الباطل .. ومن هنا يقع التدافع " ودفع الله الناس بعضهم ببعض يشمل ما هو أعم من القتال . والقتال آخر ما يتوصل إليه من الدفع إن لم ينجح غيره من قبيل : آخر الدواء الكي . والحياة لا تخلو لحظة من لحظا ا من وجود الصراع فيها بين بعض البشر وبعض . بل بين بعض الكائنات وبعض ، وقد أوجد الله تعالى هذا الصراع أو التدافع في حياة البشر ، وجعله سنة من سننه التي يجري ا الحياة البشرية لغاية معينة " [2] . قد ينكشف لنا بعضها ويخفى علينا كثير منها .

والتدافع في الأصل يكون بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل ، أي بين المؤمنين وغيرهم ، لأ م هم الذين يحملون معاني الحق أو معاني الباطل ، ويسعون إلى إظهار هذه المعاني في الخارج وإقامة شئون الحياة على أساسها ، فيحصل التعارض والتزاحم بين الفريقين. وهذا التدافع ـ ذا المعنى ـ أمر حتمي لابد منه ، لأ ما نقيضان ، والنقيضان لا يجتمعان ، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته ، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة .

وللتدافع مظهر آخر حين يخبو نور الحق بسبب اون أصحابه وعدم تمسكهم به فيفشو الباطل ويعم ، ويتفاوت الناس في اتباعهم للباطل ، وتتباين درجة الباطل فيما بينهم ، فتحق عليهم سنة التدافع ـ أيضا ـ ويتزاحم أهل كل باطل مع غيرهم ، بحسب قو م وضعفهم في ذلك الباطل .

من خلال هذا التمهيد الذي ذكرناه يمكننا أن نحدد أن التدافع يتم بأحد طريقين :

الأول / أن يدفع أهل الحق أهل الباطل :

---

(1) انظر : واقعنا المعاصر لمحمد قطب / 115 .

(2) انظر : حول التفسير الإسلامي للتاريخ / 218 .

يذكر القرآن الكريم أن شرعية الجهاد والدفاع عن الدين والأرض والعرض سنة من سننه الكونية التي أقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الوجود كله ، في كل جيل وأمة وعصر ، وأنه يدفع بسنة التدافع ـ بين أهل الخير والصلاح وأهل الشر والفساد ـ شر الظالمين وفساد المفسدين ، وفي ذلك يقول الله تعالى {ولَوْلاَ دفْعُ اللّه الناس بعضهم بِبعضٍ لفَسدت الأَرض ولَكن اللّه ذُو فَضلٍ علَى الْعالَمين}[1] أي : لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الصلاح فيها ، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا م حتى يكون لهم السلطان وحدهم ، فتفسد الأرض بفسادهم ، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين ، فأهل الحق حرب على أهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق ومارسوا الإصلاح في الأرض[2]. وعلى هذا المعنى فُسرت الآية بأنه " لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ، ويكف م فسادهم لغلب المفسدون ، وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض . وقيل : ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بِعيث الكفار فيها وقتل المسلمين . أو : لو لم يدفعهم م لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض " [3] .

" والله تعالى خلق أسباب الدفاع بم لة دفع من الله يدفع مريد الضر بوسائل يستعملها المراد إضراره ، ولولا هذه الوسائل التي خولها الله تعالى أفراد الأنواع لاشتد طمع القوي في إهلاك الضعيف ، ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره ، فابتزها منه ، ولأفرطت أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب النافع الملائم لغيرها ، مما هو له ، ولتناسى صاحب الحاجة ـ حين الاحتياج ـ ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضا . وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره ، وكل قوي على من هو أضعف منه ، فيهلك القوي

---

(1) سورة البقرة / 251 .

(2) انظر : تفسير المنار (2 / 491) .

(3) انظر : تفسير الزمخشري (1 / 324) .

الضعيف ، ويهلك الأقوى القوي ، وتذهب الأفراد تباعاً ، والأنواع كذلك حتى لا يبقى إلا أقوى الأفراد من أقوى الأنواع ، وذلك شيء قليل ، حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه ، وكان يجدها في غيره من أفراد نوعه ، كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض . وإنما كان الحاصل هو الفساد ، لولا الدفاع دون الصلاح ، لأن الفساد كثيراً ما تندفع إليه القوة الشاهية بما يوجد في أكثر المفاسد من اللذات العاجلة القصيرة الزمن ، ولأن في كثير من النفوس أو أكثرها الميل إلى مفاسد كثيرة ، ولأن طبع النفوس الشريرة ألا تراعي مضرة غيرها ، بخلاف النفوس الصالحة ، فالنفوس الشريرة أعمد إلى انتهاك حرمات غيرها ، ولأن الأعمال الفاسدة أسرع في حصول آثارها وانتشارها فالقليل منها يأتي على الكثير من الصالحات . فلا جرم لولا دفع الناس ، بأن يدافع صالحهم المفسدين لأسرع ذلك في فساد حالهم ، ولعم الفساد أمورهم في أسرع وقت " [1]. ولا يعزب عنا أن الدفع المراد في الآية هو الدفع الذي تعمر به الأرض ويصان عن الفساد ، وهو الدفع الذي يدعو إلى الاجتماع والاتحاد المستقر على الكثرة والجماعة ، دون الدفع الذي يدعو إلى إبطال الاجتماع وإيجاد الوحدة المفنية للكثرة .

ومما سبق يتبين لنا أن القتال المشروع سبب لعمارة الأرض وعدم فسادها ، من حيث إنه تحيا به حقوق اجتماعية حيوية لقوم مستذلين ، لا من حيث يتشتت به الجمع ، ويهلك به العين ، ويمحى به الأثر .

وقد حدد الشرع الإسلامي وسيلتين يضمن بهما سلامة الدفاع المشروع وهما :

* الجهاد أو القتال الذي يعد أعظم وسائل الدفاع المذكور ، كما وردت بذلك الآيات من قوله تعالى {أَلَم تر إِلَى الْملإِ من بنِي إِسرائيلَ من بعد موسى إِذْ قَالُواْ لنبِي لهم ابعثْ لَنا ملكًا نقَاتلْ في سبِيلِ اللّه قَالَ هلْ عسيتم إِن كُتب علَيكُم الْقتالُ أَلا تقَاتلُواْ قَالُواْ وما لَنا أَلا نقَاتلَ في سبِيلِ اللّه وقَد أُخرِجنا من ديارِنا وأَبنآئنا فَلَما كُتب علَيهِم الْقتالُ تولَواْ إِلا قَليلاً منهم واللّه عليم بِالظالمين} [2] إلى قوله تعالى {تلْك آيات اللّه نتلُوها علَيك بِالْحق وإِنك لَمن

(1) انظر : تفسير ابن عاشور (2 / 502) .

(2) سورة البقرة / 246 .

المرسلين} [1] . إذ أ ا تبين شرعة الجهاد الحربي في الأمم السابقة لدفع ظلم الظالمين ، وتأمين الحياة من شرورهم وطغيا م ، حيث ذكرت الآيات قصة دفع جالوت وجنوده من نماذج الطغيان والإفساد في الأرض بجند طالوت من المؤمنين أهل الخير والإصلاح وهذا صريح في أن سنة الله في ا تمع أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، فيسلط أهل الإيمان والإصلاح على أهل الإلحاد والفجور ، ليقوم بين الناس ميزان الحق والعدل [2] .

وهذا المعنى المحكم الذي بين به القرآن الكريم سنة الله في وقوع الحق وأهله أمام الباطل وحزبه ، هو الذي أكده القرآن في آية أخرى تتفق تمام الاتفاق مع نص الآيات السابقة ، بيد أ ا توضح بشيء من التفصيل بعض مظاهر الفساد والإفساد التي يدرؤها التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل ، وذلك في قوله تعالى {أُذنَ للذين يقَاتلُونَ بِأنهم ظُلموا وإِن الله علَى نصرِهم لَقَدير ـ الذين أُخرجوا من ديارِهم بِغيرِ حق إِلا أَن يقُولُوا ربنا الله ولَولَا دفْع الله الناس بعضهم بِبعضٍ لهدمت صوامع وبِيع وصلَوات ومساجِد يذْكَر فيها اسم الله كَثيرا ولَينصرن الله من ينصره إِن الله لَقَوِي عزِيز}[3]. فقد بينت الآيتان السبب المباشر لورود الإذن بالقتال فقال يصف المظلومين الذين أُذن لهم في قتال الظالمين (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) ومعنى ذلك أن هؤلاء الظلمة الطغاة تجردوا من طبيعة الخير ، فكانوا غلاظ الأكباد قساة القلوب ، لا يعرفون الشرف في حرب ولا سلم ، حيث شردوا الآمنين وأخرجوهم من ديارهم ، وعرضوهم لشتى أنواع العذاب وصنوف البلاء وانتهاك الحرمات ومحو معالم الخير والهداية المذكورة في قوله تعالى (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) " فتخريب مواضع التعبد لله تعالى في كل دين سماوي عنوان على أقبح صور الطغيان والإفساد في الأرض لأنه هتك لسياج الحرمات المقدسة ، ولا يبلغ الإفساد في الأرض حد الاعتداء على المقدسات التعبدية إلا بعد أن يجاوز كل حد في الشرور والآثام . فانتهاك

---

(1) سورة البقرة / 252 .

(2) انظر : القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين للشيخ محمد الصادق عرجون / 299 .

(3) سورة الحج / 39 ـ 40 .

حرمات المقدسات الدينية هو في سنة الله ذروة الفساد والإفساد وقمة الطغيان المسعور ودفع هذا الظلم الجنون بقوة الحرب القاهرة هو أرفع صور الإصلاح والعدل " [1]. و ذا يتبين أن الجهاد أمر متقدم في الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات .

* الوسيلة الثانية للدفع في سنة التدافع بعد الجهاد هي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصوره المتعددة ، ولذلك عقبت آية سنة التدافع التي شرع فيها الجهاد في سورة الحج بقوله تعالى {الذين إن مكناهم في الْأَرضِ أَقَاموا الصلَاةَ وآتوا الزكَاةَ وأمروا بِالْمعروف ونهوا عنِ الْمنكَرِ ولله عاقبةُ الْأُمورِ}[2] . وبامتثال هذه السنة ـ سنة التدافع ـ الواردة في الآيات من خلال وسائلها المشروعة التي ذكرناها يتحقق التوازن بين الخلق إلى قيام الساعة ، ولذلك امتن الله عز وجل على خلقه ذه السنة فختم آية سورة البقرة بقوله تعالى {ولَولاَ دفْع اللّه الناس بعضهم بِبعضٍ لَفَسدت الأَرض ولَكن اللّه ذُو فَضلٍ علَى الْعالَمين}[3] . وفيه تلميح إلى بشرى لأهل الإيمان والحق ، وهي أن الله تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق ، وداع إلى الله ، ومقاتل عليه [4] . وذلك بحسب حال المسلمين ؛ ففي حال قو م دفعهم بالسنان ، وفي حال ضعفهم بالمال والقلب واللسان ، وهو معنى حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس) [5] .

الطريق الثاني / أن يتدافع أهل الباطل فيما بينهم : يتحقق هذا النوع من التدافع بأن يسلط الأكثر فساداً على الأقل منه في فساده بمقتضى سنة الله عز وجل في ابتلاء أهل الباطل بمثلهم أو بمن هو أشد منهم في باطلهم . والشاهد على ذلك من القرآن قوله تعالى {وكَذَلك

---

(1) انظر : سنن الله في ا تمع / 35

(2) سورة الحج / 41 .

(3) سورة البقرة / 251 .

(4) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية (1 / 338) .

(5) أخرجه البخاري (6 / 2667) رقم الحديث 6881 ، وأخرجه مسلم (3 / 1524) رقم الحديث 1037 .

نولي بعض الظالمين بعضا بِما كَانواْ يكْسِبونَ}[1] أي : نسلط بعض الظالمين على بعض ، فنأخذ من الظالم بالظالم ، كما جاء : من أعان ظالماً سلطه الله عليه [2] . قال القرطبي في تفسيره " نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله . وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالماً آخر . وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر فيه متعجبا " [3] . " والمقصود من الآية الاعتبار والموعظة ، والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين ، وتوخي الأتباع صلاح المتبوعين ، وبيان سنة من سنن الله في العالمين " [4] .

ومجمل القول : أن هذه السنة ـ سنة التدافع ـ بطريقيها اللذين ذكرناهما لها ارتباط وثيق بسنة النصر والهزيمة ، حيث يتم النصر لأهل الحق على أهل الباطل من خلال الطريق الأول في حالة استعداد المؤمنين وأخذهم بأسباب النصر . أما في حالة ضعف المسلمين إلى الحد الذي لا يمكنهم فيه مجابهة أعدائهم ، فإنهم يستطيعون استمداد فضل الله في الغلبة على عدوهم من خلال الطريق الثاني لسنة التدافع . فالواضح بعد استعراضنا لهذه السنن هو ارتباطها الوثيق بسنة الله عز وجل في النصر والهزيمة .

ويحسن أن ننبه إلى أمر مهم هنا وهو أن نصر الله للمؤمنين وهزيمة الكافرين إنما يقع وفق مشيئته وبإرادته ، وما الناس في ذلك إلا ستار لهذا القدر ليس لهم دخل فيه ، وليس للمؤمنين فيه شأن ، وما على المؤمنين إلا أن يأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير ، والمشيئة التي تريد النتيجة هي التي تهيئ وتيسر الأسباب ، فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب ، فالنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن أسباب ومؤثرات وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة [5] .

---

(1) سورة الأنعام / 129 .

(2) انظر : جامع البيان للطبري (8 / 35) ، معالم التنزيل للبغوي (1 / 189) .

(3) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (7 / 85) .

(4) انظر : تفسير ابن عاشور (8 / 75) .

(5) انظر : في ظلال القرآن (1 / 269 ، 471) ، (5 / 2785) .

هذا وقد تكاثرت وتواترت آيات القرآن العظيم في تفصيل أسباب النصر والهزيمة . وصدق الله حيث يقول {أَفَغير اللّه أبتغي حكَما وهو الذي أَنزلَ إِلَيكُم الْكتاب مفَصلاً}[1] . فلا مرية أن الأمة لو أخذت بهذه الأسباب بقوة فإن النصر حليفها لا محالة ، ليس النصر العسكري فحسب كما قد يتبادر إلى الأذهان ، ولكنه النصر الشامل العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي ...... إلخ . مما يجعل الأمة ـ بحق ـ هي خير الأمم .

وقبل البدء في تفصيل أسباب النصر والهزيمة واستعراضها أنبه إلى أمرين تجدر الإشارة إليهما :

الأول : أن ترك سبب النصر يكون سبباً في الهزيمة ، والعكس . والقرآن يذكر هذا تارة وهذا تارة ، وربما يذكر السبب وما يقابله ، وإن كان ذكره للأسباب الجالبة للنصر بالنص عليها أكثر من ذكر الأسباب التي تنتج الهزيمة .

الثاني : أن القرآن قد عني بذكر الأسباب الجامعة وإبرازها . وهذا هو الأصل . وربما ذكر بعض التفاصيل الهامة عند بعض الأسباب .

إذا علم هذا فينبغي أن يرد إلى كل سبب ما يندرج تحته أو يتفرع عنه من الأمثلة والأسباب التي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال .

وبعد هذا الموجز نستعرض الأسباب بالتفصيل فأقول وبالله التوفيق :

أسباب النصر وأسباب الهزيمة :

أولاً : أسباب النصر :

السبب الأول / الاستعداد وتجهيز القوة للجهاد .

---

(1) سورة الأنعام / 114 .

لاشك أن الجهاد في سبيل الله تعالى يحتاج إلى قوة ، بل يحتاج إلى جميع أنواع القوى ، على اختلافها وتنوعها . ولذلك اهتم الإسلام اهتماماً كثيراً بالقوة حتى أوصلها إلى درجة الوجوب على الأمة الإسلامية ، لأن الجهاد لا يتم إلا ا وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو منطوق القاعدة الشرعية الأصولية .[1]

والإسلام لم يغفل هذه الناحية في أي أمر من أموره ، فجعل القوة شعاره في كل نظمه وتشريعاته ، بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه ، ولم يفرق بينها وبين الصلاة والصوم في شيء ، وليس في نظم الدنيا كلها ما عني ذه الناحية كما عني ا الإسلام .

ولقد جاء ذلك مقرراً بوضوح في القرآن الكريم . حيث جاء الأمر فيه بإعداد القوة بصورة الوجوب ، قال الله تعالى {وأعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم وآخرِين من دونِهم لاَ تعلَمونهم اللّه يعلَمهم وما تنفقُواْ من شيءٍ في سبِيلِ اللّه يوف إِلَيكُم وأَنتم لاَ تظْلَمونَ}[2]. حيث أمر الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية بالاستعداد وأخذ الحيطة والأسباب الظاهرة لنصرهم وتمكينهم ويتحقق هذا الاستعداد بأمرين:

الأول : إعداد جميع أسباب القوة بقدر الاستطاعة . فالأمر بإعداد القوة في هذه الآية عام ، فيدخل فيه كل وسيلة أو سبب حسي أو معنوي يحقق للأمة شيئاً من القوة " ولا وجه لتخصيص نوع من أنواع القوة بالأمر دون سائرها " [3] .

الثاني : مرابطة فرسا م في ثغور بلادهم وحدودها ، وهي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد .

وهذان الأمران هما اللذان تعول عليهما جميع الدول المحاربة إلى هذا العهد الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية وعتاد الحرب إلى درجة لم يسبق لها نظير .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (2 / 917) في تفسير آية 54 من سورة المائدة .

(2) سورة الأنفال / 60 .

(3) انظر : تفسير ابن جرير (10 / 32) .

فالأمر الأول تصد به الأمة أعداءها ، وتدافع به عن بيضتها وكرامتها ، وبالثاني تكون الأمة كالوحدة الواحدة في ملاقاة العدو والوقوف على أخباره ؛ إذ يسهل به إيصال أخبار العدو من ثغور البلاد إلى عاصمتها وسائر أرجائها .

ومن المعلوم بداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان امتثالاً للأمر الرباني .

فهذا الامتثال إن كان قد تحقق في العصور الماضية باتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال والخيل ، فإنه لا يتحقق في هذا العصر إلا باتخاذ الدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ بشتى أنواعها ، وكذا سائر ما يتمتع به الأعداء من قوة ، أو مما هو منتشر بين الأمم المتقدمة من الأسلحة وآلات الحرب . ومن المعلوم " أن الرمي بالنبال اليوم لا يصيب هدف القصد من العدو ، لأ م استعملوا الرمي بالبندق والمدافع ، ولا يكاد ينفع معهما نبل ، وإذا لم يقابلوا بالمثل عم الداء العضال ، واشتد الوبال والنكال ، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال . ولعل فضل ذلك الرمي ـ أي الرمي الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (ألا أن القوة الرمي) [(1)] ـ يثبت لهذا الرمي لقيامه مقامه في الذب عن بيضة الإسلام ، ولا يبعد دخول هذا الرمي في عموم قوله سبحانه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) " [(2)] . وبمقتضى مفهوم الآية يتضح أنه ليس الغرض من الاستعداد القتالي الا ولَ في ساحة القتال فحسب ، وإنما لما قبل ذلك من تخويف كل من تسول له نفسه الاستهانة بشوكة المسلمين وقو م ، وكذا تخويف كل من العدو الخارجي والداخلي ، المعلوم منه وغير المعلوم ، ولذلك علّل هذا الاستعداد في الآية بقوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دو م لا تعلمو م الله يعلمهم) " فالله تعالى ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال (ترهبون به عدو الله وعدوكم) وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات ؛ خافوهم . وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة :

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1522) رقم الحديث : 1917 .

(2) انظر : روح المعاني للألوسي (10 / 25) .

أولها : أ م لا يقصدون دخول دار الإسلام .
وثانيها : أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية .
وثالثها : أنه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان .
ورابعها : أ م لا يعينون سائر الكفار " [1] .

" وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها ، وأمرهم بالبحث عنها واستخدامها ، ومسايرة التقدم البشري والسبق في الكشف والاختراع والسلطان ، وبين لهم أ ا في الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التي هي أقوى منه ، كنتيجة للفكر والعمل ؛ وأثبت لهم هذه الحقيقة حتى جعلها عقيدة لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلا ا ، حيث أعلمهم أنه أنزل الحديد مع الكتاب إشارة إلى أن القوة مع الحق ، ولا قيام له إلا ا فقال تعالى{لَقَد أرسلْنا رسلنا بِالْبينات وأَنزلْنا معهم الْكتاب والْميزانَ ليقُوم الناس بِالْقسط وأَنزلْنا الْحديد فيه بأْس شديد ومنافع للناسِ وليعلَم الله من ينصره ورسلَه بِالْغيبِ إِن الله قَوِي عزِيز}[2] . فلا عزة إذن ولا قوة ولا منعة إلا بالحديد والنار ، وهذه سنة الله " .

السبب الثاني / الإنفاق في سبيل الله .

لما كان إعداد العدة يقتضي أموالاً ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل فقد اقترنت الدعوة إلى الاستعداد للقتال بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله ، فالمال عصب الحياة ووقود الحروب ، وهو الطريق إلى امتلاك القوة المادية ، ولهذا ختم الله به الآية التي فيها الأمر بإعداد القوة ، لأنه الوسيلة إلى تحصيلها . كما تكفّل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه ، فقال تعالى {وأَعدواْ لَهم ما استطَعتم من قُوة ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم وآخرِين من دونِهِم لاَ تعلَمونهم اللّه يعلَمهم وما تنفقُواْ من شيءٍ في سبِيلِ اللّه يوف إِلَيكُم وأَنتم لاَ تظْلَمونَ}[3]. أي " ومهما تنفقوا من شيء ، نقداً كان أو غيره

---

(1) انظر : التفسير الكبير للرازي (15 / 148 ـ 149) .
(2) سورة الحديد / 25 .
(3) سورة الأنفال / 60 .

، قليلاً كان أو كثيراً ، في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله يعطكم الله جزاءه وفياً تاماً " [1]. ولذلك فقد رغب الله عباده المؤمنين ـ في آيات عدة ـ في الإنفاق في سبيله ووعدهم بأن كل ما ينفقونه فيها يوفى إليهم ، ويجزون عليه جزاء وفياً ، إما في الدنيا والآخرة كليهما ، وإما في الآخرة فقط ، كما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمنافقين {قُلْ هلْ تربصونَ بِنا إلا إحدى الْحسنيينِ ونحن نتربص بِكُم أن يصيبكُم اللّه بِعذَابٍ من عنده أو بِأيدينا فَتربصواْ إنا معكُم متربصونَ}[2] ، والحسنيان هما النصر والغنيمة في الدنيا ، والشهادة المفضية إلى المثوبة في الآخرة ، ومن ثم وجب على الأمة بذل ما يكفي للإعداد المذكور في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...) فإن لم يبذلوا طوعاً وجب على الإمام الحق العادل إلزام الأغنياء ذلك بحسب استطاعتهم لوقاية الأمة والملة كما قال تعالى {وأَنفقُواْ في سبِيلِ اللّه ولاَ تلْقُواْ بِأَيديكُم إِلَى التهلُكَة}[3] . وسبيل الله هنا وهنالك هو الجهاد الواقي لأهل الحق من بغي أهل الباطل ، وإن كان لفظه عاماً يشمل كل ما يوصل إلى مرضاته ومثوبته من أعمال البر [4] . والحاصل أن ما ورد في الآيات السابقة يعتبر نصاً قاطعاً صريحاً لم يبق للمسلمين قاطبة عذراً يتعلّل به في إهمال إعداد القوة الحربية بجميع أسلحتها التي أعدها ويعدها أعداؤهم ، بل إن النص القرآني ليطلب إلى المسلمين أن يكون إعدادهم لقو م الحربية متفوقاً على إعداد أعدائهم ؛ لأن قوة ا تمع الإسلامي الحربية لا يراد ا الهجوم على أحد ، ولا يراد ا مجرد الدفاع لهجوم واقع من العدو ، وإنما يراد ا ـ كما هو صريح النص القرآني ـ إرهاب عدو الله وعدو المسلمين ، وإرهاب من خلفهم ممن يهمهم ألاّ تطفأ نار الحرب ولا تقف رحاها ؛ لأن استمرار اشتعالها يحقق لهم مكاسب مادية يعيشون في دنياهم من أجلها [5] . وإرهاب هؤلاء وهؤلاء يقتضي إعداد قوة متفوقة على قو ما لتخيفهم وترهبهم ، فلا يحدثوا أنفسهم باقتحام

---

(1) انظر : تفسير المنار (10 / 67) .

(2) سورة التوبة / 52 .

(3) سورة البقرة / 195 .

(4) انظر : التفسير الكبير للرازي (5 / 116) .

(5) انظر : سنن الله في ا تمع من خلال القرآن لمحمد عرجون / 64 ـ 65 .

أسوار الأمة الإسلامية في حرب عاتية باغية ، مع ملاحظة أنه لا جهاد واجب قبل هذا ا لإعداد .

وكما رغّب القرآن في الإنفاق في سبيل الله ـ كما في الآيات السابقة ـ فقد حذّر من البخل أو التقصير فيه ، ففي سورة البقرة قال سبحانه ـ بعد آيات مشروعية القتال {وأَنفِقُواْ في سَبِيلِ اللّه ولاَ تُلْقُواْ بِأَيدِيكُم إِلَى التهلُكَة وأَحسِنواْ إِن اللّه يحب الْمحسِنِين}[1]، وذم المنفقين في غير سبيله ، بل للصد عن سبيله بقوله {إِن الذين كَفَرواْ ينفقُونَ أَموالَهم ليصدواْ عن سبِيلِ اللّه فَسينفقُونها ثُم تكُونُ علَيهِم حسرةً ثُم يغلَبونَ والذين كَفَرواْ إِلَى جهنم يحشرونَ}[2] .

ولأهمية المال في القتال فإن الإسلام لم يترك الإنفاق في سبيل الله لإحسان المحسنين وصدقات المتصدقين فقط ، وإنما نظم له موارد كثيرة تنظيماً ثابتاً منها :

1. سهم ثابت من أسهم فريضة الزكاة الثمانية . قال تعالى {إِنما الصدقَات للْفُقَراء والْمساكينِ والْعاملين علَيها والْمؤلَفَة قُلُوبهم وفي الرقَابِ والْغارِمين وفي سبِيلِ اللّه وابنِ السبِيلِ فَرِيضةً من اللّه واللّه عليم حكيم}[3]. قال القرطبي" وفي سبيل الله : هم الغزاة وموضع الرباط يعطون ما ينفقون في غزوهم أغنياء كانوا أو فقراء ، وهذا قول أكثر العلماء " [4] .

2. جزء من الغنائم والأنفال التي يغنمها المسلمون في حر م عنوة من الكفار . يقول تعالى {واعلَمواْ أَنما غَنِمتم من شيءٍ فَأَن للّه خمسه وللرسولِ ولذي الْقُربى والْيتامى والْمساكينِ وابنِ السبِيلِ إِن كُنتم آمنتم بِاللّه وما أَنزلْنا علَى عبدنا يوم الْفُرقَانِ يوم الْتقَى الْجمعانِ واللّه علَى كُلِّ شيءٍ قَدير}[5] .

---

(1) سورة البقرة / 195 .
(2) سورة الأنفال / 36 .
(3) سورة التوبة / 60 .
(4) انظر : تفسير القرطبي (8 / 185) .
(5) سورة الأنفال / 41 .

3. الفيء . وهو المال الذي يأخذه المسلمون من الكفار بغير حرب [1] . يقول تعالى {وما أَفَاء الله علَى رسوله منهم فَما أَوجفْتم علَيه من خيلٍ ولَا رِكَابٍ ولَكن الله يسلطُ رسلَه علَى من يشاء والله علَى كُل شيءٍ قَدير}[2] . ثم بين سبحانه حكم هذا الفيء فقال {ما أَفَاء الله علَى رسوله من أَهلِ الْقُرى فَلله وللرسولِ ولذي الْقُربى والْيتامى والْمساكينِ وابنِ السبِيلِ كَي لَا يكُونَ دولَةً بين الْأَغْنِياء منكُم وما آتاكُم الرسولُ فَخذُوه وما نهاكُم عنه فَانتهوا واتقُوا الله إِن الله شديد الْعقَابِ}[3]. قال المفسرون " طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمس أموال بني النضير لما أُجلوا ، فنزلت هذه الآية تبين أنه فيء لم يحصل لهم بمحاربتهم وإنما هو بتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له خاصة يفعل فيه ما يشاء ، فيصرفه الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام من بعده في مصالح المسلمين " [4] .

4. جزء من مال الجزية الذي يأخذ من الكفار لإقامتهم بدار الإسلام [5] .

5. الأموال الإضافية التي يأخذها الإمام من الرعية لتجهيز الجيش بما يحتاجه ، إذا احتيج إلى ذلك ولم يكن في بيت مال المسلمين ما يفي بالحاجة [6] .

السبب الثالث / القيادة الواعية المدربة .

فإن آيات القرآن الكريم ناطقة ، وأحداث التاريخ شاهدة بأن القيادة الواعية المدربة سبب رئيسي من أسباب النصر لاسيما إن توافرت لديها الخصائص الوهبية والكسبية المعينة على ذلك . وبتتبع آيات القرآن نجد أن أهم خصائص القيادة الواعية المدربة في ميدان القتال والمنازلة يتمثل في مؤهلين اثنين :

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 336) .
(2) سورة الحشر / 6 .
(3) سورة الحشر / 7 .
(4) انظر : زاد المسير لابن الجوزي (8 / 209) .
(5) انظر : المغني مع الشرح الكبير (10 / 567) .
(6) انظر : القتال في الإسلام / 143 .

❁ أولهما : القوة العقلية والجسمية . وفي قوله تعالى {وقَالَ لَهم نبِيهم إِن اللّه قَد بعثَ لَكُم طَالُوت ملكًا قَالُواْ أَنى يكُونُ لَه الْملْك علَينا ونحن أَحق بِالْملْك منه ولَم يؤت سعةً من الْمالِ قَالَ إِن اللّه اصطَفَاه علَيكُم وزاده بسطَةً في الْعلْمِ والْجِسمِ واللّه يؤتي ملْكَه من يشاء واللّه واسع عليم}[1] إشارة دالة على ذلك . فالآية تبين أن الصفات المحتاج إليها في سياسة أمر الأمة ترجع إلى : أصالة الرأي وقوة البدن ؛ لأنه بالرأي يهتدي صاحبه لمصالح الأمة ، لاسيما في وقت المضائق وعند تعذر الاستشارة أو عند خلاف أهل الشورى . وبالقوة يستطيع الثبات في مواقع القتال فيكون بثباته ثبات نفوس الجيش . وقد قُدم العلم في الآية على القوة ، لأن وقعه أعظم . قال المتنبي [2] :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحل الثاني

والمراد بالعلم في الآية هو علم تدبير الحرب وسياسة الأمة ، وببسطة الجسم الصحة وكمال القوى المستلزم ذلك لصحة الفكر على قاعدة (العقل السليم في الجسم السليم) وللشجاعة والقدرة على المدافعة والهيبة والوقار [3] . و ذا تصلح الآية للاستدلال على هذا المؤهل المذكور في كل عصر ، ولا تحصره في العصر الذي تتحدث عنه القصة .

ولا حرج أن يراد بالبسطة في الجسم القوة مع الطول ، جمعاً بين آراء المفسرين ، إذ ما يستدل على كمال القوة والقدرة على المدافعة ، وهما أدعى للهيبة والوقار خاصةً أن أعداء طالوت كانوا عمالقة ضخاماً ذوي بسطة في الأجسام ، ولذا فهو من الأمور الكمالية وليس برئيسٍ في صفات القيادة [4] .

---

(1) سورة البقرة / 247 .

(2) المتنبي : أحمد بن الحسين بن الحسن أبو الطيب الجعفي الشاعر من أهل الكوفة ولد سنة 303 هـ طلب الأدب والعربية وبلغ في الشعر الغاية حتى فاق أهل عصره توفي سنة 354 هـ انظر: مختصر تاريخ دمشق (325/1 ـ 327).

(3) انظر : التفسير الكبير (6 / 147 ـ 148) ، تفسير المنار (2 / 477 ـ 478) .

(4) انظر : روح المعاني (2 / 167) .

ومن مظاهر مؤهلات طالوت وتحققه بالعلم والخبرة في شئون الحرب وتدبيرها ما اختبر به جيشه من الشرب من ماء النهر ، يقول تعالى {فَلَما فَصلَ طَالُوت بِالْجنود قَالَ إِن اللّه مبتليكُم بِنهرٍ فَمن شرِب منه فَلَيس مني ومن لم يطْعمه فَإِنه مني إِلا منِ اغْترف غُرفَةً بِيده فَشرِبواْ منه إِلا قَليلاً منهم } [1]. وفي الآية يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . إنه مقْدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها ، مرة بعد مرة ، وهو يواجه جيش أمة غالبة ، فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة ، تلك الإرادة التي تضبط الشهوات وال وات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه وصموده وصبره : صموده أولاً للرغبات والشهوات ، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب [2] . فقال لهم : إنكم ستمرون على ر ، وهو ر الأردن ، فلا تشربوا منه ، فمن شرب منه فليس مني ، ورخص لهم في غرفة يغترفها الواحد بيده يبل ا ريقه ، وهذا غاية ما يختبر به طاعة الجيش ، فإن السير في الحرب يعطش الجيش ، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشاً وشهوة . ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم ؛ لأن المحارب إذا شرب ماءً كثيراً بعد التعب انحلت عراه ومال إلى الراحة ، وأثقله الماء [3] .

" وفي حكمة هذا الابتلاء وجهان :

الأول : كان مشهوراً من بني إسرائيل أ م يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة ، فأراد الله تعالى إظهار علامة قبل لقاء العدو يتميز ا من يصبر على الحرب ممن لا يصبر ، لأن الرجوع قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو ، فلما كان هذا هو الصلاح قبل مقاتلة العدة لا جرم قال (إن الله مبتليكم بنهر) .

---

(1) سورة البقرة / 249 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (1 / 268) .

(3) انظر : التحرير والتنوير (2 / 496) .

والثاني : أنه تعالى ابتلاهم ليتعودوا الصبر على الشدائد " [1] . إذن فلقد كان اختيار طالوت هذه التجربة ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ويؤثر العافية . وقد صحت فراسته وأصاب رأيه (فشربوا منه إلا قليلا منهم) واستسلم الأكثرون لشهوا م ورغبا م .

لقد كان من الخير ومن الحزم أن ينفصل هؤلاء الأكثرون عن الجيش الزاحف ، لأ م بذرة ضعف وخذلان وهزيمة ، والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الأرض .

ودلّت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ، ولابد من التجربة العملية ، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها ، ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلّف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى ، بل مضى في طريقه [2] .

❁ والمؤهل الثاني للقيادة الواعية المدربة : المشاركة والمشاورة .

فمن أسباب نجاح القيادة في تدبير شئون الأمة ، ومنها الجانب العسكري المتمثل في الجهاد ، أن يشارك القائد جنده الحرب والقتال ، ويستشير ذوي الرأي والخبرة منهم في أمور تدبير الحرب والمناورة . والآيات الدالة على ذلك المعنى متعددة ، منها ما سبق ذكره من مشاركة طالوت جنوده في القتال . ومنها أيضاً قوله تعالى خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم {وإِذْ غَدوت من أَهلك تبوئ الْمؤمنِين مقَاعد للْقتالِ واللّه سميع عليم}[3]. أي : واذكر يا محمد إذ غدوت من أهلك تتخذ للمؤمنين عسكراً وموضعاً للقتال ، وتعين لهم مقاعد يتمكنون فيها ويثبتون . وهذه المشاركة كانت في كل غزواته صلى الله عليه وسلم مع جنده ، وإن كان سياق الآية خاص بغزوة أحد ، وهي التي استشار النبي صلى الله عليه وسلم فيها أصحابه في كيفية لقاء العدو ، أينتظر حتى يدخلوا عليه المدينة أم يخرج إليهم ؟ فأشار عبد الله بن أبي بن سلول بالمقام بالمدينة ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء

---

(1) انظر : التفسير الكبير (6 / 152) .

(2) انظر : في ظلال القرآن (1 / 268) .

(3) سورة آل عمران / 121 .

والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ـ ممن لم يشهد بدراً ـ بالخروج إليهم [1]. وكذلك كانت مشاركته صلى الله عليه وسلم لأصحابه في القتال ، حتى إ م ليفرون من شدة وطء القتال وظهور المشركين عليهم ، ولم يثبت لهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصيح بأعلى صوته :

أنا النبي لا كذب　　　　أنا ابن عبد المطلب [2]

أما المشاورة فقد أمر الله عز وجل ا نبيه صلى الله عليه وسلم صراحةً في قوله{وشاوِرهم في الأمرِ}[3]. " حيث أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه ، تألفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه معها فتنة الشيطان ، وتعريفاً منه أمته ما في الأمور التي تحز م من بعده ومطلبها ، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تـ ل م ، فيتشاوروا فيما بينهم كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله . فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صواب ذلك . وأما أمته فإ م إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادق وتآخٍ للحق وإرادة جميعهم للصواب من غير ميل إلى هوى ولا حيد عن هدى ، فالله مسددهم وموفقهم " [4]. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان في غنى عن المشاورة ؛ إذ هو المؤيد من ربه ، ولكنه يعلم أمته سبيل الحق في شئون الحرب وغيرها ومن المواطن الحربية التي شاور فيها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه :

* شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، فوافقوه على ذلك وقالوا : اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون .

---

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (4 / 8) .
(2) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (4 / 328) .
(3) سورة آل عمران / 159 .
(4) انظر : جامع البيان (4 / 152 ـ 153) .

* وشاورهم كذلك في نفس اليوم أين يكون المنزل حين وصل إلى بدر ، فأشار الحباب بن المنذر بالتقدم أمام القوم فعمل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله .

* وشاورهم يوم أحد كما أسلفنا القول في ذلك قريبا .

* وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ ، فأبى عليه ذلك السعدان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فترك ذلك .

* وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين ، فقال له الصديق رضي الله عنه : إنا لم نجيء لقتالهم ، وإنما جئنا معتمرين . فأجابه إلى ما قال [1] .

السبب الرابع / وحدة الجند وطاعتهم للقيادة .

فإنه لا يخفى على العاقل اللبيب أن القيادة الرشيدة التي تحدثنا عنها سابقاً لا يمكن أن تؤتي ثمارها ولا أن تظهر نجاحاتها إلا بجنود واعين بعدالة قضيتهم وصدق رسالتهم وأنه لا نجاح لعملهم إلا بقوة وحدتهم وطاعتهم المطلقة لقائدهم . فالتنازع والشقاق بين الأمة الواحدة إنما ينتج عن الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها ، مهما يتبين له وجه الحق فيها ، ولا سبيل إلى تجنب ذلك إلا بالتفاهم والتشاور ومراجعة بعض المختلفين بعضاً حتى يصدروا عن رأي واحد ، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً}[2]. وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[3]. ومن الآيات الدالة على لزوم الوحدة والاتفاق وعدم شق عصا الطاعة ، عموم قوله تعالى في كل أحوال المسلمين {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 421) .

(2) سورة النساء / 83 .

(3) سورة النساء / 59 .

اللّه جميعا ولاَ تفَرقُواْ }[1]. أما على وجه الخصوص في حالة الحرب وساحة الجهاد فيستدل على ذلك بمفهوم المخالفة من قوله تعالى {يا أيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيتم فئَةً فَاثْبتواْ واذْكُرواْ اللّه كَثيرا لعلَّكُم تفْلَحونَ ـ وأَطيعواْ اللّه ورسولَه ولاَ تنازعواْ فَتفْشلُواْ وتذْهب رِيحكُم واصبِرواْ إِن اللّه مع الصابِرِين}[2] . والشاهد قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فإن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل وهو الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر ، وأكبر أسبابه الضعف والجبن ، ولذلك فسروه هنا ما .

وقد جاء النهي عن الاختلاف بالنهي عن التنازع الذي فيه معنى المشاركة والمعالجة ، كأن كل واحد من المتنازعين يريد أن ي ع ما عند الآخر من رأي ويلقى به ، فهو نوع من الـ ع بمعنى الجذب ، أو هو من الـ ع بمعنى الميل ، فإن كل واحد من المتنازعين في الأمر يميل إلى غير ما يميل إليه الآخر [3] .

وإنما كان التنازع مفضياً إلى الفشل لأنه يثير التغاضب ، ويزيل التعاون بين القوم ، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر ، فتميل نفوسهم إلى الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا ، ويتوقع كل فريق عدم إلفاء النصير عند مآزق القتال ، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم ، فيتمكن منهم العدو. ويقترن بالفشل زوال القوة ونفوذ الأمر ، وهو ما عبر عنه في الآية بقوله تعالى (وتذهب ريحكم) يقولون : هبت رياح فلان ؛ إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد . كما يقولون : ركدت ريحه ؛ إذا ضعف أمره وولّت دولته . ونستطيع أن ندلل على أثر المخالفة بين صفوف الأمة وجندها بما حل بالمسلمين يوم أحد ، بعد أن كانت لهم الدولة والغلبة في المعركة ، حتى تنازع الرماة الذين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يفارقوا مكا م ، فغادر كثير منهم موضعه الذي حدده له النبي صلى الله عليه وسلم وأميره عبد الله بن جبير ، ظناً منهم أن المعركة

---

(1) سورة آل عمران / 103 .

(2) سورة الأنفال / 45 ـ 46 .

(3) انظر : تفسير المنار (10 / 25) .

قد أوشكت على الانتهاء بغلبتهم ، فسعوا وراء الغنائم التي تركها العدو خلفه . وفي ذلك جاء قوله تعالى{ولَقَد صدقَكُم اللّه وعده إِذْ تحسونهم بِإِذْنِه حتى إِذَا فَشلْتم وتنازعتم في الأَمرِ وعصيتم من بعد ما أَراكُم ما تحبونَ منكُم من يرِيد الدنيا ومنكُم من يرِيد الآخرةَ ثُم صرفَكُم عنهم ليبتليكُم ولَقَد عفَا عنكُم واللّه ذُو فَضلٍ علَى الْمؤمنِين } (1) .

و" المراد من التنازع أنه عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكا م البتة ، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير ، فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى ا ـزم المشركون ، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن فقالوا : الغنيمة الغنيمة . فقال عبد الله بن جبير : عهد الرسول إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان . فأبوا عليه ، وذهبوا إلى طلب الغنيمة ، وبقي عبد الله مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون . فهذا هو التنازع " (2) . وحاصل معنى الآية : أنه بعد أن صدقكم الله وعده فكنتم تقتلو م بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال ، صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم ، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم ويمحصكم ويميز بين الصادقين والمنافقين (3). فالله صدقهم وعده ونصرهم على قلّتهم وكثرة المشركين ، واستمر هذا النصر إلى أن فشلوا وتنازعوا وعصوا ، وعندما وصلوا إلى هذه الغاية لم يعودوا مستحقين لهذه الغاية وذلك التأييد ، لمخالفتهم لسننه تعالى في استحقاق النصر الذي وعد به أهل الثبات والصبر .

ولما كان التنازع سبباً للفشل والا ـزام ، ومدعاة للضعف والانقسام هيأ الله تعالى أسباب الوحدة وعدم التنازع للمسلمين في غزوة بدر ، فكان النصر حليفهم ، وفي ذلك يقول تعالى {إِذْ يرِيكَهم اللّه في منامك قَليلاً ولَو أَراكَهم كَثيرا لَفَشلْتم ولَتنازعتم في الأَمرِ ولَكن اللّه سلم إِنه عليم بِذَات الصدورِ}(4). ففي غزوة بدر هيأ الله الأسباب الصحيحة لتحقيق سنة النصر

---

(1) سورة آل عمران / 152 .

(2) انظر : التفسير الكبير (9 / 29) .

(3) انظر : تفسير المنار (4 / 183) .

(4) سورة الأنفال / 43 .

والغلبة للمسلمين ، في حين خلاّهم وأنفسهم عندما خالفوا الأمر وتركوا الأسباب ، فتحول النصر إلى هزيمة في أحد . وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبا ا ، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسا ا ، بلا تعارض بين هذا وذاك ، فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب تدبير من اللطيف الخبير .

السبب الخامس / الثبات والصبر .

تتقارب معاني هاتين الكلمتين وتشترك في قدر كبير من مفهومها ، وهي أ ا خاصة بلقاء العدو في ساحة القتال ، ثم ينفرد كلّ منها بمعنى أكثر من الذي قبله ، على الترتيب الذي ذكرناه . وبمعنى آخر فإ ا تترتب على بعضها البعض ، إذ المتصور أولاً في لقاء العدو اقتحام ميدان المعركة لمواجهة العدو ، ثم الثبات في وجهه دون ضعف أو خور ، ثم الصبر على تلك المواجهة وذلك الثبات من خلال العزم والمصابرة . وقد دلّت الآيات القرآنية الكثيرة على تلك المعاني الثلاث ، بل إ ا ربطت بين مفردا ا في بعض الأحيان . ومن هذه الشواهد :

قوله تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيتم الذين كَفَرواْ زحفاً فَلاَ تولوهم الأَدبار ـ ومن يولهم يومئذ دبره إِلا متحرفاً لقتالٍ أَو متحيزاً إِلَى فئَة فَقَد باء بِغضبٍ من اللّه ومأْواه جهنم وبِئْس الْمصير} [1]. ومعنى الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم أعداءكم الكفرة للقتال ، وهم جمع جم وأنتم عدد نزر ، فلا تولوهم أدباركم فضلاً عن الفرار ؛ بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم ؛ فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم ، ولا عذر لأحد في ذلك إلا من كان (متحرفاً لقتال) وهو الكر بعد الفر ، بحيث يخيل لعدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها (أو) كان (متحيزاً) أو منحازاً (إلى فئة) أي : جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها ، ومن يتولى لغير ذلك فقد رجع بغضب عظيم من الله (ومأواه جهنم وبئس المصير) [2] . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب (يا أيها

---

(1) سورة الأنفال / 15 ـ 16 .

(2) انظر : روح المعاني للألوسي (9 / 180 ـ 181) .

الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) [1] ؛ بل إنه عد التولي من الزحف من أكبر الكبائر فقال صلى الله عليه وسلم (اجتنبوا السبع الموبقات) وذكر منها (التولي يوم الزحف) [2]. وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة العدو ومجالدته ـ وهو وقت اللقاء ـ لأن الفرار حينئذ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل ، وذلك أن الله أوجب على المسلمين قتال المشركين ، فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلا بصبرهم وتأييد الله إياهم ، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون السلاح في ظهورهم فاستأصلوهم ، فلذلك أمرهم الله ورسوله بالصبر والثبات . و ىذا يدرب الإسلام المسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء ، وهي خطة محمودة عند العرب لم يزدها الإسلام إلا تقوية ، كما قال الشاعر :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن تقدما

فالآية الأولى تشير إلى سبب من أسباب الفشل والهزيمة أمام العدو ، وهو أن يترك الرجل المسلم مكانه في القتال ، ولا يواجه العدو وهو زاحف مستعد للقتال . والآية تحرم ذلك التولي وتدعو إلى الثبات والصبر في مواجهة العدو المتلاحم للقتال ، ولو كانوا أقل من جيش المشـركين ؛ إذ ليس النصر بكثرة العدد بقدر ما هو بالثبات والصبر وا الدة ، ولكن محل ذلك إذا لم يكـن عدد العدو أكثر من مثلي عدد المسلمين كما هو واضح في قوله تعالى {يا أيها النبي حسبك اللّه ومنِ اتبعك من الْمؤمنِين ـ يا أيها النبِي حرضِ الْمؤمنِين علَى الْقتالِ إن يكُن منكُم عشـرونَ صابِرونَ يغلبواْ مئَتين وإِن يكُن منكُم مئَةٌ يغلبواْ أَلْفًا من الذين كَفَرواْ بِأَنهم قَوم لا يفْقَهـونَ ـ الآنَ خفف اللّه عنكُم وعلم أن فيكُم ضعفًا فَإِن يكُن منكُم مئَةٌ صابِرةٌ يغلبواْ مئَتين وإِن يكُـن منكُم أَلْف يغلبواْ أَلْفَينِ بِإِذْن اللّه واللّه مع الصابِرِين} [3] . ففي هذه الآيات " يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه (حسبهم) أي كافيهم

---

(1) أخرجه البخاري (3 / 1082) رقم الحديث : 2804 ، مسلم (3 / 1362) رقم الحديث : 1742 .
(2) أخرجه البخاري (3 / 1017) رقم الحديث : 2651 ، مسلم (1 / 92) رقم الحديث : 89 .
(3)سورة الأنفال 64 ـ 66 .

وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ولو قل عدد المؤمنين ولهذا قال (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) أي حثهم أو مرهم عليه ولهـذا كـان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حـين أقبل المشركون في عددهم وعددهم (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقال عمير بن الحمام : عرضها السماوات والأرض ! فقال رسول الله ﷺ (نعم) فقال : بخ بخ ! فقال (مايحملك على قولك بخ بخ) ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها . قال (فإنك مـن أهلـها) فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن إ ا لحياة طويلة ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه (1) . ثم قـال تعالى مبشرا للمؤمنين وآمرا (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) كل واحد بعشرة ، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة قال ابـن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقـال (الآن خفف الله عنكم) إلى قوله (يغلبوا مائتين) قال : خفف الله عنهم من العدة ونقـص مـن الصبر بقدر ما خفف عنهم . وروي عن بن عباس ﷺ أيضاً أنه قال في هذه الآية : كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فـيكم ضعفا) فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين . وروي عنه أيضاً أنه قال : لما نزلت هـذه الآيـة ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ومائة ألفا فخفف الله عنـهم فنسـخها بالآية الأخرى فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) الآية فكـانوا إذا كـانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم ، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم ، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم . وروي عن بن عمر رضي الله عنهما في قوله (إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) قال : نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ " (2) .

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1509) رقم الحديث 1901 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 325) .

وفي معنى الآيات السابقة ـ من الحض على المواجهة والثبات على لقاء العدو ـ جاء قوله تعالى صراحةً {يا أيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيتم فئَةً فَاثْبتواْ واذْكُرواْ اللّه كَثيرا لعلكُم تفْلَحونَ}[1]. وقوله تعالى{وكَأَين من نبِي قَاتلَ معه رِبيونَ كَثير فَما وهنواْ لما أَصابهم في سبِيلِ اللّه وما ضعفُواْ وما استكَانواْ واللّه يحب الصابِرِين}[2] وهذه الآية سيقت توبيخاً للمنهزمين في أحد ، حيث لم يستنوا بسنن الربانيين ا اهدين مع الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أ م أولى بذلك حيث كانوا خير أمة أخرجت للناس . ولما كانت طريقة هؤلاء الربانيين ـ أتباع الأنبياء ـ الصبر على الجهاد وترك الفرار ، فكيف يليق بأتباع محمد صلى الله عليه وسلم الفرار والا زام في أُحد ؟ أي : لا ينبغي أن يكون أتباع من مضى من الأنبياء أجدر بالعزم من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال الرازي "والمعنى وكم من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه ، فأصا م من عدوهم قرح فما وهنوا ، لأن الذي أصا م إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة رسوله ، فكذلك ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم"[3] إن الآية توضح أن من صفات ا اهدين المخلصين أ م يتسمون بالصبر والثبات في مواجهة الشدائد والأعداء ، ومهما أصا م من البلاء والقتل ضد العدو ، فإ م يصبرون ولا يفرون ويوطنون أنفسهم على الموت في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى . ولذلك ختمت الآية بقوله (والله يحب الصابرين) أي : الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون ولا يستسلمون ، لأ م يعلمون أن حب الله إياهم يأسو الجراح ، ويمسح على القرح ، ويعوض ويربو عن الأذى والضر . " وقد جمعت الآية بين الوهن والضعف ، وهما متقاربان تقارباً قريباً من الترادف ، فالوهن : قلة القدرة على العمل وعلى النهوض في الأمر . والضعف : ضد القوة في البدن . وهما هنا مجازان . فالأول أقرب إلى خور العزيمة ودبيب اليأس في النفوس والفكر . والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة . وأما الاستكانة : فهي الخضوع والمذلة للعدو . ومن اللطائف : ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول : فإنه إذا خارت العزيمة

---

(1) سورة الأنفال / 45 .

(2) سورة آل عمران / 146 .

(3) انظر : التفسير الكبير للرازي (9 / 22) .

فشلت الأعضاء ، وجاء الاستسلام ، فتبعته المذلة والخضوع للعدو "[1]. ولا يخفى التعبير بـ (وكأين) التي تفيد أن الصبر والثبات كانا دأب الصادقين المخلصين في جهادهم .

ومن الآيات الدالة على سنة الله في نصر جنده الثابتين الصابرين أمام الأعداء أمره للمؤمنين الاتصاف بذلك في قوله تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ اصبِرواْ وصابِرواْ ورابِطُواْ واتقُواْ اللّه لَعلكُم تفْلحونَ}[2]. هذه الآية الخاتمة لسورة آل عمران ـ تلك السورة التي حفلت بآيات الجهاد وقتال الأعداء وضمنت أحداث أكثر من غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ـ تعد وصية جامعة للمؤمنين ، تجدد عزيمتهم ، وتبعث الهمم إلى دوام الاستعداد للعدو ، كي لا يثبطهم ما حصل من الهزيمة يوم أحد . فأمرهم :

أولاً : بالصبر ، الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال .

ثانياً : بالمصابرة ، وهي الصبر في وجه الصابر ، وهذا أشد الصبر ثباتاً في النفس ، وأقربه إلى التزلزل ، ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر ، لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه ، ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يمل قرنه، فإنه لا يجتني من صبره شيئاً ، لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبراً ، كما قال زفر بن الحارث في اعتذاره عن الا ـزام :

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا [3]

فالمصابرة هي سبب نجاح الحرب ، وهي أخص من الصبر ؛ لأ ا أشد منه .

ثالثاً : المرابطة ، وهي مفاعلة من الربط ، وهو ربط الخيل للحراسة في غير الجهاد خشية أن يفجأهم العدو ، أمر الله به المسلمين ليكونوا دائماً على حذر من عدوهم ، تنبيهاً لهم على ما يكيد به المشركون من مفاجأ ـم على غرة بعد وقعة أحد . فالمقصود من المرابطة هنا يعم الرباط

---

(1) انظر : التحرير والتنوير (4 / 118 ـ 119) .

(2) سورة آل عمران / 200 .

(3) انظر : التحرير والتنوير (4 / 208) .

في ثغور البر أو البحر أو الجو التي يخشى نزول العدو منها ، والمعنى " (اصبروا) على الدين وتكاليفه (وصابروا) أعداء الله في الجهاد . أي : غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتا . والمصابرة باب من الصبر ؛ ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته (ورابطوا) وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها ، مترصدين مستعدين للغزو قال تعالى{ومن رباط الْخيلِ ترهبونَ بِه عدو اللّه وعدوكُم}(1)"(2).

ولقد بين لنا القرآن الكريم في أكثر من آية ما يعين المؤمن على الصبر في لقاء الأعداء والمصابرة في ساحة القتال ، لتكون نصب عيني كل مجاهد في سبيل الله . ومن ذلك قوله تعالى {إِن يمسسكُم قَرح فَقَد مس الْقَوم قَرح مثْله}(3). وهو يبين أن الذي يصيب المسلمين من القرح والجراحة وما يصاحبها من آلام لا ينبغي أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو ومصابرته ، وذلك لأنه كما أصا م ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك . فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفْتروا ولم يضعفوا لما أصا م من قرح في القتال فأنتم أيها المؤمنون أولى أن لا تفتروا ولا تضعفوا في مدافعتهم ومصابر م لما أصابكم من قرح (4) .

ومما يعين ـ أيضاً ـ على الصبر والمصابرة تذكر قوله تعالى {ولاَ تهنواْ في ابتغاء الْقَومِ إِن تكُونواْ تأْلَمونَ فَإِنهم يأْلَمونَ كَما تأْلَمونَ وترجونَ من اللّه ما لاَ يرجونَ وكَانَ اللّه عليما حكيما}(5). " ومعنى (لا نوا) أي : ولا تضعفوا ولا تتوانوا (في ابتغاء القوم) أي : في طلب الكفار ، فإنه (إن تكونوا تألمون فإ م يألمون كما تألمون) أي : إن حصول الألم في القتال والمصابرة فيه قدر مشترك بينكم وبينهم ، فلما لم يصر خوف الألم في القتال مانعاً لهم عن قتالكم فأنتم أولى أن لا يكون خوف الألم في القتال مانعاً لكم عن قتالهم ؛ لأنكم أيها المؤمنون (ترجون من الله ما لا يرجون) أي : ترجون من الثواب من الله على جهادكم ما لا

---

(1) سورة الأنفال / 60 .

(2) انظر : الكشاف (1 / 489) .

(3) سورة آل عمران / 140 .

(4) انظر : التفسير الكبير للرازي (9 / 13) .

(5) سورة النساء / 104 .

يرجونه لعدم إيما م بما تؤمنون به . فأنتم أيها المؤمنون أولى منهم في الجد والصبر والمصابرة في قتالهم " [1] .

ومن التطبيقات القرآنية التي تدل على أهمية المواجهة والثبات في وجه العدو قوله تعالى عن رجلين من بني إسرائيل {قَالَ رجلاَن من الذين يخافُونَ أنعم اللّه علَيهما ادخلُواْ علَيهم الْباب فَإِذَا دخلْتموه فَإِنكُم غَالبونَ وعلَى اللّه فَتوكلُواْ إِن كُنتم مؤمنِين}[2]. فقولهما " قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب : أقدموا واقتحموا ، فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلو م بقدر ما تقوى قلوبكم ، وشعروا بالهزيمة في أرواحهم ، وكتب لكم الغلب عليهم " [3] .
ومجمل القول : أنه لما كان الثبات في المعركة لا يتأتى إلا بتثبيت من الله تعالى ، وصف الله ا اهدين المخلصين بأن ديد م في دعائهم هو سؤالهم الله ثبات الأقدام ، وذلك بإزالة الخوف عن قلو م ، وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم ، وهذا في قوله تعالى {وما كَانَ قَولَهم إِلا أَن قَالُواْ ربنا اغْفر لَنا ذُنوبنا وإِسرافَنا في أَمرِنا وثَبت أَقْدامنا وانصرنا علَى الْقَومِ الْكَافرِين}[4].
وهذه سنة المخلصين الربانيين في كل زمان ، أن يطلبوا التقوية والتثبيت والمدد الروحاني من خالقهم الذي بيده ملكوت كل شيء ، ولذلك ورد عن صفوة جيش طالوت ـ حين لاقوا جالوت وجنوده ـ أ م قالوا {ربنا أَفْرِغْ علَينا صبرا وثَبت أَقْدامنا وانصرنا علَى الْقَومِ الْكَافرِين}[5]. والتثبيت من الله مشروط بمن يستحقه ، وهو من عمل على نصرة دين الله وإعلاء كلمته . قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أَقْدامكُم} [6].
وعندما حقّق المسلمون هذا الشرط يوم بدر ، وخلصت نيا م في سبيل الله حباهم الله التثبيت المادي والمعنوي ، وهما الواردان في قوله تعالى {إِذْ يغشيكُم النعاس أَمنةً منه وينزلُ علَيكُم من

(1) انظر : التفسير الكبير (11 / 25 ـ 26) .
(2) سورة المائدة / 23 .
(3) انظر : في ظلال القرآن (2 / 870) .
(4) سورة آل عمران / 147 .
(5) سورة البقرة / 250 .
(6) سورة محمد / 7 .

السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ـ إذ يوحي ربك إلى الملآئكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان}[1] وكل هذا الكلام مقيد بأن لا يكون عدد الكفار أكثر من مثلي عدد المسلمين كما مر معنا سابقاً في تفسير الآيات رقم (64 ـ 66) من سورة الأنفال .

السبب السادس / الإيمان الصادق .

المقصود بالإيمان الصادق هنا هو الالتزام بأوامر الله في الامتثال ، ونواهيه في الاجتناب ، على قدر الاستطاعة ، دون تعمد في الإخلال بشيء من ذلك . وقد وردت آيات عدة في هذا الصدد هي من قبيل الوعد المشروط ، ومن ذلك :

❁ {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ـ إنهم لهم المنصورون ـ وإن جندنا لهم الغالبون}[2]. حيث وعد الله في هذه الآيات رسله وأتباعه من جند الله بالنصر على عدوهم والتمكين لهم في الأرض ، وصار ذلك الوعد سنة لله في رسله وأتباعهم من المؤمنين الصادقين. والآيات وإن بدأت بالوعد بالنصر لرسل الله على من كذبوهم ، فقد ختمت ببشارة للمؤمنين أن السنة نفسها متحققة فيهم ما داموا جنداً لله تعالى فقال تعالى (وإن جندنا لهم الغالبون) والغلبة هنا تشمل علوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوهم عليهم في الآخرة . ومعنى (المنصورون) و (الغالبون) أي : في أكثر الأحوال ، وباعتبار العاقبة ، فلا ينافي أ م يغلبون نادراً ثم تكون لهم العاقبة [3]. والآيات وإن كانت من قبيل الوعد ـ كما صرح به المفسرون ـ فإ ا تصلح للاحتجاج على سنة النصر والغلبة والتمكين وذلك لأن الوعد فيها قد تعلق بصفات الرسالة والجندية ، مما يعني أن هذا الوعد لا يتحقق إلا بامتثال هذه الصفات التي ترجع في أصلها إلى الإيمان الخالص ، ولذلك جاء في تفسيرها " أن هذا الوعد

---

(1) سورة الأنفال / 11 ـ 12 .

(2) سورة الصافات / 171 ـ 173 .

(3) انظر : تفسير روح المعاني (23 / 155) ، وتفسير التحرير والتنوير (23 / 195) .

سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية ، كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دورا ا المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ي ل عليها الماء ، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء . وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالمقياس إلى أعمال البشر المحدودة ، ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف ، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر ، لأ م يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين " [1].

❁وفي معنى الآية السابقة يأتي قوله تعالى{كَتَب الله لَأَغْلبن أنا ورسلي إن الله قَوِي عزِيز}[2] وكذا الحال لأتباعهم من بعدهم ، لكن إذا كان جهادهم لأعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم ، بأن يكون خالصاً لله تعالى لا لطلب ملك وسلطنة وأغراض دنيوية ، فلا تكاد تجد مجاهداً كذلك إلا منصوراً غالباً [3] .

❁ومن الآيات الواعدة ذا المعنى قوله تعالى{إنا لَننصر رسلَنا والذين آمنوا في الْحياة الدنيا ويوم يقُوم الْأَشهاد}[4]أي"إن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم (في الحياة الدنيا) بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات" [5] . إن نصر الله أولياءه ليس محدوداً بزمان ولا مكان ، بل يتحقق وقت ما يشاء الله ، حسب سنته وتقديره ، ومن ثم لا يتخلف وعده ، وهو القائل في الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) [6] . ومما يجب ألا نغفله في هذا الصدد هو أن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا ، ولكن لابد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي يتعلق هذا الوعد ا . وحقيقة الإيمان كثيراً ما يتجوز الناس فيها ، وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك بكل صوره وأشكاله ، إذ

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (5 / 3002) .
(2) سورة ا ادلة / 21 .
(3) انظر : روح المعاني (28 / 34) .
(4) سورة غافر / 51 .
(5) انظر : تفسير الكشاف (4 / 176) ، وتفسير روح المعاني (24 / 76) .
(6) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2384) رقم 6137 .

هنالك أشكال من الشرك خفية ، لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدره عليه ، ويشعر أن الله وحده هو الذي يصرفه ، فلا خيرة له إلا ما اختاره الله له، ويتلقّى هذا بالطمأنينة والثقة والرضا والقبول. وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين الله، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر، بل سيكل هذا كله لله ، ويتلّقى كل ما يصيبه على أنه الخير ، وذلك معنى من معاني النصر ، النصر على اللذات والشهوات ، وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه ، ولا يتحقق وعد الله للمؤمنين إلا بعد التحقق والظفر به . ويؤيد هذه السنة في نصر الله رسله وأوليائه قوله تعالى {حتى إِذَا استيأس الرسلُ وظَنوا أَنهم قَد كُذبوا جاءهم نصرنا فَنجي من نشاء ولاَ يرد بأسنا عنِ الْقَومِ الْمجرِمين }[1]. ومن الآيات الصريحة في ربط النصر بالإيمان قوله تعالى {ولَو قَاتلَكُم الذين كَفَروا لَولوا الْأَدبار ثُم لَا يجِدونَ وليا ولَا نصيرا ـ سنةَ الله التي قَد خلَت من قَبلُ ولَن تجِد لسنة الله تبديلًا}[2]. حيث يبشر الله تعالى عباده المؤمنين أنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نزم جيش الكفر فاراً مدبراً، لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، لأ م محاربون لله ورسوله ولحزبه المؤمنين [3] " وهذه سنة الله وعادته في خلقه : ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل الله يوم بدر بأوليائه المؤمنين ، نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم " [4]. إذن فهذه سنة لله قديمة ، وهي تقضي بأن يظهر أنبياءه والمؤمنين به ـ إذا صدقوا في إيما م وأخلصوا نيا م ـ على أعدائهم من الذين كفروا .

وإنما يكون كمال النصر على حسب ضرورة المؤمنين ، وعلى حسب الإيمان والتقوى ، ولذلك كان هذا الوعد غالباً للرسول ومن معه ، فيكون النصر تاماً في حالة الخطر كما كان يوم بدر ، ويكون سجالاً في حالة السعة كما في وقعة أحد ، وقد دلّ على ذلك قول النبي صلى الله عليه

(1) سورة يوسف / 110 .

(2) سورة الفتح / 22 ـ 23 .

(3) انظر : جامع البيان (12 / 180) .

(4) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 193) .

وسلم يوم بدر (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض) [1]، وقال الله تعالى {قَالَ موسى لقَومه استعينوا بِاللّه واصبِروا إن الأَرض للّه يورِثُها من يشاء من عباده والْعاقبةُ للْمتقين}[2]. ويكون لمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من جيوش المسلمين على حسب تمسكهم بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يأتي زمان يغزو فئام من الناس فيقال : فيكم من صحب النبي . فيقال : نعم ، فيفتح عليه . ثم يأتي زمان فيقال : فيكم من صحب أصحاب النبي فيقال : نعم ، فيفتح . ثم يأتي زمان فيقال : فيكم من صحب من صاحب النبي فيقال : نعم فيفتح) [3] " [4] . ولذلك لم يصب المسلمون في شيء من غزوا تهم وحرو بهم إلا بما خالفوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بعض المخالفة . وبالرغم من كل ما سبق فإنه قد يرد على خاطر بعض المسلمين سؤال يقول : إن الله تعالى يقول في كتابه الكريم {وكَانَ حقا علَينا نصر الْمؤمنِين}[5]. ويقول تعالى {إنا لَننصر رسلَنا والذين آمنوا في الْحياة الدنيا ويوم يقُوم الْأَشهاد} [6]. وهما نص في تعليل النصر بالإيمان . ولكننا نرى كثيراً من الذين يدعون الإيمان في العصر الحديث غير منصورين ؟

والجواب : أن كل ما كان من قبيل هذه الآيات يجب أن يحمل على إرادة الإيمان بحوافزه وشرائطه ، لأن مجرد الإيمان من غير إعداد نفسي وفكري بالعمل الصالح والعلم النافع ، ودون إعداد مادي بالقوة المرهبة للعدو ؛ لا يتفق مع سنن الله تعالى في إنزال نصره على المجاهدين في سبيله ، فيجب توحيد النصوص في ظل السنن الإلهية ، بأن يرد المطلق إلى المقيد ، والعام إلى الخاص ، تحقيقاً للتوازن العملي بين موقف المسلمين وموقف أعدائهم ، غير أن القرآن قد يعني في النصوص المطلقة بيان أن الإيمان هو الأساس في تحقيق النصر على أعداء الإسلام .

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1383) رقم 1763 .

(2) سورة الأعراف / 128 .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1061) رقم 2740 .

(4) انظر : التحرير والتنوير (6 / 98) .

(5) سورة الروم / 47 .

(6) سورة غافر / 51 .

وعلى ذلك فلابد أن يكون المسلمون ـ المخذولون ـ في دعواهم الإيمان غير صادقين ، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين ، ولأهوائهم ـ لا لله ـ ناصرين ، ولسنته في أسباب النصر غير متبعين . والله لا يخلف وعده ولا يبطل سنته ، وإنما ينصر المؤمن الصادق ، وهو ـ كما أسلفنا ـ من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته ، ويتحرى الحق والعدل في حربه ، ويمتثل أمر الله في الأخذ بأسباب النصر السابقة الذكر [1] .

والمقصود بالإيمان الذي يكون معه النصر ؛ هو الإيمان الذي يصدقه العمل بما أمر الله به من إعداد العدة . فقد يوجد الإيمان مع عدة لكن لا يكون معه النصر ، فلا تجب مواجهة الكفار حينئذ ولا قتالهم ، كما في حديث عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان لما يقتل الدجال ويكون معه صالح المؤمنين ، فيوحي الله إليه : إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور [2] . فهنا أمر الله بعدم المواجهة لعدم المكافأة ، مع وجود الإيمان وما يصدقه من العمل ؛ لكن بدون مكافأة . وهكذا فليكن الحال بالنسبة للمسلمين مع عدوهم اليوم . أما أن يوجب على المسلمين مواجهة الكفار وهم في حال من الضعف والهوان وعدم المكافأة فإن ذلك من إلقاء النفس في التهلكة الذي نهانا الله عز وجل عنه بقوله {ولاَ تلْقُواْ بِأَيديكُم إِلَى التهلُكَة} [3] . إضافة إلى أن ذلك يخالف شرع الله ولا يصدق الإيمان الشرعي الذي يصدقه العمل بشرع الله وإتباعه .

السبب السابع / تقوى الله .

وذلك لأن كل عبد محتاج ـ في كل وقت ـ إلى طاعة الله ورسوله وهو : أن يفعل في ذلك الوقت ما أُمر به في ذلك الوقت ، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هي عبادة الله التي خلق لها الجن والإنس ، كما قال تعالى {وما خلَقْت الْجِن والْإِنس إِلا ليعبدون}[4]. وقال تعالى

---

(1) انظر : تفسير المنار (7 / 380) ، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن / 59 .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2250) رقم الحديث 2937 .

(3) سورة البقرة / 195 .

(4) سورة الذاريات / 56 .

تعالى {واعبد ربك حتى يأتيك الْيقين}[1]. وقال تعالى {يا أيها الناس اعبدواْ ربكُم الذي خلَقَكُم والذين من قَبلكُم لَعلكُم تتقُونَ}[2]. ومن الآيات الدالة على ضرورة التحلي ذا السبب لتحقق النصر الإلهي :

❁ قوله تعالى {إِذْ تقُولُ للْمؤمنِين أَلَن يكْفيكُم أن يمدكُم ربكُم بِثَلاَثَة آلاَف من الْملاَئكَة م َلين ـ بلَى إِن تصبِرواْ وتتقُواْ ويأْتوكُم من فَورِهم هذَا يمددكُم ربكُم بِخمسة آلاف من الْملاَئكَة مسومين }[3]. " والظاهر في المدد أن الملائكة يشركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم ، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال ، وأن يكون مجرد حضورهم كافياً في تقوي القلب . وجعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطاً بثلاثة أشياء : الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور " [4]. فمدد الملائكة للمؤمنين كان بسبب تقواهم ، لأن صبرهم من جملة تقواهم ، إذ هو مما أمر الله عز وجل به [5].

❁ ومن الآيات التي تربط النصر بالتقوى ، وتبين أ ا تدفع شر العدو المظهر للعداوة ، وكذا المبطن لها قوله تعالى {لَتبلَون في أَموالكُم وأَنفُسِكُم ولَتسمعن من الذين أُوتواْ الْكتاب من قَبلكُم ومن الذين أَشركُواْ أَذًى كَثيرا وإِن تصبِرواْ وتتقُواْ فَإِن ذَلك من عزمِ الأُمورِ}[6] . ❁وقوله تعالى عن المنافقين {إِن تمسسكُم حسنةٌ تسؤهم وإِن تصبكُم سيئَةٌ يفْرحواْ بِها وإِن تصبِرواْ وتتقُواْ لاَ يضركُم كَيدهم شيئًا إِن اللّه بِما يعملُونَ محيطٌ}[7] . فقد أدرك الصحابة والتابعون أهمية التقوى في النصر والغلبة على العدو ، فكان الخلفاء منهم يوصون قوادهم وجيوشهم بالتزام التقوى ، لأ ا مفتاح النصر ، و ا يتميز المسلمون ويتغلبون على غيرهم . ومن النماذج

---

(1) سورة الحجر / 99

(2) سورة البقرة / 21 .

(3) سورة آل عمران / 124 ـ 125 .

(4) انظر : التفسير الكبير للرازي (8 / 187) .

(5) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (10 / 508) .

(6) سورة آل عمران / 186 .

(7) سورة آل عمران / 120 .

الواضحة في هذا الصدد ما جاء في وصية عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يعهد لأحد عماله ، وقد ورد فيها : إني آمرك ومن معك من أجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم [1] ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإنْ لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أنه عليكم في مسيركم حفَظَةٌ من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلّط علينا وإن أسأنا ، فَرب قوم قد سلّط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل ـ لما عملوا بمساخط الله ـ كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعد الله مفعولا . واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم [2] .

السبب الثامن / نصرة دين الله .

حيث بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، فأيهم في سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) [3]. ومن شواهد هذا السبب :

❁ قوله تعالى {إِن الله يدافع عنِ الذين آمنوا إِن الله لَا يحب كُل خوان كَفُورٍ ـ أُذنَ للذين يقَاتلُونَ بِأَنهم ظُلموا وإِن الله علَى نصرِهم لَقَدير ـ الذين أُخرِجوا من ديارِهم بِغيرِ حق إِلا أَن يقُولُوا ربنا الله ولَولَا دفْع الله الناس بعضهم بِبعضٍ لهدمت صوامع وبِيع وصلَوات ومساجِد

---

(1) وليس معنى هذا أن عدد الكفار أكثر من مثلي عدد المسلمين ؛ وإلا لم تجب مواجهة الكفار كما مر سابقاً ، فتنبه .

(2) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (5 / 302 ـ 303) .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (1 / 58) رقم 123 ، وأخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1512) رقم 1904 .

.

يذْكَر فيها اسم الله كَثيرا ولَينصرن الله من ينصره إِن الله لَقَوِي عزِيز ـ الذين إِن مكناهم في الْأَرضِ أَقَاموا الصلَاةَ وآتوا الزكَاةَ وأَمروا بِالْمعروف ونهوا عنِ الْمنكَرِ ولله عاقبةُ الْأُمورِ}[1] .

فالآية الأولى توضح أن الله وعد بالنصر عباده المؤمنين فقط دون غيرهم ، وقوله تعالى (ولينصرن الله من ينصره) يبين أن هذا الوعد متعلق بشرط ، فصح أن يدخل في نطاق السنن . حيث يبين ذلك الوعد أن نصرة الله العبد المؤمن مشروط بنصرة هذا العبد لدين الله ، والذب عن بيضة الإسلام ، والقيام بأعباء هذا الدين من التكاليف الشرعية ، خاصةً منها ما فيه إظهار شعائر الإسلام والدفاع عنها والدعوة إليها . والمراد بقوله (من ينصره) أي : ينصره بتلقي الجهاد بالقبول نصرة لدين الله [2]. وقيل المراد "من ينصر دينه وأولياءه " [3]. وقيل : أن المراد بقوله (من ينصره) أي " من يقوم بسائر دينه . وإنما قالوا ذلك ؛ لأن نصرة الله على الحقيقة لا تصح ، وإنما المراد من نصرة الله نصرة دينه ، كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك " [4]. وفي قوله (ولينصرن الله من ينصره) وعد بالنصر لمن هذه حاله . ونصر الله تعالى العبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ، ويكون قائماً بإيضاح الأدلة والبينات ، ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات [5]" والآية تعم كل من نصر حقاً إلى يوم القيامة " [6] وقوله تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض .) يبين المقصود من نصرة دين الله وهو الاتصاف بالصفات المذكورة في الآية والتي تضمن لصاحبها المتصف بها النصر الإلهي . والآية فيها زيادة اختصاص لقادة المسلمين وبشرى لمن ينهض منهم إلى نصر الله صادقاً مخلصاً ، بأن الله ينصره بقوته وقهره ؛ لأنه قوي لا يقاوم وعزيز لا يغالب ، ولهذا عقبت نصر الله من ينصره ببيان من هم الذين يستطيعون أن ينصروا الله عملياً بقيامهم بواجب حماية الشرائع الإسلامية وإقامة معالمها ،

---

(1) سورة الحج / 38 ـ 41 .

(2) انظر : التفسير الكبير للرازي (23 / 37) .

(3) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (3 / 43) .

(4) انظر : التفسير الكبير للرازي (23 / 37) .

(5) انظر : المرجع السابق ـ نفس الصفحة .

(6) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية (4 / 125) .

فالتمكين في الأرض إنما يعني وضع سلطان الشريعة في أيديهم ، وإعطاءهم وسائل التنفيذ بالقوة القاهرة لما يجب تنفيذه بالقوة كالجهاد وإقامة الحدود وزجر المنحرفين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

والإسلام في عقيدته وعباداته ونظمه الاجتماعية حقيقة واحدة ، مرتبط بعضها ببعض ، لا تقبل التجزئة والتفريق . فعباداته كلها إذا لم تقم على أساس عقيدة التوحيد الخالص كانت سراباً لا حقيقة له ، ونظمه الاجتماعية في سياسته واقتصاده وأخلاقه إذا لم يكن أساسها العقيدة والعبادات معاً ، وأجلها الصلاة ، وهي ركن إخلاص العبادة لله تعالى ، وتتبعها في الفضل أختها الزكاة ، وهي ركن التكافل الاجتماعي الذي يجمع كلمة المسلمين على المواساة والتعاون الصادق ، إذا لم يكن أساسها كذلك كانت أشباحاً لا روح فيها ، وكانت أعمالاً لا تثمر في القلب أثرها [1] .

❁ قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أَقْدامكُم}[2] . ففي الآية تحضيض للمؤمنين على القتال ، ووعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى . والمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله ، تأييداً لدينه ، وإعلاءً لكلمة الحق ، لا ليستعلوا في الأرض ، أو ليصيبوا غنيمة ، أو ليظهروا نجدة وشجاعة . ويدخل في المراد بنصر الله لهم توفيقه السباب المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم ، كإلقاء الرعب في قلوب الكفار ، وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم ، وربط جاش المؤمنين وتشجيعهم . وعلى هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام ، وتخصيص تثبيت الأقدام ـ وهو كناية عن التشجيع وتقوية القلوب ـ لكونه من أظهر أفراد النصر [3] .

السبب التاسع / ذكر الله تعالى .

---

(1) انظر : سنن الله في ا تمع / 58 ـ 59 .

(2) سورة محمد / 7 .

(3) انظر : تفسير التحرير والتنوير (26 / 84 ـ 85) .

من أسباب استمداد النصر من الله تعالى ذكره سبحانه بمعناه العام من ثناء واستغفار ودعاء ؛ إذ الكل موجه إليه سبحانه . فالثناء باب الدخول إلى رحاب الله صاحب الملك والملكوت . والاستغفار خروج من أسباب الهزيمة ، والدعاء استدعاء لعوامل النصر والمدد الروحاني الذي يخص الله به عباده الصالحين . وقد وردت الآيات الكثيرة التي تحث على هذه الخصال في وقت الشدة ، خاصة حال القتال . ومن ذلك :

❁ قوله تعالى{يا أيها الذين آمنواْ إِذَا لَقيتم فئَةً فَاثْبتواْ واذْكُرواْ اللّه كَثيرا لعلكُم تفْلَحونَ}[1]. فالآية تجمع بين سببين قويين من عوامل النصر : أحدهما مادي ، وهو الثبات في وجه العدو ، وقد سلف الكلام عنه . والآخر معنوي ـ وهو المراد هنا ـ وهو ذكر الله عند القتال .

وذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى ، إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب ، والثقة بالله الذي ينصر أولياءه ، وهو في ذات الوقت استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهي معركة في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، وليست للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء والغطرسة .

وذكر الله المأمور به هنا هو ذكر حضور باللسان ؛ لأنه يتضمن ذكر القلب وزيادة ، فإن من ذَكَر بلسانه ذكْر يقظة وحضور فقد ذكر بقلبه ولسانه ، وسمع الذكر بسمعه ، وذكر من يليه بذلك الذكر ، ففيه فوائد زائدة على ذكر القلب المجرد . وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهر وصفه بـ (كثيرا) ؛ لأن الذكر بالقلب يوصف بالقوة . والمقصود تذّكر أنه الناصر الذي يعين في الشدائد كما يعين في الرخاء [2] . وقد أكدت السنة النبوية ذلك وبينته فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا ، واذكروا الله ، فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت) [3] ، وفي حديث آخر قال النبي صلى الله عليه وسلم (

---

(1) سورة الأنفال / 45 .

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (10 / 30) .

(3) أخرجه الدارمي في سننه (2 / 285) رقم 2440 ، وعبد الرزاق في مصنفه (5 / 250) رقم 9518 .

يقول الله تعالى : إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاقٍ قرنه) [1] . ويرى ابن عطية " أن هذا ذكر خفي ، لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء ومكروه ، إذا كان إلغاطاً ، فأما إن كان من الجمع عند الحملة فحسن فات في عضد العدو " [2] " وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً ، وأكثر ما يكون هماً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره ، وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في أيام صفين ، وفي مشاهده مع البغاة والخوارج من البلاغة والبيان ولطائف المعنى وبليغات المواعظ والنصائح دليلاً على أ م كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل ، وإن تفاقم الأمر " [3] . وقد ختمت الآية بقوله (لعلكم تفلحون) أي : تنالون بغيتكم وتبلغون أمالكم [4]. وذكر الله كثيراً عند لقاء العدو هو التوجيه الدائم للمؤمن ، كما أنه التعليم المطّرد الذي استقر في قلوب الفئة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن في تاريخ الأمم المؤمنة في موكب الإيمان التاريخي . فمما حكاه القرآن عن بعض الفئات المؤمنة ما نقله من قول سحرة فرعون ، عندما استسلمت قلو م للإيمان فجأة ، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي ، وذلك في قوله {لأُقَطعن أيديكُم وأَرجلَكُم من خلاَف ثُم لأُصلبنكُم أَجمعين} [5]. فردوا عليه بقلب راسخ ولسان ذاكر {قَالُواْ إِنا إِلَى ربنا منقَلبونَ ـ وما تنقم منا إِلا أَنْ آمنا بِآيات ربنا لَما جاءتنا ربنا أَفْرِغْ علَينا صبرا وتوفنا مسلمين }[6] . وكذلك حكى القرآن عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل ، وهي تواجه جالوت وجنوده ، وذلك في قوله تعالى {ولَما برزواْ لجالُوت وجنوده قَالُواْ ربنا أَفْرِغْ علَينا صبرا وثَبت أَقْدامنا وانصرنا علَى الْقَومِ الْكَافرِين}[7]. ولقد استقر هذا التعليم في

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه (5 / 570) رقم 3580 .

(2) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية (2 / 536) .

(3) انظر : تفسير الكشاف (2 / 214 ـ 215) .

(4) انظر : المحرر الوجيز (2 / 536) .

(5) سورة الأعراف / 124 .

(6) سورة الأعراف / 125 ـ 126 .

(7) سورة البقرة / 250 .

نفوس العصبة المسلمة ، فكان هذا شأ ا حيثما واجهت عدواً . وقد حكى الله فيما بعد عن العصبة التي أصا ا القرح في غزوة أحد ، فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم كان هذا التعليم حاضراً في نفوسها {الذين قَالَ لَهم الناس إن الناس قَد جمعواْ لَكُم فَاخشوهم فَزادهم إِيماناً وقَالُواْ حسبنا اللّه ونِعم الْوكيلُ}[1] [2] .

ويدخل في مسمى الذكر ـ كما سبق ـ الدعاء والاستغاثة إلى الله تعالى والابتهال إليه والتضرع لديه ، وهي من الأمور التي تجلب النصر وتستدعي حصوله . وخير شاهد على هذا في العصر النبوي ما ورد من استغاثة المؤمنين بالله يوم بدر وطلبهم وإلحاحهم في الدعاء أن يظهرهم على عدوهم ، وأن يرزقهم المدد والمعونة من عنده ، كما جاء في قوله تعالى {إِذْ تستغيثُونَ ربكُم فَاستجاب لَكُم أَني ممدكُم بِأَلْف من الْملآئكَة مردفين ـ وما جعلَه اللّه إِلا بشرى ولتطْمئن بِه قُلُوبكُم وما النصر إِلا من عند اللّه إِن اللّه عزِيز حكيم}[3]. ولم يكن الدعاء الدعاء والاستغاثة قاصرين على الصحابة وحدهم في صدر الإسلام ، بل كان قدو م في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ خلا بنفسه وأخذ في الضراعة بكلمات كلها استكانة وإلحاح على الله تعالى في استـ ال نصره واستجلاب عونه وغوثه ، ومن ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام يوم بدر (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك) [4]. وفي غزوة الأحزاب يدعو النبي صلى الله عليه وسلم في أول المعركة بقوله (اللهم مـ ل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم) [5]. واقتدى الصحابة رضي الله عنهم بفعل النبي ﷺ فكان كل قائد منهم يحذّر جنده ويأمرهم بالأخذ بأسباب النصر المعنوية وعوامل الغلبة على أعدائهم . من ذلك ما ذُكر في أخبار معركة اليرموك مع الروم في فتوح الشام ، فقد جاء أنه " لما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان ، وعظ أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ـ قائد جيش

---

(1) سورة آل عمران / 173 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (3 / 1528) .

(3) سورة الأنفال / 9 ـ 10 .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1067) رقم 2758 .

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1082) رقم 2804 ، ومسلم في صحيحه (3 / 1362) رقم 1742 .

المسلمين ـ جنده ، فكان مما قاله : يا عباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. يا معشر المسلمين ، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار . شرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى " [1]. والحاصل : أن كثرة ذكر الله تعالى في أثناء القتال وقبله يكون في القلب بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ، وبمعيته الخاصة للمؤمنين الصابرين ، وبذكر يه تعالى عن اليأس مهما اشتد البأس لأن النصر بيده سبحانه ينصر من يشاء وهو القوي العزيز. فمن ذكر هذا وتذّكره وتأمله لا ولنه قوة عدوه واستعداده ، لإيمانه بأن الله تعالى أقوى من عدوه ، ومن ثمّ يطابق اللسان في اللهج بالذكر ليكون ما في القلب شاخصاً أمام العين فيزداد المؤمن قوة إلى قوته .

وبعد ذكر هذه الأسباب ؛ فقد تبطئ آثار هذه السنة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف ، والمؤمن يوقن ذه الحقيقة حقيقة ثبات هذه السنة وعدم تخلفها ونفاذها ولو كان الواقع الصغير في جيل محدود أو رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل ، الذي يوجد في الأرض لحكمة يريدها الله تعالى .

فقد يبطئ النصر لأن بنيةَ الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقا ا ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدر ا على حمايته طويلا ! .

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله .

---

(1) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (7 / 8) .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر ، إنما يـ ل النصر عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء ، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله ، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به .

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحيا ا لله ولدعوته ، فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذا ا أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله بريئاً من المشاعر الأخرى .

كما قد يبطئ النصر لأن الأمة التي يحار ا المؤمنون فيها بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار .

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، ولم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى ينكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية .

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه . من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله قد يبطئ النصر [1] .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2426 ـ 2427) .

ويبدو للناظر الذي يقيس الأمور بظواهرها ولا يتعمق لينظر بالمقياس الشامل لهذا الوجود ، إن هذا خلف في السنة أو تبدل لها .

وقد تتحقق سنة النصر بغير صور ا الظاهرة من الغلبة على الأعداء والتمكين في الأرض . ويظن بعض الناس أن ذلك خلف للسنة ولوعد الله بنصر المؤمنين ، وليس الأمر كذلك ، فالنصر معناه ليس مقتصراً على صورة واحدة ، وإنما هو صور متعددة ، وأي تحقق لصورة معينة إنما هو تحقيق للسنة ، فسنة الله نافذة أبداً ، ووعد الله بنصر رسله والمؤمنين معه في مثل قوله تعالى {إنا لَننصر رسلَنا والذين آمنوا في الْحياة الدنيا ويوم يقُوم الْأشهاد}[1]. وهذا وعد متحقق وإن بدا أن بعض الأنبياء قتلوا كيحيى وزكريا ، ومنهم من خرج مهاجراً مطروداً من أرضه كإبراهيم ، وإن من المؤمنين فيهم من يسام سوء العذاب ، وفيهم من يلقى في الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب واضطهاد ، فسنة الله في قديم الدهر وحديثه أن ينصر عباده المؤمنين في الدنيا [2] بوجه من وجوه النصر التالية :

1/ النصر بالانتقام لهم ممن آذاهم سواءً كان ذلك بوجودهم ، أو في غيبتهم ، أو بعد مو م ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيب ؛ سلط عليهم من أعدائهم من أها م وسفك دمائهم ، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر . وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود سلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سي ل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخ ير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة .

2/ النصر بغلبة الحجة والبرهان وذلك كانتصار إبراهيم عليه الصلاة والسلام بحجته على قومه ، وهو عام لجميع المحقين وهو سلطان أعظم من سلطان الملك لأنه لا يزول أبداً .

---

(1) سورة غافر / 51 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 84) ، في ظلال القرآن (5 / 3085) .

3/ النصر بإنزال عقوبة الاستئصال أو غيرها من العقوبات الكونية ، التي لا مدخل للبشر فيها على أعداء المؤمنين والرسل ، مثل عقابه لقوم نوح وصالح وغيرهم .

4/ النصر بنجاة المؤمنين من كيد أعدائهم وسلامتهم من شرورهم كانتصار إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنجاته من النار التي أججها قومه لحرقه .

5/ النصر بانتصار وانتشار فكرة الداعي باستشهاده في سبيل الله ، وكم من شهيد لم يكن يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ؛ ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده ، كالنصر الذي ظفر به غلام أصحاب الأخدود مع سقوطه شهيداً على يد عدوه الملك الذي رماه بسهم من كنانة الغلام نفسه وقال كما ذكر له الغلام نفسه : باسم الله رب الغلام ، فرماه فأصابه فوضع الغلام يده على صدغه فمات ، فتحول الناس مؤمنين بدعوة الغلام كافرين بالملك الجبار .

6/ النصر بإدالة دولة الكفر ، ولو بعد حين عن طريق الا يار الذاتي أو بتسليط دولة كافرة أخرى ، ثم ظهور دولة الإسلام ظهوراً غير مصحوب بأعمال قتالية .

7/ النصر بإحباط الله لخطط الأعداء وعدم تمكينهم من التغلب على قوة المسلمين ، وبقاء المسلمين متمسكين بدينهم رغم ضراوة الحرب ضدهم .

8/ النصر بظهور الحق على الباطل واعتراف أنصار الباطل في نفوسهم بأ م مبطلون ، وبأن خصومهم الدعاة هم المحقون .

9/ وقد يأتي النصر الفكري بتحول الغالب الفاتح إلى دين المغلوب المهزوم في معارك القتال ، كما حصل ذلك في بعض أطوار التاريخ عندما دخل التتار في الإسلام .

10/ ومن صور النصر إيتاء الكتاب والهدى ووراثة ذلك من أتباعهم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة بعد تقرير نصر الرسل في قوله تعالى {وَلَقَدْ آتينا موسى الْهدى وأَورثْنا بنِي إِسرائيلَ الْكتاب ـ هدى وذكْرى لأُولي الْأَلْبابِ} [1] .

---

(1) سورة غافر / 53 ـ 54 .

11/ ومن صور النصر انتصار المؤمنين على ذوا م وشهوا م وعدم استسلامهم ، فقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قمة النصر وهو يلقى في النار [1] . وقد ذكر الرازي وجوهاً أخرى من وجوه النصر فقال " واعلم أن نصرة الله للمؤمنين المحقين تصل بوجوه :

أحدها : أ م منصورون بالمدح والتعظيم ، فإن الظَّلَمة وإن قهروا شخصاً من المحقين ، إلا أ م لا يقدرون على إسقاط مدحه على ألسنة الناس .

وثانيها : أ م منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين ؛ فإ م إنما ينظرون إلى الظَّلَمة والجهال ، كما تنظر ملائكة السماوات إلى أخس الأشياء .

وثالثها : أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين ففي الغالب أن ذلك لا يدوم ؛ بل يكشف للناس أن ذلك أمر وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق .

ورابعها : أن الظَّلَمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ، ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر ، وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر والناس م يقتدون في أعمال البر والخير ، ولمنهم يتركون ، فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين في الدنيا [2] .

هذه هي صور النصر التي حصلت للمؤمنين على مدار التاريخ ، والتي قد يحدث بعض صورها لهم في كل عصر من العصور .

وإن مما تميزت به هذه الأمة ـ أمة محمد صلى الله عليه وسلم ـ عن الأقوام السابقة أن جعل سبحانه من سنته أن ينصرها على عدوها بالصورة الحسية الظاهرة ، وأن يمكّن لها في الأرض [3] ، كما دلّ على ذلك قوله تعالى {وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم

---

(1) انظر : تفسير الطبري (24 / 74) ، تفسير ابن كثير (4 / 84 ـ 85) ، تفسير أبي السعود (7 / 280) ، زاد المسير (7 / 230) ، فتح القدير (4 / 495) ، تفسير المنار (3 / 152) ، في ظلال القرآن (5 / 3086) .

(2) انظر : تفسير الرازي (27 / 66 ـ 67) .

(3) انظر : تفسير فتح القدير للشوكاني (4 / 47) .

ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لَا يشركُونَ بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هم الْفَاسقُونَ} [1] .

ثانياً أسباب الهزيمة :

والمقصود بذلك ما يعوق مسيرة النصر للأمة الإسلامية ، إذ أن مسيرته ليست سهلة فهي محاطة بكثير من العوائق والمخاطر ، وهذه طبيعة الدعوات والرسالات .. فلقد منع الأنبياء من قبلُ من أداء رسالا م لكنهم مضوا في الطريق الطويل يتحملون التكذيب ويتجاوزون التعويق قال تعالى {ولَقَد كُذبت رسلٌ من قَبلك فَصبرواْ علَى ما كُذبواْ وأُوذُواْ حتى أَتاهم نصرنا ولاَ مبدلَ لكَلمات اللّه ولَقَد جاءك من نبإِ الْمرسلين }[2] . ولقد بدأ رسولنا صلى الله عليه وسلم دعوته والعوائق أمامه لا حصر لها سواء من داخل الصف الإسلامي أو من خارجه .

❁ فالأسباب الداخلية تتمثل فيما يأتي :

1 ـ عدم التمسك بالدين .

---

(1) سورة النور / 55 .

(2) سورة الأنعام / 34 .

وهذا الذي عبر عنه ربنا عز وجل بقوله {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أقْدامكُم} [1] " فذكْر أنه (لو شاء الله لانتصر منهم) علم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين . وافتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام وإيماء إلى أن الإيمان يقتضي منهم ذلك ، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مشاهدةً يوم بدر . ومعنى نصرهم الله : نصر دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله غني عن النصر في تنفيذ إرادته كما قال (ولو يشاء الله لانتصر منهم) وجيء في الشرط بحرف (إن) الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه به " [2] .

2 ـ ترك العلم الشرعي .

فالعلم دائماً يأتي قبل العمل قال تعالى {فَاعلَم أنه لَا إلَه إلا الله واستغفر لذَنبِك} [3]. لذلك فإننا إذا تدبرنا في القرآن الكريم وجدنا أن العلم أساس لقيام الحضارات ، فلم تبن أي حضارة إلا على العلم أولاً . قال تعالى {ولَقَد آتينا داوود وسلَيمانَ علْما وقَالَا الْحمد لله الذي فَضلَنا علَى كَثيرٍ من عباده الْمؤمنِين} [4] . وقال تعالى عن داود عليه السلام {وعلمناه صنعةَ لَبوسٍ لكُم لتحصنكُم من بأسكُم فَهلْ أنتم شاكرونَ} [5] . وأخبر تعالى أن سليمان عليه السلام قال {يا أيها الناس علمنا منطق الطيرِ وأُوتينا من كُل شيءٍ إن هذَا لَهو الْفَضلُ الْمبِين} [6] . وأول ما نزل على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم {اقْرأْ بِاسمِ ربك الذي خلَق ـ خلَق الْإنسانَ من

---

(1) سورة محمد / 7 .

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (26 / 428) .

(3) سورة محمد / 19 .

(4) سورة النمل / 15 .

(5) سورة الأنبياء / 80 .

(6) سورة النمل / 16 .

علَقٍ ـ اقْرأْ وربك الْأَكْرم ـ الذي علم بِالْقَلَمِ ـ علم الْإِنسانَ ما لَم يعلَم} [1] . فإن الجهل ـ لا سيما بعلوم الشرع ـ يؤدي إلى اعتقادات فاسدة وعبادات باطلة وتصورات منحرفة للكون والحياة . قال عليه الصلاة والسلام (ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال) [2] .
وتأمل معي ـ رحمك الله ـ هذه المزاوجة العجيبة بين إرسال الرسل وإنزال الحديد في قوله تعالى {لَقَد أَرسلْنا رسلَنا بِالْبينات وأَنزلْنا معهم الْكتاب والْميزانَ ليقُوم الناس بِالْقسط وأَنزلْنا الْحديد فيه بأْس شديد ومنافع للناسِ وليعلَم الله من ينصره ورسلَه بِالْغيبِ إِن الله قَوِي عزِيز} [3] . فكأن الله تعالى يخبرنا بأنه لا يمكن أن يكون هناك تمكين للرسالات ولا تحكيم لما أنزل الله ولا إقامة للعدل إلا بقوة تعمل بذلك كله ، ولا شك أن الحديد هو أبرز مظاهر هذه القوة ، فإذا لم يتقن المسلمون كل ما يتعلق بالحديد من صناعات واستخدامات فهل يمكن أن يمكّن للدين وأن يبسط العدل وأن يعم حكم الكتاب على الجميع " وجمع (الرسل) هنا لإفادة أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وأن مكابرة المنافقين عماية عن سنة الله في خلقه ، فتأكيد ذلك مبني على تـ يل السامعين مـ لة من ينكر أن الله أرسل رسلا قبل محمد صلى الله عليه وسلم لأن حالهم في التعجب من دعواه الرسالة كحال من ينكر أن الله أرسل رسلا من قبل . وقد تكرر مثل هذا في مواضع من القرآن كقوله تعالى{قُلْ قَد جاءكُم رسلٌ من قَبلي بِالْبينات} [4] والبينات : الحجج الدالة على أن ما يدعون إليه هو مراد الله والمعجزات داخلة في البينات. وتعريف (الكتاب) تعريف الجنس أي وأنزلنا معهم كتبا أي مثل القرآن وإنزال الكتاب : تبليغ بواسطة الملك من السماء وإنزال الميزان : تبليغ الأمر بالعدل بين الناس . والميزان : مستعار للعدل بين الناس في إعطاء حقوقهم لأن مما يقتضيه الميزان وجود

---

(1) سورة العلق / 1 ـ 5 .
(2) أخرجه أبو داود (1 / 145) رقم الحديث 336 . وأحمد في مسنده (1 / 330) رقم 3057 ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 285) رقم 630 وحسنه الألباني وشعيب الأرناؤوط ، وقال عنه الذهبي: على شرطهما .
(3) سورة الحديد / 25 .
(4) سورة آل عمران / 183 .

طرفين يراد معرفة تكافئهما قال تعالى{وإِذَا حكَمتم بين الناسِ أَن تحكُمواْ بِالْعدلِ} [1] . وهذا الميزان تبينه كتب الرسل فذكره بخصوصه للاهتمام بأمره لأنه وسيلة انتظام أمور البشر كقوله تعالى {إِنا أَنزلْنا إِلَيك الْكتاب بِالْحق لتحكُم بين الناسِ بِما أَراك اللّه} [2] . وليس المراد أن الله ألهمهم وضع آلات الوزن لأن هذا ليس من المهم وهو مما يشمله معنى العدل فلا حاجة إلى التنبيه عليه بخصوصه . ويتعلق قوله (ليقوم الناس بالقسط) بقوله (وأنزلنا معهم) والقيام : مجاز في صلاح الأحوال واستقامتها لأنه سبب لتيسير العمل . والقسط : العدل في جميع الأمور فهو أعم من الميزان المذكور لاختصاصه بالعدل بين متنازعين ، وأما القسط فهو إجراء أمور الناس على ما يقتضيه الحق فهو عدل عام بحيث يقدر صاحب الحق منازعا لمن قد احتوى على حقه والباء للملابسة أي يكون أمر الناس ملابسا للعدل ومماشيا للحق . وإنزال الحديد : مستعار لخلق معدنه كقوله {وأَنزلَ لَكُم من الْأَنعامِ ثَمانِيةَ أَزواجٍ} [3] أي خلق لأجلكم وذلك بإلهام البشر استعماله في السلاح من سيوف ودروع ونحوه . ويجوز أن يراد بالحديد خصوص السلاح المتخذ منه من سيوف وأسنة ونبال فيكون إنزاله مستعارا لمجرد إلهام صنعه . والبأس : الضر والمراد بأس القتل والجرح بآلات الحديد من سيوف ورماح ونبال وبأس جرأة الناس على إيصال الضر بالغير بواسطة الواقيات المتخذة من الحديد . والمنافع : منافع الغالب بالحديد من غنائم وأسرى وفتح بلاد ، ويتعلق قوله (للناس) بكل من (بأس) و (منافع) على طريقة التنازع أي فيه بأس لناس ومنافع لآخرين فإن مصائب قوم عند قوم فوائد . والمقصود من هذا لفت أبصار السامعين إلى الاعتبار بحكمة الله تعالى من خلق الحديد وإلهام صنعه والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس إنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق ويوضع نفعه حيث يليق به لا لتجعل منافعه لمن لا يستحقها مثل قطاع الطريق والثوار على أهل العدل ولتجهيز الجيوش لحماية الأوطان من أهل العدوان وللادخار في البيوت لدفع الضاريات والعاديات على الحرم والأموال وقد أومأ إلى هذا المعنى في قوله (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي ليظهر

---

(1) سورة النساء / 58 .

(2) سورة النساء / 105 .

(3) سورة الزمر/ 6 .

للناس أثر علم الله بمن ينصره فأطلق فعل (ليعلم) على معنى ظهور أثر العلم . ونصر الناس الله هو نصر دينه وأما الله فغني عن النصر وعطف (ورسله) أي من ينصر القائمين بدينه ويدخل في نصر شرائع الرسول صلى الله عليه وسلم بعده ونصر ولاة أمور المسلمين القائمين بالحق .
وأعظم رجل نصر دين الله بعد وفاة رسوله صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتاله أهل الردة .
وقوله (بالغيب) يتعلق بـ (ينصره) أي ينصره نصرا يدفعه إليه داعي نفسه دون خشية داع يدعوه إليه أو رقيب يرقب صنيعه والمعنى : أنه يجاهد في سبيل الله والدفاع عن الدين بمحض الإخلاص . وجملة (إن الله قوي عزيز) تعليل لجملة (أرسلنا رسلنا بالبينات) إلى آخرها أي لأن الله قوي عزيز في شؤونه القدسية فكذلك يجب أن تكون رسله أقوياء أعزة وأن تكون كتبه معظمة موقرة وإنما يحصل ذلك في هذا العالم المنوطة أحداثه بالأسباب المعولة بأن ينصره الرسل وأقوام مخلصون لله ويعينوا على نشر دينه وشرائعه " [1] .
3 ـ الركون إلى الدنيا .
فإن الركون إلى الدنيا بلاء عظيم وشر مستطير يؤخر النصر ويعطل مسيرة الجهـاد ويصـيب العاملين للإسلام بالتثاقل كما وصفهم الله عز وجل في القرآن الكريم إذ يقول تعالى {يا أيهـا الذين آمنواْ ما لَكُم إِذَا قيلَ لَكُم انفرواْ في سبِيلِ اللّه اثاقَلْتم إِلَى الأَرضِ أَرضيتم بِالْحياة الـدنيا من الآخرة فَما متاع الْحياة الدنيا في الآخرة إلا قَليلٌ} [2] . " هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ فقـال تعالى (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله) أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله (اثاقلتم إلى الأرض) أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) أي مالكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ؟ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ورغّب في الآخرة فقال (فما متاع الحياة الدنيا في الآخـرة إلا

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير (27 / 314 ـ 316) .
(2) سورة التوبة / 38 .

قليل) " [1] . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية " فيه مسألتان : الأولى : قوله تعالى (ما لكم) ما استفهام معناه التقرير والتوبيخ والتقدير : أي شيء يمنعكم عن كذا كما تقول مالـك عـن فلان معرضا، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، والنفْر هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث . الثانية : قوله تعالى (إثاقلتم إلى الأرض) قال المفسرون : معناه اثاقلتم إلى نعيم الأرض أو إلى الإقامة بالأرض وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج وكانت تبوك ودعاء الناس إليها في حرارة القيظ وطيب الثمار وبرد الظلال فاستولى على الناس الكسل فتقاعدوا وتثاقلوا فوبخهم الله بقوله هذا وعاب عليهم الإيثار للـدنيا علـى الآخرة ومعنى (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) أي بدلا. والتقدير أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة ، فعاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصب الدنيا " [2] .

فـ (حب الدنيا رأس كل خطيئة) [3] ، ومن أعظم الخطايا ترك الجهاد لأن عظم الخطيئة من عظم أثرها ولا يخفى ما لترك الجهاد من أثر عظيم على الأمة إذ يصيبها بالذلة والهوان ويمكن منها أحفاد القردة والخنازير ، لذا فقد كان التحذير الشديد من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى خطورة الركون إلى الدنيا والاغترار بنعيمها وزهر ا والافتتان بزخارفها وزينتها ، فيقول (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها و لككم كما أهلكتهم) [4] وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إذا تبايعتم بالعينة ـ بالكسر السلف ـ وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ي عه حتى ترجعوا

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 358 ـ 359) .

(2) انظر : تفسير القرطبي (8 / 140) .

(3) انظر : حلية الأولياء (6 / 388) .

(4) أخرجه البخاري (4 / 1473) رقم الحديث 3791 ، وأخرجه مسلم (4 / 2273) رقم الحديث 2961 .

إلى دينكم) [1] . وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال (بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن) فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال (حب الدنيا وكراهية الموت) [2]. ولا أجد ما أعلق به على هذه الأحاديث الصحيحة إلا القول بأن الواقع الذي يعيشه المسلمون الآن يشهد بصدق كل كلمة قالها المعصوم عليه الصلاة والسلام . والذي يقرأ السيرة بتدبر ليجد فيها نماذج متعددة على الأثر الخطير للركون إلى الدنيا والميل إليها ؛ من تأخير للنصر وتعطيل للتمكين ، وما موقف الرماة في غزوة أحد منا ببعيد . ويكفي أن نعلم بأن صدر سورة الأنفال إنما نزل لعلاج هذا الأمر الخطير فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سألت عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء يقول على السواء [3] .

لذلك فإن القرآن الكريم لم يترك أسلوباً من الأساليب إلا واستعمله في تقبيح هذه الرزية الكبيرة وهي الركون إلى الدنيا . وأطلق على المتشبثين بها المتعلقين بفتنتها أوصافاً منفرة تجعل المسلم العاقل يأبى أن تطلق عليه واحدة من هذه الأوصاف ، فمرة يطلق عليهم القرآن الكريم ـ المبطئين ـ قال تعالى {وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبةٌ قالَ قد أنعم اللّه علي إذْ لم أكُن معهم شهيدا} [4] . وتارة يطلق عليهم ـ المعوقين ـ قال تعالى {قد يعلم الله الْمعوقين منكُم والْقائلين لإخوانِهم هلُم إلينا ولا يأتونَ الْبأس إلا قليلًا ـ أشحةً عليكُم فإذَا جاء الْخوف رأيتهم ينظُرونَ إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الْموت فإذَا ذَهب الْخوف سلَقُوكُم بِألْسِنة حداد أشحةً على الْخيرِ أُولَئك لم يؤمنوا فأحبطَ الله أعمالَهم وكانَ ذَلك على الله يسِيرا

(1) أخرجه أبو داود (2 / 296) رقم الحديث 3462 . قال عنه الألباني : صحيح .
(2) أخرجه أبو داود (2 / 514) رقم الحديث 4297 . قال عنه الألباني : صحيح .
(3) أخرجه أحمد (5 / 322) رقم الحديث 22799 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : حسن لغيره .
(4) سورة النساء / 72 .

ـ يحسبونَ الْأحزاب لَم يذْهبوا وإِن يأْت الْأحزاب يودوا لَو أَنهم بادونَ في الْأعرابِ يســأَلُونَ عن أَنبائكُم ولَو كَانوا فيكُم ما قَاتلُوا إِلا قَليلًا} [1] . وتارة يطلق عليهم ـ القاعدين ـ قــال تعالى {لا يستوِي الْقَاعدونَ من الْمؤمنِين غَير أُولي الضررِ والْمجاهدونَ في سبِيلِ اللَّه بِأَموالهِم وأَنفُسِهِم فَضلَ اللَّه الْمجاهدين بِأَموالهِم وأَنفُسِهِم علَى الْقَاعدين درجةً وكُلا وعد اللَّه الْحسنى وفَضلَ اللَّه الْمجاهدين علَى الْقَاعدين أَجرا عظيما} [2] . وتارة يطلق عليهم ـ الكــاذبين ـ قال تعالى {عفَا اللَّه عنك لم أَذنت لَهم حتى يتبين لَك الذين صدقُواْ وتعلَم الْكَــاذبِين} [3] .

ولعظم هذا الذنب كما ذُكر سابقاً فإن القرآن يبدأ ويعيد في التحذير منه حتى يتوجــه بــه إلى الرسول الأكرم ﷺ فيقول تعالى {ولَا تمدن عينيك إِلَى ما متعنا بِه أَزواجا منهم زهرةَ الْحيــاة الدنيا لنفْتنهم فيه ورِزق ربك خير وأَبقَى} [4] . ومعنى الآية " لا تجعل يا محمد لزهرة الــدنيا وزناً فإنه لا بقاء لها (ولا تمدن) أبلغ من لا تنظرن لأن الذي يمد بصره إنما يحمله على ذلــك حرص مقترن والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه . والآية متناسقة مع ما قبلها وذلــك أن الله تعالى وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأ م والصبر على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزي . ثم سلاه فقال (ورزق ربك خير وأبقى) أي ثواب الله على الصــبر وقلــة المبالاة بالدنيا أولى ، لأنه يبقى والدنيا تفنى . وقيل يعني ذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم " [5] .

4 ـ موالاة بعض المسلمين لأعداء الله من اليهود والنصارى ومن شاكلهم . فإن البعض ممن في قلبه مرض إذا رأى قلة المسلمين وقلة عد م وكثرة الكافرين وكثرة عد م انخلع قلبه ورجــف فؤاده خوفاً وهلعاً فتراه يسارع إلى موالاة هؤلاء الكفرة ظناً منه بأن ذلك سيحول بينه وبــين

---

(1) سورة الأحزاب / 18 ـ 20 .
(2) سورة النساء / 95 .
(3) سورة التوبة / 43 .
(4) سورة طه / 131 .
(5) انظر : تفسير القرطبي (11/ 262 ـ 263) .

الوقوع في مهاوي الردى ولم يدر هذا البائس أنه إنما يقع في مستنقع الخيانة ويتردى في وحـل النفاق . قال تعالى {يا أيها الذين آمنواْ لاَ تتخذُواْ الْيهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعضٍ ومن يتولهم منكُم فَإنه منهم إن اللّه لاَ يهدي الْقَوم الظالمين ـ فَترى الذين في قُلُوبِهم مـرض يسارِعونَ فيهم يقُولُونَ نخشى أن تصيبنا دآئرةٌ فَعسى اللّه أن يأتي بِالْفَتحِ أَو أمرٍ مـن عنـده فَيصبِحواْ علَى ما أسرواْ في أنفُسِهم نادمين}[1] . حيث " ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ثم أخبر أن بعضـهم أوليـاء بعض ثم هدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) الآية . وعن عياض أن عمر رضي الله عنه أمر أبا موسى الأشعري رضي الله عنه أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك فعجب عمر وقال إن هذا لحفيظ هل أنـت قارئ لنا كتابا في المسجد جاء من الشام فقال إنه لا يستطيع فقال عمر أجنب هو قال لا بـل نصراني قال فانتهرني وضرب فخذي ثم قال أخرجوه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا لا تتخـذوا اليهود والنصارى أولياء) الآية . قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحـدكم أن يكـون يهوديـا أو نصرانيا وهو لا يشعر ، قال فظنناه يريد هذه الآية (يا أيها الذين آمنـوا لا تتخـذوا اليهـود والنصارى أولياء) الآية . وقوله تعالى (فترى الذين في قلوبهم مرض) أي شك وريب ونفاق (يسارعون فيهم) أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر (يقولـون نخشـى أن تصيبنا دائرة) أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفـر الكـافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك عند ذلك . قـال الله تعـالى (فعسى الله أن يأتي بالفتح) يعني فتح مكة وقيل يعني القضاء والفصل (أو أمر من عنده) يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى (فيصبحوا) يعني الذين والوا اليهـود والنصـارى مـن المنافقين (على ما أسروا في أنفسهم) من الموالاة (نادمين) أي على ما كان منهم مما لم يجـد عنهم شيئا ولا دفع عنهم محذورا بل كان عين المفسدة فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم فلما انعقدت الأسباب الفاضـحة

---

(1) سورة المائدة / 51 ـ 52 .

لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أ م من المؤمنين ويحلفـون على ذلك ويتأولون فبان كذ م وافتراؤهم ولهذا قال تعالى (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الـذين أقسموا بالله جهد أيما م إ م لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) " [1] .

✺ الأسباب الخارجية :

أما بالنسبة للأسباب الخارجية فإننا نرى أن الجاهلية كلها قد وقفت في وجـه الـدعوة الإسلامية بكل رجالها وأسلحتها وعادا ا ، لكن الدعوة مضت تشق طريقها ، ولم تتوقف أبداً مع شدة المقاومة وعنف الإفساد وإجرام الوسيلة ، وهول المكر والكيد . ولقد استخدم الكفـر كل طاقاته وعبقرية رجاله ومكر دهاته ومال أغنيائه وقوة شبابه ، ولكن ماذا يغني كل ذلـك أمام قوة الله رب العالمين الذي تكفل بنصرة دينه والتمكين لأهله {واللّه غَالب علَى أَمرِه ولَكن أَكْثَر الناسِ لاَ يعلَمونَ}[2]. فمنذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها الإسلام عن وجوده وهو يتعرض لمؤامرات من قبل أعدائه لا دأ ولا تتوقف . والكلام عن المكايد والمؤامرات التي تعـرض لهـا الإسلام يطول ، فتاريخ الإسلام حافل بالمواجهات بينه وبين أعدائه المتآمرين عليه ، وفي كـل مرة كان الإسلام يخرج منتصراً شامخاً . فمكايد أعداء الإسلام لا يمكن أن ينكر وجودهـا أو تأثيرها على مسيرة العمل للإسلام ، كما لا يجوز أيضاً أن نجعل منها مشجباً نعلق عليه أخطاءنا وتقصيرنا . وفي هذا المعنى قيل أن " هناك من يهولون من أمر القوى الخارجية وتأثيرها ، بحيث نبدو وكأننا لا اختيار لنا قط . وهناك من يقولون : ليس هناك تأثير لأي قوة خارجية ، ونحـن الذين نصنع مصيرنا بأيدينا . والواقع أن هناك فعلاً تأثيرات خارجية تؤثر بقوة على كثير مـن أمورنا تضغط علينا أحياناً ضغوطاً علنية وأحياناً خفية " [3]. " إن الذي يراجع ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين من خلال سورة البقرة وآل عمران والنسـاء والمائدة .. وغيرها ، يطلع على المدى الواسع المتطاول الذي أداروا فيه المعركة مع هذا الدين في عناد لئيم. والذي يراجع التاريخ بعد ذلك منذ اليوم الذي استعلى فيه الإسلام بالمدينة ، وقامت

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (2/ 69) .

(2) سورة يوسف / 21 .

(3) انظر : لقاءات ومحاورات للدكتور يوسف القرضاوي / 13 .

له دولة إلى اللحظة الحاضرة ، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من هذا الوجود . ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحـديث مـن ألـوان الحرب والكيد أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية وهي في هذه الفترة بالذات تعـالج إزالة هذا الدين بجملته ، وتحسب أ ا تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة ؛ لذلك تسـتخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها ، بالإضافة إلى ما استحدثته جملة واحـدة " [1] . وهذا تصديق قوله تعالى {ود كَثِير من أَهلِ الْكتابِ لَو يردونكُم من بعد إِيمانِكُم كُفـاراً حسدا من عند أَنفُسِهِم من بعد ما تبين لَهم الْحق}[2]. وقوله تعالى {ولاَ يزالُـونَ يقَـاتلُونكُم حتى يردوكُم عن دينِكُم إِن استطَاعواْ }[3] . ومناوئة أعداء الله من اليهود والنصارى للإسلام وأهله هي أعظم هذه العوائق ، وهذه المناوئة تتخذ صوراً عدة من أشهرها :

1/ مكايد اليهود العالمية .

تعتبر مكايد اليهود العالمية من أخطر العوائق الخارجية التي تعترض مسيرة النصر . ذلك أن اليهود من أشد الناس عداوة وبغضاً للإسلام والمسلمين وذلك بشهادة الله سبحانه وتعالى حيث قال{لَتجِدن أَشد الناسِ عداوةً للَّذين آمنواْ الْيهود والَّذين أَشركُواْ}[4] فهم يحاربون الإسلام وأهله أشد الحرب ويرصدون لهذه الحرب كل الإمكانيات ويوظفون لها كل الطاقات ويستخدمون فيها كل الوسائل . ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن اليهود ، وشرح نفسيا م الشريرة . وليس مصادفة أن يفصل القرآن الكريم هذا . فإن تاريخ أمة من الأمم لم يشهد ما شهد تاريخ بني إسرائيل من قسوة وجحود وتنكر للهداة ؛ فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم . وقد كفروا أشنع الكفر واعتدوا أشنع الاعتداء ، وعصوا أبشع معصية . وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل [5] . ولذلك قدم الله تعالى

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (3 / 1378) عند تفسير آية 157 من سورة الأعراف .

(2) سورة البقرة / 109 .

(3) سورة البقرة / 217 .

(4) سورة المائدة / 82 .

(5) انظر : معركتنا مع اليهود لسيد قطب / 27 .

اليهود في عداو م للمسلمين على غيرهم " وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ، ومباهتة للحق ، وغمط للناس ، وتنقص لحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء ، حتى همّوا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وسموه وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة " [1] " ومذهب اليهود أنه يجب إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان ، فإن قدروا على القتل فذاك وإلا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من المكر والكيد والحيلة " [2] " وقدم الله تعالى عداوة اليهود على غيرهم وجعلها أشد وأقوى ، وذلك لأ م قد مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم وعلى العتو والمعاصي ، واستشعارهم اللعنة وضرب الذلة والمسنة ؛ فتحررت عداو م وكيدهم وحسدهم وخبثهم . وفي وصف الله تعالى إياهم بأ م أشد عداوة ، إشعار بصعوبة إجابتهم إلى الخلق ، ولذلك قل إسلام يهود " [3] . واليهود هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها .. لقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول . فهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة وأمدوهم بوسائل الكيد للإسلام والمسلمين .. وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة .. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم ، كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة ، وحول القيادة . وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة . فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها ؟ وما طبيعتهم ؟ وما تاريخهم ؟ وما وسائلهم ؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم ؟ . ولقد علم الله تعالى أ م سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله ، كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله؛ فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً ، ووسائلهم كلها مكشوفة [4] . ومع أن الإسلام قد وسع اليهود بعدما ضاقت م الملل والمحن على مدار التاريخ ، إلا أ م ردوا للإسلام

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 86) .

(2) انظر : التفسير الكبير للرازي (12 / 56) .

(3) انظر : البحر المحيط لأبي حيان (4 / 4) .

(4) انظر : في ظلال القرآن (2 / 868) عند تفسير آية 19 ـ 25 من سورة المائدة .

جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول ، فألبوا على الدولة الإسلامية الناشئة كل قوى الجزيرة العربية المشركة وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة {ويقُولُونَ للذين كَفَرواْ هؤلاء أهدى من الذين آمنواْ سبِيلاً}(1) . ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه ، ولم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل سبحانه بحفظه . ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين ، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فقه من مسلمة الأقطار . ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض حتى انتهى م المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض ، وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة ، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون البطال ، ويشنو ا حرباً صهيونية صليبية على كل جذر من جذور هذا الدين (2) . ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمداً وأعرض مجالاً من تلك التي شنها عليه غيرهم من أعداء الإسلام . فإذا سمعنا الله سبحانه يقول {لَتجِدن أشد الناسِ عداوةً للذين آمنواْ الْيهود والذين أشركُواْ}(3) . ويقدم اليهود على الذين أشركوا ، ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي فإننا ندرك طرفاً من حكمة الله تعالى في تقديم اليهود على الذين أشركوا . إ م هذه الجبِلة النكدة الشريرة التي ينغل الحقد في صدورها على الإسلام وبني الإسلام ، فيحذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأهل دينه منها .. ولم يغلب هذه الجبِلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم كانوا أهله ، ولن يخلّص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه (4) .

2/ مكايد الصليبية العالمية .

---

(1) سورة النساء / 51 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (2 / 960 ـ 961) .

(3) سورة المائدة / 82 .

(4) انظر : في ظلال القرآن (2 / 961 ـ 962) .

ويمثل الصليبية الغرب النصراني وسائر الكنائس المنتشرة في أرجاء العالم على اختلاف مذاهبها. " وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام المدينة في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة . فإن هذا الواقع قد حفظ ذلك للنصارى الصليبيين أ م اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ وقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم " [1] . ولقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان ، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس ، ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في أفريقيا أولاً ، ثم في العالم كله أخيراً . ولقد استخدم الصليبيون كل الوسائل في تحقيق أهدافهم في القضاء على الإسلام والمسلمين من غزو عسكري إلى حملات تبشيرية . ولم ينته القرن التاسع عشر الميلادي إلا وكانوا قد احتلوا كل الأرض الإسلامية تقريباً ، عدا تركيا وبعض أجزاء من الجزيرة العربية [2]. وكان الدافع الأول والأساسي لهم في حملا م الإجرامية هم حقدهم الدائم على الإسلام والمسلمين .. وقد أوضح الله تعالى هذا الدافع في أكثر من آية . قال تعالى {ود كَثِير من أَهلِ الْكتابِ لَو يردونكُم من بعد إِيمانِكُم كُفاراً حسدا من عند أَنفُسِهِم من بعد ما تبين لَهم الْحق}[3] . وقال سبحانه {ولَن ترضى عنك الْيهود ولاَ النصارى حتى تتبِع ملتهم}[4] . وقال جلّ شأنه {ولاَ يزالُونَ يقَاتلُونكُم حتى يردوكُم عن دينِكُم إِن استطَاعواْ}[5] .

هذا ولقد ظلت اليهودية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام ـ على كل ما بينهما من أحقاد ـ ولكنهم كانوا في حر م للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير {والذين

---

(1) انظر : المرجع السابق (2 / 966) عند تفسير آية 82 سورة المائدة .

(2) انظر : واقعنا المعاصر لمحمد قطب / 190 .

(3) سورة البقرة / 109 .

(4) سورة البقرة / 120 .

(5) سورة البقرة / 217 .

كَفَرواْ بعضهم أولياء بعضٍ}[1] ولا فرق بين الصهيونية والصليبية ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام والحقد عليه والحرب الذاتية التي لا تفتر على امتداد الزمان[2].

3/ الغزو الفكري . يقصد بالغزو الفكري : الوسائل غير العسكرية التي يتخذها أعداء الإسلام لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية ، وصرف المسلمين عن التمسك بإسلامهم [3] . لقد بين الله سبحانه في القرآن الكريم قاعدة مهمة حددت الصراع الأبدي بين الحق والباطل ، والخير والشر حتى تقوم الساعة ، فقال تعالى {ولاَ يزالُونَ يقَاتلُونكُم حتى يردوكُم عن دينِكُم إِن استطَاعواْ}[4]. والغزو الفكري : سلاح من أخطر الأسلحة التي يواجه ا أعداء الإسلام الأمة الإسلامية لطمس هويتها وخلعها من جذورها وإبعادها عن دينها .. وقد بين سبحانه أن الغزو الفكري أشد فتكاً من السيف فقال تعالى {والْفتنةُ أَكْبر من الْقَتلِ}[5]. فمع إشراق نور الإسلام الإسلام كانت المواجهات المسلحة بينه وبين أعدائه ، وما كان ينطفئ لهيبها إلا ليشتعل من جديد . وفي كل مرة كان يتجرع فيها أعداء الإسلام مرارة الهزيمة ، كانوا يتساءلون عن سر قوة المسلمين وسبب انتصارا م ، فأدركوا أن العقيدة الإسلامية هي سر قوة المسلمين ، وأن المسلمين لم ينتصروا إلا حينما تمسكوا بالإسلام ، ولم ينهزموا إلا حينما تخلّوا عنه .. كما وقر في قلو م أن مواجهة المسلمين بالقوة لا فائدة منها فقد جربوها مرات عديدة فلم تفلح ، بل كانوا دائماً هم الخاسرون . فما عليهم إلا أن يبحثوا عن سلاح آخر يواجهون به المسلمين ، فوجدوا أن أمضى سلاح يمكن أن يقوم ذا الدور الخطير هو سلاح الغزو الفكري . وهكذا تحولوا من الغزو العسكري إلى الغزو الفكري واستبدلوا المدفع بالقلم ، والجيوش الجرارة بالمبشرين والمستشرقين ، وكان سلاحهم في هذا الغزو : الفكرة والكلمة والرأي والحيلة والنظريات والشبهات وخلابة المنطق وبراعة العرض وشدة الجدل ولدادة الخصومة وتحريف

---

(1) سورة الأنفال / 73 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (2 / 966) . عند تفسير قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة) .

(3) انظر : واقعنا المعاصر لمحمد قطب / 165 .

(4) سورة البقرة / 217 .

(5) سورة البقرة / 217 .

الكلم عن مواضعه ، وذلك لتأخذ المعركة وجهة أخرى غير الوجهة العسكرية ، وليتم تصفية الإسلام بتؤدة وأناة بلا جلبة ولا ضوضاء . وهكذا يتبين لنا أن أعداء الأمة الإسلامية من اليهود والنصارى وغيرهم لم يكونوا يحاربو ا في الميدان بالسيف والرمح فحسب ، إنما كانوا يحاربو ا أولاً في عقيد ا .. كانوا يحاربو ا بالدس والتشكيك وبنشر الشبهات وتدبير المؤامرات ..كانوا يعمدون أولاً إلى عقيد ا الإيمانية التي منها انبثق كيا ا ومنها قام وجودها ، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين ذلك أ م كانوا يدركون ـ كما يدركون اليوم ـ تماماً أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ، ولا ن إلا إذا وهنت عقيد ا ، ولا زم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي متمسكة بعروة الإيمان مرتكنة إلى ركنه وسائرة على جه حاملة لرايته منتسبة إليه حق الانتساب ، معتزة ذا النسب وحده [1] .

وعلى الأمة الإسلامية أن تدرك أن المعركة بينها وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات ، فإ م يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة لأ م علموا ـ بالتجارب الطويلة ـ أ م لا يبلغون مما يريدون شيئاً ، والأمة الإسلامية مستمسكة بعقيد ا ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها ، ومن ثمّ يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهداً جباراً في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال ، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور . وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها والتوهين من عراها ؛ استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة {ودت طَآئِفَةٌ من أَهلِ الْكتابِ لَو يضلونكُم}[2] [3] .

وقد بين القرآن الكريم أن اليهود والنصارى سيظلون يحاربون الإسلام والمسلمين ويكيدون لهم ولا يسالمو م ولا يرضون عنهم إلا أن يجحدوا عن دينهم ويتركوا حقهم . قال

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (1 / 354) عند مقدمته لتفسير سورة آل عمران .

(2) سورة آل عمران / 69 .

(3) انظر : في ظلال القرآن (1 / 354) .

تعالى {ولَن ترضى عنك الْيهود ولاَ النصارى حتى تتبع ملتهم }[1] . ولكن مع كل هذا الكيد ، وكل هذا المكر فإن الإسلام صامد قوي ، ومهما تدافعت معاولهم فإ ا ستتحطم ، ومهما اندفعت سهامهم فإ ا سترتد إلى صدورهم ، فالإسلام هو كلمة الله تعالى التي لا تستطيع أن تقف في وجهه كل هذه المحاولات والمؤامرات . ولقد تكفل الله سبحانه بحفظه وصونه ، فقطع بذلك على الكافرين كل أمل في محاولة النيل منه ، وأخبر عز وجل عن ذلك فقال {الْيوم يئس الذين كَفَرواْ من دينِكُم}[2] . أي " يئسوا أن يبطلوه أو ينقصوه أو يحرفوه. وقد كتب الله له الكمال وسجل له البقاء ، وقد يغلبون على المسلمين في موقعة أو فترة ، ولكنهم لا يغلبون على هذا الدين ، فهو وحده الدين الذي يبقى محفوظاً ، لا يناله الدثور ولا يناله التحريف ، على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه ، وعلى شدة ما كادوا له [3] . قال تعالى {ويمكُرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الْماكرِين}[4]وقال تعالى {يرِيدونَ أَن يطْفؤواْ نور اللّه بِأَفْواههم ويأْبى اللّه إِلا أَن يتم نوره ولَو كَره الْكَافرونَ}[5]. {وقَد مكَر الذين من قَبلهم فَللّه الْمكْر جميعا يعلَم ما تكْسِب كُل نفْسٍ وسيعلَم الْكُفار لمن عقْبى الدارِ} [6] .

---

(1) سورة البقرة / 120 .

(2) سورة المائدة / 3 .

(3) انظر : في ظلال القرآن (2 / 841 ـ 842) .

(4) سورة الأنفال / 30 .

(5) سورة التوبة / 32 .

(6) سورة الرعد / 42 .

❋ **مبشرات في طريق النصر .**

المبشرات : هي الأمور السارة التي تبشر بالخير وتدل عليه ، قال صلى الله عليه وسلم (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) [1] ولذلك سميت الرياح بالمبشرات . كما جاء في لسان العرب : المبشرات الرياح التي ب بالسحاب وتبشر بالغيث [2] قال تعالى {ومن آياته أن يرسلَ الرياح مبشرات}[3]. والمقصود بالمبشرات أمرين :

الأول : ما وعد الله تعالى وبشر به في القرآن الكريم . وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة .

الثاني : الظواهر والإرهاصات الموجودة حالياً ، والتي تبشر بقرب وقوع النصر والتمكين للأمة الإسلامية . والمتدبر للقرآن الكريم يدرك أنه يبث روح البشرى والأمل في حياة الأمة الإسلامية . وهو فياض ذا المعنى في كثير من سوره وآياته .

وتبشير المؤمنين هدف أساسي من أهداف هذا الكتاب العظيم قال تعالى {ونزلْنا علَيك الْكتاب تبيانا لكُل شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى للْمسلمين}[4]. وقال سبحانه {طس تلْك آيات الْقُرآن وكتابٍ مبِينٍ ـ هدى وبشرى للْمؤمنِين}[5] " أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به وتبعه وصدقه وعمل بما فيه كقوله تعالى {لتبشر بِه الْمتقين وتنذر بِه قَوما لدا}[6] " [7] . وبشارة المؤمنين تحصل في الدنيا والآخرة كما صرح بذلك القرآن الكريم قال

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (6 / 2564) رقم 6589 .

(2) انظر : لسان العرب (4 / 62) .

(3) سورة الروم / 46 .

(4) سورة النحل / 89 .

(5) سورة النمل / 1 ـ 2 .

(6) سورة مريم / 97 .

(7) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 357) .

تعالى {الذين آمنواْ وكَانواْ يتقُونَ ـ لَهم الْبشرى في الْحياة الدنيا وفي الآخرة لاَ تبديلَ لكَلمات اللّه ذَلك هو الْفَوز الْعظيم} }[1] . كما أن التبشير هدف أساسي من بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى {إِنا أَرسلْناك بِالْحق بشيرا ونذيرا }[2]. وقال سبحانه {وما أَرسلْناك إِلا مبشرا ونذيرا}[3] ، وقال عز وجل {يا أَيها النبِي إِنا أَرسلْناك شاهدا ومبشرا ونذيرا}[4]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال " لما نزلت هذه الآية ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن بعث إليهما؛ فقال (انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، فإنه قد نزل علي (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا)" [5] . ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على بث روح الأمل والاستبشار والتفاؤل في قلوب المؤمنين ، حتى في أشد لحظات الكرب ، وكان كثيراً ما يؤكد لهم أن الله تعالى سيظهر هذا الدين ، وسيعز أهله ، وسيورثهم الأرض ، ويمكن لهم فيها حتى صار هذا الأمر عقيدة راسخة في قلو م ، لا يمارون فيها ولا يشكون . وإن من أعظم الآفات خطراً على الأمة الإسلامية أن تسيطر عليهم روح اليأس والقنوط ، وأن تتملكهم مشاعر الهزيمة والاستسلام .. والحقيقة أن اليأس داء خبيث ما سار في جسد إلا أ كه ، وما تفشى في أمة إلا أهلكها وأتى عليها .

ولقد بلغ من خطورة اليأس أن الله تعالى قال في حقه على لسان نبيه يعقوب عليه السلام وأقره {ولاَ تيأَسواْ من روحِ اللّه إِنه لاَ ييأَس من روحِ اللّه إِلا الْقَوم الْكَافرونَ}[6]. وقال أيضاً على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام وأقره {ومن يقْنطُ من رحمة ربه إِلا الضآلّونَ} [7]. كما

---

(1) سورة يونس / 63 ـ 64 .
(2) سورة البقرة / 119 .
(3) سورة الفرقان / 56 .
(4) سورة الأحزاب / 45 .
(5) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 498) .
(6) سورة يوسف / 87 .
(7) سورة الحجر / 56 .

حذر النبي صلى الله عليه وسلم من إشاعة روح اليأس والقنوط في صفوف المسلمين فقال (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم) [1] . وقد ينظر الناظر إلى أحوال الأمة الإسلامية في وقتها الراهن فيدرك عظيم محنتها واشتداد كربتها ، فيتسلل اليأس إلى قلبه ، ويوسوس الشيطان في صدره ، لكنه إذا ما رجع إلى كتاب الله تعالى يتملّى آياته ، ويتدبر معانيه ، يدرك أن هذه الأزمة إلى زوال حسب سنة الله تعالى التي تقضي أن الكرب إذا اشتد هان ، وأن مع العسر يسرا كما قال سبحانه {فَإن مع الْعسرِ يسرا ـ إن مع الْعسرِ يسرا}[2] . ومن أهم تلك البشائر :

1/ النصر والتمكين وعد من الله لا يتخلف عن الأمة الإسلامية .

المتدبر للقرآن الكريم يجده حافلاً بالآيات الكريمة التي تعد الأمة الإسلامية بالنصر والتمكين والغلبة والعلو ، ويجد ذلك الوعد مؤكداً في صور كثيرة ، ولقد كانت آية واحدة كافية لإقرار هذه الحقيقة ولكن الله تعالى بحكمته أراد أن يملأ قلوب المؤمنين بالثقة والأمل حتى لا ينقطع م اليأس في محنة من المحن أو في مرحلة من مراحل الاستضعاف . والقرآن الكريم منذ أنواره الأولى في العهد المكي يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرجى ، ويبين لهم أن الفلك يتحرك ، والأحوال تتغير . فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد ينهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور . وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم ، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد ، فكل آت قريب . ففي سورة القمر على سبيل المثال نجد فيها قول الله تعالى تطميناً للمؤمنين وهم المستضعفون ، و ـديداً للمشركين وهم أولو القوة والشوكة والعدد والعدة {سيهزم الْجمع ويولونَ الدبر} [3] قال ابن كثير في تفسيره " لما نزلت هذه الآية الكريمة وسمعها وسمعها عمر بن الخطاب ﷺ قال متعجباً : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ فلما كان يوم بدر

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2024) رقم 2623 .
(2) سورة الشرح / 5 ـ 6 .
(3) سورة القمر / 45 .

رأى عمر رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فعرف عمر تأويلها يومئذ [1] .

والقارئ المتأمل لسيرة النبي ﷺ يدرك أنه كان شديد الثقة في وعد الله تعالى له ولأمته بالنصر والتمكين . ولقد كانت هذه الثقة ملازمة له ﷺ حتى في أحلك الظروف وأقسى المواقف . ولقد كان ﷺ في مبدأ دعوته في مكة يعرض الإسلام على القبائل ويطلب نصر م ، ويعدهم بوراثة ممالك كسرى وقيصر [2] . وكان ﷺ يغرس هذا اليقين في قلوب أصحابه ، ويؤكد هذه الحقيقة للناس أجمعين . فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق اثنين وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من لحم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) [3]. وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال في قصة إسلامه : قال لي رسول الله ﷺ (يا عدي بن حاتم . أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام . تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة ؟) قلت : لم أرها وقد سمعت ا . قال (فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، وليفتحن الله كنوز كسرى بن هرمز) قال : قلت : كنوز ابن هرمز ؟ ! قال (نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد) قال عدي : فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قالها [4] . وآيات الله التي تعد بالنصر والتمكين وتبشر به كثيرة جدا فمنها :

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 267) .

(2) انظر : الروض الأنف للسهيلي (2 / 180) .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1322) رقم 3416 .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1316) رقم 3400 وأخرجه أحمد في مسنده (4 / 257) رقم 18286 .

❁ قوله تعالى {ولَقَد كَتبنا في الزبورِ من بعد الذكْرِ أن الْأَرض يرِثُها عبادي الصالحونَ}[1].

❁ قوله تعالى {وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدوننِي لَا يشرِكُونَ بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هم الْفَاسقُونَ}[2] . قال الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله تعالى سراً وهم خائفون ولا يؤمرون بقتال ، ثم هاجروا إلى المدينة وأذن لهم في القتال ، فكانوا في المدينة خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلاً من الصحابة قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ (لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة) وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضع السلاح [3] . فهذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي أئمة الناس والولاة عليهم ، و م تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد و وليبدلنهم من بعد خوفهم ـ من الناس ـ أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ـ وله الحمد والمنة ـ فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ؛ قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم شعث ما وهى بعد موته ﷺ ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس والشام ومصر ، ففتح الله عليهم كثيراً من هذه البلاد ، وتوفى الله الصديق واختار له ما عنده من الكرامة .. ومن الله على أهل الإسلام بأنْ ألْهم الصديق أن يستخلف الفاروق عمر ، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله ، وفتح الله في أيامه البلاد الشامية

---

(1) سورة الأنبياء / 105 .

(2) سورة النور / 55 .

(3) انظر : أسباب الـ ول للواحدي / 188 .

بتمامها ، وديار مصر على آخرها وقهر فارس وكسر كسرى ، وأهانه غاية الإهانة ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما (كسرى وقيصر) في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة . ثم لما كان عهد عثمان بن عفان امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغار ا ، ففُتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس ، وقبرص وبلاد القيروان وغيرها مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقُتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ . ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغار ا ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها)[1] [2]. ولقد تحقق وعد الله تعالى للأمة الإسلامية مرة ، وظلّ متحققاً وواقعاً ما قام المسلمون على شرط الله ـ الإيمان والعمل الصالح والعبادة ـ ووعد الله تعالى مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة . إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين لتخلف شرط الله الذي شرطه على الأمة الإسلامية في جانب من جوانبه الفسيحة ، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة [3] .

❁ قوله تعالى {ولَقَد سبقَت كَلمتنا لعبادنا الْمرسلين ـ إِنهم لَهم الْمنصورونَ ـ وإِن جندنا لَهم الْغالبونَ}[4] " المراد بالكلمة هي قوله تعالى (إ م لهم المنصورون ـ وإن جندنا لهم الغالبون) وإنما سماها كلمة وهي كلمات ؛ لأ ا لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة . ثم قال : والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في الدنيا والآخرة " [5] .

---

(1) أخرجه مسلم (4 / 2215) رقم 2889 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 301 ـ 302) .

(3) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2529 ـ 2530) .

(4) سورة الصافات / 171 ـ 173 .

(5) انظر : تفسير النسفي (4 / 30) .

" إن الوعد قائم وكلمة الله قائمة ، ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . وكلمة الله تعالى لعباده المرسلين متحققة كذلك في كل دعوة يخلص فيها الجند ويتجرد لها الدعاة . إ ا غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق ، وقامت في طريقها العراقيل ، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يتخلف ، ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه .

الوعد بالنصر والغلبة والتمكين .. هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية كما تمضي الكواكب والنجوم في دورا ا المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ي ل عليها الماء ، ولكنها ـ أي كلمة الله ـ مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة ، ولكنها لا تتخلف أبداً .

وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر؛ لأ م يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين .

وقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله ، ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى ، فيكون ما يريده الله ، ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر ما كانوا ينتظرون " [1] .

❁ قوله تعالى {إنا لَننصر رسلَنا والذين آمنوا في الْحياة الدنيا ويوم يقُوم الْأشهاد}[2] " والأشهاد جمع شاهد وهم الأنبياء والحفظة " [3] (ويوم يقوم الأشهاد) أي يوم القيامة . ونصر الله لرسله والذين آمنوا في الآخرة أمر لا يجادل فيه أحد من المؤمنين . وأما النصر في الدنيا فقد

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (5 / 3001 ـ 3002) .

(2) سورة غافر / 51 .

(3) انظر : تفسير النسفي (4 / 77) .

يكون في حاجة إلى جلاء وبيان . وإن وعد الله قاطع (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذوباً مطروداً .. وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش في كربٍ وشدة واضطهاد . فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان للنفوس من هذا المدخل ويفعل بالقلوب الأفاعيل. ولكن الناس يعيشون ظواهر الأمور ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق مهمة. إن الناس يعيشون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان ، وهي مقاييس بشرية صغيرة .. فأما المقياس الشامل فإنه يعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ، ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا ا ال لرأيناها تنتصر من غير شك وانتصار قضية الاعتقاد انتصار لأصحا ا [1] .

❁ قوله تعالى {يريدونَ ليطْفؤوا نور الله بِأَفْواههم والله متم نورِه ولَو كَره الْكَافرونَ ـ هو الذي أَرسلَ رسولَه بِالْهدى ودينِ الْحق ليظْهِره علَى الدينِ كُله ولَو كَرِه الْمشرِكُونَ} [2] . "

لقد أتم الله نوره في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فقامت الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة .. صورة ذات معالم واضحة مرسومة لا نظرية في بطون الكتب ولكن حقيقة في عالم الواقع ، وأتم الله نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمه ، ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه ويجاهدون في سبيله ، ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والآخر ، وتنبض وتنتفض قائمة على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد ؛ فإن نور الله تعالى لا يمكن أن تطفئه الأفواه .

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين فكان من الحتم أن يكون (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ولقد تمت إرادة الله

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (5 / 3859) .

(2) سورة الصف / 8 ـ 9 .

فظهر هذا الدين على الدين كله ، ودانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان أو أقل ، ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية حتى دخل فيه بالدعوة ا ردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى ، وما يزال يمتد هذا الدين بنفسه على الرغم من كل من يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد ، وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها ظاهراً بإذن الله تعالى على الدين كله ؛ تحقيقاً لوعد الله الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل ، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل [1] .

هذا ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين والمخاطبين ا ، على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها وكانت تطميناً لقلو م وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده الله أن يظهر وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ر م ، وستظل في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة بإذن الله رب العالمين [2] . ومن خلال آيات الله المحكمة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة يتضح أن وعد الله تعالى بالنصر والتمكين لا يتخلف " وهو وعد قائم في كل لحظة وحقيقة قائمة لم تنسخ ، وسنة ماضية لا تتوقف . وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ، وتثق في ذلك الوعد ، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة ، وتصبر حتى يأذن الله تعالى ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله " [3] " ولقد تحقق هذا الوعد مرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه ومن جاء من بعد فترة طويلة من الزمان ، ولكن لما تخلى المسلمون عن إسلامهم أو عن بعضه صاروا إلى ما هم عليه الآن .. ولكن ليس هذا اية المطاف . إن وعد الله تعالى قائم ينتظر العصبة المسلمة التي تحمل الراية وتمضي مكملة للمسيرة التي ابتدأها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ولا يجوز أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة ، العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا "

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (6 / 3558) .

(2) انظر : المرجع السابق (6 / 3558) .

(3) انظر : المرجع السابق (1 / 372) عند تفسير آية 12 من سورة آل عمران .

[1] . فما دامت الأمة الإسلامية تسير في الطريق الصحيح ؛ فإ ا ستصل بإذن الله تعالى إلى النصر والتمكين حسب ما وعد به الله سبحانه وبشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن على المسلمين أن يوقنوا أ م لن يحققوا نصراً ولا تمكيناً حتى يرجعوا إلى الإسلام شكلاً ومضموناً وجملة وتفصيلاً .. ويقيموا حيا م كلها على منهاجه وشريعته ، وحتى يرتفعوا إلى المستوى الذي يكونوا معه ـ حزب الله ـ و ـ جند الله ـ .. ويوم أن يكونوا كذلك فإن الله تعالى يقولها كلمة وهي صادقة لأن الله عز وجل هو الذي يقولها {فَإِن حزب اللّه هم الْغالبونَ} [2] {وإِن جندنا لَهم الْغالبونَ}[3] .

2/ المبشر الثاني من المبشرات بنصر الله : ا يار الأنظمة الجاهلية .

والمقصود بالأنظمة الجاهلية : كل الأنظمة التي تخالف منهج الله تعالى ودينه الذي ارتضاه لخلقه وهو الإسلام . وا يار الأنظمة الجاهلية وحضارات الغرب المادية من أكبر مبشرات النصر والتمكين . ذلك أن سقوط هذه الأنظمة وا يار تلك الحضارات يكشف القناع عن الزيف الكبير الذي انطلى على البشرية ردحاً من الزمان ، وأوهمها أ م يستطيعون أن يعيشوا بعيداً عن منهج الله الذي وضعه لخلقه ، أو مصادمين لفطرته التي فطر الناس عليها.

وا يار هذه الحضارات وتلك الأنظمة يأتي تمشياً مع سنن الله الكونية التي قضت لاك الظالمين وتدميرهم ، وهو أمر طبيعي حتمي ؛ بمقتضى مشيئة الله تعالى . ذلك أن الأساس الذي قامت عليه هذه الأنظمة أساس هش ضعيف لا يقاوم عوامل الفناء ولا يصمد لها . قال تعالى {أَفَمن أَسس بنيانه علَى تقْوى من اللّه ورِضوان خير أَم من أَسس بنيانه علَى شفَا جرف هارٍ فَانهار بِه في نارِ جهنم واللّه لاَ يهدي الْقَوم الظالمين}[4]. ولهذا نجد القرآن الكريم يدعو إلى النظر والتأمل في مصارع الغابرين والاعتبار بالسابقين كما يلفت الأنظار إلى كثير من أخبار

---

(1) انظر : المرجع السابق (3 / 1644) عند تفسير آية رقم 23 من التوبة .

(2) سورة المائدة / 56 .

(3) سورة الصافات / 173 .

(4) سورة التوبة / 109 .

الأمم الماضية ليكون فيها عبرة وعظة . فتجده يقول بعد أن ذكر قصة يوسف عليه السلام {وما أرسلْنا من قَبلك إلا رِجالاً نوحي إِلَيهم من أَهلِ الْقُرى أَفَلَم يسِيروا في الأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم ولَدار الآخرة خير للذين اتقَوا أَفَلاَ تعقلُونَ}[1] . ويقول {لَقَد كَانَ في قَصصهم عبرةٌ لأُولي الأَلْبابِ ما كَانَ حديثًا يفْترى ولَكن تصديق الذي بين يديه وتفْصيلَ كُل شيءٍ وهدى ورحمةً لقَومٍ يؤمنونَ} [2] وقال بعد أن عرض لأخبار قوم صالح ولوط عليهما السلام{قُلْ سيروا في الْأَرضِ فَانظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الْمجرِمين }[3]. وفي أعقاب قصة نوح عليه السلام مع قومه قال {قُلْ سيروا في الْأَرضِ فَانظُروا كَيف بدأَ الْخلْق ثُم الله ينشئُ النشأَةَ الْآخرةَ إِن الله علَى كُل شيءٍ قَدير}[4] . وقال بعد أن ذكر ما حدث بين الفرس والروم {أَولَم يسِيروا في الْأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم}[5]. وقال بعد أن عرض لموقف فرعون وجنوده مع موسى وأخيه هارون عليهما السلام وما حاق بآل فرعون من سوء العذاب {أَفَلَم يسِيروا في الْأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم كَانوا أَكْثَر منهم وأَشد قُوةً وآثَارا في الْأَرضِ فَما أَغْنى عنهم ما كَانوا يكْسِبونَ }[6].

والقرآن الكريم لما دعى إلى السير والنظر في أخبار الأمم السابقة المنهارة ؛ أشار إلى أن الغرض من ذلك ليس مجرد التنقل والتسلية ، وإنما القصد هو التأمل والفقه والتبصر والانتفاع بسنن الله تعالى في الوجود ، وتدبر أحوال الأمم والحضارات كيف تقوم وكيف تنهار ؟ وكيف تتقلب بين ازدهار وانحدار ؟ والله تعالى يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة ، وأن يكون لهم وعي حصيف يوجههم إلى الانتفاع ا ، وتلقي الدروس العملية منها حتى لا يقع اللاحقون فيما وقع فيه السابقون . قال تعالى {فَكَأَين من قَرية أَهلَكْناها وهي ظَالمةٌ فَهي

---

(1) سورة يوسف / 109 .
(2) سورة يوسف / 111 .
(3) سورة النمل / 69 .
(4) سورة العنكبوت / 20 .
(5) سورة الروم / 9 .
(6) سورة غافر / 82 .

خاوِيةٌ علَى عروشها وبِئْرٍ معطلَة وقَصرٍ مشيد ـ أَفَلَم يسِيروا في الْأَرضِ فَتكُونَ لَهم قُلُوب يعقلُونَ بِها أَو آذَانٌ يسمعونَ بِها فَإِنها لَا تعمى الْأَبصار ولَكن تعمى الْقُلُوب التي في الصدورِ}[1] والمعنى " (فكأين من قرية أهلكناها) أي كم من قرية أهلكناها وهي مكذبة لرسلها (فهي خاوية على عروشها) قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها (وبئر معطلة) أي لا يسقى منها أحد ولا يردها بعد كثرة وارديها والازدحام عليها (وقصر مشيد) أي منيف مرتفع حصين (أفلم يسيروا في الأرض) أي بأبدا م وفكرهم أيضا (فتكون لهم قلوب يعقلون ا) أي ليس العمى عمى البصر ، وإنما عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإ ا لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر " [2] " إن مصارع الغابرين حيالهم شاخصة موحية ، تتحدث بالعبر وتنطق بالعظات (أفلم يسيروا في الأرض) فيروها فتوحي لهم بالعبرة ، وتنطق لهم بلسا ا البليغ ؛ فتكون لهم قلوب يعقلون ا ؛ فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل أو آذان يسمعون ا فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة " [3] .

والقرآن الكريم يؤكد على أن هذا الإهلاك إنما هو سنة مطردة لا تتخلف وباقية لم تنسخ ومستمرة لا تتوقف قال تعالى {قَد خلَت من قَبلكُم سنن فَسِيرواْ في الأَرضِ فَانظُرواْ كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذِّبِين }[4]. والخطاب في هذه الآية الكريمة يوجه الأنظار إلى واحدة من تلك السنن الربانية التي يجري الله ا الحياة البشرية ، والتي يطلب من الناس أن يتدبروها حتى لا يقعوا فيها . وهذه السنة هي عاقبة المكذبين على مدار التاريخ . فهي عاقبة معروفة ومحتومة وإن اختلفت طرقها وصورها . والسنن التي تحكم الحياة واحدة . فما وقع منها فيما مضى من زمان

---

(1) سورة الحج / 45 ـ 46 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 228) .

(3) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2430) .

(4) سورة آل عمران / 137 .

فسيقع في غيره من كل زمان ، وما انطبق على المكذبين من قبل فسينطبق من بعد على هؤلاء المكذبين وعلى كل المكذبين {دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها}[1] .

وفي موضع آخر من كتاب الله يتوجه الخطاب إلى المكذبين من قريش بصفة خاصة وكل المكذبين في كل زمان بعد صفة عامة ليمعنوا النظر في آثار الأمم البائدة والحضارات الهالكة ؛ ليكون لهم في ذلك العبرة والعظة . يقول سبحانه {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين}[2] . حيث يعظ الله تعالى في هذه الآية الكريمة ويحذر المكذبين المخاطبين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل عهد ؛ أن يصيبهم من النكال الدنيوي ما حلّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السابقة ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءً في الأرض وعمارة لها ولكن ما أغنى عنهم كل ذلك من الله شيئاً [3] . كما أن الله تعالى نبه المسلمين ألا ينخدعوا بتقلب الكافرين متنعمين في طول البلاد وعرضها فما هذا التمتع إلا عرض زائل قال تعالى {لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ـ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد} [4]. حيث " ينهى الله سبحانه عن الاغترار بضر م ـ أي الكفار ـ في البلاد ، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه وعباد م غيره " [5] أي " لا تنظر إلى ما هؤلاء مترفين فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصبحون مر نين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً . قال تعالى {نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ}[6] . وقال سبحانه {فمهل

---

(1) سورة محمد / 10 .

(2) سورة الأنعام / 6 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 125) .

(4) سورة آل عمران / 196 ـ 197 .

(5) انظر : تفسير الطبري (4 / 217) .

(6) سورة لقمان / 24 .

{فَمهلِ الْكَافرِين أَمهِلْهم روِيدا}[1] " [2] . وهكذا يتجلى بوضوح أن القرآن الكريم يركز كثيراً على ذكر مصارع الغابرين ويكرر هذا الأمر في شتى سوره الكريمة .. وذلك ليقف المرء أمام هذه الآيات والأخبار التي تحكي أنباء هؤلاء القوم ويتساءل : أين قوم نوح ؟ وأين عاد ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ؟ وأين ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟ وأين فرعون ذو الأوتاد ؟ أين هؤلاء جميعاً الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ؟ وأين غيرهم ممن لا يعلمهم إلا الله ؟ لقد صب عليهم ربك سوط عذاب {إِن ربك لَبِالْمرصاد} [3] .

3/ ومن مبشرات النصر : الصحوة الإسلامية .

ظاهرة الصحوة الإسلامية من أكبر مبشرات النصر والتمكين للأمة الإسلامية . وهي حدث تاريخي له دلالته . فهي تجيء من جهة بعد الجهد الجاهد الذي بذلته الصهيونية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان لزحزحة الأمة الإسلامية عن دينها وسلخها منه ، وتجيء من جهة أخرى والبشرية في أحد منعطفا ا التاريخية ، وقد بدأت تيأس من حضار ا المادية الجافة وبدأت تتطلع إلى مخلّصٍ جديد [4] . وظاهرة الصحوة الإسلامية ظاهرة صحية وطبيعية ودلالتها واضحة واضحة ، فهي عودة إلى الفطرة ورجوع إلى الأصل ، والأصل في ديارنا هو الإسلام مهما شرد عنه الشاردون ، أو ضلل عنه المضللون ، منه المبتدأ وإليه المنتهى . وفي ساعة العسرة واشتداد الكربة ، والتباس السبل وغلبة اليأس ؛ لا يجد الناس إلا دينهم يهرعون إليه ويلوذون به ويستمدون منه روح القوة وأمل الحياة ونور الطريق [5] . والصحوة الإسلامية بمظاهرها المختلفة المختلفة وتيارا ا الظاهرة والخفية ليست عارضة أو طارئة ، كما أ ا ليست رد فعل لظروف معينة ، أو أوضاع اجتماعية ، أو نكسة عسكرية ، أو غير ذلك ، إنما هي امتداد طبيعي لرسالة الأمة جاءت من العمق التاريخي وامتدت إلى الجذور الأصيلة لعقيد ا . وإ ا تعني ـ فيما تعني

---

(1) سورة الطارق / 17 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 443) .

(3) سورة الفجر / 14 .

(4) انظر : واقعنا المعاصر لمحمد قطب / 12 .

(5) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ليوسف القرضاوي / 201 .

ـ استمرار التواصل الحضاري الإسلامي من خلال الطائفة التي عناها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) [1] [2] . ولقد بذل الاستعمار أقصى ما كان مستطيعاً أن يبذل ، وظن الناس فترة أن الاستعمار قد أفلح ، وأن هذه الأمة الإسلامية قد نامت إلى غير يقظة ؛ فإذا ا تنتفض في صحوة إلى غير سبات . وهذه طبيعة الأمة الإسلامية ، فهي قادرة على تجديد نفسها ، وهي وإن كانت يعتريها من الأسقام ما يضعف فيها الإيمان ويبعد ا عن المنهج الحق ؛ إلا أن من رحمة الله تعالى أنه يقيض لها من ا ددين والمصلحين من يجدد لها أمر دينها . وقد أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) [3]. ولقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة الكبرى : وهي أن هذه الأمة التي طال رقادها لابد لها من بعث ؛ لأن جذوة الإيمان ما زالت متقدة في القلوب وإن علاها الرماد ، ولأن الأمة الإسلامية تحمل في طيا ا عوامل بقائها و ضتها ، وهذا ما أقلق أعداء الإسلام وأعداء الصحوة الإسلامية الذين تتميز قلو م حقداً على الإسلام والمسلمين ، والذين لا يخشون إلا أن يستيقظ الإيمان في صدور الرجال ؛ فيضيع بذلك ملكهم وتذهب ريحهم . لذلك باتوا يكيدون للإسلام ، ويخططون لإجهاض الصحوة الإسلامية ويعملون بكل ما يستطيعون من قوة ليحبطوا محاولة البعث الإسلامي التي يتهيأ العالم لها الآن ويصرخون بأعلى أصوا م (دمروا الإسلام أبيدوا أهله) . ولاشك أن مظاهر الصحوة الإسلامية بادية لكل ذي عينين في كل بقاع العالم الذي بدأ يستيقظ ويرى الهاوية التي كاد يسقط فيها ، وبدأت ترتفع في كل أنحاء الدنيا صيحات تدعو إلى العودة إلى الله . وما من يوم يمر إلا ويلمع في الأفق فجر جديد وأمل مشرق ؛ فالأمة الإسلامية بخير ، وستظل بخير حتى يرث الله البلاد والعباد . وهذا واضح من

---

(1) سبق تخريجه في صفحة / 160 .

(2) انظر : مجلة الوعي الإسلامي الكويتية عدد ربيع الآخر 1414هـ .

(3) أخرجه أبو داود في سننه (2 / 512) رقم 4291 قال عنه الألباني : صحيح .

حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه (أمتي مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله) [1] .

❁ شرط أساسي يستتبعه النصر .

قال تعالى {أُذنَ للذين يقَاتلُونَ بِأنهم ظُلموا وإن الله علَى نصرِهم لَقَدير ـ الذين أُخرجوا من ديارِهم بِغيرِ حق إلا أن يقُولُوا ربنا الله ولَولَا دفْع الله الناس بعضهم بِبعضٍ لهدمت صوامع وبِيع وصلَوات ومساجِد يذْكَر فيها اسم الله كَثيرا ولَينصرن الله من ينصره إن الله لَقَوِي عزِيز ـ الذين إن مكناهم في الْأَرضِ أَقَاموا الصلَاةَ وآتوا الزكَاةَ وأمروا بِالْمعروف ونهوا عنِ الْمنكَرِ ولله عاقبةُ الْأُمورِ}[2] . ففي الآية الأخيرة احتراز رباني للجماعة المؤمنة لأن استعجال النصر قد يترتب على تحقيقه أو إجابته فلا تقوم بشرائطه لأ ا لم تستكمل بعد مؤهلاته ، وهذا الاحتراز أجاب به موسى عليه السلام قومه المتعجلين للنصر فأجا م بقوله {عسى ربكُم أن يهلك عدوكُم ويستخلفَكُم في الأرضِ فَينظُر كَيف تعملُونَ}[3]. فربما إذا مكنتم تتكبرون وتتجبرون في الأرض كما فعل من سبقكم . وبالتالي تستحقون الإزالة من منصب القيادة إلى أن تستكملوا هذه المؤهلات مرة أخرى ومن ثمّ يكون الدوران في حلقة مفرغة .

---

(1) أخرجه الترمذي (5 / 152) رقم 2869 قال الألباني : صحيح ، وأخرجه أحمد (3 / 130) رقم 12349 قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن .

(2) سورة الحج / 39 ـ 41 .

(3) سورة الأعراف / 129 .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على سنة النصر والهزيمة .

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل من سنته نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، وقد أرشد إلى ما يؤهلهم لهذا ا لنصر ؛ من قوة مادية أو قوة معنوية . ولقد ضرب المسلمون الأوائل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده المثل الرائع في ذلك ، وخافهم عدوهم لأ م خشوا الله فخشيهم كل شيء ولان لهم كل شيء . والدارس للقرآن الكريم والمطلع على السنة النبوية والقارئ لسيرة سلف هذه الأمة وأقوالها يدرك هذه الحقيقة إدراكاً تاماً .

فالانتصارات التي حققها المسلمون عبر تاريخهم ا يد لم تكن بالتفوق على الأعداء بكثرة العدد والعدة ، وإنما كانت بروحهم المعنوية العالية التي غرسها الإيمان وتأييد الله لهم . وإن كان لا ينسى أثر القوة المادية والمهارة في استعمال السلاح وخفة الحركة ... فأكثر المعارك التي خاضها المسلمون كان العدو فيها يتفوق مادياً عليهم ، ولكن النصر يكون للمؤمنين ، وذلك لأ م حققوا أسباب النصر فحقق الله سنته فيهم بنصرهم .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده والقادة في المعارك يحرصون كل الحرص على القوة المعنوية ويؤججو ا في صدور المؤمنين .

فعندما دنا المشركون من المسلمين في غزوة بدر قال الرسول صلى الله عليه وسلم (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله . جنة عرضها السماوات والأرض ؟! قال (نعم) قال : بخ بخ . فقال (ما يحملك على قولك بخ بخ) قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال (فإنك من أهلها) فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إ ا لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل [1] .

---

(1) سبق تخريجه في صفحة / 178 .

وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه قد سمع قبل بدء معركة اليرموك جندياً يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجند بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال [1] .

وكتب خالد بن الوليد لأهل فارس يطلب منهم الإسلام أو الجزية : وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون الحياة [2] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمر وهو يستشير المسلمين في معركة اوند : وأما ما ذكرت من عددهم ، فإنا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر ، وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة . هو دينه الذي أظهر وجنده الذي أعز وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده [3].

ولقد كان لقوة المسلمين المعنوية الأثر الكبير والفعال في نفوس أعدائهم بحيث كانوا يهابون لقاء المؤمنين وإن كانوا قلة . فعندما بعث يزدجرد رسولاً إلى ملك الصين يطلب عونه في قتال المسلمين ، قال له ملك الصين : فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم ؟ فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذي تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم . وسأله عن صفات المؤمنين ، ثم كتب معه إلى يزدجرد : إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها ، ولو خلى سر م أزالوني ما داموا على ما وصف . فسالمهم وارض منهم بالمساكنة ولا اجمهم ما لم يهاجموك [4] .

ومن التطبيقات القرآنية على تحقق سنة الله في النصر والهزيمة ما يلي :

---

(1) انظر : تاريخ الطبري (2 / 337) .

(2) انظر : المرجع السابق (2 / 309) ، والبداية والنهاية لابن كثير (6 / 343) .

(3) انظر : المرجع السابق (2 / 523) .

(4) انظر : المرجع السابق (2 / 549) .

❁ غزوة حنين .

قال الله تعالى {لَقَد نصركُم اللّه في مواطن كَثيرة ويوم حنينٍ إذْ أعجبتكُم كَثْرتكُم فَلَم تغنِ عنكُم شيئًا وضاقَت علَيكُم الأَرض بِما رحبت ثُم وليتم مدبِرِين ـ ثُم أَنزلَ اللّه سكينته علَى رسوله وعلَى الْمؤمنِين وأَنزلَ جنودا لم تروها وعذب الذين كَفَرواْ وذَلك جزاء الْكَافرِين ـ ثُم يتوب اللّه من بعد ذَلك علَى من يشاء واللّه غَفُور رحيم} [1] .

" يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزوا م مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثر م ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة وذلك لما فرغ صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار م إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا م قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون

---

(1) سورة التوبة / 25 ـ 27 .

مدبرين كما قال الله عز وجل وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو والعباس عمه آخذ بركا ا الأيمن وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركا ا الأيسر يثقلا ا لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول (إلي عباد الله إلي أنا رسول الله) ويقول في تلك الحال :

أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب .

وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلما منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان . ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أي طمأنينته وثباته على رسوله (وعلى المؤمنين) أي الذين معه (وأنزل جنودا لم تروها) وهم الملائكة ، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي م : يا أصحاب السمرة ويقول تارة : يا أصحاب سورة البقرة فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره وقال (اللهم أنجز لي ما وعدتني) ثم رمى القوم ا فما بقي إنسان منهم إلا

أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان " (1) .

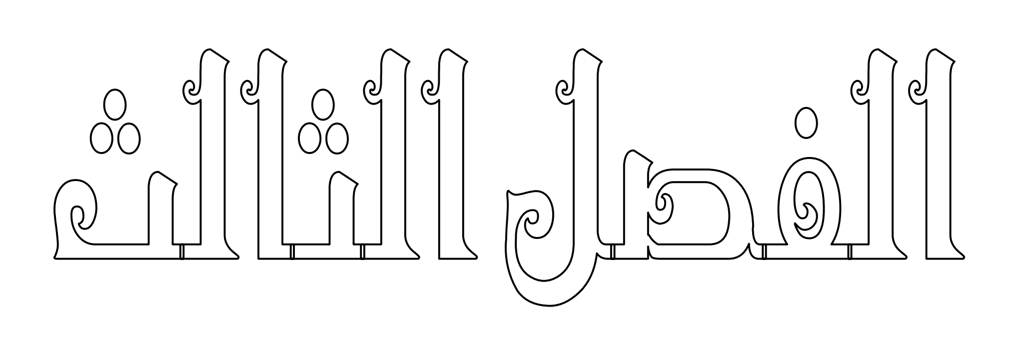
❁ غزوة أحد .

حيث جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين من الرماة على الجبل وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وأمرهم بحماية ظهور المسلمين وعدم مغادرة الجبل في أي حال من الأحوال حتى ولو رأوا المشركين انهزموا . وعندما حقق المسلمون النصر على عدوهم ، خالف الرماة أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلوا عن الجبل ، وذكرهم أميرهم بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يذعنوا وعصوه ، وبقي عبد الله بن جبير ومعه أقل من عشرة على الجبل . وعندما رأى خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد خلو الجبل من أكثر الرماة ، وأن الفرصة سانحة لاحتلاله وتعديل الموقف ، فسار إلى الجبل وصعد إليه وقاتل الرماة العشرة على الجبل واستبسلوا في الدفاع حتى استشهدوا جميعاً ، ثم باغت المسلمين من الخلف وأوقع فيهم القتل ، فتفرق المسلمون وانحل عقدهم ، واستشهد عدد كبير من الصحابة ، كل ذلك لمخالفة الرماة أوامر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم (2).

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 344 ـ 347) .

(2) انظر : السيرة النبوية لابن كثير (3 / 46 ـ 49) ، وتفسير الرازي (9 / 29) .

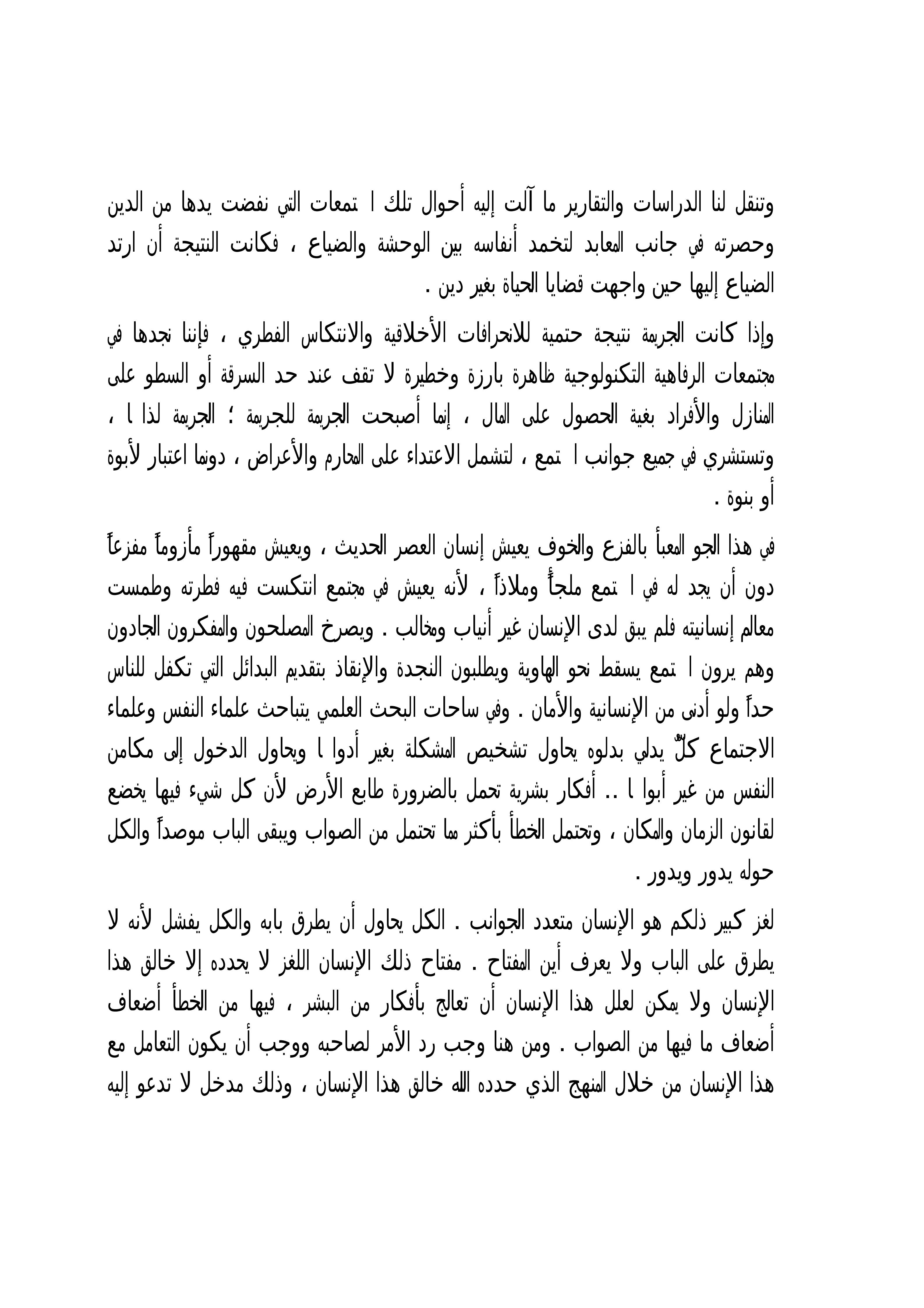


سنة الله في الأمن والخوف



تمهيد :

إن أزمة الناس الحقيقية في هذا العصر تعود في أصلها وأساسها إلى غياب الإيمان عن حيا م وانتكاس الفطرة في أنفسهم ، وإن آثار هذه المأساة تتمدد لتشمل الحياة بجوانبها المختلفة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وتمسك بخناق الإنسان من كل اتجاه فيحاول الهروب منها بالمخدرات والمسكرات حيناً ، وحيناً آخر بالانتحار والتخلص من الحياة ائياً ، ولم يعد للأمن في حياته طعم ولا لون ولا رائحة . فهناك فزع على الأموال وفزع على الأعراض والحرمات وفزع من نتائج الفوضى الحيوانية في عالم العلاقات غير السوية وغير المشروعة ، وفي هذا الجو تتطور الجريمة بتطور وسائل العصر وتتقدم بتقدم أسلوب البحث والتقصي الجنائي بل وتتفوق كثيرا .



وتنقل لنا الدراسات والتقارير ما آلت إليه أحوال تلك ا تمعات التي نفضت يدها من الدين وحصرته في جانب المعابد لتخمد أنفاسه بين الوحشة والضياع ، فكانت النتيجة أن ارتد الضياع إليها حين واجهت قضايا الحياة بغير دين .

وإذا كانت الجريمة نتيجة حتمية للانحرافات الأخلاقية والانتكاس الفطري ، فإننا نجدها في مجتمعات الرفاهية التكنولوجية ظاهرة بارزة وخطيرة لا تقف عند حد السرقة أو السطو على المنازل والأفراد بغية الحصول على المال ، إنما أصبحت الجريمة للجريمة ؛ الجريمة لذا ا ، وتستشري في جميع جوانب ا تمع ، لتشمل الاعتداء على المحارم والأعراض ، دونما اعتبار لأبوة أو بنوة .

في هذا الجو المعبأ بالفزع والخوف يعيش إنسان العصر الحديث ، ويعيش مقهوراً مأزوماً مفزعاً دون أن يجد له في ا تمع ملجأً وملاذاً ، لأنه يعيش في مجتمع انتكست فيه فطرته وطمست معالم إنسانيته فلم يبق لدى الإنسان غير أنياب ومخالب . ويصرخ المصلحون والمفكرون الجادون وهم يرون ا تمع يسقط نحو الهاوية ويطلبون النجدة والإنقاذ بتقديم البدائل التي تكفل للناس حداً ولو أدنى من الإنسانية والأمان . وفي ساحات البحث العلمي يتباحث علماء النفس وعلماء الاجتماع كلٌّ يدلي بدلوه يحاول تشخيص المشكلة بغير أدوا ا ويحاول الدخول إلى مكامن النفس من غير أبوا ا .. أفكار بشرية تحمل بالضرورة طابع الأرض لأن كل شيء فيها يخضع لقانون الزمان والمكان ، وتحتمل الخطأ بأكثر مما تحتمل من الصواب ويبقى الباب موصداً والكل حوله يدور ويدور .

لغز كبير ذلكم هو الإنسان متعدد الجوانب . الكل يحاول أن يطرق بابه والكل يفشل لأنه لا يطرق على الباب ولا يعرف أين المفتاح . مفتاح ذلك الإنسان اللغز لا يحدده إلا خالق هذا الإنسان ولا يمكن لعلل هذا الإنسان أن تعالج بأفكار من البشر ، فيها من الخطأ أضعاف أضعاف ما فيها من الصواب . ومن هنا وجب رد الأمر لصاحبه ووجب أن يكون التعامل مع هذا الإنسان من خلال المنهج الذي حدده الله خالق هذا الإنسان ، وذلك مدخل لا تدعو إليه

عاطفة دينية ؛ وإنما يحتمه البحث العلمي ويدعو إليه التجرد من الأهواء في بحث قضايا الإنسان .

هذا وسوف يتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة ذه السنة .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة .

المبحث الأول : التعريف العام بسنة الأمن والخوف .

❁ **أولاً : تعريف الأمن** .

تعريف الأمن لغة .

الأمن والأمان والأمانة بمعنى ، وقد أمنت فأنا آمن ، وأمنت غيري من الأمن والأمان . والأمن ضد الخوف . والأمانة ضد الخيانة . والإيمان ضد الكفر . والإيمان بمعنى التصديق ، وضده التكذيب . يقال : آمن به قوم وكذب به قوم ، فأما أمنته المتعدي فهو ضد أخفته وفي

التنزيل {الذي أطْعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف}[1] . ويقال رجل أمنة بالفتح للذي يصدق بكل ما يسمع ولا يكذب بشيء . ورجل أمنة أيضاً إذا كان يطمئن إلى كل واحد ويثق في كل أحد . وأمنته على كذا وأتمنته عليه بمعنى . واستأمن إليه : دخل في أمانه . وقد أمنه وآمنه . وقرأ (لست مؤمنا) بفتح الهمزة وفتح الميم بعدها أي لا نؤمنك ، والمأمن : موضع الأمن ، والأمن المستجير ليأمن على نفسه . وقرئ في سورة براءة (إنهم لا إيمان لهم) من قراءة بكسر الألف معناه : أنهم إن أجاروا وأمنوا المسلمين لم يفوا وغدروا ، والإيمان هنا الإجارة والأمانة والآمنة نقيض الخيانة لأنه يؤمن أذاه . ومؤتمن القوم : الذي يثقون فيه ويتخذونه أميناً حافظاً ، نقول أؤتمن الرجل فهو مؤتمن وفي الأثر (المؤذن مؤتمن) [2] و (المجالس بالأمانة) [3] [4] . وهذا يعني أن المؤذن مؤتمن أي أمين على صلاة الناس وصيامهم كما أن (المجالس بالأمانة) تعني الندب إلى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل فكأن ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه . والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والأمان . ويقال : رجل أمين وأمان له دين ، وقيل مأمون أي به ثقة . والأمان (بضم الهمزة وتشديد الميم) هو ذو الفضل والدين . وقال بعضهم : الأمان الذي لا يكتب لأنه أمي . ويقال : ما أحسن أمنتك وأمنك بكسر همزة الابن أي دينك وخلقك .

وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان التصديق ، قال الزجاج : الإيمان إظهار الخضوع والقبول بالشريعة ، ولما أتى به النبي ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاك ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه لا يداخله في ذلك ريب ، وفي التنزيل{وما أنت بِمؤمنٍ لنا}[5] أي بمصدق ، والإيمان مصدر أمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال (الإيمان

---

(1) سورة قريش / 4 .

(2) أخرجه أبو داود (1 / 198) رقم 517 ، والترمذي (1 / 402) رقم 207 . قال عنه الألباني : صحيح .

(3) أخرجه أبو داود (2 / 684) رقم الحديث 4869 ، وأخرجه أحمد (3 / 342) رقم 14734 .

(4) انظر : لسان العرب (5 / 67) .

(5) سورة يوسف / 17 .

أمانة ، ولا دين لمن لا أمانة له) [1] . والأمين القوي لأنه يوثق بقوته . والمؤمن من أسماء الله تعالى ، وآمين كلمة تقال في إثر الدعاء ، وهي جملة مركبة من فعل واسم ، معناه اللهم استجب لي [2] .

وقال في المعجم الوسيط : أمن ـ أمناً وأماناً وأمانة وأمنة ـ اطمأن ولم يخف فهو آمن وأمين يقال : لك الأمان ـ أي قد أمنتك ، ومنه أمن أمانة : كان أمينا ، وآمن إيماناً : أي صار ذا أمن وبه وثق وصدقه . وائتمن فلاناً أمنه وآمنه وجعله أميناً على الشيء . واستأمن إليه استجاره وطلب حمايته . ويقال استأمن الحربي أي استجار ودخل في دار الإسلام [3] .

فنعني بكلمة الأمن الأمان والاستقرار والاطمئنان والهدوء وصيانة وحماية الإنسان في نفسه ودينه وعرضه وماله وممتلكاته كلها من أي عدوان يهدد أمنه ويروع حياته في أي شأن من الشؤون كلها . وتلك نعمة امتن الله ا على قريش حين أمنت في رحلتها من الجوع والخوف . قال تعالى {لإِيلَافِ قُرَيشٍ ـ إِيلَافِهِم رِحلَةَ الشتاء والصيف ـ فَلْيَعبدوا رب هذَا الْبيت ـ الذي أَطْعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف} [4] .

❁ تعريف الأمن اصطلاحاً :

الأمن : هو عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[5] ، وأصل الأمن : طمأنينة النفس وزوال الخوف الخوف ، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر ، ويجعل الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن ، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان نحو قوله تعالى {وتخونواْ أَماناتكُم}[6] أي ما ائتمنتم عليه . والإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء ا محمد صلى

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (3 / 135) رقم 12406 . قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن .
(2) انظر : لسان العرب (5 / 34) .
(3) انظر : المعجم الوسيط (3 / 98) .
(4) سورة قريش / 1 ـ 4 .
(5) انظر : التعريفات للجرجاني / 37 .
(6) سورة الأنفال / 27 .

الله عليه وسلم وعلى ذلك {الذين آمنواْ والذين هادواْ والصابِؤونَ}[1] ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بالله ونبوته وعلى هذا {وما يؤمن أَكْثَرهم بِاللّه إلا وهم مشركُونَ}[2] وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق ، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح وعلى هذا قوله تعالى {والذين آمنوا بِالله ورسله أُولَئك هم الصديقُونَ}[3] [4] . قال ابن تيمية رحمه الله " اســم الإيمان تارةً يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما ، وتارة يذكر مقروناً إما بالإسلام كقوله في حديث جبرائيل : ما الإسلام وما الإيمان ؟ [5] وكقوله تعالى{إِن الْمسلمين والْمسلمات والْمؤمنِين والْمؤمنات}[6] وقوله عز وجل {قَالَت الْأَعراب آمنا قُل لم تؤمنوا ولَكن قُولُوا أَسلَمنا}[7] وقوله تعالى {فَأَخرجنا من كَانَ فيها من الْمؤمنِين ـ فَما وجدنا فيها غَير بيت من الْمسلمين}[8] وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح الصالح وذلك في مواضع من القرآن كقوله تعالى{إِن الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات}[9] وإما مقروناً بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى{وقَالَ الذين أُوتوا الْعلْم والْإِيمانَ}[10] وقوله{يرفَع الله الذين آمنوا منكُم والذين أُوتوا الْعلْم درجات } [11] وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فإ م خيارهم قال تعالى {والراسخونَ في الْعلْمِ يقُولُونَ آمنا بِه كُلٌ من عند

---

(1) سورة المائدة / 69 .

(2) سورة يوسف / 106 .

(3) سورة الحديد / 19 .

(4) انظر : المفردات في غريب القرآن (1 / 25 ـ 26) .

(5) أخرجه مسلم في صحيحه (1 / 36) رقم 8 .

(6) سورة الأحزاب / 35 .

(7) سورة الحجرات / 14 .

(8) سورة الذاريات / 35 ـ 36 .

(9) سورة البقرة / 277 .

(10) سورة الروم / 56 .

(11) سورة ا ادلة / 11 .

ربنا }[1] وقال{لكنِ الراسخونَ في الْعلْمِ منهم والْمؤمنونَ يؤمنونَ بِما أُنزِلَ إِلَيك وما أُنزِلَ من قَبلك}[2] ويذكر أيضاً لفظ المؤمنين مقرونا بالذين هادوا والنصارى والصابئين ثم يقول { من آمن بِالله والْيومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فَلَهم أَجرهم عند ربهم ولاَ خوف علَيهِم ولاَ هم يحزنونَ}[3] فالمؤمنون في ابتداء الخطاب غير الثلاثة والإيمان الآخر عمهم كما عمهم في قوله{إِن الذين آمنوا وعملُوا الصالحات أُولَئك هم خير الْبرِية}[4] . فالمقصود هنا العموم والخصوص بالنسبة إلى ما في الباطن والظاهر من الإيمان فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهكذا في الحديث الذي رواه أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الإسلام علانية والإيمان في القلب) [5] . وإذا ذكر اسم الإيمان مجردا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة كقوله في حديث حديث الشعب (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) [6] وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان " [7] .

❁ ثانياً : تعريف الخوف :

تعريف الخوف لغة :

الخوف الفزع خافه يخافه خوفا وخيفة ومخافة وإنما صارت الواو ألفا في يخاف لأنه على بناء عمل يعمل فاستثقلوا الواو فألقوها . ومنه التخويف والإخافة والتخوف والنعت خائف وهو الفزع . والأمر منه خف بفتح الخاء وتخوفت عليه الشيء أي خفت وخوف الرجل إذا

---

(1) سورة آل عمران / 7 .
(2) سورة النساء / 162 .
(3) سورة البقرة / 62 .
(4) سورة البينة / 7 .
(5) أخرجه أحمد في مسنده (3 / 134) رقم 12404 ، وابن أبي شيبة في مصنفه (6 / 159) رقم 30319 .
(6) أخرجه مسلم في صحيحه (1 / 63) رقم 35 .
(7) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية (7 / 13 ـ 14) .

جعل فيه الخوف وخوفته إذا جعلته بحالة يخافه الناس وخوف الرجل جعل الناس يخافونه وفي التنـ يل العزيز{إنما ذَلكُم الشيطَانُ يخوف أولياءه}[1] أي يجعلكم تخافون أولياءه. والاسم من ذلك كله الخيفة . والخيفة الخوف وفي التنـ يل العزيز{واذْكُر ربك في نفْسِك تضرعاً وخيفَةً}[2] والمخاف والمخيف موضع الخوف وفي حديث عمر رضي الله عنه (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه) أراد أنه إنما يطيع الله حباً له لا خوف عقابه فلو لم يكن عقاب يخافه ما عصى . ففي الكلام محذوف تقديره لو لم يخف الله لم يعصه فكيف وقد خافه . وطريق مخوف ومخيف تخافه الناس ورجع مخوف ومخيف يخيف من رآه . والإخافة التخويف وحائط مخوف إذا كان يخشى أن يقع . والخوف القتل والخوف القتال ، وبه فُسر قوله تعالى{ولَنبلُونكُم بِشيءٍ من الْخوف والْجوعِ}[3] وبذلك فُسر قوله عز وجل أيضا {وإِذَا جاءهم أَمر من الأَمنِ أَوِ الْخوف أَذَاعواْ بِه}[4]والخوف العلم وبه فُسر قوله تعالى{فَمن خاف من موصٍ جنفًا أَو إِثْما}[5] و{وإِن و{وإِن امرأَةٌ خافَت من بعلها نشوزا أَو إِعراضا}[6] . والتخوف التنقص وفي التنـ يل العزيز{أَو يأْخذَهم علَى تخوف}[7] وجاء في التفسير بأنه التنقص . والعرب تقول تخوفته أي تنقصته من حافاته. ويجوز أن يكون معناه أو يأخذهم بعد أن يخيفهم بأن يهلك قرية فتخاف التي تليها [8]. [8]. والخوف توقع حلول مكروه أو فوات محبوب [9] .

❁ تعريف الخوف اصطلاحاً :

---

(1) سورة آل عمران / 175 .

(2) سورة الأعراف / 205 .

(3) سورة البقرة / 155 .

(4) سورة النساء / 83 .

(5) سورة البقرة / 182 .

(6) سورة النساء / 128 .

(7) سورة النحل / 67 .

(8) انظر : التعريفات للجرجاني (1 / 137) .

(9) انظر : مختار الصحاح للرازي (1 / 81) .

" الخوف : توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة ، ويضاد الخوف الأمن . ويستعمل ذلك في الأمور الأخروية والدنيوية . وقوله تعالى {وإنْ خفْتم شقَاق بينِهما} [1] قد فسر بعرفتم . وحقيقته : وإن وقع لكم خوف من ذلك لمعرفتكم . والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف ؛ بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعات ولذلك قيل : لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً . والخوف أجلّ منازل السالكين وأنفعها للقلب . وهو فرض على كل أحد . قال تعالى { وخافُون إن كُنتم مؤمِنِين } [2] وقال تعالى {وإياي فَاتقُون}[3] ومدح الله تعالى أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقُونَ ـ والذين هم بِآيات ربهم يؤمنونَ ـ والذين هم بِربهم لَا يشرِكُونَ ـ والذين يؤتونَ ما آتوا وقُلُوبهم وجِلَةٌ أَنهم إِلَى ربهم راجِعونَ ـ أُولَئك يسارِعونَ في الْخيرات وهم لَها سابِقُونَ}[4] فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يارسول الله (الذين يؤتون ما آتوا وقلو م وجلة) أهو الذي يسرق ويشرب الخمر ويزني ؟ قال (لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه) [5] . وقال بعض السلف عن هذه الآية الآية : عملوا والله الصالحات واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم . وقيل : الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس . وقيل : الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكّر المخوف . وقيل : الخوف هرب القلب من حلول المكروه وعند استشعاره . وقيل : الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه. وقيل : الخوف سراج في القلب يبصر به ما فيه من الخير والشر . وكل واحد إذا خفته هربت منه إلا الله فإنك إذا خفته هربت إليه . وقيل : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد الدنيا عنه . وقيل : الناس على الطريق ما لم يزلْ عنهم

(1) سورة النساء / 35 .

(2) سورة آل عمران / 175 .

(3) سورة البقرة / 41 .

(4) سورة المؤمنون / 57 ـ 61 .

(5) أخرجه الترمذي (5 / 327) رقم 3175 وصححه الألباني ، وأخرجه أحمد (6 / 205) رقم 25746.

الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق . والخوف ليس مقصوداً لذاته بل مقصود لغيره . والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه ومحارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط . وقيل : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً . وقيل : الخوف هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر يعني الخروج من سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد . وأما التخويف من الله فهو الحثّ على التحرز . وعلى ذلك قوله تعالى {ذَلك يخوف الله بِه عباده يا عباد فَاتقُون}[1] و ى الله تعالى عن مخافة الشيطان والمبالاة بتخويفه فقال {إِنما ذَلكُم الشيطَانُ يخوف أولياءه فَلاَ تخافُوهم وخافُون إِن كُنتم مؤمنِين}[2] . أي لا تأتمروا للشيطان وأتمروا لله تعالى . ويقال : تخوفناهم : أي تنقّصناهم تنقّصاً اقتضاه الخوف منهم . وقوله {وإِني خفْت الْموالي من ورائي}[3] فخوفه منهم ألا يراعوا الشريعة ولا يحفظوا نظام الدين ، لا أن يرثوا ماله كما ظنه بعض الجهلة . فالقُنيات الدنيوية أخس عند الأنبياء من أن يشفقوا عليها . والخيفة : الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . قال تعالى {فَأَوجس في نفْسِه خيفَةً موسى}[4] ، واستعمل استعمال الخوف قال تعالى {والْملائكَةُ من خيفَته}[5] . وتخصيص لفظ الخيفة تنبيه على أن الخوف منهم حالة لازمة لا تفارقهم . والتخوف : ظهور الخوف من الإنسان قال تعالى {أَو يأْخذَهم علَى تخوف فَإِن ربكُم لَرؤوف رحيم} [6] .

❁ وقد ورد مادة (خوف) في القرآن على خمسة وجوه :

---

(1) سورة الزمر / 16 .
(2) سورة آل عمران / 175 .
(3) سورة مريم / 5 .
(4) سورة طه / 67 .
(5) سورة الرعد / 13 .
(6) سورة النحل / 47 .

الأول : بمعنى القتل والهزيمة {وإذَا جاءهم أمر من الآمنِ أوِ الْخوف }[1] . وقوله {ولَنبلُونكُم بِشيءٍ من الْخوف }[2] أي القتل .

الثاني : بمعنى الحرب والقتال {فَإِذَا ذَهب الْخوف سلَقُوكُم بِأَلْسِنة حداد}[3] أي إذا انجلى الحرب . وقوله {فَإِذَا جاء الْخوف رأَيتهم ينظُرونَ إِلَيك} [4] أي الحرب .

الثالث : بمعنى العلم والدراية قال تعالى {فَمن خاف من موصٍ جنفًا} [5] أي علم . وقوله {إلا أَن يخافَا أَلا يقيما حدود اللّه}[6] . أي يعلما . وقوله {وإِنْ خفْتم أَلا تقْسِطُواْ في الْيتامى} [7] أي علمتم .

الرابع : بمعنى النقص قال تعالى {أَو يأْخذَهم علَى تخوف}[8] أي تنقص .

الخامس : بمعنى الرعب والخشية من العذاب والعقوبة {تتجافَى جنوبهم عنِ الْمضاجِعِ يدعونَ ربهم خوفًا وطَمعا ومما رزقْناهم ينفقُونَ} [9] .

وفي مواضع كثيرة قُرن الخوف في القرآن بـ (لا) النافية وبـ (لا) الناهية . نحو قوله تعالى {لَا تخف ولَا تحزنْ إِنا منجوك وأَهلَك}[10] وقوله {لَا تخافَا إِننِي معكُما}[11] وقوله {لَا تخف إِنك أَنت الْأَعلَى}[12] وقوله {ولَا تخافي ولَا تحزنِي إِنا رادوه إِلَيك}[13] وقوله {لَا

---

(1) سورة النساء / 83 .

(2) سورة البقرة / 155 .

(3) سورة الأحزاب / 19 .

(4) سورة الأحزاب / 19 .

(5) سورة البقرة / 182 .

(6) سورة البقرة / 299 .

(7) سورة النساء / 3 .

(8) سورة النحل / 47 .

(9) سورة السجدة / 16 .

(10) سورة العنكبوت / 33 .

(11) سورة طه / 46 .

(12) سورة طه / 68 .

(13) سورة القصص / 7 .

تخف إني لَا يخاف لَدي الْمرسلُونَ}[1] وقوله {أَقْبِلْ ولَا تخف إِنك من الْآمنِين}[2] وقوله {لَا تخاف دركًا ولَا تخشى}[3] وقوله {ولاَ يخافُونَ لَومةَ لاَئمٍ}[4] وقوله {فَلَا يخاف بخسا ولَا رهقًا}[5] وقوله {فَلاَ خوف علَيهم ولاَ هم يحزنونَ}[6] وقوله {أَلَّا تخافُوا ولَا تحزنوا}[7] "[8] .

المبحث الثاني : الآيات المتعلقة بسنة الأمن والخوف .

بعد الاطلاع على الآيات التي تحدثت عن هذه السنة ، وقبل استعراض أسباب تحقق هذه السنة يجب أن نعلم أن الخوف قد يكون ابتلاءً .

فالابتلاء يكون بالشر والخير ، ولكنه في الشر أظهر معنى وأكثر استعمالا . ومن مفردات هذا الشر أو المكروه الابتلاء بالشدة والمصائب التي أقام الله عليها نظام الحياة وناموس الأحياء ؛ إذ ليس هناك لذة خالصة أو منفعة محضة إلا في الجنة ، أما في الدنيا فتعتريها الأغيار من خير وشر ، وشدة ورخاء ، ليتميز المؤمن من الكافر ، والمطيع من العاصي ؛ ولذا كان الابتلاء المميز للبشر من سنن الله في خلقه . قال الله تعالى {ولَنبلُونكُم بِشيءٍ من الْخوف والْجوع ونقْصٍ من

---

(1) سورة النمل / 10 .

(2) سورة القصص / 31 .

(3) سورة طه / 77 .

(4) سورة المائدة / 54 .

(5) سورة الجن / 13 .

(6) سورة البقرة / 38 .

(7) سورة فصلت / 30 .

(8) انظر : بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (1 / 576 ـ 579) .

الأموالِ والأنفُسِ والثمرات وبشرِ الصابِرين }[1] " أي لنمتحنكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء وغيره من المصائب البشرية المعتادة في المعايش . وأكد هذا بصيغة القَسم لتوطين الأنفس عليه ، فعلمهم به أن مجرد الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وقوة السلطان ، وانتفاء المخاوف والأحزان ، بل يجري ذلك بسنن الله تعالى في الخلق كما أن من سنن الخلق وقوع المصائب بأسبا ا " [2]. فتمام النعمة وم لة الكرامة للمؤمنين عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبا ا ؛ إذ تلك المصائب مظهر لثبا م على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه ، وبذلك ينالون جة نفوسهم بما أصا م في مرضاة الله ، ويزدادون به رفعة وزكاء ، ويزدادون يقيناً بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا ، وينجر لهم من ذلك ثواب عظيم . وجيء بكلمة (شيء) وينأ للخبر المفجع ، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة ، كما ورد في قوله تعالى {فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ}[3] . ولذلك جاء بكلمة (شيء) في آية البقرة وجاء في آية النحل بما يدل على الملابسة والتمكن وهو أن استعار لها اللباس الملازم للابس [4] .

وقد جاء هنا بكلمة (شيء) الدالة على التحقير فضلاً عن دخول (من) التبعيضية ـ على أنواع البلايا المذكورة في الآية ـ التي تدل على التقليل . ولذلك قال ابن كثير في تفسيرها " قال تعالى (بشيء من الخوف والجوع) أي : بقليل من ذلك (ونقص من الأموال) أي ذهاب بعضها (والأنفس) كموت الأصحاب والأقارب والأحباب (والثمرات) أي : لا تغل الحدائق والمزارع كعاد ا . قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه " [5] .

---

(1) سورة البقرة / 155 .

(2) انظر : تفسير المنار (2 / 39) .

(3) سورة النحل / 112 .

(4) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور (2 / 54) .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 198) .

" لابد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف . والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحا ا تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين . وكلما تألموا في سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها ، كانت أعز عليهم وكانوا أظن ا ، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها ا وصبرهم على بلائها .. إ م عندئذ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ، ولا صبروا عليه .وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها ، مقدرين لها مندفعين إليها .وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا . ولابد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى . فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد ، والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب " [(1)] .

وتعبير القرآن بـ (شيء من الخوف) تعبير موحٍ يشي بأن الابتلاء بالخوف ذاته لا يقدر الإنسان على تحمله وإطاقته ، فكان من رحمة الله عز وجل أن جنب عباده المؤمنين الابتلاء بحقيقة الخوف وكان ابتلاؤهم بشيء منه ، وإنما كان هذا الابتلاء بالشيء ليعرف العباد نعمة الأمن ويقْدروها حق قدرها . وقديماً قالوا : وبضدها تتميز الأشياء . وإنما تعرف قدر النعمة إذا غابت عن الإنسان فترة . كما أن الابتلاء ذا (الشيء) جعله الله عز وجل تكفيراً للسيئات ورفعة للدرجات ، لاسيما إن أحيط بالصبر والرضا .

❁ أسباب الأمن وأسباب الخوف :

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (1 / 145) .

إن حديثنا عن أسباب الأمن وأسباب الخوف يشمل الدارين الدنيا والآخرة . والأمن والطمأنينة نعمة من نعم الله ، ولذلك امتن الله ا على قريش فقال {وقَالُوا إِن نتبِعِ الْهدى معك نتخطف من أَرضنا أَولَم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إِلَيه ثَمرات كُل شيءٍ رِزقًا من لدنا ولَكن أَكْثَرهم لَا يعلَمونَ} [1] وقال عليه الصلاة والسلام (من أصبح آمناً في سربه معافى في جسده عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا) [2] وبغير نعمة الأمن لن يستمتع الإنسان بأي نعمة أخرى . والأسباب على النحو التالي :

1 / الإيمان بالله وعدم التلبس بالظلم ـ الشرك ـ .

قال تعالى {وكَيف أَخاف ما أَشركْتم ولاَ تخافُونَ أَنكُم أَشركْتم بِاللّه ما لَم ينزلْ بِه علَيكُم سلْطَانا فَأَي الْفَرِيقَينِ أَحق بِالأَمنِ إِن كُنتم تعلَمونَ ـ الذين آمنواْ ولَم يلْبِسواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ أُولَئك لَهم الأَمن وهم مهتدونَ} [3] " المراد بالفريقين فريق الموحدين الحنفاء الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه ولا يخافون ولا يرجون غيره من دونه وإنما يعارضون الأسباب بالأسباب ويدافعون الأقدار بالأقدار ، كاتقاء أسباب الأمراض قبل وقوعها ومدافعتها بالأدوية بعد الابتلاء ا ، وفريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب ، فاتخذوا منها ما اتخذوا الآلهة والأرباب ، بل نسبوا إلى بعضها النفع والضر بخداع المصادفات واختراع الأوهام ، فهو يقول لهم : أي هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه ، من عاقبة عقيدته وعبادته ؟ ونكتة عدوله عن قول : فأينا أحق بالأمن ، إلى قوله (فأي الفريقين) هي بيان أن هذه المقابلة

---

(1) سورة القصص / 57 .

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (1 / 112) رقم 300 ، وأخرجه الترمذي (4 / 574) رقم 2346 وقال هذا حديث حسن غريب وحسنه الألباني .

(3) سورة الأنعام / 81 ـ 82 .

عامة لكل موحد ومشرك ، من حيث أن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك ، لا خاصة به و م ، فهي متضمنة لعلة الأمن . وقيل : إن نكتته الاحتراز عن تزكية النفس ، واسم التفضيل على غير بابه ، فالمراد أينا الحقيق بالأمن ، ولكنه عبر باسم التفضيل ناطقاً في استـ الهم عن منتهى الباطل ـ وهو ادعاؤهم أ م هم الحقيقون بالأمن ، وأنه هو الحقيق بالخوف ـ إلى الوسط النظري بين الأمرين ، وهو أي الفريقين أحق ، واحترازاً عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله كله . ثم قال (إن كنتم تعلمون) أي أيهما أحق بالأمن ـ أي إن كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر ـ فأخبروني بذلك ، وبينوه بالدلائل ، وهذا إلجاء إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحماقة والجهل . وأما الجواب فهو قوله الحق (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيما م بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) فالأمن في هذا الكلام يقابل الخوف فيه ، وهو الأمن من عذاب الرب المعبود لمن لا يرضى إيمانه وعبادته ، فإ م خوفوا إبراهيم عليه السلام أن تمسه آلهتهم وأربا م بسوء لجحده إياهم وعداوته لهم ، فأجاب بأنه إنما يخاف الله وحده ولا يخافهم ، والظلم الذي يلبس به الإيمان بالله ويخالطه فينقص منه أو ينقضه ؛ هو الشرك في العقيدة أو العبادة ، كاتخاذ ولي من دون الله يدعى معه أو من دونه، ولو لأجل التقرب إليه والشفاعة عنده ، ولا يدخل فيه الظلم الذي ليس من شأنه أن يلابس الإيمان ، كظلم المرء نفسه بإتيان بعض المضار ، أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال ، أو ظلم غيره ببعض الأحكام أو الأعمال . فالذين آمنوا بالله تعالى ولم يخلطوا إيما م بظلم عظيم ـ وهو الشرك به سبحانه ـ أولئك لهم الأمن دون غيرهم من العقاب الديني المتعلق بأصل الدين وهو الخلود في دار العذاب ، وهو فيما دون ذلك بين الخوف والرجاء . وأما جعل هذا الظلم العظيم خاصاً بالشرك بالله تعالى فلا يعلم من نص الآية ، ولكن السياق وموضوع الإيمان قد يدل عليه دلالة غير قطعية لغة ؛ ولذلك فهم بعض الصحابة رضي الله عنهم منه العموم المطلق وهم من أهل اللسان ، فأخبرهم الرسول ﷺ ـ وهو أعلم بمراد من أنزله عليه ـ بمعناه الدالّ على أنه من العام الذي أريد به الخاص . روى البخاري ومسلم رحمهما الله من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : أن الآية لما نزلت شق ذلك على الناس وقالوا : يا رسول الله . وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (إنه ليس الذي تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح { إن الشرك لظلم عظيم } إنما

هو الشرك) [1] " [2] . والمعنى : أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين : أولهما : الإيمان ، وهو كمال القوة النظرية . وثانيهما (ولم يلبسوا إيمانه بظلم) وهو كمال القوة العملية [3] .

وقال تعالى {فَلَولاَ كَانت قَريةٌ آمنت فَنفَعَها إيمانها إلا قَوم يونس لَمَآ آمنواْ كَشفْنا عنهم عذَاب الخزيِ في الْحياةَ الدنيا ومتعناهم إِلَى حين}[4] " فالفاء لتفريع التغليظ على امتناع أهل القرى من الإيمان بالرسل قبل أن يـ ل م العذاب على الإخبار بأن الذين حقت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا لا يؤمنون حتى يروا العذاب فإن أهل القرى من جملة الذين حقت عليهم الكلمة بأن لا يؤمنوا . والغرض من ذكر أهل القرى التعريض بالمقصود ، وهم أهل مكة فإ م أهل قرية فكان ذلك كالتخلص بالتعريض إلى المخصوصين به ، وللإفضاء به إلى ذكر قوم يونس فإ م أهل قرية " [5] .

وفي الآية " تحضيض ينسحب على الماضي فيفيد أن مدلوله لم يقع (فلولا كانت قرية آمنت) من هذه القرى التي مر ذكرها سابقاً ، ولكن القرى لم تؤمن ؛ إنما آمنت منها قلة فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان ، ذلك فيما عدا قرية واحدة . والقرية القوم ، والتسمية هكذا إيذان بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلات البدو . ولا يفصل السياق هنا قصة يونس وقومه ، إنما يشير إلى خاتمتها هذه الإشارة لأن الخاتمة وحدها هي المقصودة هنا ، فلا نزيدها نحن تفصيلا .

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1262) رقم 3246 ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1 / 114) رقم 124.
(2) انظر : تفسير المنار (7 / 579 ـ 582) .
(3) انظر : تفسير الرازي (13 / 50) .
(4) سورة يونس / 98 .
(5) انظر : تفسير ابن عاشور (11 / 288) .

وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخزٍ يتهددهم ، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل . ولو لم يؤمنوا لحلّ العذاب م وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه .. حسبنا هذا لندرك أمرين هامين :

أولهما : الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، وهو الغرض المباشر من سياقه القصة هذا السياق .

وثانيهما : أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى ، بل مضت ونفذت ، لأن مقتضى سنة الله كان أن يحلّ العذاب م لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء ، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول ، فلا جبرية إذن في تصرفات الناس ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها " [1] .

2/ العمل الصالح .

قال الله تعالى {وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأَرضِ كَما استخلَف الذين من قَبلهم ولَيمكنن لَهم دينهم الذي ارتضى لَهم ولَيبدلَنهم من بعد خوفهم أَمنا يعبدونني لَا يشرِكُون بِي شيئًا ومن كَفَر بعد ذَلك فَأُولَئك هم الْفَاسقُونَ}[2] " ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ أن يستخلفهم في الأرض وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً . ذلك وعد الله . ووعد الله حق ولن يخلف الله وعده . فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟ إن حقيقة الإيمان التي يتحقق ا وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله ، وتوجه النشاط الإنساني كله ، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ، وهي طاعة لله واستسلام لأموره في الصغيرة

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (3 / 1820 ـ 1821) .

(2) سورة النور / 55 .

والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة ، إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله .

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه ، وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه ، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعا .. يتوجه ذا كله إلى الله .. يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن (يعبدونني لا يشركون بي شيئا) ، والشرك مداخل وألوان ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله . ذلك الإيمان منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به ؛ توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض ـ أمانة الاستخلاف ـ فما حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟ إ ا ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم .. إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء ، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض اللائق بخليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد ، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر ، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان . وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض ـ كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ـ ليحققوا المنهج الذي أراده الله ، ويقرروا العدل الذي أراده الله ، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله . فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض وينشرون فيها البغي والجور ، وينحدرون ا إلى مدارج الحيوان .. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض ؛ إنما هم مبتلون بما هم فيه ، أو مبتلى م غيرهم ، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله .

وآية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده (وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها ، فقد وعدهم

الله إذن أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض ، ودينهم يأمر بالإصلاح ويأمر بالعدل ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض ، ويأمر بعمارة هذه الأرض والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ومن رصيد ومن طاقة ، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله " [1] .

فالآية ـ وإن كانت من قبيل الوعد ـ ارتبط الوعد فيها وتعلق بشروط وأسباب لتحققه ، ومن ثمّ دخلت في نطاق السنن . ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماءٌ إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح ؛ إن هم أخذوا في ذلك ، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد في الآية السابقة للآية التي معنا وهي قوله تعالى {وإن تطيعوه تهتدوا}[2] وإذا حلّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسببا ا تنهال على الأمة والخطاب في قوله (منكم) للرسول ﷺ وللأمة [3] من بعده ـ أي أمة الدعوة ـ ليؤكد للجميع أن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود ـذا الوعد . والتعريف في (الصالحات) قيل : للاستغراق ، أي : عملوا جميع الصالحات ، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأ ا صلاح ، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأ ا فساد ، لأن إبطال الفساد صلاح " واستغراق (الصالحات) استغراق عرفي ، أي : عملَ معظم الصالحات ومهما ا ، مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة ، وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة ، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصة ، وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة ، على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة ، كل فيما هو من عمل أمثاله ، الخليفة فمن دونه ، وذلك في غالب أحوال تصرفا م . ولا التفات إلى الفلتات المناقضة ، فإ ا معفو عنها إذا لم يسترسل عليها وإذا ما وقع السعي في تداركها . والاستقامة في الخويصة هي موجب هذا الوعد ، وهي الإيمان وقواعد الإسلام والاستقامة في المعاملة هي التي ا تيسير سبب الموعود به

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2528 ـ 2529) .

(2) سورة النور / 54 .

(3) انظر : أنوار التنـ يل وأسرار التأويل للبيضاوي (4 / 197) .

.. فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضح لهم الشرع ، تحقق وعد الله إياهم ـذا الوعد الجليل " [1] .

3. / التقوى .

قال الله تعالى {أَلا إِن أَولِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ـ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}[2]. فأولياء الله المؤمنين به وبرسوله المتقين لمعاصيه لا خوف عليهم في الدنيا ولا في الآخرة . ففي الآية " استئناف للتصريح بوعد المؤمنين المعرض به في قوله{إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ}[3] الآية .. وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من الكفار من أذى و ـديد ، إذ أعلن الله للنبي والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم ، ومن الحزن من جراء ذلك ، ولمح لهم بعاقبة النصر ، ووعدهم البشرى في الآخرة وعداً لا يقبل التغيير ولا التخلف تطميناً لنفوسهم ، كما أشعر به قوله عقبه {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ}[4]. وافتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه ، كما في قوله {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ}[5] ، ولذلك أكدت الجملة بـ (إن) بعد أداة التنبيه . وفي التعبير بـ (أولياء الله) دون أن يؤتى بضمير الخطاب كما هو مقتضى وقوعه عقب قوله (وما تعملون من عمل) يؤذن بأن المخاطبين قد حق لهم أ ـم من أولياء الله مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم . وجملة (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) خبر (إن) . والخوف : توقع حصول المكروه للمتوقع ، فيتعدى بنفسه إلى الشيء المتوقع حصوله . فيقال : خاف الشيء ، قال تعالى (فلا تخافوهم وخافون) . وإذا كان توقع حصول المكروه لغير المتوقع يقال للمتوقع : خاف عليه ، كقوله تعالى (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . وقد اقتضى نظم الكلام نفي جنس الخوف لأن

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير (18 / 283 ـ 284) .
(2) سورة يونس / 62 ـ 63 .
(3) سورة يونس / 61 .
(4) سورة يونس / 64 .
(5) سورة البقرة / 12 .

(لا) إذا دخلت على النكرة دلّت على نفي الجنس . فمعنى (لا خوف عليهم) أ م بحيث لا يخاف عليهم خائف ، أي هم بمأمنٍ من أن يصيبهم مكروه يخاف من إصابة مثله ، فهم وإن كانوا قد يهجس في نفوسهم الخوف من الأعداء هجساً من جبلة تأثر النفوس عند مشاهدة بوادر المخافة ، فغيرهم ممن يعلم حالهم لا يخاف عليهم لأنه ينظر إلى الأحوال بنظر اليقين سليماً من التأثر بالمظاهر ، فحالهم حال من لا ينبغي أن يخاف ، ولذلك لا يخاف عليهم أولياؤهم لأ م يأمنون عليهم من عاقبة ما يتوجسون منه خيفة ، فالخوف الذي هو مصدر في الآية يقدر مضافاً إلى فاعله وهو غيرهم لا محالة ، أي لا خوف يخافه خائف عليهم ، وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوف لا يلبث أن ينقشع عنهم وتحل السكينة محله ، كما قال تعالى{وضاقَت علَيكُم الأَرض بِما رحبت ثُم وليتم مدبِرِين ـ ثُم أَنزلَ اللّه سكينته علَى رسوله وعلَى الْمؤمنِين}[1] وقال لموسى{لَا تخاف دركًا ولَا تخشى}[2] وقال{إِن الذين اتقَواْ إِذَا مسهم طَائف من الشيطَان تذَكَرواْ فَإِذَا هم مبصرونَ}[3] وكان النبي ﷺ يوم بدر يدعو الله بالنصر ويكثر من الدعاء ويقول (اللهم إن لك هذه العصابة لم تعبد في الأرض)[4] ثم خرج وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر)[5] ولهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية تغير الأسلوب في في قوله (ولا هم يحزنون) فأسند فيه الحزن المنفي إلى ضمير (أولياء الله) مع الابتداء به ، وإيراد الفعل بعده مسنداً مفيداً تقوي الحكم ، لأن الحزن هو انكسار النفس من أثر حصول المكروه عندها فهو لا توجد حقيقته إلا بعد حصوله ، والخوف يكون قبل حصوله ، ثم هم وإن كانوا يحزنون لما يصيبهم من أمور في الدنيا كقول النبي صلى الله عليه وسلم (وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون) [6] فذلك حزن وجداني لا يستقر بل يزول بالصبر ، ولكنهم لا يلحقهم

---

(1) سورة التوبة / 25 ـ 26 .

(2) سورة طه / 77 .

(3) سورة الأعراف / 201 .

(4) أخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1383) رقم 1763 .

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1067) رقم 2758 .

(6) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 1807) رقم 2315 .

الحزن الدائم وهو حزن المذلة وغلبة العدو عليهم وزوال دينهم وسلطا م ، ولذلك جيء في جانب نفي الحزن عنهم بإدخال حرف النفي على تركيب مفيد لتقوي الحكم بقوله (ولا هم يحزنون) لأن جملة (هم يحزنون) يفيد تقديم المسند إليه فيها تقوي الحكم الحاصل بالخبر الفعلي ، فالمعنى لا يحصل لهم خوف متمكن ثابت يبقى فيهم ولا يجدون تخلصاً منه " [1]. وقال القرطبي رحمه الله " (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم) أي في الآخرة (ولا هم يحزنون) لفقد الدنيا . وقيل : (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن . قال الله تعالى{إِن الذين سبقَت لَهم منا الْحسنى أُولَئك عنها مبعدونَ}[2]أي مبعدون عن جهنم ، إلى قوله{لَا يحزنهم الْفَزع الْأَكْبر}[3] وروى سعيد بن جبير رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله ؟ فقال (الذين يذكر الله برؤيتهم) [4]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية : سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكا م من الله تعالى) قيل : يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ؟ قال (هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون ا ، فوالله إن وجوههم لنور وإ م على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس) ثم قرأ {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [5] . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر ، خمص البطون من الجوع ، يبس الشفاه من الذوي . وقيل (لا خوف عليهم) في ذريتهم لأن الله يتولاهم (ولا هم يحزنون) على دنياهم لتعويض الله غياهم في أولاهم وأخراهم لأنه وليهم ومولاهم " [6] .

---

(1) انظر : تفسير ابن عاشور (11 / 215 ـ 216) .

(2) سورة الأنبياء / 101 .

(3) سورة الأنبياء / 103 .

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (12 / 13) رقم 12325 .

(5) أخرجه أبو داود في سننه (2 / 310) رقم 3527 . وصححه الألباني .

(6) انظر : تفسير القرطبي (8 / 357 ـ 358) .

4 / الاستقامة .

قال الله تعالى {إن الذين قَالُوا ربنا الله ثُم استقَاموا تتنزلُ علَيهم الْملَائكَةُ أَلَا تخافُوا ولَا تحزنوا وأَبشروا بِالْجنة التي كُنتم توعدونَ ـ نحن أَولياؤكُم في الْحياة الدنيا وفي الْآخرة ولَكُم فيها ما تشتهي أَنفُسكُم ولَكُم فيها ما تدعونَ ـ نزلًا من غَفُورٍ رحيمٍ} [1] . " والاستقامة على قولة (ربنا الله) الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها ، الاستقامة عليها شعوراً في الضمير وسلوكاً في الحياة ، الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها ، أمر ولا شك كبير وعسير . ومن ثمّ يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير ؛ صحبة الملائكة وولاءهم ومود م ، هذه التي تبدو فيما حكاه الله عنهم ، وهم في الدنيا وفي الآخرة ، ثم يصورون لهم الجنة التي يوعدون ا تصوير الصديق لصديقه ما يعلم أنه يسره علمه ورؤيته من حظه المرتقب (لكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) ويزيدو ا لهم جمالاً وكرامة . (نزلاً من غفور رحيم) فهي من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته ، فأي نعيم بعد هذا النعيم ؟ [2] .

وقال القاسمي رحمه الله في تفسير هذه الآية " (إن الذين قالوا ربنا الله) أي وحدوه بنفي غيره وعرفوه بالإيقان حق معرفته (ثم استقاموا) أي في أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم ، وذلك بالسلوك في طريقه تعالى والثبات على صراطه مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه غير ملتفتين ا إلى غيره (تت ل عليهم الملائكة) أي في الدنيا بإلهامهم أو عند الموت ، أو حين البعث (ألا تخافوا) أي ما تقدمون عليه بعد مماتكم (ولا تحزنوا) أي على ما خلفتم من دنياكم من أهل وولد ، فإنا نخلفكم في ذلك كله ، أو من الفزع الأكبر وهوله فإنكم آمنون لآية (لا يحز م الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة) والت يل يفسر بعضه بعضا . وإنما ت لت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي ، والإيمان اليقيني ، والعمل الثابت على منهاج الحق

---

(1) سورة فصلت / 30 ـ 32 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (5 / 90) .

والاستقامة في الطريقة إليه غير ناكثين في عزيمة ولا منحرفين عن وجهة ولا زائغين عن عمل "[1] .

وجاء في تفسيرها أيضاً " ومعنى (قالوا ربنا الله) أ م صدعوا بذلك ولم يخشوا أحداً بإعلا م التوحيد ، فقولهم تصريح بما في اعتقادهم لأن المراد م قالوا ذلك عن اعتقاد ، فإن الأصل في الكلام الصدق وهو مطابقة الخبر الواقع وما في الوجود الخارجي . وقوله (ربنا الله) يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند ، أي لا رب لنا إلا الله .

والاستقامة حقيقتها : عدم الاعوجاج والميل . وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق قال تعالى{فَاستقيموا إِلَيه واستغفروه}[2] وقال {فَاستقم كَما أُمرت}[3] ويقال : استقامت البلاد للملك ، أي أطاعت ، ومنه قوله تعالى{فَما استقَاموا لَكُم فَاستقيموا لَهم}[4]. فـ (استقاموا) هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به ، وأول ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد ، أي لا يغيروا ولا يرجعوا عنه . ومن معنى هذه الآية ما روي في صحيح مسلم عن سفيان الثقفي قال : قلت يا رسول الله . قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ؟ قال (قل : آمنت بالله ثم استقم)[5]. وعن أبي بكر (ثم استقاموا) : لم يشركوا بالله شيئا. وعن عمر : استقاموا على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان : ثم أخلصوا العمل لله . وعن علي : ثم أدوا الفرائض . فقد تولى تفسير هذه الآية الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره ، وعناية هؤلاء الأربعة أقطاب الإسلام ببيان الاستقامة مشير إلى أهميتها في الدين . و(ثم) للتراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأ ا تشمله

---

(1) انظر : تفسير القاسمي (8 / 224 ـ 225) .

(2) سورة فصلت / 6 .

(3) سورة هود / 112 .

(4) سورة التوبة / 7 .

(5) أخرجه أحمد في مسنده (3 / 413) رقم 15454 ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (3 / 221) رقم 942 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه ، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم (ربنا الله) كان قولاً منبعثاً عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية . وجمع قوله (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أصلَي الكمال الإسلامي . فقوله (قالوا ربنا الله) مشير إلى الكمال النفسي وهو معرفة الحق للاهتداء به ، ومعرفة الخير لأجل العمل به ، فالكمال علم يقيني وعمل صالح ، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني . وأشار قوله (استقاموا) إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق ، أي أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط . قال تعالى {اهدنا الصراطَ المُستقيم}[1] وقال{وكَذَلك جعلْناكُم أُمةً وسطًا}[2] ، على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة ، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل ، بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ، ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبري والقدري وبين الرجاء والقنوط ، وفي الأعمال بين الغلو والتفريط . و (لا) ناهية ، والمقصود من النهي عن الخوف : النهي عن سببه وهو توقع الضر ، أي لا تحسبوا أن الله معاقبكم ، فالنهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى لأ م إذا تحققوا الأمن زال خوفهم ، وهذا تطمين من الملائكة لأنفس المؤمنين .

والخوف : غم في النفس ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد . والحزن : غم في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوات نفع أو حصول ضر. وألحقوا بتأمينهم بشار م لأن وقع النعيم في النفس موقع المسرة إذا لم يخالطه توقع المكروه"[3]

وقال ابن كثير رحمه الله " (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرعه الله لهم . (أن لا تخافوا) أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة . (ولا تحزنوا) على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه . (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فيؤمن الله تعالى خوفه ويقر عينه ، فما عظيمة يخشى الناس

(1) سورة الفاتحة / 6 .

(2) سورة البقرة / 143 .

(3) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور (24 / 282 ـ 285) .

يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ولما كان يعمل في الدنيا ، ويبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث . (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم . (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون (ولكم فيها ما تدعون) أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم . (نزلاً من غفور رحيم) أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف " (1) . وقال الألوسي " (ثم استقاموا) قال الثوري : عملوا على وفاق ما قالوا . وقال الفضيل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله تعالى . (ألا تخافوا ولا تحزنوا) والمعنى : أن الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبدا " (2) .

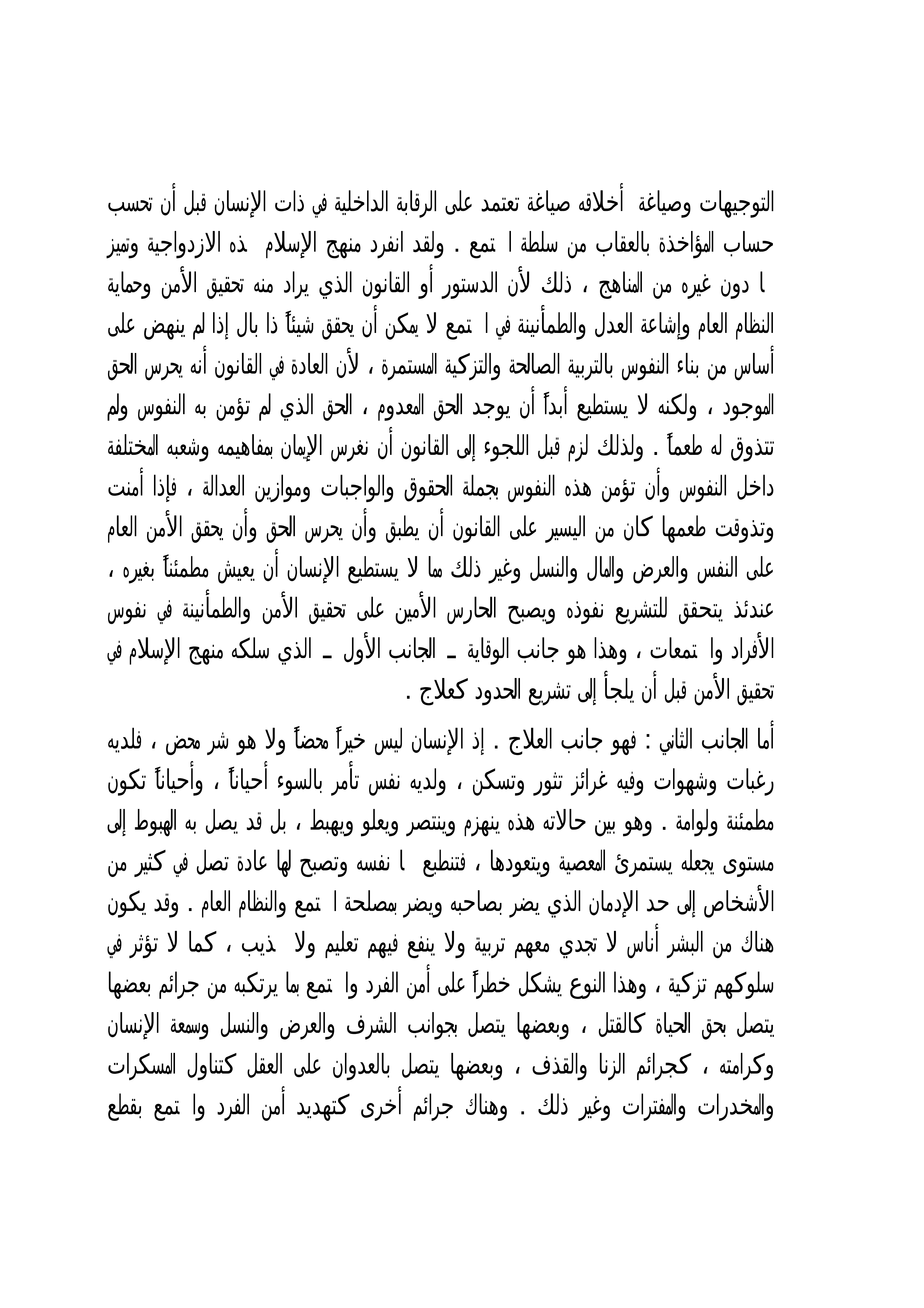
5 / إقامة الحدود .

يهدف الإسلام ضمن ما يهدف إلى بناء المجتمع الفاضل الذي يسعد فيه كل فرد بالحياة الهنيئة ويطمئن فيه كل من يعيش في ظله على نفسه وماله وعقله وعرضه ، ولقد سلك الإسلام في تحقيق هذه الغاية ـ وهي أمن الفرد والمجتمع وطمأنينة الحياة بجوانبها المختلفة ـ سلك في سبيل تحقيق هذه الغاية مسالك شتى ، زاوج فيها الإسلام بين الترغيب والترهيب ، وبين تربية النفس بتكوين الإنسان من حيث النشأة عن طريق وجود البيئة الصالحة وما يتصل بها من تربية وتعليم وثقافة حيث المؤثرات الخارجية التي تؤثر في سلوك الإنسان من ناحية . ومن ناحية ثانية اعتمد تزكية النفس الإنسانية عن طريق العبادات وإثارة جوانب التقوى والخير وتنمية جوانب الإحساس بالرقابة الإلهية في حس الإنسان ومشاعره وضبط سلوكياته في الحياة وفق هذه

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 99 ـ 100) .

(2) انظر : تفسير الألوسي (24 / 120 ـ 121) .


التوجيهات وصياغة أخلاقه صياغة تعتمد على الرقابة الداخلية في ذات الإنسان قبل أن تحسب حساب المؤاخذة بالعقاب من سلطة ا تمع . ولقد انفرد منهج الإسلام ذه الازدواجية وتميز ا دون غيره من المناهج ، ذلك لأن الدستور أو القانون الذي يراد منه تحقيق الأمن وحماية النظام العام وإشاعة العدل والطمأنينة في ا تمع لا يمكن أن يحقق شيئاً ذا بال إذا لم ينهض على أساس من بناء النفوس بالتربية الصالحة والتزكية المستمرة ، لأن العادة في القانون أنه يحرس الحق الموجود ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يوجد الحق المعدوم ، الحق الذي لم تؤمن به النفوس ولم تتذوق له طعماً . ولذلك لزم قبل اللجوء إلى القانون أن نغرس الإيمان بمفاهيمه وشعبه المختلفة داخل النفوس وأن تؤمن هذه النفوس بجملة الحقوق والواجبات وموازين العدالة ، فإذا أمنت وتذوقت طعمها كان من اليسير على القانون أن يطبق وأن يحرس الحق وأن يحقق الأمن العام على النفس والعرض والمال والنسل وغير ذلك مما لا يستطيع الإنسان أن يعيش مطمئناً بغيره ، عندئذ يتحقق للتشريع نفوذه ويصبح الحارس الأمين على تحقيق الأمن والطمأنينة في نفوس الأفراد وا تمعات ، وهذا هو جانب الوقاية ـ الجانب الأول ـ الذي سلكه منهج الإسلام في تحقيق الأمن قبل أن يلجأ إلى تشريع الحدود كعلاج .

أما الجانب الثاني : فهو جانب العلاج . إذ الإنسان ليس خيراً محضاً ولا هو شر محض ، فلديه رغبات وشهوات وفيه غرائز تثور وتسكن ، ولديه نفس تأمر بالسوء أحياناً ، وأحياناً تكون مطمئنة ولوامة . وهو بين حالاته هذه ينهزم وينتصر ويعلو ويهبط ، بل قد يصل به الهبوط إلى مستوى يجعله يستمرئ المعصية ويتعودها ، فتنطبع ا نفسه وتصبح لها عادة تصل في كثير من الأشخاص إلى حد الإدمان الذي يضر بصاحبه ويضر بمصلحة ا تمع والنظام العام . وقد يكون هناك من البشر أناس لا تجدي معهم تربية ولا ينفع فيهم تعليم ولا ذيب ، كما لا تؤثر في سلوكهم تزكية ، وهذا النوع يشكل خطراً على أمن الفرد وا تمع بما يرتكبه من جرائم بعضها يتصل بحق الحياة كالقتل ، وبعضها يتصل بجوانب الشرف والعرض والنسل وسمعة الإنسان وكرامته ، كجرائم الزنا والقذف ، وبعضها يتصل بالعدوان على العقل كتناول المسكرات والمخدرات والمفترات وغير ذلك . وهناك جرائم أخرى كتهديد أمن الفرد وا تمع بقطع

الطريق وترويع الآمنين باغتصاب أموالهم والاعتداء عليهم وإشاعة الخوف في جوانب الحياة المختلفة ، وذلك ما تعرف عقوبته في الفقه الإسلامي بحد الحرابة .

وهذه الجرائم وغيرها قد حدد لها الإسلام عقوبات محددة بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، حتى لا يترك مجالاً لتغيرها وتبديلها مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة . غير أن الجرائم لا تنحصر في هذه الأنواع فقط ؛ وإنما هذه الأنواع بمثابة أمهات الجرائم الخطيرة التي تهدد أمن الفرد والمجتمع و تهدد الكيان العام ، إذا تركت بغير عقاب يحمي الفرد والمجتمع ويحقق الردع العام لكل من تسول له نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم أو أن يعبث بالأمن العام . وقد كان منهج الإسلام واضحاً قاطعاً في تحديد العقوبات لهذه الأنواع من الجرائم نظراً لما تشكله من خطر على أمن الفرد والمجتمع بانتهاك حقوق الله وحقوق الأفراد ، ولما يترتب عليها من ضرر يتعلق بكليات المصالح الخمس التي جاءت شريعة الإسلام لحمايتها وتوفير الأمن والاستقرار لها والتي بدونها تفسد الحياة وتضيع مصالح الناس في دينهم ودنياهم معاً ، وهذه الكليات هي :

1 : الدين ؛ وقد شرعت لحفظه عقوبة قتل المرتد .

2 : النفس ؛ وقد شرعت لحفظها وحمايتها عقوبة القصاص .

3 : العقل ؛ وقد شرعت لحفظه وحمايته عقوبة حد الشرب .

4 : العرض ؛ وقد شرعت لحفظه وحمايته عقوبة الرجم أو الجلد مائه ، حسب حالة الزاني من حيث الإحصان وعدمه ، وكذلك شرعت عقوبة الجلد حماية لسمعة الإنسان وشرفه كحد القذف .

5 : المال ؛ وقد شرعت لحفظه وحمايته عقوبة قطع اليد .

أما سائر الجرائم والجنح والانحرافات الأخرى ، وهي التي تتفاوت درجة الخطورة والمفسدة فيها من عصر إلى آخر ؛ فقد أحالها الإسلام إلى بصيرة الحاكم المسلم المخلص لدين الله والمتبصر لمصلحة الأمة ، يقرر لها من العقوبات ما يرى أنه الخير والمصلحة . وذلك ما

يعرف عند الفقهاء بمبدأ التعازير . ويلاحظ في هذه العقوبات أ ا تقوم على دعامتين أساسيتين :

أحدهما : حماية أمن الفرد وا تمع من موجات الإجرام التي ترتكبها العصابات المنظمة ، أو يرتكبها أفراد بذوا م في كل حال تشكل خطراً يهدد الأمن ويروع الناس ويثير الفزع ويعطل الحياة .

ثانيهما : أ ا عقوبات لا يفلت منها مجرم بذاته أو بصفته مهما كان هو ، ومهما كان موقعه في سلم الحياة الاجتماعية ، فالكل في نظر الإسلام سواء وليست هناك اعتبارات فوق الحق والعدالة الإنسانية لشخص ما مهما كان هو . وهذا ما وضحه وقرره النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة المرأة المخزومية حين أراد قومها أن يستشفعوا لها وقد سرقت ـ وهي الشريفة الحسيبة فما يجب في نظرهم أن تؤاخذ بالعقوبة ـ حينما قال للصحابي الجليل أسامة بن زيد رضي الله عنه (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أ م إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1]

ومن الآيات الدالة على أن إقامة الحدود من أسباب الأمن :

1 : إقامة حد الحرابة لأمن الأمة . قال الله تعالى {إنما جزاء الذين يحارِبونَ اللّه ورسولَه ويسعونَ في الأَرضِ فَسادا أَن يقَتلُواْ أَو يصلبواْ أَو تقَطع أَيديهم وأَرجلُهم من خلاف أَو ينفَواْ من الأَرضِ ذَلك لَهم خزي في الدنيا ولَهم في الآخرة عذَاب عظيم }[2] . " الأصل في المحاربة الاعتداء والسلب وإزالة الأمن كما قال تعالى { فأذنوا بحرب من الله ورسوله} وليس معناه محاربة المسلمين . فمن لم يذعنوا للشرع فيما يخاطبهم به في دار الإسلام يعدون محاربين لله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، فيجب على الإمام الذي يقيم العدل ويحفظ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه(3 / 1282) رقم 3288 وأخرجه مسلم في صحيحه(3 / 1311) رقم 1688.
(2) سورة المائدة / 33 .

النظام أن يقاتلهم على ذلك ـ كما فعل الصديق رضي الله عنه بمانعي الزكاة ـ حتى يفيئوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم في أي وقت يقبل منه ويكف عنه ، ولكن إذا امتنعوا على إمام العدل المقيم للشرع وعثوا إفساداً في الأرض كان جزاؤهم ما بينه الله في هذه الآية " [1] " أي إنما كانت المحاربة عظيمة الضرر ؛ لأن فيها سد سبيل الكسب على الناس ، لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات ، وركنها وعمادها الضرب في الأرض . فإذا أُخيف الطريق انقطع الناس عن السفر ، واحتاجوا إلى لزوم البيوت ، فانسد باب التجارة عليهم وانقطعت أكسا م . فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلّظة وذلك الخزي في الدنيا ردعاً لهم عن سوء فعلهم ، وفتحاً لباب التجارة التي أباحها لعباده لمن أرادها منهم ، ووعد فيها بالعذاب العظيم في الآخرة " [2] .

2 : إقامة حد الزنا لأمن الأنساب . قال الله تعالى {الزانِيةُ والزانِي فَاجلدوا كُلَّ واحد منهما مئَةَ جلْدة ولَا تأْخذْكُم بِهما رأْفَةٌ في دينِ الله إِن كُنتم تؤمنونَ بِالله والْيومِ الْآخرِ ولْيشهد عذَابهما طَائفَةٌ من الْمؤمنِين}[3] " أمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حد الزنا تحقيقاً لإقامة الحد وحذراً من التساهل فيه ، فإن الإخفاء ذريعة للإنسان ، فإذا لم يشهده المؤمنون فقد يتساءلون عن عدم إقامته ، فإذا تبين لهم إهماله فلا يعدم بينهم من يقوم بتغيير المنكر من تعطيل الحدود " [4] . وقوله (وليشهد عذا ما طائفة من المؤمنين) " فقه ذلك أن الحد يردع المحدود ، ومن شهده وحضره يتعظ به ويزدجر لأجله ، ويشيع حديثه ؛ فيعتبر به من بعده " [5] .

---

(1) انظر : تفسير المنار (6 / 356 ـ 357) .

(2) انظر : تفسير القرطبي (6 / 157) .

(3) سورة النور / 2 .

(4) انظر : تفسير ابن عاشور (18 / 151) .

(5) انظر : تفسير ابن العربي (3 / 335) .

3 : إقامة حد السرقة لأمن الأموال . قال الله تعالى {والسارق والسارِقَةُ فَاقْطَعوا أيديهما جزاء بِما كَسبا نكَالاً من اللّه واللّه عزيز حكيم }[1]. جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين في الأرض ، وهنا يأتي بقضية أخرى يريد أن يصون ا ثمرة حركة المؤمن في مجتمعه ، لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لابد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان فجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلابد أن يزهد المتحرك في الحركة ، وحين يزهد الإنسان في الحركة يتوقف تقدم الوجود؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله . إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة المتحرك . ويريد أيضاً ألا يقتات الإنسان ويتمتع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره ، ساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ، لأن المراد من الجزاء العبرة والعظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله ، إن أخذته الغفلة في سياسة الحياة [2] . "وقوله (جزاء بما كسبا) أي ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس (نكالا من الله) أي تنكيلا وترهيبا للسارق ولغيره ليرتدع السارق ـ إذا علموا ـ أ م سيقطعون إذا سرقوا (والله عزيز حكيم) أي عز وحكم فقطع السارق " [3] .

4 : إقامة حد القذف لأمن الأعراض . قال الله تعالى {والذين يرمونَ الْمحصنات ثُم لَم يأْتوا بِأَربعة شهداء فَاجلدوهم ثَمانِين جلْدةً ولَا تقْبلُوا لَهم شهادةً أَبدا وأُولَئك هم الْفَاسقُونَ} [4] " هذه الآية أصل في حد الفرية والقذف الذي كان أول ظهوره في رمي المحصنات بالزنى . فكل رمي بما فيه معرةٌ موجب للحد بالإجماع المستند للقياس " [5].

---

(1) سورة المائدة / 38 .

(2) انظر : تفسير الشعراوي (5 / 3114 ـ 3123) .

(3) انظر : تفسير السعدي (1 / 231) .

(4) سورة النور / 4 .

(5) انظر : تفسير ابن عاشور (18 / 161) .

5 : إقامة القصاص لأمن النفوس . قال الله تعالى {يا أيها الذين آمنواْ كُتب علَيكُم الْقصاص في الْقَتلَى الْحر بِالْحر والْعبد بِالْعبد والأُنثَى بِالأُنثَى فَمن عفي لَه من أَخيه شيءٌ فَاتباع بِالْمعروف وأَداء إِلَيه بِإِحسان ذَلك تخفيف من ربكُم ورحمةٌ فَمنِ اعتدى بعد ذَلك فَلَه عذَاب أَليم ـ ولَكُم في الْقصاصِ حياةٌ ياْ أُولي الأَلْبابِ لَعلَّكُم تتقُونَ}[1]. إن القصاص من القاتل عبرة لغيره ، وحماية لسائر أفراد المجتمع . إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول وولي الدم . فإذا علم القاتل أن الله قد قدر القصاص بأن هذا يفرض عليه أن يسلم نفسه . وعلى أهله ألا يخفوه بعيداً عن أعين الناس ، لأن القاتل عليه أن يتحمل مسؤولية ما فعل . وحين يجد القاتل نفسه محوطاً بمجتمع مؤمن يرفض القتل ، فإنه يرتدع ولا يقتل . إذن ففي القصاص حياة لأن الذي يرغب في أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك من سيقتص منه ، وأن هناك من لا يقبل المداراة عليه [2] .

" وقوله (ولكم في القصاص حياة) يقول تعالى وفي شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان في ذلك حياة للنفوس . وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز (ولكم في القصاص حياة) قال أبو العالية جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل " [3] .

6 / ومن أسباب الأمن الخوف من عقاب الله .

قال الله تعالى {أَفَأَمن أَهلُ الْقُرى أَن يأْتيهم بأْسنا بياتاً وهم نآئمونَ ـ أَو أَمن أَهلُ الْقُرى أَن يأْتيهم بأْسنا ضحى وهم يلْعبونَ ـ أَفَأَمنواْ مكْر اللّه فَلاَ يأْمن مكْر اللّه إِلا الْقَوم الْخاسرونَ}[4] " (أفأمن أهل القرى) وتلك سنة الله في الابتلاء بالضراء والسراء والبأساء

---

(1) سورة البقرة / 178 ـ 179 .

(2) انظر : تفسير الشعراوي (2 / 752) .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 212) .

(4) سورة الأعراف / 97 ـ 99 .

والنعماء ، وتلك مصارع المكذبين السادرين ، أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله في غفلة من غفلا م وغرة من غرا م وأمنة من أمنا م ؟ أفأمنوا أن تأتيهم قوة الله بالهلاك والدمار (بياتاً وهم نائمون) والإنسان في النوم مسلوب اليقظة مسلوب الإرادة مسلوب القوة لا يملك أن يدفع عن نفسه عادية من حشرة صغيرة ، فكيف ببأس الله وقوته التي لا يقف لها الإنسان في أشد ساعات صحوه واستعداده وقوته ؟ أو أمنوا أن يأتيهم بأس الله (ضحى وهم يلعبون) واللعب يستغرق اليقظة والتحفز ، ويلهي عن الأهبة والاستعداد فلا يملك الإنسان وهو غار في لعبه أن يدفع عن نفسه مغيراً ، فكيف بدفع غارة الله التي لا يقف لها الإنسان وهو في أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع ؟ وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له صاحين أم نائمين ، لاعبين أم جادين . ولكن السياق يعرض لحظات الضعف الإنساني ، ليلمس الوجدان البشري بقوة ، ويثير حذره وانتباهه حين يترقب الغارة الطامة الغامرة في لحظة من لحظات الغفلة والغرة والفجاءة ، وما هو بناج في يقظة أو غرة فكلتاهما أمام بأس الله في الضعف سواء . (أفأمنوا مكر الله) وتدبيره الخفي الذي لا يعلمه البشر فيأخذوا أهبتهم لدفعه على فرض أ م قادرون . (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار [1] . وقال السعدي رحمه الله " فإن من أمن من عذاب الله فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان . وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان بل لا يزال خائفا وجلا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان وأن لا يزال داعيا بقوله (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) [2] وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن فإن العبد ـ ولو بلغت به الحال ما بلغت ـ فليس على يقين من السلامة " [3] .

7 / الدعاء بالأمن .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (3 / 1340) .

(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي (4 / 448)2140 وأخرجه أحمد (3 / 112) 12128 وصححه الألباني .

(3) انظر : تفسير السعدي (1 / 298) .

قال الله تعالى {وإِذْ قَالَ إبراهيم رب اجعلْ هَذَا بلَدا آمنا وارزق أهلَه من الثمرات من آمن منهم بِاللّه والْيومِ الآخرِ قَالَ ومن كَفَر فَأُمتعه قَليلاً ثُم أَضطَره إِلَى عذَابِ النارِ وبِئْس الْمصير}[1] فقوله (بلداً) " أي يأنس من يحلّ به (آمناً) أي من الخوف ؛ أي لا يرعب أهله ، وقد أجاب الله دعاءه كقوله تعالى{ومن دخلَه كَانَ آمنا}[2] وقوله{أولَم يروا أنا جعلْنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أَفَبِالْباطلِ يؤمنونَ وبِنِعمة الله يكْفُرونَ}[3] إلى غير ذلك من الآيات . وصحت أحاديث متعددة بتحريم القتال فيه ، ففي صحيح مسلم عن جابر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح) [4] فهو آمن من الآفات لم يصل إليه جبار إلا قصمه الله ، كما فعل بأصحاب الفيل " [5] " ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة ، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدو ا وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول ، وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة ، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام " [6] .

وقال تعالى {وإِذْ قَالَ إبراهيم رب اجعلْ هذَا الْبلَد آمنا واجنبنِي وبنِي أَن نعبد الأَصنام ـ رب إِنهن أَضلَلْن كَثيرا من الناسِ فَمن تبِعنِي فَإِنه مني ومن عصانِي فَإِنك غَفُور رحيم}[7] قال الألوسي " هذه الآية وما تلاها مقررة لما حثّ عليه من الشكر بالإيمان والعمل الصالح وفي إرشاد العقل السليم أن المراد منها تأكيد ما سلف من تعجيبه صلى الله عليه وسلم ببيان

---

(1) سورة البقرة / 126 .
(2) سورة آل عمران / 97 .
(3) سورة العنكبوت / 67 .
(4) أخرجه مسلم في صحيحه (2 / 989) رقم 1356.
(5) انظر : تفسير القاسمي (1 / 439) .
(6) انظر : تفسير ابن عاشور (1 / 715) .
(7) سورة إبراهيم / 35 ـ 36 .

فن آخر من جنايات القوم ، حيث كفروا بالنعم الخاصة م بعد ما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام ، حيث أسكنهم مكة زادها الله تعالى شرفاً لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى ، وسأله أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات ويهوى قلوب الناس إليهم ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء ، فكفروا بتلك النعم العظام ، واستبدلوا دار البوار بالبلد الحرام ، وجعلوا لله تعالى أنداداً ، وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام " [1] . وقال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية " أي : واذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) أي الحرم (آمنا) فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا فحرمه الله في الشرع ويسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم . ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه بالإيمان فقال (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) أي اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عباد ا والإلمام ا " [2] .

قال القاسمي رحمه الله " وتعريف كلمة (البلد) في سورة إبراهيم مع مجيئها صفة لكلمة (هذا) في سورة البقرة ، إما أن يحمل على تعدد السؤال بأن تكون الدعوة الأولى المذكورة في سورة البقرة وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً ، كأنه قال : اجعل هذا الوادي بلداً آمناً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال { ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع } فقال ههنا : اجعل هذا الوادي بلداً آمناً . والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة ، وإما أن يحمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر ، فالظاهر أن المسئول كلا الأمرين ، وقد حكى ذلك هنا ، واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن ، اكتفاءً عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال اجعل أفئدة الناس وي إليه ، هذا خلاصة ما حققوه ، وعندي أن السؤال والمسئول واحد

---

(1) انظر : تفسير الألوسي (13 / 233 ـ 234) .

(2) انظر : تفسير السعدي (1 / 426) .

، إلا أنه تفنن في الموضعين ، فحذف من كل ما أثبته في الآخر احتباكاً ، والأصل : رب اجعل هذا البلد آمناً ، وبه تتطابق الدعوتان على أبدع وجه وأخلصه من التكلف ، على ما فيه من إفادة المبالغة ، أي بلداً كاملاً في الأمن ، كأنه قيل: اجعله بلداً معلوم الاتصاف بالأمن مشهوراً به كقولك : كان هذا اليوم يوماً حاراً ، وفي القاموس وشرحه التاج : البلد والبلدة علَم على مكة ، شرفها الله تعالى تفخيماً لها كالنجم للثريا " [1] .

8 / شكر الله المنعم بالأمن ، وعدم الكفر به .

ومما يدل على هذا المعنى قول الله تعالى {لَقَد كَانَ لسبإٍ في مسكَنِهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رزقِ ربكُم واشكُروا لَه بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور ـ فَأَعرضوا فَأَرسلْنا علَيهم سيلَ الْعرِمِ وبدلْناهم بِجنتيهم جنتينِ ذَواتى أُكُلٍ خمط وأَثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قَليلٍ ـ ذَلك جزيناهم بِما كَفَروا وهلْ نجازِي إِلا الْكَفُور ـ وجعلْنا بينهم وبين الْقُرى التي باركْنا فيها قُرى ظَاهرةً وقَدرنا فيها السير سيروا فيها لَيالي وأَياما آمنِين ـ فَقَالُوا ربنا باعد بين أَسفَارِنا وظَلَموا أَنفُسهم فَجعلْناهم أَحاديثَ ومزقْناهم كُلَّ ممزقٍ إِن في ذَلك لَآيات لكُلِّ صبارٍ شكُورٍ}[2].

" في الآية دليل واضح على أن تأمين الطريق وتيسير المواصلات وتقريب البلدان لتيسير تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق من هنا ومن هناك نعمة إلهية ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده . وعلى أن الإجحاف في إيفاء النعمة حقها من الشكر يعرض ا للزوال وانقلاب الأحوال " [3] " فلما أعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم سلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه فأرسل السيل الجارف فحطم السد فضيق عليهم الرزق وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة " [4] .

---

(1) انظر : تفسير القاسمي (1 / 439 ـ 440) .

(2) سورة سبا / 15 ـ 19 .

(3) انظر : تفسير التحرير والتنوير (22 / 181) .

(4) انظر : في ظلال القرآن (5 / 2901) .

وقال الله تعالى {وضرب اللّه مثَلاً قَريةً كَانت آمنةً مطْمئنةً يأْتيها رِزقُها رغَدا من كُلِّ مكَان فَكَفَرت بِأَنعمِ اللّه فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ}[1] .

حيث جعل الله سبحانه لأهل مكة مثلاً يعتبرون به هو قصة قرية من القرى كان أهلها في مأمن من العدو وطمأنينة من ضيق العيش يأتيهم رزقهم واسعاً من كل مكان ؛ فجحدوا أنعم الله عليهم ولم يشكروه بطاعته وامتثال أمره ؛ فعاقبهم الله بالمصائب التي أحاطت بهم من كل جانب ، وذاقوا مرارة الجوع والخوف بعد الغنى والأمن ، وذلك بسبب تماديهم في الكفر والمعاصي . والمراد بـ " الأمن السلامة من تسلّط العدو . والاطمئنان : الدعة وهدوء البال . وقدم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه . كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق . وقوله (يأتيها رزقها رغداً) تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش . والرغد : الوافر الهنيء . وقوله (فكفرت بأنعم الله) معنى الكفر بأنعم الله : الكفر بالمُنعم ، لأنهم أشركوا غيره في عبادته ، فلم يشكروا المُنعم الحق . (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) أي أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليما "[2] .

إن القرية إذا أمنت المخاطرات كمهاجمة الأشرار وشن الغارات وقتل النفوس وسبي الذراري ونهب الأموال ، وكذا أمنت الحوادث الطبيعية كالزلازل وغيرها ؛ اطمأنت وسكنت فلم يضطر أهلها إلى الجلاء والتفرق . ومن كمال اطمئنانها أن يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ولا يلجأ أهلها إلى الاغتراب وقطع الفيافي وركوب البحار وتحمل المشاق البالغة في طلب الرزق وجلبه إليها . فإذا كفر أهلها بهذه النعم الإلهية ولم يشكروه سبحانه فيذيقهم الله شيئاً يسيراً من نقمته بسلب هذه النعم وبإذاقتهم الجوع والخوف جزاءً لكفرانهم نعم الله عليهم .

---

(1) سورة النحل / 112 .

(2) انظر : تفسير ابن عاشور (14 / 304 ـ 307) .

وقال تعالى {أتتركُونَ في ما هاهنا آمِنِين ـ في جنات وعيون ـ وزروعٍ ونخلٍ طَلْعها هضيم ـ وتنحتونَ من الْجِبالِ بيوتا فَارِهين ـ فَاتقُوا الله وأطيعون} [1] " إن (هاهنا) إشارة إلى بلادهم أي في جميع ما تشاهدونه ، وهذا إيجاز بديع . (آمنين) حال مبينة لبعض ما أجمله قوله (في ما هاهنا) وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة ؛ لأ ا لا يشار إليها وهي نعمة الأمن ، التي هي من أعظم النعم ، ولا يتذَوق طعم النعم الأخرى إلا ا . وقوله (في جنات) ينبغي أن يعلق بـ (آمنين) ليكون مجموع ذلك تفصيلاً لإجمال اسم الإشارة ، أي اجتمع لهم الأمن ورفاهية العيش " [2] . " فهم يعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح ، ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ، ولا يتدبرون منشأه ومأتاه ، ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم ، فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته ويخافوا زواله . وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية وتنبه فيها الحرص والخوف (أتتركون فيما هاهنا آمنين) أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة ، وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت ولا يزعجكم سلب ولا يفزعكم تغيير ؟ وبعد أن يلمس قلو م هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى وإلى الطاعة وإلى مخالفة الملأ الجائرين البعيدين عن الحق والقصد المباليين إلى الفساد والشر (فاتقوا الله وأطيعون) " [3] .

---

(1) سورة الشعراء / 146 ـ 150 .

(2) انظر : تفسير ابن عاشور (19 / 175) .

(3) انظر : في ظلال القرآن (5 / 2611 ـ 2612) .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على سنة الأمن والخوف .

لقد تحققت سنة الله تعالى في الأمن والخوف على مدار التاريخ ، يتجلى ذلك بوضوح عند الاطلاع على القصص القرآني المبثوث في ثنايا كتاب الله الكريم . ومن ذلك :

❁ قوله تعالى {أَلَم تر كَيف فَعلَ ربك بِأَصحابِ الْفيلِ ـ أَلَم يجعلْ كَيدهم في تضليلٍ ـ وأَرسلَ علَيهم طَيرا أَبابِيلَ ـ ترميهم بِحجارة من سجيلٍ ـ فَجعلَهم كَعصف مأْكُولٍ}[1] . {لإِيلَاف قُريشٍ ـ إِيلَافهم رِحلَةَ الشتاء والصيف ـ إِيلَافهم رِحلَةَ الشتاء والصـيف ـ فَلْيعبدوا رب هذَا الْبيت الذي أَطْعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف}[2] .

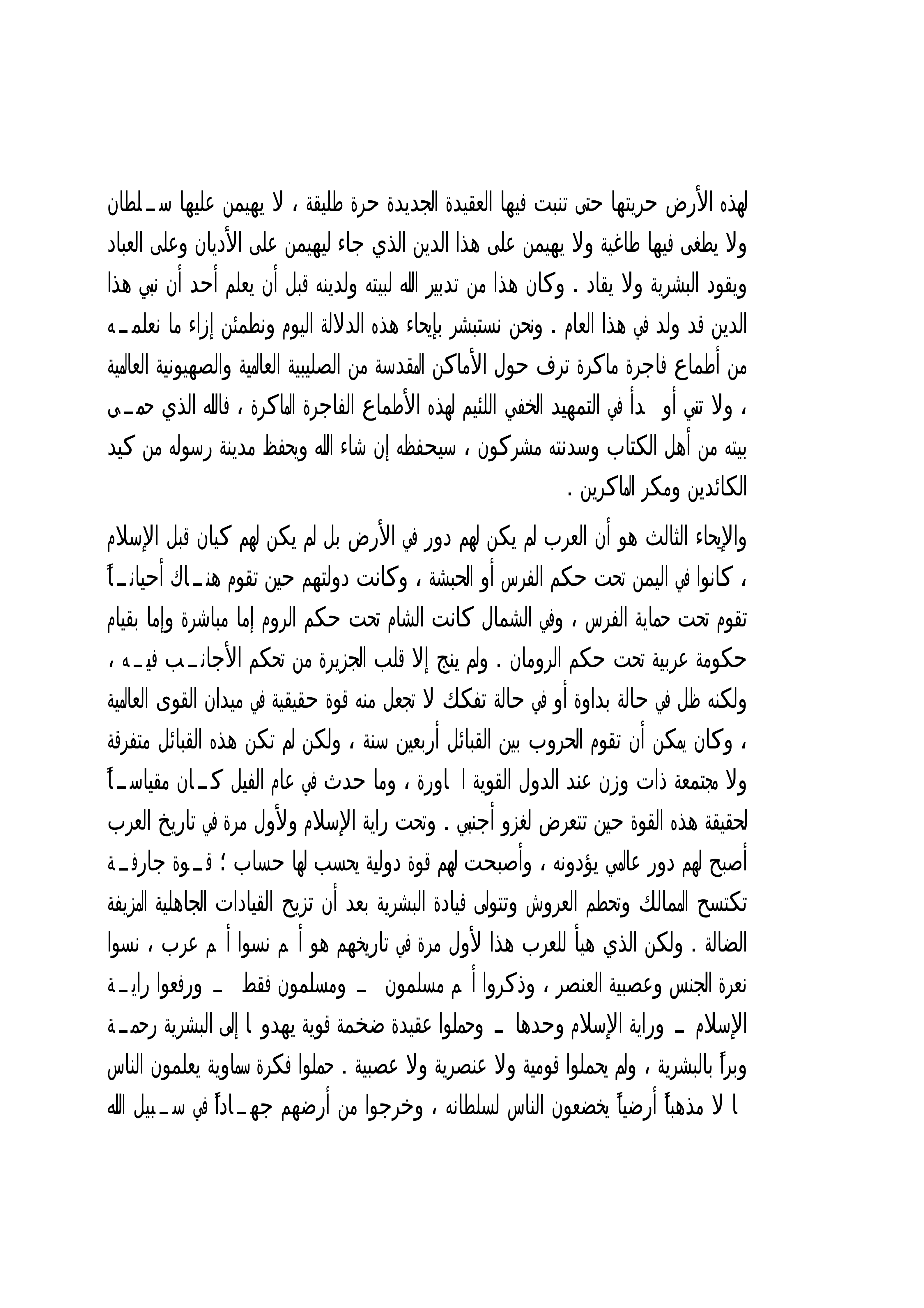
" وأول ما توحي به هذه الآيات أن الله سبحانه لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ولو أ م كانوا يعتزون ذا البيت ويحمونه ويحتمون به ، فلما أراد أن يصونه ويحرسـه ويعلـن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سـافرة لتدفع عن بيت الله الحرام حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سـابقة في حمايتـه ، بحميتهم الجاهلية . ولعلّ هذه الملابسة ترجح ترجيحاً قوياً أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة ـ لا السنة المألوفة المعهودة ـ فهذا أنسب وأقرب . ولقد كان مـن مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبـادر العرب إلى الدخول في دين الله حينما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم وألا يكـون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع من الإسلام ! وهذا التـذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد .

كذلك توحي الأدلة ودلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة ، حتى والشرك يدنسه والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين مصوناً من كيد الكائدين ولـيحفظ

---

(1) سورة الفيل / 1 ـ 5 .

(2) سورة قريش / 1 ـ 4 .



لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليها سـلطان ولا يطغى فيها طاغية ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام . ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن إزاء ما نعلمـه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولا تني أو دأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة ، فالله الذي حمـى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين .

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض بل لم يكن لهم كيان قبل الإسلام ، كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة ، وكانت دولتهم حين تقوم هنـاك أحيانـاً تقوم تحت حماية الفرس ، وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حكم الرومان . ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانـب فيـه ، ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية ، وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية ا اورة ، وما حدث في عام الفيل كـان مقياسـاً لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي . وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه ، وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب ؛ قـوة جارفـة تكتسح الممالك وتحطم العروش وتتولى قيادة البشرية بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة . ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أ م نسوا أ م عرب ، نسوا نعرة الجنس وعصبية العنصر ، وذكروا أ م مسلمون ـ ومسلمون فقط ـ ورفعوا رايـة الإسلام ـ وراية الإسلام وحدها ـ وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدو ا إلى البشرية رحمـة وبراً بالبشرية ، ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس ا لا مذهباً أرضياً يخضعون الناس لسلطانه ، وخرجوا من أرضهم جهـاداً في سـبيل الله

وحده ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعـون في ظلـها ويشـمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العـرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحـده ، كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه ـ رسولُ المسلمين في مجلس يزدجرد : الله ابتعثنـا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . عندئذ فقط كان للعرب وجود وكانت لهم قوة وكانـت لهم قيادة ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله ، وقد ظلت لهم قوتهم وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة ، حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم ، لأن الله قد تـركهم حيثمـا تركـوه ونسيهم مثلما نسوه . وما العرب بغير الإسلام ؟ ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلّوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكر ؟ إن كـل أمـة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق والبرابرة الذين اجتاحوا الدولـة الرومانيـة في الغـرب لم يستطيعوا الحياة طويلاً ؛ إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها . والفكرة الوحيدة التي تقـدمها العرب للبشرية كانت في العقيدة الإسلامية ، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلّوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم في التاريخ دور . وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيداً إذا هم أرادوا الحياة وأرادوا القوة وأرادوا القيادة .

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمـنين ، حيثما حلّوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطـوط التجارة ـ عن طريق القوافل ـ إلى اليمن في الجنوب ، وإلى الشام في الشمال ، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن في الشتاء ، والثانية إلى الشام في الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء ، وعلى ما كان شـائعاً مـن غارات السلب والنهب ، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول في أمان وسلام وطمأنينة ، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين فصارتا لهم عادة وإلفا . هذه هي المنة التي يذكرهم الله ا بعد البعثة ، كما ذكرهم منة حادث الفيل في السورة السابقة ، منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم اتين الرحلتين ـ وبلادهم قفرة جفرة ـ وهم طاعمون هانئون من فضل الله ، ومنة أمنهم الخوف سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم في أسـفارهم وترحـالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء ، يذكرهم ذه المنن ليسـتحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه وهو رب هذا البيت الذي يعيشـون في جـواره آمـنين طاعمين ، ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين . يقول لهم : من أجل إيـلاف قـريش رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم مـن جـوع) وكان الأصل بحسب حالة أرضهم أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجـوع (وآمنهم من خوف) وكان الأصل بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئـة مـن حولهم أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس ويثير الخجل في القلوب ، وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حيا ا ، ومـا كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلـب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة ؛ إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته . لم يواجهه بصنم ولا وثن ولم يقل له إن الآلهة ستحمي بيتها ؛ إنما قال له : أنا رب الإبل وإن للبيـت رباً سيمنعه . ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق ولا يثوب إلى حق ولا يرجـع إلى معقول . وهذه السورة ـ أي سورة قريش ـ تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحيـة موضوعها ووجودها ، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة . والروايات تذكر أنـه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور ولكن ترتيبها في المصحف متـواليتين

يتفق مع موضوعهما القريب " [1] . وجاء في تفسير هذه الآيات " ومعنى الآية (فليعبـدوا رب هذا البيت) تذكير قريش بنعمة الله عليهم إذ يسر لهم ما لم يتأنّ لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين في السنة كلها بما يسر لهم من بناء الكعبة وشرعة الحج وأن جعلهم عمار المسجد الحرام ، وجعل لهم مهابةً وحرمة في نفوس العرب كلهم في الأشهر الحرم وفي غيرها ، وعند القبائل التي تحرم الأشهر الحرم والقبائل التي لا تحرمها مثل طيء وقضاعة وخثعم ، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنو ا إلى شمالها ، ولاذ م أصحاب الحاجات يسافرون معهم ، وأصحاب التجارات يحملو م سلعهم وصارت مكـة وسطاً تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد ، فاستغنى أهلُ مكة بالتجارة إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع إذ كانوا بواد غير ذي زرع ، وكانوا يجلبون أقوا م فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر وشعير وذرة وزبيـب وأديم وثيـاب والسيوف اليمانية ومن بلاد الشام الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثيـاب والسـيوف الشرفية ، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن لله عليهم نعماً كثيرة لأن هذا الإيـلاف كان سبباً جامعاً لأهم النعم التي ا قوام بقائهم " [2] .

وقال القرطبي " (فليعبدوا رب هذا البيت) أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيـده ، لأجـل إيلافهم رحلتين . ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى : إمـا لا فليعبدوه لإيلافهم ؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسـائر نعمه ، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة . والبيت : الكعبة . وفي تعريـف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنـها . الثاني : لأ م بالبيت شرفوا على سائر العرب ؛ فذكر لهم ذلك تـذكيراً لنعمتـه . وقيـل

---

(1) انظر : الظلال (6 / 3980 ـ 3983) .
(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (30 / 559 ـ 560) .

(فليعبدوا رب هذا البيت) أي ليألفوا عبادة رب الكعبة كما كانوا يألفون الرحلتين . قـال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى ورحلة إلى اليمن فقيل لهم (فليعبدوا رب هذا البيت) أي يقيموا بمكة رحلة الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام " [1] .



ويحتوي على تمهيد وثلاثة مباحث : –

تمهيد :

سنن الله في الرزق وقوانينه وجدت لكي ينتفع ا عباده في مختلف مناشط الحياة فمـن أتقـن التعامل مع هذه السنن وربط الأسباب بالمسببات ظفر بنتائج سليمة ، وقد يكون الرزق بسبب أو بدون سبب وبطلب وبغيره ، فقد يحصل الإنسان على المال عن طريق لا يفكر فيها كالوصية أو الهدية أو الهبة أو أي رزق ساقه الله ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من أكل أو شرب ناسيا فلا يفطر فإنما هو رزق رزقه الله) [1] . وعن إحدى بنات الحـارث بن عامر قالت : والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا مـن

(1) أخرجه الترمذي في سننه (3 / 100) رقم 721 . قال عنه الألباني : صحيح .

عنب في يده ، وإنه لموثق بالحديد ، وما بمكة من ثمره ، وكانت تقول : إنه رزق رزقه الله خبيبا [1]. ولكن لله عز وجل سننا في خلقه مرتبطة بمشيئته ومن هذه السنن أسباب الرزق وهي لا تحصى ، فمنها ما هو مرتبط بالعقيدة كتقوى الله ، أو مرتبط بالعبادة كالشكر لله ، أو مرتبط بالعمل كالصيد ، أو مرتبط بالعلاقات الشخصية كالهدية .... الخ .

وتعلق الإنسان بأسباب الرزق جائز ولا ينافي ذلك التوكل ، وذلك لحمل الناس على العمل عبادة ، والرزق ليس بالاجتهاد ، فرب كسول يفوق رزقه رزق المجتهد المتحرك ، والله فتح على كثير من الشعوب كنوز الأرض ؛ في الوقت الذي تتصف فيه بعدم الجدية في العمل ، ولم تقم باستغلال خيراتها بنفسها . إن معنى هذا أن الرزق مرتبط بإرادة الله وحتى لو أخذت بكل الأسباب الفاعلة في الكون ، حتى يفهم المرء أن الفاعل هو الله في علاه . قال تعالى {لَهُ مَا فِي السماوات وما في الْأَرضِ وما بينهما وما تحت الثرى}[2] ، فلا يجوز أن يخاف المؤمن على رزقه . قال تعالى{يا أيها الذين آمنواْ إنما الْمشرِكُونَ نجس فَلاَ يقْربواْ الْمسجِد الْحرام بعد عامهم هذَا وإِنْ خفْتم عيلَةً فَسوف يغنِيكُم اللّه من فَضله إن شاء إن اللّه عليم حكيم}[3]

واستدل العلماء بقوله تعالى {وهزي إِلَيك بِجِذْعِ النخلَة تساقطْ علَيك رطَبا جنِيا}[4]. على أن الرزق وإن كان مكتوبا ؛ فإن الله تعالى ربطه بالسعي والعمل ، لأنه أمر مريم بهز النخلة لتجري آية ، وكانت الآية ألا تهتز النخلة ، لأن جذعها قوي يصعب تحريكه ، ولكن هي إرادة الله وفعله .

والأمر بالكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده ، وذلك لا يتعارض مع التوكل الذي يكون بعد الأخذ بالأسباب ؛ إذ يطلب الإسلام من المسلم بذل الجهد لتحصيل رزقه المقسوم له [5]، وقد كانت مريم قبل الولادة يأتيها رزقها من غير تكسب ، وذلك تكريما لها ، وبعد الولادة

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (4 / 1465) رقم 3767 .

(2) سورة طه / 6 .

(3) سورة التوبة / 28 .

(4) سورة مريم / 25 .

(5) انظر : كتاب : طلب الرزق لأحمد بن محمد الطويل / 31 .

أُمرت بالكسب ، وردت العادة بالتعلق بالأسباب ، كسائر العباد ، حيث إن ثمار الجذع اليابس رطبا ببركة تحريكها إياه [1] ، بقدرة الله .

إلا أن الرزق بمقتضى سننه تعالى في الكون خاضع لمبدأ ارتباط الأسـباب بالمسـببات ، أي أن الحصول على الرزق مرتبط بالسعي والعمل ، وتحصيل المعاش لابد له من الأخذ بالأسباب – ولا توجد أسباب ثابتة للرزق – ولكن يجب على المرء أن لا تشغله الدنيا ويتكالـب عليهـا ويستعجل الرزق ، قال رسول الله ﷺ (لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد يموت حتى يبلغـه بآخر رزق هو له فاتقوا الله وأجملوا في الطلب في الحلال وترك الحرام) ، وفي رواية (أجملوا في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما خلق له) [2] ، وقال رسول الله ﷺ (الفقر تخـافون ؟ والـذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا ، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هيه ، وأيم الله لقـد تركتكم على مثل البيضاء ليلها و ارها سواء) [3] ، قال تعالى {قَالَ ربنا الذي أعطَـى كُـل شيءٍ خلْقَه ثُم هدى}[4] .

هذا وسوف يتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة ذه السنة .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة .

---

(1) انظر : التفسير المنير لوهبة الزحيلي (2 / 78 – 79) ، وتفسير ابن عاشور (16 / 88) .

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه (2 / 725) رقم 2144 قال عنه الألباني : صحيح ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (2 / 4) رقم 2134 وقال عنه : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(3) أخرجه ابن ماجه (1 / 4) رقم 5 . قال عنه الألباني : حسن .

(4) سورة طه / 50 .

المبحث الأول : التعريف العام بسنة الرزق .

✵ تعريف الرزق :

تعريف الرزق لغة :

الرزق : اسم لما يعطيه الله ، وما ينتفع به [1] من أقوات وغيرها ، وقيل هو ما يسـوقه الله إلى الحيوان للتغذي ، أي ما به قوام الجسم ونماؤه ، وهذا رزق الأبدان ، وقد يسمى المطر رزقـاً ، كما جاء في قوله تعالى {وما أنزلَ الله من السماء من رزقٍ فَأحيا بِه الْأرض بعد موتهـا} [2]، وقوله تعالى {وفي السماء رِزقُكُم وما توعدونَ} [3] . والرزق ـ بالكسر ـ : ما ينتفع بـه . ويقال للعطاء الجاري تارة ، دنيوياً كان أو أخروياً ، وللنصيب تارة ، ولما يصـل إلى الجـوف

---

(1) انظر : مختار الصحاح (1 / 101) .

(2) سورة الجاثية / 5 .

(3) سورة الذاريات / 22 .

ويتغذى به تارة . والجمع أرزاق . والرزق ـ بالفتح ـ المصدر الحقيقي ، والمرة الواحدة رزقة ، والجمع رزقات ، وهي أطماع . يقال : أعطى السلطان رِزق الجند ، ورزِقت علماً ، قـال تعالى {وأنفقُوا من ما رزقْناكُم}[1] . أي من المال والجاه والعلم [2]. ورزقه الله : أوصلَ إليـه رزقاً ، وقيل الرزق العطاء : وهو ما تعطيه الدولة للجنود أو غيرهم من المواد الغذائية . وقولهم : رزقه يوم بيوم : أي يعطيه طعامه وشرابه ، أو نفقة طعامه وشرابه يوما بيـوم . ورزق فـلان شكره (لغة أزدية) ، ويقول فعلت ذلك لما رزقتني ؛ أي شكرتني . ومنه قوله تعالى {وتجعلُونَ رِزقَكُم أنكُم تكَذبونَ}[3]. أي : أتجعلون نصيبكم من النعمة تحري الكذب . وقولـه {وفـي السماء رِزقُكُم وما توعدونَ}[4] . قيل : عنى به المطر الذي به حياة الحيوان . وقيل : هو كقوله {وأنزلْنا من السماء ماء}[5] ، وقيل : تنبيه أن الحظوظ بالمقادير .

وقوله {فَلْيأْتكُم بِرزقٍ منه }[6] أي بطعام يتغذى به . وقوله {رِزقًا للْعباد}[7] قيل : عنى بـه الأغذية ، ويمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل . وقال في العطاء الأخروي {بلْ أحياء عند ربهم يرزقُونَ ـ فَرحين} [8] أي يفيض عليهم النعم الأخروية . وقوله {إن الله الله هو الرزاق} [9] محمول على العموم [10] .

❁ تعريف الرزق اصطلاحاً :

---

(1) سورة المنافقون / 10 .

(2) انظر : بصائر ذوي التمييز (3 / 66) .

(3) سورة الواقعة / 82 .

(4) سورة الذاريات / 22 .

(5) سورة المؤمنون / 18 .

(6) سورة الكهف / 19 .

(7) سورة ق / 11 .

(8) سورة آل عمران / 169 ـ 170 .

(9) سورة الذاريات / 58 .

(10) انظر : بصائر ذوي التمييز (3 / 66) .

الرزق عند أهل السنة : ما صح الانتفاع به حلالاً أو حراماً . وقد خرج بعض النبلاء من قوله تعالى {كُلُوا من رزقِ ربكُم واشكُروا لَه بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور }[1] فذكْر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام [2]. والرزق ليس بمعنى التمليك حيث يوجب ذلك أن الأطفال والبهائم والعبيد والإماء لا يرزقون ، والأمة مجمعة على أن البهائم والعبيد مرزوقون ، وأن الله يرزقهم مع كونهم غير مالكين .

ورزق الله الخلق يرزقهم رزقاً : أعطاهم من فضله ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة . والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له ، وهو الله تعالى . ويقال للإنسان الذي يصير سببا في وصول الرزق [3] إلى غيره وليس في ذلك نسبة الرزق إليهم ، قال تعالى {ولاَ تؤتُواْ السفَهاء أَموالَكُم التي جعلَ اللّه لَكُم قياماً وارزقُوهم فيها واكْسوهم وقُولُواْ لَهم قَولاً معروفًا}[4] . والرزاق لا يقال إلا لله تعالى . وقوله {ومن لستم لَه بِرازِقين}[5] أي بسبب في رزقه ولا مدخل لكم فيه . {ويعبدونَ من دون اللّه ما لاَ يملك لَهم رِزقًا}[6] الآية . أي ليسوا ليسوا بسبب في رزقهم بوجه من الوجوه ، وبسبب من الأسباب [7] .

وقد يكون وصول الرزق بسبب وبغير سبب ، وبطلب وبغير طلب ، وقد يرث الإنسان مالاً فيدخل في ملكه من غير قصد إلى تملكه ، وهو من جملة الأرزاق . وكل ما وصل منه إليه من مباح فهو رزق الله ، على معنى أنه قد جعله له قوتاً ومعاشاً .. إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً له في تناوله فهو حلال حكماً ، وما كان منه غير مأذون له فيه فهو حرام حكماً [8]. قال تعالى {اللّه الذي خلَق السماوات والأَرض وأَنزلَ من السماء ماء فَأَخرج بِه من الثمرات رِزقًا لكُم

---

(1) سورة سبأ / 15 .

(2) انظر : تفسير القرطبي (1 / 178) .

(3) انظر : بصائر ذوي التمييز (3 / 67) .

(4) سورة النساء / 5 .

(5) سورة الحجر / 20 .

(6) سورة النحل / 73 .

(7) انظر : بصائر ذوي التمييز (3 / 67) .

(8) انظر : الرزق مصدره أسباب حصوله وزيادته حلاله وحرامه شروطه . للدكتور: مسفر سعيد الغامدي / 9 .

وسخر لَكُم الْفُلْك لتجري في الْبحرِ بِأَمرِه وسخر لَكُم الأَنهار ـ وسخر لَكُم الشمس والْقَمر دآئبين وسخر لَكُم اللَّيلَ والنهار ـ وآتاكُم من كُلِّ ما سأَلْتموه وإِن تعـدواْ نِعمـت اللّـه لاَ تحصوها إِن الإِنسانَ لَظَلُوم كَفَّار}[1] . وهذا من رحمة الله ولطفه بعباده أَنْ نوع أرزاقه وفضله ونعمه وعددها ، فجعل منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن ، ومنها ما هو أول ومنها ما هـو آخر ، ومنها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، ومنها ما عجله لعباده في الحياة الدنيا ومنها ما أخره . والآية فيها إشارة إلى ذلك حيث خلق لنا كل شيء وسخر لنا كل شيء ، وأعطانا من كل شيء سألناه ، ومن كثرة نعمه لا يمكن أن يحصيها أحد ، ولا يمكن أن يعدها عاد ، فللـه الحمد وله الشكر وله الثناء الحسن . ومما سبق يتبين لنا أن للرزق مفهومين :

الأول / مفهوم عام : ويشمل ذلك كل ما من به المولى على مخلوقاته ، مـن أنـواع الـرزق المختلفة المادية والمعنوية ، في الحال والمآل وفي الدنيا والآخرة . ومن الأمثلة على ذلك :

1 ـ تفضل الله سبحانه بخلق المخلوقات علويها وسفليها لصالح الإنسان ؛ قال تعالى {هو الذي خلَق لَكُم ما في الأَرضِ جميعاً ثُم استوى إِلَى السماء فَسواهن سبع سماوات وهو بِكُلِّ شيءٍ عليم} [2] . وقال تعالى {واللّه جعلَ لَكُم من بيوتكُم سكَنا وجعلَ لَكُم من جلُود الأَنعامِ بيوتا تستخفونها يوم ظَعنِكُم ويوم إِقَامتكُم ومن أَصوافها وأَوبارِها وأَشعارِها أَثَاثًا ومتاعا إِلَى حينٍ ـ واللّه جعلَ لَكُم مما خلَق ظلاَلاً وجعلَ لَكُم من الْجِبالِ أَكْنانا وجعلَ لَكُم سرابِيلَ تقيكُم الْحر وسرابِيلَ تقيكُم بأْسكُم كَذَلك يتم نِعمته علَيكُم لَعلَّكُم تسلمونَ} [3]. وقال تعالى {اللَّه الذي جعلَ لَكُم الْأَرض قَرارا والسماء بِناء وصوركُم فَأَحسن صوركُم ورزقَكُم من الطيبات ذَلكُـم اللَّه ربكُم فَتبارك اللَّه رب الْعالَمين}[4] .

---

(1) سورة إبراهيم / 32 ـ 34 .

(2) سورة البقرة / 29 .

(3) سورة النحل / 80 ـ 81 .

(4) سورة غافر / 64 .

2 ـ تفضله سبحانه وتعالى على من يشاء بالملك والعز والخير ؛ قال تعالى {قُلِ اللهـم مالـك الْملْك تؤتي الْملْك من تشاء وتـ ـع الْملْك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشـاء بِيـدك الْخير إِنك علَى كُل شيءٍ قَدير ـ تولج الليلَ في الْنهارِ وتولج النهار في الليلِ وتخرِج الْحـي من الْميت وتخرِج الَميت من الْحي وترزق من تشاء بِغيرِ حسابٍ} [1] .

3 ـ وتفضل عز وجل فأنعم على عباده بإنزال المطر وبإنشاء الجنات والأنعام ؛ قال سـبحانه {وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغَير معروشات والنخلَ والزرع مختلفًا أُكُلُـه والزيتـونَ والرمانَ متشابِها وغَير متشابِه كُلُواْ من ثَمرِه إِذَا أَثْمر وآتواْ حقه يوم حصاده ولاَ تسرِفُواْ إِنه لاَ يحب الْمسرِفين ـ ومن الأَنعامِ حمولَةً وفَرشا كُلُواْ مما رزقَكُم اللّـه ولاَ تتبِعـواْ خطُـوات الشيطَان إِنه لَكُم عدو مبِين} [2] ، وقال {وأَنزلْنا من السماء ماء بِقَدرٍ فَأَسكَناه في الْأَرضِ وإِنا علَى ذَهابٍ بِه لَقَادرونَ ـ فَأَنشأْنا لَكُم بِه جنات من نخيلٍ وأَعنابٍ لكُم فيها فَواكـه كَـثيرةٌ ومنها تأْكُلُونَ ـ وشجرةً تخرج من طُورِ سيناء تنبت بِالدهنِ وصبغٍ للْآكلين ـ وإِن لَكُم في الْأَنعامِ لَعبرةً نسقيكُم مما في بطُونِها ولَكُم فيها منافع كَثيرةٌ ومنها تأْكُلُونَ ـ وعلَيها وعلَـى الْفُلْك تحملُونَ} [3] .

4 ـ ما أنعم الله على عباده من الذرية والأزواج والرزق من الطيبات ؛ قال تعالى {واللّه جعلَ لَكُم من أَنفُسِكُم أَزواجا وجعلَ لَكُم من أَزواجِكُم بنِين وحفَدةً ورزقَكُم من الطيبات أَفَبِالْباطلِ يؤمنونَ وبِنِعمت اللّه هم يكْفُرونَ} [4] .

5 ـ ما وعد به الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين من النعيم في الجنة ؛ قال تعالى {إِلا من تاب وآمن وعملَ صالحا فَأُولَئك يدخلُونَ الْجنةَ ولَا يظْلَمونَ شيئًا ـ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بِالْغيبِ إِنه كَانَ وعده مأْتيا ـ لَا يسمعونَ فيها لَغوا إِلا سلَاما ولَهم رِزقُهم فيهـا بكْـرةً

---

(1) سورة آل عمران / 26 ـ 27 .
(2) سورة الأنعام / 141 ـ 142 .
(3) سورة المؤمنون / 18 ـ 22 .
(4) سورة النحل / 72 .

وعشيا ـ تلْك الْجنةُ التي نورثُ من عبادنا من كَانَ تقيا} [1] ، وقال تعالى {هذَا ذكْـر وإِن للْمتقين لَحسن مآبٍ ـ جنات عدن مفَتحةً لهم الْأبواب ـ متكئين فيها يدعونَ فيها بِفَاكهـة كَثيرة وشرابٍ ـ وعندهم قَاصرات الطرف أَتراب ـ هذَا ما توعدونَ ليومِ الْحسـابِ ـ إِن هذَا لَرِزقُنا ما لَه من نفَاد} [2] . وقال سبحانه {وعد اللّه الْمؤمنِين والْمؤمنات جنات تجـرِي من تحتها الأَنهار خالدين فيها ومساكن طَيبةً في جنات عدن ورِضوانٌ من اللّه أَكْبر ذَلك هو الْفَوز الْعظيم} [3] . وقال تعالى {وبشرِ الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات أَن لَهم جنات تجـرِي من تحتها الأَنهار كُلما رزِقُواْ منها من ثَمرة رزقاً قَالُواْ هذَا الذي رزِقْنا من قَبلُ وأُتواْ بِه متشابِهاً ولَهم فيها أَزواج مطَهرةٌ وهم فيها خالدونَ} [4] . وقال سبحانه {وأَما الذين سعدواْ فَفي الْجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأَرض إِلا ما شاء ربك عطَاء غَير مجذُوذ} [5] .

6 ـ ومما تفضل به سبحانه تكريمه للإنسان ؛ قال تعالى {ولَقَد كَرمنا بنِي آدم وحملْناهم فـي الْبر والْبحرِ ورزقْناهم من الطيبات وفَضلْناهم علَى كَثيرٍ ممن خلَقْنا تفْضيلاً}[6] .

7 ـ ومما تفضل الله به سبحانه وتعالى على عباده أن أحلّ لهم الطيبات ؛ قال تعالى {يسأَلُونك ماذَا أُحل لَهم قُلْ أُحل لَكُم الطيبات وما علمتم من الْجوارِحِ مكَلِّبِين تعلمونهن مما علمكُم اللّه فَكُلُواْ مما أَمسكْن علَيكُم واذْكُرواْ اسم اللّه علَيه واتقُواْ اللّه إِن اللّه سرِيع الْحسابِ ـ الْيـوم أُحل لَكُم الطيبات وطَعام الذين أُوتواْ الْكتاب حل لكُم وطَعامكُم حل لهم والْمحصنات مـن الْمؤمنات والْمحصنات من الذين أُوتواْ الْكتاب من قَبلكُم إِذَا آتيتموهن أُجورهن محصنِين غَير مسافحين ولاَ متخذي أَخدان ومن يكْفُر بِالإِيمان فَقَد حبِطَ عملُه وهـو فـي الآخـرة مـن

(1) سورة مريم / 60 ـ 63 .
(2) سورة ص / 49 ـ 54 .
(3) سورة التوبة / 72 .
(4) سورة البقرة / 25 .
(5) سورة هود / 108 .
(6) سورة الإسراء / 70 .

الْخاسرِين} [1] ، وقال تعالى {وكُلُواْ مما رزقَكُم اللّه حلاَلاً طَيبا واتقُواْ اللّه الذي أَنـتم بِـه مؤمنونَ} [2] .

8 ـ ومن فضل الله ونعمته ما من به على الشهيد ؛ قال تعالى {ولاَ تحسبن الذين قُتلُـواْ فـي سبِيلِ اللّه أَمواتا بلْ أَحياء عند ربهم يرزقُونَ ـ فَرِحين بِما آتاهم اللّه من فَضله ويستبشـرونَ بِالذين لَم يلْحقُواْ بِهِم من خلْفهِم أَلا خوف علَيهِم ولاَ هم يحزنونَ ـ يستبشرونَ بِنِعمة مـن اللّه وفَضلٍ وأَن اللّه لاَ يضيع أَجر الْمؤمنِين ـ الذين استجابواْ للّه والرسولِ من بعد مآ أَصابهم الْقَرح للذين أَحسنواْ منهم واتقَواْ أَجر عظيم ـ الذين قَالَ لَهم الناس إِن الناس قَد جمعواْ لَكُم فَاخشوهم فَزادهم إِيماناً وقَالُواْ حسبنا اللّه ونِعم الْوكيلُ} [3] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (الشهداء على بارق ـ ر بباب الجنة في قبة خضراء ـ يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا) [4] .

9 ـ ومن فضل الله ونعمته الحب بين المؤمنين ؛ قال تعالى {والذين تبوؤوا الدار والْإِيمانَ مـن قَبلهِم يحبونَ من هاجر إِلَيهِم ولَا يجِدونَ في صدورِهم حاجةً مما أُوتوا ويؤثرونَ علَى أَنفُسِهِم ولَو كَانَ بِهِم خصاصةٌ ومن يوق شح نفْسِه فَأُولَئك هم الْمفْلحونَ} [5] .

10 ـ ومن فضل الله على عباده الليل والنهار ؛ قال تعالى {وجعلْنا الليلَ والنهار آيتينِ فَمحونا آيةَ الليلِ وجعلْنا آيةَ النهارِ مبصرةً لتبتغواْ فَضلاً من ربكُم ولتعلَمواْ عدد السنِين والْحساب وكُلَّ شيءٍ فَصلْناه تفْصيلاً} [6] .

11 ـ ومن فضل الله على عباده الطهر والعفة ؛ قال تعالى {والطيبـات للطيـبِين والطيبـونَ للطيبات أُولَئك مبرؤونَ مما يقُولُونَ لَهم مغفرةٌ ورِزق كَرِيم} [1] .

---

(1) سورة المائدة / 4 ـ 5 .
(2) سورة المائدة / 88 .
(3) سورة آل عمران / 169 ـ 173 .
(4) أخرجه أحمد في المسند (1 / 266) رقم الحديث : 2390 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .
(5) سورة الحشر / 9 .
(6) سورة الإسراء / 12 .

12 ـ ومن فضل الله ونعمه اصطفاؤه لبعض عباده وتفضيل بعضهم على بعض ؛ قـال تعـالى {ولَما ضرب ابن مريم مثَلًا إِذَا قَومك منه يصدونَ ـ وقَالُوا أَآلهتنا خير أَم هو ما ضربوه لَـك إِلَّا جدلًا بلْ هم قَوم خصمونَ ـ إِنْ هو إِلَّا عبد أَنعمنا علَيه وجعلْناه مثَلًا لبنِي إِسـرائيلَ }[2] ، وقال تعالى {ولَقَد آتينا داوود وسلَيمانَ علْما وقَالَا الْحمد لله الذي فَضلَنا علَى كَثيرٍ من عباده الْمؤمنِين ـ وورِثَ سلَيمانُ داوود وقَالَ يا أَيها الناس علمنا منطق الطيرِ وأُوتينا من كُل شـيءٍ إِن هذَا لَهو الْفَضلُ الْمبِين} [3] ، وقال تعالى {واللّه فَضلَ بعضكُم علَى بعضٍ في الْرزقِ فَمـا الذين فُضلُواْ بِرآدي رِزقهم علَى ما ملَكَت أَيمانهم فَهم فيه سواء أَفَبِنِعمة اللّه يجحدونَ}[4] .

13 ـ ومن فضله سبحانه أن ذلل الأرض للإنسان ؛ قال تعالى {هو الذي جعلَ لَكُم الْـأَرض ذَلُولًا فَامشوا في مناكبِها وكُلُوا من رزقه وإِلَيه النشور }[5] .

14 ـ ومن فضل الله البحر وما فيه من أرزاق وخيرات ؛ قال عز وجل {وما يستوِي الْبحـرانِ هذَا عذْب فُرات سائغٌ شرابه وهذَا ملْح أُجاج ومن كُل تأْكُلُونَ لَحما طَرِيا وتستخرِجونَ حلْيةً تلْبسونها وترى الْفُلْك فيه مواخر لتبتغوا من فَضله ولَعلكُم تشكُرونَ}[6] . وعن جابر رضي الله عنه قال : غزونا جيش الخبط وأُمر أبو عبيدة ، فجعنا جوعاً شديداً، فألقى البحر حوتاً ميتـاً لم نر مثله يقال له العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه فمر الراكب تحته. قال أبو عبيدة: كلوا . فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال (كلوا رزقاً أخرجـه الله وأطعمونا إن كان معكم) فأتاه بعضهم بعضوٍ فأكله [7] .

---

(1) سورة النور / 26 .
(2) سورة الزخرف / 57 ـ 59 .
(3) سورة النمل / 15 ـ 16 .
(4) سورة النحل / 71 .
(5) سورة الملك / 15 .
(6) سورة فاطر / 12 .
(7) انظر : صحيح البخاري (4 / 1585) رقم الحديث 4103 ، وصحيح مسلم (3 / 1535) رقم : 1935 .

15 ـ ومن فضل الله الحكمة ؛ قال تعالى {يؤتي الْحكْمةَ من يشاء ومن يؤت الْحكْمـةَ فَقَـد أُوتي خيرا كَثيرا وما يذكر إلا أُولُواْ الأَلْبابِ} (1) .

16 ـ ومن فضل الله ورزقه ونعمته الحرم الآمن ، وجبي ثمرات كل شيء إليه ؛ قـال تعـالى {وقَالُوا إِن نتبِعِ الْهدى معك نتخطف من أَرضنا أَولَم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إِلَيه ثَمـرات كُلِّ شيءٍ رِزقًا من لدنا ولَكن أَكْثَرهم لَا يعلَمونَ} (2) .

17 ـ ومن فضل الله المال والعلم ؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين ؛ رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، وآخر آتـاه الله حكمة فهو يقضي ا ويعلمها) (3).

18 ـ ومن فضل الله ورزقه الأمن والعافية وقوت اليوم ؛ فعن عبيد الله بن محصن الخطمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من أصبح منكم آمناً في سربه معافىً في جسده ، عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا) (4) .

19 ـ ومن فضل الله ورزقه القناعة ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس) (5) .

20 ـ ومن فضل الله ورزقه الواسع الصبر ؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى إذا نفد ما عنده قال (ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفّه الله ، ومن يستغن يغنه الله ومـن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر) (6) .

---

(1) سورة البقرة / 269 .

(2) سورة القصص / 57 .

(3) أخرجه البخاري (1 / 39) رقم 73 ، ومسلم (1 / 559) رقم 816 .

(4) سبق تخريجه في صفحة / 253 .

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2368) رقم 6081 ، ومسلم في صحيحه (2 / 726) رقم 1051 .

(6) أخرجه البخاري في صحيحه (2 / 534) رقم 1400 ، ومسلم في صحيحه (2 / 729) رقم 1053 .

21 ـ ومن فضل الله ورزقه الغنائم ؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قـال (بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم) (1) .

22 ـ ومن فضل الله ورزقه اليقين والمعافاة ؛ فعن أبي بكر الصديق ﷺ قال : قال رسـول الله ﷺ(ياأيها الناس إن الناس لم يعطوا في الدنيا خيراً من اليقين والمعافاة فسلوهما الله عز وجل)(2).

23 ـ ومن أرزاق الله وفضله الجليس الصالح ؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه مـن حـديث إبراهيم النخعي قال : ذهب علقمة إلى الشام ، فأتى المسجد فصلى ركعتين فقال : اللهم ارزقني جليساً . فقعد إلى أبي الدرداء (3) رضي الله عنه .

24 ـ حب الحبيب من فضل الله ورزقه ؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (إني قد رزقت حبها) يعني خديجة (4) رضي الله عنها .

25 ـ ومن أعظم فضل الله ورزقه وعطائه النظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة ؛ فعن صـهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبـارك وتعـالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قـال: فيكشف الحجاب ، فما أعطـوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) (5) .

26 ـ ومن فضل الله الرفق ؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال (يا عائشة . إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سـواه) (6) .

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (2 / 50) رقم 5114 .
(2) أخرجه أحمد في المسند (1 / 8) رقم 38 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره .
(3) انظر صحيح البخاري (5 / 2315) رقم 5922 .
(4) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 1888) رقم 2435 .
(5) أخرجه مسلم في صحيحه (1 / 163) رقم 181 .
(6) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2003) رقم 2593 .

والأمثلة كثيرة بأدلتها من الكتاب والسنة ، لكن ما ورد فيه الكفاية في الدلالة على أن للرزق مفهوماً عاماً يدخل تحته كل نعم الله ، وعطائه وفضله ؛ ما ظهر وما بطن ، وما تقدم وما تأخر ، وما كان في الدنيا أو في الآخرة {وإن تعدواْ نِعمت اللّه لاَ تحصوها}[1] . [2]

المفهوم الثاني للرزق / مفهوم خاص : ويتعلق ذلك بالجانب المادي في الدنيا . والذي يهمنا في هذا البحث ما يتعلق بالجانب المادي في الحياة الدنيا ، وهذا لا يمنع النظر للجانب الأخروي . فالمعنى الذي نريده من كلمة (الرزق) في بحثنا كل مال ينتفع به سواءً كان مادياً كالأموال من ذهب وفضة وحيوان وزروع وثمار وعقار ، ومأكول وملبوس ومشروب ومسكون ونحو ذلك . أو كان معنوياً كالمعارف والعلوم والمه لة والجاه والسلطان والعقل والذكاء وحسن الخلق ونحو ذلك . وسواء كان ما ينتفع به في الدنيا وهو ما ذكرناه أو ينتفع به في الآخرة وهو رضوان الله تعالى وثوابه ونعيم الجنة ونحو ذلك مما أخبرنا الله تعالى به [3]. قال الله تعالى {قَالَ يا قَومِ أَرأَيتم إِن كُنت علَى بينة من ربي ورزقَنِي منه رِزقًا حسنا} [4] " قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين " [5] وقيل " هو ما رزقه من النبوة والحكمة . وقيل رزقا حسنا : حلالا حلالا طيبا من غير بخس ولا تطفيف " [6] .

❁ هذا ويمكن تقسيم الأرزاق إلى نوعين :

1 / ظاهرة (مادية) للأبدان : وقد جعل الله الجوارح سبيل الرزق المادي (الحسي) كالأقوات ، ومثال ذلك قوله تعالى {وأَنزلْنا من السماء ماء بِقَدرٍ فَأَسكَنَّاه في الْأَرضِ وإِنا علَى ذَهابٍ بِه لَقَادرونَ ـ فَأَنشأْنا لَكُم بِه جنات من نخيلٍ وأَعنابٍ لكُم فيها فَواكه كَثيرةٌ ومنها تأْكُلُونَ ـ وشجرةً تخرج من طُورِ سيناء تنبت بِالدهنِ وصبغٍ للْآكلين ـ وإِن لَكُم فـي الْأَنعـامِ لَعبـرةً

(1) سورة إبراهيم / 34 .

(2) انظر : كتاب الرزق للدكتور : مسفر سعيد الغامدي / 10 ـ 19 .

(3) انظر : السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان / 264 .

(4) سورة هود / 88 .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 457) .

(6) انظر : الكشاف للزمخشري (2 / 396) .

نسقيكُم مما في بطُونِها ولَكُم فيها منافع كَثيرةٌ ومنها تـأْكُلُونَ ـ وعلَيهـا وعلَـى الْفُلْـك تحملُونَ} [1].

2 / باطنة (غير مادية : معنوية) للقلوب والنفوس . وقد جعل الله عمل الـرزق الروحـي ، كالمعارف والعلوم والأمن . ومثال ذلك قوله تعالى {يؤتي الْحكْمةَ من يشاء ومن يؤت الْحكْمةَ فَقَد أُوتي خيرا كَثيرا وما يذكر إلا أُولُواْ الأَلْبابِ} [2] ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين ؛ رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحـق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي ا ويعلمها) [3]. ومن أفضل الرزق الهداية للإسلام ، قـال رسول الله ﷺ (وإن الله رزقني الإسلام) [4]. وجاء أن هناك رزق حتى عند المـوت ، قـال رسول الله ﷺ (من رزقهن ـ أي : قول لا إله إلا الله ـ عند موته ـ لم تمسه النـار) [5] . وهذا يدل على فضل كلمة التوحيد وفضل الإسلام وأنه نعمة مصداقاً لقولـه تعـالى {الْيـوم أَكْملْت لَكُم دينكُم وأَتممت علَيكُم نِعمتي ورضيت لَكُم الإِسلاَم دينا} [6] . وهذا التقسـيم يؤيد ما رواه أبو كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إنما الدنيا لأربع نفر ... ـ وذكر منهم ـ : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي به ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل) [7].

ولقد عرض القرآن سنة الله في الرزق على عدة طرق :

أولاً : أن الله تعالى هو الرزاق .

---

(1) سورة المؤمنون / 18 ـ 22 .

(2) سورة البقرة / 269 .

(3) سبق تخريجه في صفحة / 297 .

(4) أخرجه أحمد في مسنده (5 / 441) رقم 23785 .

(5) أخرجه ابن ماجه في سننه (2 / 1246) رقم 3794 . قال عنه الألباني : صحيح .

(6) سورة المائدة / 3 .

(7) أخرجه الترمذي في سننه (4 / 563) رقم : 2325 . قال عنه الألباني : صحيح .

فالله تعالى هو خالق الرزق ومعطيه والمسبب له ، ومن أسمائه تعالى الرزاق ، فهو الـذي خلـق الأرزاق وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم [1] . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أن الله تعالى هو الرزاق بالمعنى الذي ذكرناه ، فمن ذلك :

* قوله تعالى { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كـل في كتاب مبين }[2] . والدابة اسم لكل حيوان ، لأن الدابة اسم مأخوذ من الدبيب ، وأطلق على كل حيوان ذي روح ذكراً كان أو أنثى . والمراد بهذا اللفظ (دابة) في هذه الآيـة الموضـوع الأصلي اللغوي فيدخل فيه جميع الحيوانات ، هذا متفق عليه بين المفسرين . ومعنى الآية : ما من حيوان يدب على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه ، وإن ذلك كالواجب عليه تعـالى بحسب وعده تعالى بإيصال الرزق إلى كل ذي روح تفضلاً منه وإحسانا (والله يعلم مستقرها) أي مكانها في الأرض ومسكنها (ويعلم مستودعها) حيث كانت مودعة قبل الاستقرار مـن صلب أو رحم أو بيضة [3] .

* قوله تعالى {وكَأَين من دابة لَا تحملُ رِزقَها الله يرزقُها وإِياكُم وهو السميع الْعلـيم}[4] . والمعنى : وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره ، وإنما تصبح ولا شيء عندها ، فالله تعالى يرزقها وإياكم ، فلا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله تعالى ولا يرزقكم أيضـاً أيها الناس إلا الله تعالى ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لـو لم يقـدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل رزقها . فالله تعالى رزق الكل بأسباب هو تعالى المسبب لها وحده [5] .

---

(1) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (2 / 219) .
(2) سورة هود / 6 .
(3) انظر : تفسير الزمخشري (2 / 360) ، تفسير الرازي (17 / 148 ـ 149) ، تفسير الألوسي (12 / 2 ـ 3).
(4) سورة العنكبوت / 60 .
(5) انظر : تفسير الزمخشري (3 / 466) ، وتفسير الألوسي (21 / 11) .

ثانياً : أن السعي لاكتساب الرزق لا ينافي التوكل بل هما قرينان . فالأنبياء كـانوا يأخـذون بأسباب الرزق وهم في قمة التوكل فكل واحد منهم له صنعة ، فنوح عليه الصلاة والسلام كان نجاراً ، وداود عليه السلام كان حداداً ، وعمل النبي صلى الله عليه وسلم في التجارة ، وما من نبي إلا ورعى الغنم كما جاء في الحديث [1] . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغـدو خماصاً وتروح بطاناً) [2] .

ثالثاً : أن السعي لطلب الرزق الحلال بمنزلة الجهاد في سبيل الله . قال تعالى {علم أن سـيكُونُ منكُم مرضى وآخرونَ يضرِبونَ في الْأَرضِ يبتغونَ من فَضلِ الله وآخرونَ يقَاتلُونَ فـي سـبِيلِ الله} [3] . حيث " سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحـلال للنفقة على نفسه وعياله والإحسان والإفضال فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله " [4] " وقيل سوى الله بين المجاهدين والمسـافرين لكسـب الحلال" [5] " ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحـلال وعن ابن مسعود أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسـعر يومه كان عند الله من الشهداء " [6] .

رابعاً : إن ما قضاه الله سبحانه وتعالى وقدره كائن ولابد ، وإن مما قضاه وقدره أربعة أمـور : العمل والرزق والسعادة أو الشقاء . فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (2 / 789) رقم الحديث : 2143 .

(2) أخرجه الترمذي (4 / 573) رقم 2344 وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح وصححه الألباني ، وأخرجه أحمد (1 / 30) رقم 205 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده قوي ورجاله ثقات رجال الشيخين .

(3) سورة المزمل / 20 .

(4) انظر : تفسير القرطبي (19 / 55) .

(5) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري (4 / 644) .

(6) انظر : التفسير الكبير للرازي (30 / 165) .

مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً يؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد ...) الحديث [1] . لكن كثيراً من الناس يظن أن أمر الرزق أُنف ، وأنه كلما اجتهد في طلبه كان تحصيله له أكثر ، وكلما بذل له الأسباب كاملة كان حجمه أكبر.

ولو تأملنا أرزاق الناس لوجدناها متفقة مع قضاء الله وقدره ، فكم من مجتهد في طلب الرزق وقد قُدر عليه ، وكم من كسول قد بسط له في رزقه ؛ لأن قضاء الله وقدره متفق وحكمته سبحانه ، فهو يعطي ويبسط في الرزق لمن يشاء لحكمة عظيمة ، ويمنع ويقدر أيضاً لحكمة عظيمة ، لذلك فالرزاق والرازق هو الله لا غيره .

والأرزاق التي تأتي عن طريق المخلوقين ؛ إنما هم في ذلك أسباب اقتضت حكمة الله أن تكون عن طريقهم ، وهي سنة من سنن الله . ومثال ذلك : حصول الولد لا يكون إلا بعد الزواج، وحصول المحصول لا يكون إلا بعد حرث الأرض وتعهدها ، وحصول الوظيفة لا يكون إلا بعد التقدم إلى من تكون عنده ... إلخ . لكن ذلك كله بتقدير الله وتدبيره وبرحمته ولطفه ، فإذا لم يرد الله أو يقدر ترتيب النتائج على الأسباب ، فإنه لا يحصل المراد ؛ فكم من باذل للأسباب لم يحصل له مقصوده ؛ لأن الله لم يرده لحكمة يعلمها هو ، والرزاق دائم العطاء ؛ عطاؤه لحكمة ومنعه لحكمة .

وعلى هذا فالله يعطي بسبب وبدون سبب ، ويبسط الرزق ويقدر وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وفق حكمته وعلمه ورحمته ولطفه . قال تعالى {لَه مقَاليد السماوات والْأَرضِ يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إِنه بِكُل شيءٍ عليم} [2] " أي : يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام (إنه بكل شيء عليم) " [3]. وقال عز وجل {قُلْ إِن ربي يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر ولَكن أَكْثَر الناسِ لَا يعلَمونَ ـ وما أَموالُكُم ولَا أَولَادكُم بِالتي تقَربكُم عندنا زلْفَى إِلَّا من آمن وعملَ صالحا فَأُولَئك لَهم جزاء الضعف بِما عملُوا وهم في الْغرفَات

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1174) رقم 3036 ، ومسلم في صحيحه (4 / 2036) رقم 2643 .

(2) سورة الشورى / 12 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 109) .

آمنونَ ـ والذين يسعونَ في آياتنا معاجِزين أُولَئك في الْعذَابِ محضرونَ ـ قُلْ إن ربي يبسطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقْدر لَه وما أَنفَقْتم من شيءٍ فَهو يخلفُه وهو خير الرازِقين} [1] .
وقال سبحانه {وإِذَا أَذَقْنا الناس رحمةً فَرحوا بِها وإِن تصبهم سيئَةٌ بِما قَدمت أَيديهم إِذَا هـم يقْنطُونَ ـ أَولَم يروا أَن الله يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إِن في ذَلك لَآيات لقَومٍ يؤمنـونَ} [2] . وقال تعالى {اللّه يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقَدر وفَرِحواْ بِالْحياة الدنيا وما الْحياةُ الدنيا في الآخرة إِلا متاع}[3] . وقال عز وجل {ولَو بسطَ الله الرزق لعباده لَبغوا في الْأَرضِ ولَكن ينزلُ بِقَدرٍ ما يشاء إِنه بِعباده خبِير بصير ـ وهو الذي ينزلُ الْغيثَ من بعد ما قَنطُوا وينشر رحمتـه وهو الْولي الْحميد} [4] . وقال جل وعلا {أَولَم يعلَموا أَن الله يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إِن في ذَلك لَآيات لقَومٍ يؤمنونَ} [5] . وقال تعالى {ولاَ تجعلْ يدك مغلُولَةً إِلَـى عنقـك ولاَ تبسطْها كُلَّ الْبسط فَتقْعد ملُوما محسورا ـ إِن ربك يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إِنه كَـانَ بِعباده خبِيرا بصيرا ـ ولاَ تقْتلُواْ أَولادكُم خشيةَ إِملاقٍ نحن نرزقُهم وإِياكُم إن قَـتلَهم كَـانَ خطْءًا كَبِيرا ـ ولاَ تقْربواْ الزنى إِنه كَانَ فَاحشةً وساء سبِيلاً} [6] . وقال سبحانه {وكَأَين من دابة لَا تحملُ رِزقَها الله يرزقُها وإِياكُم وهو السميع الْعليم ـ ولَئن سأَلْتهم من خلَق السماوات والْأَرض وسخر الشمس والْقَمر لَيقُولُن الله فَأَنى يؤفَكُونَ ـ الله يبسطُ الرزق لمن يشاء مـن عباده ويقْدر لَه إِن الله بِكُلِّ شيءٍ عليم ـ ولَئن سأَلْتهم من نزلَ من السماء ماء فَأَحيا بِه الْأَرض من بعد موتها لَيقُولُن الله قُلِ الْحمد لله بلْ أَكْثَرهم لَا يعقلُونَ} [7] . وقال عز وجل {وأَصبح الذين تمنوا مكَانه بِالْأَمسِ يقُولُونَ ويكَأَن الله يبسطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقْدر لَولَا أَن

---

(1) سورة سبأ / 36 ـ 39 .
(2) سورة الروم / 36 ـ 37 .
(3) سورة الرعد / 26 .
(4) سورة الشورى / 27 ـ 28 .
(5) سورة الزمر / 52 .
(6) سورة الإسراء / 29 ـ 32 .
(7) سورة العنكبوت / 60 ـ 63 .

من الله علَينا لَخسف بِنا ويكَأَنه لَا يفْلح الْكَافرونَ} [1] . وعن عبد الله بن مسعود رضـي الله عنه قال : إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يؤتي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يؤتي الإيمان إلا من أحب . فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان . فمن ضـن بالمال أن ينفقه ، وهاب العدو أن يجاهده ، والليل أن يكابده ، فليكثر من قول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، وسبحان الله [2] . وقال تعالى {فَتقَبلَها ربها بِقَبولٍ حسنٍ وأَنبتها نباتا حسنا وكَفَّلَها زكَرِيا كُلَّما دخلَ علَيها زكَرِيا الْمحراب وجد عندها رِزقاً قَالَ يا مريم أَنى لَك هذَا قَالَت هو من عند اللّه إن اللّه يرزق من يشاء بِغيرِ حسابٍ} [3] . وقال عز وجل {يا أَيها الذين آمنواْ إِنما الْمشرِكُونَ نجس فَلاَ يقْربواْ الْمسجِد الْحرام بعد عامهم هذَا وإِنْ خفْتم عيلَـةً فَسوف يغنِيكُم اللّه من فَضله إِن شاء إِن اللّه عليم حكيم} [4] . وقال تعالى {ضرب اللّه مـثَلاً عبدا مملُوكًا لا يقْدر علَى شيءٍ ومن رزقْناه منا رِزقًا حسنا فَهو ينفق منه سرا وجهـرا هـلْ يستوونَ الْحمد للّه بلْ أَكْثَرهم لاَ يعلَمونَ} [5] .

ويتضح من النصوص السابقة أن الرزق وسعته وضيقه من الله ، فهو سبحانه وتعـالى يبسـط الرزق ويوسعه لمن يشاء وفق قضائه وقدره المبني على علمه وحكمته وذلك على الأوجه التالية :

1 ـ إما فضلاً منه ورحمة ابتداءً .

2 ـ أو امتحاناً واختباراً .

3 ـ أو استدراجاً وإمهالاً وعذاباً .

---

(1) سورة القصص / 82 .

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (1 / 104) رقم 275 . قال الألباني : صحيح موقوف في حكم المرفوع ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (9 / 203) رقم 8990 .

(3) سورة آل عمران / 37 .

(4) سورة التوبة / 28 .

(5) سورة النحل / 75 .

ويضيق الله الرزق على من يشاء وفق قضائه وقدره المبني على علمه وحكمته على الأوجه التالية :

1 ـ إما حماية لعبده منةً ورحمةً به .

2 ـ أو امتحاناً له واختبارا .

3 ـ أو حرماناً وعذاباً .

وهو سبحانه يبسط الرزق لبعض عباده ؛ لأنه يعلم أنه لا يصلحه إلا بسط الـرزق ، ويضـيق الرزق على بعض عباده ؛ لأنه يعلم أن التضييق عليه في الرزق أصلح له . ولله في قضائه وقدره حكم عظيمة ، وكل ما يقدره ويقضيه لعباده فيه الخير والصلاح [1] .

وبالتالي فالرزق لا يختص بالمؤمن دون غيره من العصاة أو الكفار ، وكذلك المنع قـال تعـالى {كُلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطَاء ربك وما كَانَ عطَاء ربك محظُورا}[2]. " أي كل واحـد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما هم فيه (من عطاء ربك) أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد ولهذا قال (وما كان عطاء ربك محظورا) أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد [3]. وقوله تعالى (هؤلاء وهؤلاء) أي نمد هؤلاء المعجل لهم وهـؤلاء المشـكور سعيهم وقوله تعالى (من عطاء ربك) أي من معطاه الواسع الذي لا تناهي له فهو اسم مصدر واقع موقع اسم المفعول متعلق بـ (نمد) مغن عن ذكر ما به الإمداد ومنبه على أن الإمـداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل بل بمحض التفضل كما قيل (وما كـان عطاء ربك) أي دنيويا كان أو أخرويا والإظهار في موضع الإضمار لمزيـد الاعتنـاء بشـأنه

---

(1) انظر : كتاب الرزق للدكتور : مسفر سعيد الغامدي / 28 ـ 31 .

(2) سورة الإسراء / 20 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 34) .

والإشعار بعليته للحكم (محظورا) ممنوعا عمن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد فيه ما يقتضي الحظر كالكفر وهذا في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بمبدئيتها لكل من الإمداد وعدم الحظر [1] .

وقال القرطبي عن هذه الآية " أخبر أنه يرزق المؤمنين والكافرين " [2] ، " فكل واحد من الفريقين نمدهم : نزيدهم من عطائنا ، فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ، وما كان عطاء ربك وفضله محظوراً أي ممنوعاً لا يمنعه من عاصٍ لعصيانه "[3]. فالله " تعالى يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد وغيرهما من أسباب العز والزينة في الدنيا ، لأن عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمناً كان أو كافراً لأن الكل مخلوقون في دار العمل ـ الدنيا ـ فوجب إيصال متاع الدنيا إلى الكل " [4] .

ولهذا نفى القرآن الكريم المفهوم الخاطئ الذي يتبادر إلى الأذهان من كون أن الله إذا أغنى عبداً كان ذلك دليلاً على محبته وإكرامه له ، كما أنه إذا ابتلى عبده بالفقر كان ذلك دليلاً على كرهه وإهانته له ، فالسعة أو الضيق في الرزق لا يدلان على رضا الله أو سخطه . قال الله تعالى {فَأَما الْإِنسانُ إِذَا ما ابتلَاه ربه فَأَكْرمه ونعمه فَيقُولُ ربي أَكْرمنِ ـ وأَما إِذَا ما ابتلَاه فَقَدر علَيه رِزقَه فَيقُولُ ربي أَهاننِ ـ كَلَّا بل لَا تكْرِمونَ الْيتيم } [5]. والصحيح أن بسط الرزق وتضييقه لا يدل على صلاح الإنسان أو عدم صلاحه ، فإن حصول الغنى في الدنيا لا يدل على الاستحقاق ولا على أن صاحبه مرضي عند الله " فإنه تعالى كثيراً ما يوسع على العصاة والكفرة ، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإما يحكم بذلك لمصلحة أو لحكمة وإما على سبيل الاستدراج والمكر . وقد يضيق الله تعالى على الصديقين لحكمة يعلمها أو بناء على سنة من سننه العامة . فينبغي للعبد أن لا يظن أن ذلك وقع وجرى للمجازاة أو بناء على م لة العبد

---

(1) انظر : روح المعاني للألوسي (15 / 48) .
(2) انظر : تفسير القرطبي (10 / 236) .
(3) انظر : تفسير الزمخشري (2 / 614) .
(4) انظر : تفسير الرازي (20 / 145) .
(5) سورة الفجر / 15 ـ 17 .

بالقرب أو بالبعد عن ربه تعالى " [1] قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات" إن الله تعالى ينكـر على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك مـن الله تعالى إكرام له ، وليس الأمر كذلك بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى {أَيحسبونَ أنما نمدهم بِه من مالٍ وبنِين ـ نسارِع لَهم في الْخيرات بل لا يشعرونَ } [2]. وكذلك إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له فقال تعالى (كلا) أي لـيس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب وإنمـا المدار في ذلك على طاعة الله في الحالتين إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقـيراً بأن يصبر " [3] . هذا وللتفاوت في الرزق حكمتان عظيمتان [4] :

أولهما : ليخدم بعضهم بعضاً .

قال الله تعالى {أَهم يقْسِمونَ رحمةَ ربك نحن قَسمنا بينهم معيشتهم في الْحياة الدنيا ورفَعنـا بعضهم فَوق بعضٍ درجات ليتخذَ بعضهم بعضا سخرِيا ورحمت ربك خير مما يجمعونَ}[5] . والمعنى " (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) أي أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمة تقتضـيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح (ورفعنا بعضهم فوق بعض) في الرزق وسائر مبادئ المعاش وأسبابه (درجات) متفاوتة . فقد فاوتنا بينهم فيما أعطيناهم من الأموال والأرزاق والعقـول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، فكان منهم القوي والضعيف والعالم والجاهل ، والحاذق والأبله والرئيس والمرؤوس والغني والفقير . وإنما فعلنا ذلك (ليتخذ بعضهم بعضـاً سخرياً) أي ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج بعضهم إلى بعض ، و ـذا يمكـن أن

---

(1) انظر : تفسير الرازي (31 / 154) .

(2) سورة المؤمنون / 55 ـ 56 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 510) .

(4) انظر : السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان / 273 ـ 275 .

(5) سورة الزخرف / 32 .

يتعايشوا ويحصل كل منهم على ما يحتاجه بمساعدة الآخرين . ولولا هذا التفاوت فيما ذكرنا لما أمكن أن يقضي بعضهم حاجة بعض ولا أن يخدم بعضهم بعضاً " [1] .

وثانيهما : لمنع البغي .

فمن حكمة التفاوت في الرزق منع بغي الناس في الأرض . قال تعالى {ولَو بسطَ الله الـرزق لعباده لَبغوا في الْأَرض ولَكن ينزلُ بِقَدرٍ ما يشاء إنه بِعباده خبِير بصير} [2] . والمعنى : لو وسع الله على عباده في الرزق لبغوا في الأرض أي لطغوا وعصوا أو لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من الفساد والعلو فيها (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) أي ينزل أرزاقهم بقدر ما يشـاء لكفايتهم (إنه بعباده خبير بصير) يعرف ما تؤول إليه أحوالهم فيقدر لهم ما هو أقرب إلى جمع شملهم فيرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر كما توجبه حكمته تعالى . ولو أغناهم جميعاً لهلكوا ، ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ، ومع الغنى أكثر وأغلب [3] .

وقد ذكر القرآن أن الغنى من أسباب الطغيان ، وأن الترف من أسباب الكبر والفجور . قال الله تعالى {كَلَّا إِن الْإِنسانَ لَيطْغى ـ أَن رآه استغنى} [4] . وقال تعالى {أَلْهاكُم التكَاثُر ـ حتـى زرتم الْمقَابِر} [5] . فالواجب على العاقل إذا وسع عليه في الرزق أن يعتقد بأن هذا إنعام مـن الله عز وجل يقتضي الشكر والثناء على الله تبارك وتعالى ، لذلك امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ﷺ بهذه النعمة فقال {ووجدك عائلًا فَأَغْنى} [6] .

(1) انظر : تفسير الزمخشري (4 / 252) ، تفسير ابن كثير (4 / 127) ، تفسير الرازي (27 / 209) ، تفسير القرطبي (16 / 83) ، تفسير الألوسي (25 / 78) .
(2) سورة الشورى / 27 .
(3) انظر : تفسير الزمخشري (4 / 223) ، تفسير القرطبي (16 / 27) ، تفسير ابن كثير (4 / 115) .
(4) سورة العلق / 6 ـ 7 .
(5) سورة التكاثر / 1 ـ 2 .
(6) سورة الضحى / 8 .

ومن مظاهر شكر هذه النعمة ـ السعة في الرزق ـ بذل المال وإنفاقه في وجوه الخير . قـال تعالى {فَأَما من أَعطَى واتقَى ـ وصدق بِالْحسنى ـ فَسنيسره للْيسرى} (1) . وقال تعالى {لَن تنالُواْ الْبِر حتى تنفقُواْ مما تحبونَ وما تنفقُواْ من شيءٍ فَإِن اللّه بِه عليم} (2) . وقال تعالى {يـا أَيها الذين آمنواْ أَنفقُواْ من طَيبات ما كَسبتم ومما أَخرجنا لَكُم من الأَرضِ ولاَ تيمموا الْخبِيثَ منه تنفقُونَ ولَستم بِآخذيه إِلا أَن تغمضواْ فيه واعلَمواْ أَن اللّه غَنِي حميد }(3)

خامساً : وإذا كان الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين فعلى المسلم أن يطلب الرزق منه لا من غيره قال تعالى {فَابتغوا عند الله الرزق} (4) . وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يتوكل على ربه عز عز وجل في تحصيل رزقه ويدعوه أن ييسر له أسبا ا ويباشرها فعلاً ويعينه عليها.

وقد جبل الله تعالى الحيوانات على مباشرة أسباب اكتساب رزقها بالتحرك والانتقال من مكان إلى آخر وزودها بغرائز معينة وأعضاء في بد ا تعينها على تحصيل رزقها . وسنته تعالى في رزق عباده أنه جعل هذا الرزق يصلهم بأسباب يباشرو ا باختيارهم وجعلها الله تعالى موصـلة إلى اكتساب الرزق ، ويسر لهم هذه الأسباب ودعاهم بل وأمرهم بالسعي إلى كسب الرزق .

سادساً : أن الله تعالى جعل السماء والأرض سببين لتيسير وصول رزقه إلى عباده ، فرزق العباد مدخر في السماء والأرض فكلاهما مملوءان بأرزاق العباد . فمصدر الرزق السماء ، ومصـدر إخراجه إلى العباد الأرض . قال الله تعالى {اللّه الذي خلَق السماوات والأَرض وأَنـزلَ مـن السماء ماء فَأَخرج بِه من الثمرات رِزقًا لكُم وسخر لَكُم الْفُلْك لتجرِي في الْبحرِ بِأَمره وسخر لَكُم الأَنهار ـ وسخر لَكُم الشمس والْقَمر دآئبين وسخر لَكُم الليلَ والنهار ـ وآتاكُم من كُل ما سأَلْتموه وإِن تعدواْ نِعمت اللّه لاَ تحصوها إِن الإِنسانَ لَظَلُوم كَفار} (5).

---

(1) سورة الليل / 5 ـ 7 .

(2) سورة آل عمران / 92 .

(3) سورة البقرة / 267 .

(4) سورة العنكبوت / 17 .

(5) سورة إبراهيم / 32 ـ 34 .

وقال تعالى {قُلْ أئنكُم لَتكْفُرونَ بِالذي خلَق الْأرض في يومينِ وتجعلُونَ لَه أندادا ذَلـك رب الْعالَمين ـ وجعلَ فيها رواسي من فَوقها وبارك فيها وقَدر فيها أَقْواتها في أربعة أيـامٍ سـواء للسائلين} (1) .

وقال تعالى {والأرض مددناها وأَلْقَينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كُلِ شيءٍ موزون}(2) .

وقال تعالى {وفي السماء رِزقُكُم وما توعدونَ} (3) . قال ابن كثير " (وفي السماء رزقكـم) أي المطر . (وما توعدون) أي الجنة " (4).

وقال تعالى {هو الذي يرِيكُم آياته وينزلُ لَكُم من السماء رِزقًا وما يتذَكر إِلا من ينِيب}(5) .

وقال تعالى {قُلْ من يرزقُكُم من السماوات والْأَرضِ قُلِ الله وإِنا أَو إِياكُم لَعلَى هدى أَو فـي ضلَالٍ مبِينٍ} (6) .

وقال تعالى {واختلَاف الليلِ والنهارِ وما أَنزلَ الله من السماء من رزقٍ فَأَحيا بِه الْـأَرض بعـد موتها وتصرِيف الرياحِ آيات لقَومٍ يعقلُونَ} (7) .

وقال تعالى {الذي جعلَ لَكُم الأَرض فراشاً والسماء بِناء وأَنزلَ من السماء ماء فَأَخرج بِه مـن الثمرات رِزقاً لكُم فَلاَ تجعلُواْ للّه أَنداداً وأَنتم تعلَمونَ} (8) . ووردت آيات كثيرة تدل علـى هذا المعنى .

سابعاً : سنة الله في الرزق كما فصلها ربنا في القرآن تقتضي أن يتجنـب الإنسـان مصـادر الكسب الحرام ، وأن يمتنع تماماً عن استجلاب الرزق من غير حله . ومصادر الكسب الحـرام

---

(1) سورة فصلت / 9 ـ 10 .

(2) سورة الحجر / 19 .

(3) سورة الذاريات / 22 .

(4) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 236) .

(5) سورة غافر / 13 .

(6) سورة سبأ / 24 .

(7) سورة الجاثية / 5 .

(8) سورة البقرة / 22 .

التي يحرم على الإنسان أن يتخذها مصادر للرزق قد فصل القرآن الكريم أنواعها ، ومنها علـى سبيل المثال :

1 ـ الربا . قال الله تعالى {وأحل اللّه الْبيع وحرم الربا} [1] .

2 ـ الرشوة . قال الله تعالى {ولاَ تأْكُلُواْ أموالَكُم بينكُم بِالْباطلِ وتدلُواْ بِها إِلَى الْحكامِ لتأْكُلُواْ فَرِيقًا من أموالِ الناسِ بِالإِثْمِ وأَنتم تعلَمونَ} [2] .

3 ـ أكل أموال اليتامى . قال تعالى {إِن الذين يأْكُلُونَ أَموالَ الْيتامى ظُلْما إِنما يأْكُلُونَ فـي بطُونِهِم نارا وسيصلَونَ سعيرا} [3] .

4 ـ بيع الأعراض . قال الله تعالى {ولَا تكْرِهوا فَتياتكُم علَى الْبِغاء إِنْ أَردنَ تحصـنا لتبتغـوا عرض الْحياة الدنيا ومن يكْرِههن فَإِن الله من بعد إِكْراههِن غَفُور رحيم}[4] .

5 ـ السرقة . قال الله تعالى {والسارِق والسارِقَةُ فَاقْطَعواْ أَيديهما جزاء بِما كَسبا نكَالاً من اللّه واللّه عزِيز حكيم } [5].

6 ـ التجارة بالمحرمات . قال الله تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ إِنما الْخمر والْميسِر والأَنصـاب والأَزلاَم رِجس من عملِ الشيطَان فَاجتنِبوه لَعلكُم تفْلحونَ} [6] .

فتحريم هذه الأمور يقتضي تحريم الكسب عن طريقها ، إضافة إلى أن أكل الحرام من صـفات اليهود التي حذرنا الله من التشبه م والاتصاف بصفا م . ولذلك نبه القرآن تنبيهاً واضحاً على

---

(1) سورة البقرة / 275 .
(2) سورة البقرة / 188 .
(3) سورة النساء / 10 .
(4) سورة النور / 33 .
(5) سورة المائدة / 38 .
(6) سورة المائدة / 90 .

أن الفقر لا يكون دافعاً للإنسان بحال من الأحوال إلى أن يطلب المال بطريق حرام . قـال الله تعالى {ومن كَانَ غَنِيا فَلْيستعفف ومن كَانَ فَقيرا فَلْيأْكُلْ بِالْمعروف} [1] .

المبحث الثاني : الآيات المتعلقة بسنة الرزق .

ويمكن تلخيص أهم أسباب حصول الرزق بما يلي :

1 **/ تقوى الله والاستقامة على هدى الله** :

فتقوى الله سبب للرزق وبسطه ، والتقوى هي " حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظـور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات " [2]. وقيل هي : امتثال أمره و يه ومعناه : الوقاية من سخطه وعذابه سبحانه وتعالى . وقيل هي " الاحتراز بطاعة الله تعالى عن عقوبته ، وهو صيانة الـنفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك " [3] وقيل هي : أن تعمل بطاعة الله على نور مـن الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . وقال ابن مسـعود رضي الله عنه في قوله تعالى {اتقُواْ اللّه حق تقَاته} [4] . قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويـذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر .

قال الله تعالى {ولَو أن أهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنا علَيهم بركَات من السماء والأَرضِ ولَكن كَذبواْ فَأَخذْناهم بِما كَانواْ يكْسِبونَ} [5] . أي لو " آمنوا بما دعاهم إليه رسلهم من عبادة الله وحده بما شرعه من الأعمال الصالحة ، واتقوا ما اهم عنه من الشـرك والفسـاد في الأرض

(1) سورة النساء / 6 .

(2) انظر : المفردات في غريب القرآن مادة وقى / 531 .

(3) انظر : التعريفات (1 / 90) .

(4) سورة آل عمران / 102 .

(5) سورة الأعراف / 96 .

بالظلم والمعاصي كارتكاب الفواحش وأكل أموال الناس بالباطل (لفتحنا عليهم بركات مـن السماء والأرض) لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والأرض لم يعهـدوها مجتمعـة ولا متفرقة . فإذا أريد ببركات السماء معارف الوحي العقلية وأنوار الإيمان واتباع الرسل علـيهم السلام تكون تكميل الفطرة البشرية روحاً وجسداً ، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخـرة . وإذا أريد ببركات السماء المطر وببركات الأرض النبات – كما قيل – فالمعنى : أ ا أبـواب نعم تكون بركات لهم غير التي عهدوا في صفائها ونمائها وثبا ا وحالتهم فيها وأثرهم فيهـا ، وبذلك تكون بركات . فإن مادة البركة تدل على السعة والزكاء من بركة الماء ، وعلى الثبات والاستقرار من برك البعير ، ألم تقرأ قوله تعالى من سورة هود {قِيلَ يا نوح اهبِطْ بِسلاَمٍ منـا وبركَات علَيك وعلَى أُممٍ ممن معك وأُمم سنمتعهم ثُم يمسهم منا عذَاب أَليم} [1] . فخص المؤمنين بالبركات وجعل نعمة الدنيا متاعاً مؤقتاً للكافرين يتلوه العذاب ، ولذلك لم يعطفهـم على من قبلهم " [2] . فالذي يستفاد من كلمة البركة إذاً : أن ما يعطيهم سبحانه وتعالى بسبب إيما م وتقواهم هو الخير المستمر لا شر ولا تبعة عليهم بعده كما قيل أن البركة هي " المواظبـة على الشيء " [3]. وقيل أيضاً أن البركة هي " ثبوت الخير الإلهي في الشيء " [4] " وعبر عـن البركة أيضاً بأ ا " الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة ، فهو أحسن أحوال النعمة " [5] . . فالقاعدة المقررة في القرآن : أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق ، وأن الكفار قد يشاركو م في المادي منها كما قال تعالى فيهم من سورة الأنعام {فَلَما نسواْ ما ذُكرواْ بِه فَتحنا علَيهِم أَبواب كُلِّ شيءٍ}[6] فذلك الفتح ابتلاء واختبار لحالهم ، ، كان أثره فيهم فرح البطر والأشر بدلاً من الشكر وترتب عليه العقاب الإلهي فكان نقمـة لا

---

(1) سورة هود / 48 .

(2) انظر : تفسير المنار (9 / 24) .

(3) انظر : تفسير البغوي (2 / 183) .

(4) انظر : تفسير الخازن (2 / 266) .

(5) انظر : تفسير التحرير والتنوير (9 / 22) .

(6) سورة الأنعام / 44 .

نعمة ، وفتنة لا بركة ، وأما المؤمنون فإن ما يفتح عليهم يكون بركة ونعمة ويكون أثره فـيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاغتباط بفضله ، واستعماله في سـبيل الخـير دون الشـر ، وفي الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم عليه من الله تعالى زيادة النعم ونموها في الدنيا وحسن الثواب عليها في الآخرة . فالفارق بين الفتحين يؤخذ من جعل هذا من البركات الربانية ، ومن تنكيره الدال على أنواع لم يعهدها الكفار (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) مـن أعمال الشرك الخرافية والمعاصي المفسدة لنظام الاجتماع البشري ، فكان أخذهم بالعقاب أثراً لازماً لكسبهم بحسب سنن الكون ، وعبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون " [1] . قال عبد الله بـن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لهذه الآية " لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب " [2] " ولقد ينظر بعض الناس فيرى بعض الذين لا يؤمنون ولا يتقون مفتوحاً عليهم في الـرزق والقوة والنفوذ ، فيتساءل : وأين إذن هي السنة التي لا تتخلف ؟ وإنْ هذا الفتح إلا بعض هذه السنة (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسـراء) فهـو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره ، وهو أقسى من الابتلاء بالشدة ، وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون ، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح ، وكم من أمة غنية قوية ولكن أهلها يعيشون أشقياء قلقين مهددين في أمنهم مقطعة أواصرهم بعضهم مع بعض ، أو بينهم وبين إخوا م في الإنسانية فهو غني بلا بركة ، وهي قوة بلا أمن وهو متاع بلا رضى وهي وفرة بلا صـلاح . إنّ البركـات الحاصلة مع الإيمان والتقوى بركات في الأشياء وبركات في النفـوس وبركـات في المشـاعر وبركات في طيبات الحياة ، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن واحد ، وليست مجرد وفرة مع الهبوط والتردي والانحلال " [3] . والمراد بقوله (بركات) " بركات السماء بالمطر ، وبركات الأرض بالنبات والثمار وكثرة المواشي والأنعام ، وحصول الأمن والسلامة ، وذلك لأن السماء

---

(1) انظر : تفسير المنار (9 / 24 ـ 25) .

(2) انظر : تفسير أبي السعود (3 / 253) .

(3) انظر : في ظلال القرآن (3 / 1339 ـ 1340) .

تجري مجرى الأب ، والأرض تجري مجرى الأم ، ومنهما يحصل جميع المنافع والخيرات بخلـق الله تعالى وتدبيره " [1] .

وقال تعالى : {ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب} [2] " والآيـة وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة فإن العبرة بعموم اللفظ فكل من اتقى الله ولازم مرضاته في جميع أحواله فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجا ومخرجا من كل شدة ومشقة وكما أن من اتقى الله جعل له فرجا ومخرجا فمن لم يتـق الله يقـع في الآصـار والأغلال التي لا يقدرون على التخلص منها والخروج من تبعتها وقوله (ويرزقه من حيـث لا يحتسب) أي يسوق الله الرزق للمتقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به " [3] وقيل في تفسيرها أيضاً " أي ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما اه عنه يجعل له من أمره مخرجا ، ويرزقـه مـن حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله " [4] وعن أبي ذر ﵁ قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو علي هذه الآية { ومن يتق الله يجعل له مخرجا } حتى فرغ من الآية . ثم قال (يا أبا ذر . لو أن الناس كلهم أخذوا ا لكفتهم) قال : فجعل يتلو ا ويرددها حتى نعست [5] .

وقال تعالى{وألوِ استقَاموا علَى الطريقَة لَأسقَيناهم ماء غَدقًا} [6] " في هذا إنذار بأنه يوشك أن يمسك عنهم المطر فيقعوا في القحط والجوع ، وهو ما حدث عليهم بعد هجـرة الـنبي ﷺ إلى المدينة ودعائه عليهم بسنين كسني يوسف ، فإنه دعا بذلك في المدينة في القنوت كما في حديث

---

(1) انظر : التفسير الكبير للرازي (14 / 151) وتفسير الخازن (2 / 266) وتفسير التحرير والتنوير (9 / 22) .
(2) سورة الطلاق / 2 ـ 3 .
(3) انظر : تفسير السعدي (1 / 870) .
(4) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 380) .
(5) أخرجه أحمد في المسند (5 / 178) رقم 21591 .
(6) سورة الجن / 16 .

الصحيحين عن أبي هريرة [1] . وقد كانوا يوم نزول هذه الآية في بحبوحة من العيش وفي نخيـل وجنات ، فكان جعل ترتب الإسقاء على الاستقامة على الطريقة كما اقتضاه الشرط بحـرف (لو) مشيراً إلى أن المراد : لأدمنا عليهم الإسقاء بالماء الغدق ، وإلى أ م ليسوا بسالكين سـبيل الاستقامة فيوشك أن يمسك عنهم الري ، ففي هذا إنذار بأ م إن استمروا علـى اعوجـاج الطريقة أمسك عنهم الماء " [2] . " وهذه الآية تحتوي جملة حقائق مهمة منها :

أولاً : حقيقة " الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصـلة إلى الله، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ، وأول أسبابه توافر الماء ، وهذا الارتباط بـين الاسـتقامة علـى الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب في جوف الصـحراء يعيشون في شظف حتى استقاموا على الطريقة ففتحت لهم الأرض التي يغـدورق فيهـا المـاء وتتدفق فيها الأرزاق ، ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيرا ا استلاباً ، ومـا يزالـون في نكد وشظف حتى يفيئوا إلى الطريقة فيتحقق فيهم وعد الله . وإذا كانت هناك أمم لا تسـتقيم على طريقة الله ثم تنال الوفر والغنى فإ ا تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنـها أو قيمـة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء ، وتحيل الحياة فيهـا لعنـة مشئومة على إنسانية الإنسان وخلقه و كرامته وأمنه وطمأنينته .

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية هي : أن الرخاء ابـتلاء مـن الله للعبـاد وفتنـة {ونبلُوكُم بِالشر والْخيرِ فتنةً} [3] . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى ... فكثيرون هـم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومـة ومن ذكرٍ لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما

(1) أخرجه البخاري (1 / 277) رقم 771 ، ومسلم (1 / 466) رقم 675 ، وأخرجاه عن ابن مسعود مبيناً فيه ما حصل لقريش جراء معصيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر : صحيح البخاري (4 / 1823) رقم 4544 ، ومسلم (4 / 2155) رقم 2798 .

(2) انظر : تفسير ابن عاشور (29 / 238) .

(3) سورة الأنبياء / 35 .

الرخاء فينسي ويلهي ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومة في النفس ، ويهيئ الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان . إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة . نعمة المال والرزق كثيراً ما تقود إلى فتنة البطَر وقلة الشكر مع السـرف أو مـع البخـل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة ، ونعمة القوة كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيـان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس والتهجم على حرمات ، ونعمة الجمال كثيراً ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتتردى في مدارك الإثم والغواية، ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين ، وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا مـن ذكر الله فعصمه الله " [1] .

وكان للتقوى والاستقامة على أمر الله أثر في الرزق في الديانات السابقة ، حيث قـال تعـالى {ولَو أَنهم أَقَاموا التوراةَ والإِنجيلَ وما أُنزِلَ إِلَيهم من ربهم لأكَلُوا من فَـوقهم ومـن تحـت أَرجلهم منهم أُمةٌ مقْتصدةٌ وكَثير منهم ساء ما يعملُونَ} [2] " أي لو أ م عملوا بما في الكتـب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلـك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدا ﷺ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر بإتباعه حتما لا محالة . وقوله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعني بذلك كثرة الـرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض . وقال علي بن أبي طلحة عن بن عباس رضي الله عنه (لأكلوا من فوقهم) يعني لأرسل السماء عليهم مدرارا (ومن تحت أرجلهم) يعني يخرج مـن الأرض بركا ا . وقال بعضهم معنى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء [3] و" ذكر فوق وتحت للمبالغة في تيسير أسـباب الـرزق لهـم وكثر ا وتعدد أنواعها "[4] " فجعل تعالى التقى من أسباب الرزق ووعد بالمزيد لمن شـكر" [5]

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (6 / 56) .

(2) سورة المائدة / 66 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 77) .

(4) انظر : تفسير فتح القدير (2 / 58) .

(5) . (تفسير القرطبي 6/241)

وعن زياد بن لبيد أنه قال : ذكر النبي ﷺ شيئا فقال (وذاك عند ذهاب العلم) قال : قلنا : يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرؤونه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال (ثكلتك أمك يا بن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة . أو ليس هـذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء هكـذا) (1) . وقولـه تعالى (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) كقوله {ومن قَومِ موسى أُمةٌ يهـدونَ بِالْحق وبِه يعدلُونَ} (2) ، وكقوله عن أتباع عيسى {فَآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم} الآية (3) . فجعل أعلى مقاما م الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين كما في قوله عز وجل {ثُم أورثْنا الْكتاب الذين اصطَفَينا من عبادنا فَمنهم ظَـالم لنفْسِـه ومـنهم مقْتصد ومنهم سابِق بِالْخيرات بِإِذْن الله ذَلك هو الْفَضلُ الْكَبِير ـ جنات عدن يـدخلُونها} الآية (4) . والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة (5) .

كما أن الاستقامة على منهج الله عز وجل والالتزام بما شرعه تبارك وتعالى لا يمكن أن يعطـل وصول رزق قدره الله تعالى للإنسان ، وقد ضرب الله عز وجل مثلا لذلك بالصلاة فقال تعالى {وأمر أَهلَك بِالصلَاة واصطَبِر علَيها لَا نسأَلُك رِزقًا نحن نرزقُك والْعاقبةُ للتقْوى }(6). فالذي أمرنا بالصلاة هو الذي أمرنا بالسعي لطلب الرزق وأوامر الله عز وجل لا تتعارض . والصـلاة لها فضائل عظيمة في الدنيا والآخرة ، ومن هذه الفضائل : أن الرزق يحصل ويزداد بالمداومـة عليها ، وإقامتها كما أرادها سبحانه وتعالى ، وكما أقامها رسول الله ﷺ . وقولـه (وأمـر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها

---

(1) أخرجه ابن ماجه (2 / 1344) رقم 4048 ، وأحمد بن حنبل (4 / 160) رقم 17508 . قال عنه الألباني وشعيب الأرناؤوط : صحيح .
(2) سورة الأعراف / 159 .
(3) سورة الحديد / 27 .
(4) سورة فاطر / 32 ـ 33 .
(5) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 77) .
(6) سورة طه / 132 .

كما قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسكُم وأَهليكُم نارا} [1] . وقوله (لا نسألك رزقـا نحن نرزقك) يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى {ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب}[2] . وقال تعالى {وما خلَقْت الْجِـن والْإِنس إلا ليعبدون ـ ما أُرِيد منهم من رزقٍ وما أُرِيد أَن يطْعمون ـ إن الله هو الـرزاق ذُو الْقُوة الْمتين } [3] . ولهذا قال (لا نسألك رزقا نحن نرزقك) . وقال الثوري (لا نسـألك رزقا) أي لا نكلفك الطلب . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى : يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك) [4] . وعن ابن مسعود ﷺ قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول (من جعل الهموم هما واحـدا ـ هم المعاد ـ كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبـال الله في أي أوديته هلك) [5] ، وروي أيضاً عن زيد بن ثابت ﷺ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة) [6] وقولـه (والعاقبة للتقوى) أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقـى الله [7] . والمـراد بالتفرغ للعبادة : أن يكون العبد حاضر القلب والجسد أثناء العبادة . ودلالة النص تتمثل في أن الله قد تكفل بالأرزاق كافة ، وعلى وجه الخصوص لمن أقام الصلاة ، وأمر أهله ـا ، وداوم على ذلك .

---

(1) سورة التحريم / 6 .

(2) سورة الطلاق / 2 ـ 3 .

(3) سورة الذاريات / 56 ـ 58 .

(4) أخرجه الترمذي (4 / 642) رقم 2466 ، وابن ماجه (2 / 1376) رقم 4107 قال عنه الألباني : صحيح .

(5) أخرجه ابن ماجه في سننه (1 / 95) رقم 257 . قال عنه الألباني : حسن ، وأخرجه الحاكم في مستدركه (2 / 481) رقم 3658 وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال عنه الذهبي : صحيح .

(6) أخرجه ابن ماجه في سننه (2 / 1375) رقم : 4105 . قال عنه الألباني : صحيح .

(7) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 172) .

2- **الاستغفار والتوبة :**

الاستغفار هو : الانكسار بين يدي الله والرجوع إليه ، وسؤاله أن يعفو عنه ، وأن يقيله من عثرته وأن يتوب عليه . والتوبة في الشرع هي " ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه ، والعزم على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة . فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة " [1] .

والتوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثاني : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحلّه منها .

إن من طبيعة الإنسان الخطأ ، لكن العليم الحليم الحكيم – سبحانه – شرع لعباده الاستغفار لتسديدهم ولجبر عثراتهم ، بل وأمرهم بذلك ؛ ليطهرهم وينقيهم . وزيادة على ذلك يبدل سيئاتهم حسنات ، وهذا من كرم الله ، بل وأبعد من ذلك كله ؛ يرزقهم ويعطيهم ويزيدهم من فضله . فله الحمد والشكر والثناء الحسن .

---

(1) انظر : المفردات في غريب القرآن مادة توب /76 .

قال تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه {فَقُلْت استغفروا ربكُم إنه كَانَ غَفارا ـ يرسلِ السماء علَيكُم مدرارا ـ ويمددكُم بِأَموالٍ وبنِين ويجعل لكُم جنات ويجعل لكُم أَنهارا} [1] " أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء وأنبت لكم من بركات الأرض وأنبت لكم الزرع وأدر لكم الضرع وأمدكم بأموال وبنين أي أعطاكم الأموال والأولاد وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها " [2].

وكذلك ما ورد عن دعوة هود قومه للاستغفار ، قال تعالى {ويا قَومِ استغفروا ربكُم ثُم توبوا إِلَيه يرسلِ السماء علَيكُم مدرارا ويزِدكُم قُوةً إِلَى قُوتكُم ولاَ تتولوا مجرِمين} [3] . فقد أمرهم نبيهم " بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال (يرسل السماء عليكم مدرارا) وفي الحديث (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب) [4] " [5] . ففي هذا الحديث الشريف أخبر الصادق المصدوق الناطق بالوحي ﷺ عن ثلاث ثمرات يجنيها من أكثر الاستغفار ، إحداها : الرزق من الله الرزاق ذي القوة المتين من حيث لا يظن ولا يرجو ولا يخطر بباله . فعلى الراغبين في الرزق المسارعة إلى إكثار الاستغفار بالمقال والفعال ، ولكن الحذار الحذار من الاقتصار على الاستغفار باللسان من دون ذلك بالفعال فإنه فعل الكذابين [6].

---

(1) سورة نوح / 10 ـ 12 .

(2) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 426) .

(3) سورة هود / 52 .

(4) أخرجه أبو داود (1 / 475) رقم 1518 ، وابن ماجه (2 / 1254) رقم 3819 .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 450) .

(6) انظر : المفردات في غريب القرآن للأصفهاني مادة غفر /362 .

و" في هذه الآية ـ آية نوح ـ والتي في ـ هود ـ دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار " [1]. هذا وقد تمسك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بما جاء في هذه الآيات عند طلبه المطر من الرب جل جلاله . فقد روي أن عمر ﷺ خرج يستسقي بالناس ، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع . فقيل له : ما سمعناك استقيت . فقال : طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل به القطر . ثم قرأ (استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) [2] .

وروي أن رجلاً شكا إلى الحسن البصري رحمه الله الجدب فقال : استغفر الله . وشكا إليه آخر الفقر فقال : استغفر الله . وشكا إليه ثالث جفاف بستانه فقال : استغفر الله . وشكا إليه آخر عدم الولد فقال : استغفر الله . ثم تلا هذه الآية (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفـارا) إلى قوله (ويجعل لكم أنهارا) [3] .

وقال تعالى { وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } [4] ففي الآية الكريمة وعد من من الله القادر المقتدر بالمتاع الحسن لمن استغفر وتاب . والمراد بقوله تعالى (يمتعكم متاعاً حسناً) كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : "يتفضل عليكم بالرزق والسعة " [5]. و " هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العـيش ، ولا يستأصـلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم " [6]. وجاء هذا الوعد الرباني الكريم في شكل ترتيب الجزاء الجزاء على شرطه . قال صاحب أضواء البيان " هذه الآية الكريمة تدلّ علـى أن الاسـتغفار

(1) انظر : تفسير القرطبي (18 / 302) ، وتفسير فتح القدير (5 / 417) .
(2) انظر : تفسير الخازن (7 / 154) .
(3) انظر : فتح الباري لابن حجر (11 / 98) .
(4) سورة هود / 3 .
(5) انظر : زاد المسير لابن الجوزي (4 / 75) .
(6) انظر : تفسير القرطبي (9 / 4) ، وتفسير الطبري (11 / 181) .

والتوبة إلى الله من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه " [1].

3- صلة الرحم :

الصلة : أن يفعل الإنسان مع أقاربه ما يعد به مواصلاً غير منافر ولا مقاطع . والأرحـام هـم القرابة عموماً ؛ وهم من بينه وبين الآخر نسب سواء كان يرثه أم لا ، وسواء كان ذا محـرم أم لا . وصلة الرحم بأنواع الصلات ـ سواءً كانت مادية أو معنوية ـ سبب من أسباب حصول الرزق ؛ بل وبسطته وزيادته ، سواءً كانت الزيادة حسية أو معنوية . قال تعـالى {والـذين يصلُونَ ما أَمر اللّه بِه أَن يوصلَ ويخشونَ ربهم ويخافُونَ سوءَ الحسابِ}[2] ، مع قوله تعـالى {والذين ينقُضونَ عهد اللّه من بعد ميثَاقه ويقْطَعونَ مآ أَمر اللّه بِه أَن يوصلَ ويفْسِـدونَ فـي الأَرضِ أُولَئك لَهم اللعنةُ ولَهم سوءُ الدارِ} [3] . فإن منطوق الآيات الكريمة يشير إلى أن قطـع ما أمر الله به أن يوصل ـ والأرحام في الصدر منهم ـ يستجلب لعنة الله عز وجل علـيهم . هذه اللعنة التي تقطع الرزق والخير والرحمة والبركة عن الإنسان ، ولا يفوتنا أن القرآن الكـريم قد أطلق على الرزق رحمة وذلك في قوله تعالى {وهو الذي ينزلُ الْغيثَ من بعد ما قَنطُوا وينشر رحمته وهو الْولي الْحميد} [4] . فاللعنة الحاصلة بسبب قطع ما أمر الله به أن يوصل تمنع هذا الرزق من الوصول للإنسان ، والعكس صحيح . بمعنى أن الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ـ وفي الصدر منه صلة الأرحام ـ ستنـزل عليه رحمة الله سبحانه وفيوضات رزقه تبارك وتعالى . ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ما جاء عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال (مـن سـره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه)[5] وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسـول الله

---

(1) انظر : تفسير أضواء البيان للشنقيطي (2 / 169 ـ 170) .

(2) سورة الرعد / 21 .

(3) سورة الرعد / 25 .

(4) سورة الشورى / 28 .

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2232) رقم الحديث : 5639 .

ﷺ قال (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) [1] . فكلما أنفق العبد وأعطى وتصدق على أقربائه أعطاه الله ورزقه وزاده ، والعكس بالعكس ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . كما أن الله قد وعد بأن يصل من يصل رحمه ويقطع من يقطعها . فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك) [2].

4- **الدعاء :** ومعنى الدعاء : استدعاء العبد ربه عز وجل العناية ، واستمداده إياه المعونة . وحقيقته : إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة . وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله وإضافة الجود والكرم إليه ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ (الدعاء هو العبادة) [3] . قال الله تعالى {وإِذْ قَالَ إبراهيم رب اجعلْ هَذَا بلَدا آمنا وارزق أهلَه من الثمرات من آمن منهم بِاللّه والْيومِ الآخرِ قَالَ ومن كَفَر فَأُمتعه قَليلاً ثُم أَضطَره إِلَى عذَابِ النارِ وبِئْس الْمصير} [4] ويستفاد من هذه الآية أن الدعاء من الأسباب الجالبة للرزق . لأن الرزق كما ذكرنا سلفاً يبتغى من عند الله عز وجل ، وما عند الله تعالى لا ينال إلا بطاعته وإخلاص الدعاء له تبارك وتعالى بتضرع وخشية ، وهذا ما فعله خليل الله إبراهيم عليه السلام إذ باشر الدعاء قائلاً (رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ...) فاستجاب الله دعاءه فقال تعالى ممتناً على قريش {أَولَم يروا أَنا جعلْنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أَفَبِالْباطلِ يؤمنونَ وبِنِعمة الله يكْفُرونَ } [5] . والملاحظ في دعاء إبراهيم عليه السلام أنه خص بدعائه المؤمنين بالله واليوم الآخر فأنزل الله تعالى (قال ومن كفر ...) " قال بن عباس كان

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2232) رقم الحديث : 5640 .

(2) أخرجه البخاري (4 / 1828) رقم 4552 ، ومسلم (4 / 1980) رقم 2554 .

(3) أخرجه أبو داود (1 / 466) رقم 1479 ، والترمذي (5 / 211) رقم 2969 ، وابن ماجه (2 / 1258) رقم 3828 ، وأحمد (4 / 271) رقم 18415 . قال عنه الألباني وشعيب الأرناؤوط : صحيح .

(4) سورة البقرة /126 .

(5) سورة العنكبوت / 67 .

إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله (ومن كفر) أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنين . أأخلق خلقا لا أرزقهم (أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير) ثم قرأ بن عباس {كُلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطَاء ربك وما كَانَ عطَاء ربك محظُورا} [1] . رواه بن مردويه ، وروي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضا . وهذا كقوله تعالى {إِن الذين يفْترونَ علَى اللّه الْكَذب لاَ يفْلحونَ ـ متاع في الدنيا ثُم إِلَينا مرجِعهم ثُم نذيقُهم الْعذَاب الشديد بِما كَانواْ يكْفُرونَ} [2] . وقوله تعالى {ومن كَفَر فَلَا يحزنك كُفْره إِلَينا مرجِعهم فَننبئُهم بِما عملُوا إِن الله عليم بِذَات الصدورِ ـ نمتعهم قَليلًا ثُم نضطَرهم إِلَى عذَابٍ غَليظ} [3] . وقوله {ولَولَا أَن يكُونَ الناس أُمةً واحدةً لَجعلْنا لمن يكْفُر بِالرحمنِ لبيوتهم سقُفًا من فَضة ومعارِج علَيها يظْهرونَ ـ ولبيوتهم أَبوابا وسررا علَيها يتكؤونَ ـ وزخرفًا وإِن كُل ذَلك لَما متاع الْحياة الدنيا والْآخرةُ عند ربك للْمتقين} [4]. وقوله (ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير ، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى {وكَأَين من قَرية أَملَيت لَها وهي ظَالمةٌ ثُم أَخذْتها وإِلَي الْمصير}[5] وفي الصحيحين (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم) [6] وفي الصحيح أيضاً (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ قوله تعالى {وكَذَلك أَخذُ ربك إِذَا أَخذَ الْقُرى وهي ظَالمةٌ إِن أَخذَه أَليم شديد}[7] [8]. وقرأ بعضهم (قال ومن كفر فأمتعه قليلا) الآية . جعله من تمام دعاء إبراهيم وهي قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة وتركيب السياق يأبى

---

(1) سورة الإسراء / 20 .

(2) سورة يونس / 69 ـ 70 .

(3) سورة لقمان / 23 ـ 24 .

(4) سورة الزخرف / 33 ـ 35 .

(5) سورة الحج / 48 .

(6) أخرجه البخاري (5 / 2262) رقم 5748 ، ومسلم (4 / 2160) رقم 2804 .

(7) سورة هود / 102 .

(8) أخرجه البخاري (4 / 1726) رقم 4409 ، ومسلم (4 / 1997) رقم 2583 .

معناها والله أعلم . فإن الضمير في (قال) راجع إلى الله تعالى في قـراءة الجمهـور والسـياق يقتضيه ، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في (قال) عائداً على إبراهيم وهذا خـلاف نظم الكلام والله سبحانه هو العلام " [1]. وعن بسر المازني قال بعـثني أبي إلى رسـول الله ﷺ أدعوه إلى الطعام. ومما دعا به رسول الله ﷺ بعد تناول الطعام (اللهم اغفر لهم وارحمهم وبارك عليهم ووسع عليهم في أرزاقهم) [2] . وعن علي ﷺ أن مكاتباً جاءه فقال : إني قد عجـزت عن كتابتي فأعني . قال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل ثبير ديناً أداه الله عنك ؟ قال : قل (اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمـن سواك) [3] . وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله ، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل) [4] [4] . وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله عز وجل : يا عبادي كلكم ضـال إلا من هديته فسلوني الهدى أهدكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فسلوني أرزقكـم ...) [5] .

5- الصبر :

لاشك أن الصبر مقدمة ضرورية لنيل كل مطلوب ومعلوم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضـة ، ولو شاء ربنا عز وجل لأنزل الرطب في حجر مريم عليها السلام وهي جالسة ، ولكنه تعـالى قال لها {وهزي إِلَيكِ بِجِذْعِ النخلَة تساقطْ علَيك رطَبا جنِيا} [6] . فتحصيل الأرزاق يتطلب صبراً حتى يجمع الإنسان قوته وقوت عياله . قال تعالى {وآخرونَ يضرِبونَ في الْأَرضِ يبتغـونَ

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (1 / 176) .
(2) أخرجه أحمد (4 / 188) رقم 17714 . قال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .
(3) أخرجه الترمذي (5 / 560) رقم 3563 قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب وحسنه الألباني . وأخرجه الحاكم الحاكم في مستدركه (1 / 721) رقم 1973 وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .
(4) أخرجه الترمذي (4 / 563) رقم 2326 قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .
(5) أخرجه الترمذي (4 / 656) رقم 2495 ، وابن ماجه (2 / 1422) رقم 4257 .
(6) سورة مريم / 25 .

من فَضل الله} [1]. وقال تعالى {فَامشوا في مناكِبِها وكُلُوا من رزقه وإِلَيه النشور } [2] . وقال تعالى {فَإِذَا قُضيت الصلَاةُ فَانتشروا في الْأَرض وابتغوا من فَضل الله} [3] . فإن المتأمل في هذه الأفعال الثلاثة – الضرب ، المشي ، الانتشار – ؛ يجد أن الصبر عمودها . فالضرب والمشـي والانتشار كما نصت الآيات الكريمة لا تكون في مكان واحد فالاستعجال بمعزل تام عن هـذه الأفعال . ومما يقطع بهذا المعنى قول الرسول ﷺ (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته) [4].

6- الصدقات والإنفاق :

والمراد بالإنفاق " الإنفاق المرغّب فيه في الدين كالإنفاق على الفقراء ، والإنفاق في سـبيل الله لنصر الدين " [5] قال الله تعالى {قُلْ إن ربي يبسطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقْدر لَه ومـا أَنفَقْتم من شيءٍ فَهو يخلفُه وهو خير الرازقين} [6] " أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل وفي الآخرة بالجزاء والثواب كمـا ثبـت في الحديث (يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك) [7] " [8] " (وما أنفقتم من شيء) نفقة واجبة أو أو مستحبة على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك (فهو) تعالى (يخلفـه) فـلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر

---

(1) سورة المزمل / 20 .

(2) سورة الملك / 15

(3) سورة الجمعة / 10 .

(4) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (11 / 125) رقم 20100 ، وأبو نعيم الأصبهاني (10 / 27) .

(5) انظر : تفسير التحرير والتنوير (22 / 220 – 221) .

(6) سورة سبأ / 39 .

(7) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (5 / 26) رقم 8070 ، وابن حبان في صحيحه (2 / 422) رقم 653 قال شعيب الأرناؤوط : صحيح ، والطبراني في معجمه الكبير (17 / 358) رقم 987 .

(8) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 542) .

(وهو خير الرازقين) فاطلبوا الرزق منه واسعوا في الأسباب التي أمركم ا " [1] " وظاهر الآية أن إخلاف الرزق يقع في الدنيا وفي الآخرة " [2] و" قوله تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو فهو يخلفه) يحقق معنى قوله ﷺ (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ي لان يقول أحـدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا) [3] وذلك لأن الله تعالى ملك علي علي وهو غني مليء فإذا قال : أنفق وعلي بدله ، فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألق متاعك في البحر وعلي ضمانه . فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة وإن كان من الفقراء ، ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال إلى الهلاك فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ثم إنْ حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل فإن حصل به رهن وكتب بـه وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون . ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريـب مـن الجنون فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقـراض وقـد حصل الضامن المليء وهو الله العلي وقال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) ثم رهن عند كل واحد إما أرضا أو بستانا أو طاحونة أو حماما أو منفعة فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العاريـة فكأنـه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلـف لا مأجورا ولا مشكورا " [4] هذا وقد أكّد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وعده للمنفق بإخلاف بإخلاف الرزق بثلاثة مؤكدات فقد أكده " بصيغة شرط وبجعل جملة الجواب اسميـة وبتقـديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله (فهو يخلفه) ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات دالة على مزيد

---

(1) انظر : تفسير السعدي (1 / 681) .

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير (22 / 220) .

(3)أخرجه البخاري في صحيحه (2 / 522) رقم 1374 ، ومسلم في صحيحه (2 / 700) رقم 1010 .

(4) انظر : التفسير الكبير للرازي (25 / 228) .

العناية بتحقيقه لينتقل من ذلك إلى الكناية عن كونه مرغوبه تعالى " [1] . وإن وعد ربنا سبحانه وتعالى مؤكد حتمي قطعي لا ريب في تحققه حتى ولو كان بغير أي مؤكد ، فكيف إذا أكـد بثلاثة مؤكدات ! .

وقال الله تعالى {الشيطَانُ يعدكُم الْفَقْر ويأمركُم بِالْفَحشاء واللّه يعدكُم مغفرةً منه وفَضلاً واللّه واسع عليم} [2] قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لهذه الآية " اثنان من الله ، واثنـان من الشيطان : (الشيطان يعدكم الفقر) يقول : لا تنفق مالك وأمسكه لك فإنك تحتاج إليه (ويأمركم بالفحشاء) (والله يعدكم مغفرة منه) على هذه المعاصي (وفضلا) في الرزق " [3] " فالمغفرة إشارة إلى منافع الآخرة ، والفضل إشارة إلى منافع الدنيا وما يحصـل مـن الـرزق والخلف " [4] " والمغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة ، والفضل هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه ، والتنعيم في الآخرة ، وبكل قد وعد الله تعـالى " [5] . " والفضـل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم في أرزاقهم ، وينعم عليهم في الآخرة بما هـو أفضـل وأكثر وأجلّ وأجمل " [6] .

وقد روت لنا كتب السنة شواهد تدل على إخلاف الله تعالى الرزق للمنفق في سبيله . منـها قوله ﷺ (ما نقص عبد مال من صدقة) [7] ومنها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال (بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة : اسق حديقة فلان . فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبـع

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير (22 / 221) .

(2) سورة البقرة / 268 .

(3) انظر : تفسير الطبري (3 / 88) .

(4) انظر : تفسير الخازن (1 / 290) .

(5) انظر : المحرر الوجيز لابن عطية (1 / 364) .

(6) انظر : فتح القدير للشوكاني (1 / 289) .

(7) أخرجه الترمذي (4 / 562) رقم 2325 قال الألباني : صحيح ، وأخرجه أحمد (4 / 231) رقم 18060 قال قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن .

الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال له : يا عبد الله ! ما اسمك ؟ قال: فلان ، للاسم الذي سمع في السحابة . فقال له: يا عبد الله ! لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعـت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان ، لاسمك . فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثاً ، وأرد فيهـا ثلثه) [1] ، وفي رواية (وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل) [2] " وفي الحـديث فضل الصدقة والإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل ، وفضل أكل الإنسان من كسبه والإنفاق على العيال " [3] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه في الحديث القدسي أن النبي ﷺ قال (قال الله الله تعالى : يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك ، يمين الله سحاء لا يغيضها شيء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه ، قال : وعرشه على المـاء وبيـده الأخرى القبض يرفع ويخفض) [4] ، وقال ﷺ (صدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم الرحم تزيد في العمر ، وفعل المعروف يقي مصارع السوء) [5].

ويشمل الإنفاق الذي يكون سببا للرزق ، الإنفاق على طالب العلم الشرعي ، فعن أنس بـن مالك ﷺ قال : كان أخوان على عهد الرسول ﷺ ، فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ ـ أي لطلب العلم ـ فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ (لعلك ترزق به) [6] .

7- التوكل على الله والاعتماد عليه والاستعانة به في حصول الرزق :

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2288) رقم 2984 .

(2) انظر : المرجع السابق ونفس الصفحة .

(3) انظر : شرح النووي على مسلم (18 / 115) .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (4 / 1724) رقم 4407 ، ومسلم في صحيحه (2 / 690) رقم 993 .

(5) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (1 / 289) رقم 943 ، وفي المعجم الكبير (8 / 261) رقم 8014 ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3 / 244) رقم 3442 .

(6) أخرجه الترمذي (4 / 574) رقم 2345 قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح وقال الألباني : صحيح . وأخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 172) رقم 320 وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم .

والتوكل : حركة ذات الإنسان في الأسباب بالظاهر والباطن ، وسكون إلى المسبب وركون إليه ، بحيث لا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه [1] .
وهو الاطمئنان إلى أن الله سيتولاه ويحقق له كل ما توكل عليه فيه ، من جلب المصالح ودفع المضار ، ثم الرضا بما اختاره الله له ؛ فإن من توكل على الله كفاه . قال تعالى : {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [2] " (ومن يتوكل على الله) في أمر دينه ودنياه بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ويثق به في تسهيل ذلك (فهو حسبه) أي كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم فهو أقرب إلى العبد من كل شيء ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له ، فلهذا قال تعالى (إن الله بالغ أمره) أي لا بد من نفوذ قضائه وقدره ولكن (قد جعل الله لكل شيء قدرا) أي وقتا ومقدارا لا يتعداه ولا يقصر عنه " [3] ، وعن عمر بن الخطاب ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) [4] والتوكل والتوكل على الله لا يقتضي ترك الكسب . " فليس في الحديث ما يدل على ترك الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق ، وإنما أراد لو توكلوا على الله في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم وعلموا أن الخير بيده لم ينصرفوا إلا غانمين سالمين كالطير " [5] .

ومما يدل على أن التوكل على الله تعالى لا يقتضي ترك الكسب ما رواه عمرو بن أمية عن أبيه ﵁ قال : قال رجل للنبي ﷺ : أُرسل ناقتي وأتوكل ؟ قال (اعقلها وتوكل) [6] .

8- فعل الطاعات واجتناب الذنوب :

---

(1) انظر : لسان العرب (11/734 – 736)، النهاية لابن الأثير (5/496)، مدارج السالكين (2/114 – 117) .
(2) سورة الطلاق / 3 .
(3) انظر : تفسير السعدي (1 / 870) .
(4) سبق تخريجه في صفحة / 302 .
(5) انظر : تحفة الأحوذي للمباركفوري (7 / 8) .
(6) أخرجه الترمذي(4 / 668)رقم 2517 ، وابن حبان(2 / 510)رقم 731. قال الألباني والأرناؤوط : حسن.

فقد جرت حكمة الله تعالى وسنته أن لا ينال ما عند الله من الرزق الكريم والفضل العظـيم إلا بطاعة الله وعبادته ، وامتثال أمره والانتهاء عن نهيه . والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبـه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة . قال الله تعالى {رِجالٌ لا تلْهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكْرِ الله وإقَامِ الصلاة وإيتاء الزكاة يخافُونَ يوما تتقلب فيه الْقُلُوب والْأبصار ـ ليجـزيهم الله أحسن ما عملُوا ويزيدهم من فَضله والله يرزق من يشاء بِغيرِ حسابٍ} [1] . وقال تعـالى {والذين آمنواْ وهاجرواْ وجاهدواْ في سبِيلِ اللّه والذين آووا ونصرواْ أُولَئك هم الْمؤمنونَ حقا لهم مغفرةٌ ورِزق كَرِيم} [2] . وقال سبحانه {من عملَ صالحا من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مـؤمن فَلَنحيِينه حياةً طَيبةً ولَنجزِينهم أجرهم بِأحسنِ ما كَانواْ يعملُونَ} [3] . وعن أنس بن مالك ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها في الدنيا ويجـزى بهـا في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخـرة لم يكن له حسنة يجزى بها) وفي رواية أخرى (إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طعمـة مـن الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته) [4] [4] . وعن ثوبان ﵁ قال : قال النبي ﷺ (لا يزيد العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الـدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) [5] .

9ـ الحج والعمرة ، والمتابعة بينهما :

قال تعالى {وأذن في الناسِ بِالْحج يأْتوك رِجالًا وعلَى كُلِّ ضامرٍ يأْتين من كُلِّ فَج عميـقٍ ـ ليشهدوا منافع لَهم ويذْكُروا اسم الله في أَيامٍ معلُومات علَى ما رزقَهم من بهيمة الْأَنعامِ فَكُلُوا

---

(1) سورة النور / 37 ـ 38 .

(2) سورة الأنفال / 74 .

(3) سورة النحل / 97 .

(4) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2162) رقم 2808 .

(5) أخرجه ابن ماجه (2 / 1334) رقم 4022 وأخرجه أحمد (5 / 277) رقم22440 وحسنه الألباني والأرناؤوط . وأخرجه الحاكم في مستدركه (1 / 670) رقم 1814 وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

منها وأطْعموا الْبائس الْفَقير} [1]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبث الحديد) [2] . أي " يزيلان الفقر وهو يحتمل الفقر الظاهر بحصول غنى اليد والفقر الباطن بحصول غنى القلب (والذنوب) أي يمحوانها قيل المراد بها الصغائر ولكن يأباه قوله (كما ينفي الكير) وهو ما ينفخ فيه الحداد لاشتعال النار للتصفية (خبث الحديد والذهب والفضة) أي وسخها " [3] . وقيل : إن إزالتهما للفقر " كزيادة الصدقة للمال ، ويحتمل كون ذلك لخصوصية علمها المصطفى ﷺ وكونه إشارة إلى أن الغنى الأعظم هو الغنى بطاعة الله ولا عطاء أعظم من مباهاة الله بالحجاج الملائكة (كما ينفي الكير خبث الحديد) حيث مثل متابعتهما في إزالة الذنوب بإزالة النار الخبث لأن الإنسان مركوز في جبلته القوة الشهوية والغضبية محتاج لرياضة تزيلها والحج جامع لأنواع الرياضات من إنفاق المال والجوع والظمأ واقتحام المهالك ومفارقة الوطن والإخوان وغير ذلك " [4] .

10- تلاوة القرآن الكريم وإقراء القرآن وتعليمه والرقية به :

قال تعالى {إن الذين يتلُونَ كتاب الله وأَقَاموا الصلَاةَ وأَنفَقُوا مما رزقْناهم سرا وعلَانِيةً يرجونَ تجارةً لن تبور ـ ليوفيهم أُجورهم ويزيدهم من فَضله إنه غَفُور شكُور} [5]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الرب عز وجل : من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) [6] " أي من اشتغل بقراءة القرآن أعطى الله مقصوده ومراده أكثر وأحسن مما يعطي الذين يطلبون حوائجهم " [7] .

---

(1) سورة الحج / 27 ـ 28 .

(2) أخرجه الترمذي في سننه(3 / 175) رقم 810 قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب ، وأخرجه النسائي في سننه (5 / 115) رقم 2630 ، وأخرجه ابن ماجه في سننه (2 / 964) رقم 2887 قال الألباني : صحيح .

(3) انظر : تحفة الأحوذي للمباركفوري (3 / 454) .

(4) انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي (3 / 225) .

(5) سورة فاطر / 29 ـ 30 .

(6) أخرجه الترمذي (5 / 184) رقم 2926 . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(7) انظر : تحفة الأحوذي (8 / 196) .

وعن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أحق ما أخذتم عليه أجـرا كتـاب الله) وذلك عندما أخذ رجل أجرا على الرقية بالفاتحة ، وجاء بالشاة إلى أصحابه ، فكرهوا ذلـك ، وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا ، حتى قدموا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله ، أخذ علـى كتاب الله أجرا ، فقال رسول الله الحديث المذكور [1] " وقد استدل الجمهور بهذا الحديث على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن " [2] .

11- التبكير في طلب الرزق :

البكور هو أول النهار [3] والمراد التبكير في طلب الرزق وطلب العلم والاجتهاد بالطاعة في أول أول النهار ؛ لأن الله يقسم الأرزاق أول النهار ، ولأن أول النهار وقت مبارك ، ويكون فيـه الإنسان أقوى ما يكون وأنشط . فعن صخر الغامدي ﷺ قال : قال النبي ﷺ (اللـهم بـارك لأمتي في بكورها) ـ أي فيما تفعله في أول النهار أي سألته فأعطاني ذلك [4] ـ قال : وكان وكان إذا بعث سرية أو جيشا ، بعثهم أول النهار ، وكان صخر رجلاً تاجراً ، وكان يبعـث تجارته من أول النهار فأثرى ، وكثر ماله [5] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسـول الله ﷺ (باكروا طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح) [6] وعن فاطمة بنت محمد ﷺ رضي الله عنها قالت : مر بي رسول الله ﷺ و أنا مضطجعة متصبحة فحركني برجله ثم قال (يا بنية قومي اشهدي رزق ربك و لا تكوني من الغافلين فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع

---

(1) أخرجه البخاري (5 / 2166) رقم 5405 .

(2) انظر : فتح الباري لابن حجر (4 / 453) .

(3) انظر : تحفة الأحوذي (4 / 337) .

(4) انظر : فيض القدير للمناوي (2 / 17) .

(5) أخرجه أبو داود في سننه (2 / 41) رقم 2606 ، وأخرجه الترمذي (3 / 517) رقم 1212 ، وأخرجه ابن ماجه ماجه (2 / 752) رقم 2236 . قال الألباني : صحيح .

(6) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (7 / 193) رقم 7250 .

الفجر إلى طلوع الشمس)[1] . ثم إن صلاة الفجر مع الجماعة سبب لدخول المصلي في حفظ الله وتوفيقه حتى المساء ، ومن يكون في ذمة الله ييسر الله له أموره ، ومنها حصوله على الرزق والفضل من الله الرزاق العليم .

12- الزواج بالنساء الصالحات :

قال الله تعالى {وأنكحوا الْأيامى منكُم والصالحين من عبادكُم وإمائكُم إن يكُونوا فُقَراء يغنِهِم الله من فَضله والله واسع عليم}[2] " قال علي بن أبي طلحة عن بن عباس : رغّبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى فقال (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال بن أبي حاتم عن سعيد يعني بن عبد العزيز قال بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) "[3] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاثة حق على الله عو م . ا اهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء و والناكح الذي يريد العفاف)[4] " أي ثابت عند الله إعانتهم أو واجب عليه بمقتضى وعده معاونتهم وقوله (يريد العفاف) أي العفة من الزنى . وإنما آثر هذه الصيغة إيذاناً بأن هذه الأمور من الأمور الشاقة التي تكدح الإنسان وتقصم ظهره لولا أن الله تعالى يعينه عليها لا يقوم ا ، وأصعبها العفاف ؛ لأنه قمع الشهوة الجبلية المركوزة فيه وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين ، فإذا استعف وتداركه الله تعالى ترقّى إلى م لة الملائكة وأعلى عليين "[5] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (تزوجوا النساء فإ ن يأتينكم بالمال)[6] .

---

(1) أورده البيهقي في شعب الإيمان (4 / 181) رقم 4735 .

(2) سورة النور / 32 .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 287) .

(4) أخرجه الترمذي (4 / 184) رقم 1655 قال الألباني : حسن ، وأخرجه النسائي (3 / 194) رقم 5014 .

(5) انظر : تحفة الأحوذي (5 / 242) .

(6) أخرجه الحاكم في مستدركه (2 / 174) رقم 2679 وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي عنه : على شرط البخاري ومسلم . وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (3 / 454) رقم 15913 .

ودلالة هذه النصوص واضحة في أن الله تعالى قد تكفل بالرزق والفضل والعطاء لمن كان فقيراً وأراد العفاف بالزواج .

13- إنجاب الأولاد :

قال تعالى {إن ربك يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إنه كَانَ بِعباده خبِيرا بصيرا ـ ولاَ تقْتلُـوا أَولادكُم خشيةَ إِملاقٍ نحن نرزقُهم وإِياكُم إن قَتلَهم كَانَ خطْئًا كَبِيرا} [(1)] " لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعـالى (ولا تقتلـوا أولادكم من إملاق) وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يئدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار . ولهذا ورد في الصـحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) قلت : ثم أي ؟ قال (أن تقتل ولدك خشية أن يطعـم معـك) قلت : ثم أي ؟ قال (أن تزاني حليلة جارك) ثم تلا رسول الله ﷺ {والذين لَا يدعونَ مع الله إِلَها آخر ولَا يقْتلُونَ النفْس التي حرم الله إِلا بِالْحق ولَا يزنونَ} [(2)] الآية [(3)] . وقوله تعالى (من إملاق) قال بن عباس وقتادة والسدي وغيره : هو الفقر . أي : ولا تقتلـوهم مـن فقـركم الحاصل . وقال في سورة الإسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أي لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل ، ولهذا قال هناك (نحن نرزقهم وإياكم) فبدأ برزقهم للاهتمام بهـم . أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال (نحـن نرزقكم وإياهم) لأنه الأهم ها هنا " [(4)] .

14- الشكر لله والحمد على ما أنعم :

---

(1) سورة الإسراء / 30 ـ 31 .

(2) سورة الفرقان / 68 .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2236) رقم 5655 ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1 / 90) رقم 86 .

(4) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 189) .

قال تعالى {ورزقَكُم من الطيبات لَعلكُم تشكُرونَ} [1] . وقال تعالى {وإِذْ تأَذنَ ربكُـم لَـئن شكَرتم لأَزِيدنكُم ولَئن كَفَرتم إِن عذَابِي لَشديد} [2] . وقال تعالى {فَكُلُواْ مما رزقَكُم اللّـه حلالاً طَيبا واشكُرواْ نِعمت اللّه إِن كُنتم إِياه تعبدونَ} [3] . وقال تعالى {فَابتغوا عنـد اللـه الرزق واعبدوه واشكُروا لَه إِلَيه ترجعونَ} [4] قال السعدي رحمه الله " (فابتغوا عند الله الرزق) فإنه هو الميسر له المقدر ا يب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه (واعبـدوه) وحـده لا شريك له لكونه الكامل النافع الضار المتفرد بالتدبير (واشكروا له) وحده لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها (إليـه ترجعون) فيجازيكم على ما عملتم وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم فاحذروا القدوم عليـه وأنـتم على شرككم وارغبوا فيما يقربكم إليه ويثيبكم ـ عند القدوم ـ عليه " [5] .

15ـ الجهاد في سبيل الله .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (تكفل الله لمن جاهـد في سـبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق بكلماته ، أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة) [6] . وعن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (بعثت بين يـدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحـي ، وجعلـت الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم) [7] . إن من أفضل المكاسب المكاسب ما يغنمه المسلم من مال الكافر ؛ لأنه حصله من أفضل الأعمال وهو الجهاد. فعن أبي

---

(1) سورة الأنفال / 26 .
(2) سورة إبراهيم / 7 .
(3) سورة النحل / 114 .
(4) سورة العنكبوت / 17 .
(5) انظر : تفسير السعدي (1 / 628) .
(6) أخرجه البخاري في صحيحه (6 / 2715) رقم 7025 ، وأخرجه مسلم (3 / 1496) رقم 1876 .
(7) أخرجه أحمد في المسند (2 /50) رقم 5115 .

هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ، ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا) [1] . فهي طيبة مباركة حلال لهذه الأمة [2] .

وكما أن هناك أسباباً لجلب الرزق ، فهناك أسباب لمحقه وإزالة بركته ، ومن أهمها :

1 ـ الكفر والإعراض عن ذكر الله :

قال الله تعالى {وضرب اللّه مثلاً قريةً كانت آمنةً مطْمئنةً يأْتيها رزقُها رغَدا من كُلّ مكَان فكَفَرت بِأَنعمِ اللّه فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ} [3] وقال تعالى {لَقَد {لَقَد كَانَ لسبإٍ في مسكَنِهِم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رزقِ ربكُم واشكُروا لَه بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور ـ فَأَعرضوا فَأَرسلْنا علَيهِم سيلَ الْعرِمِ وبدلْناهم بِجنتيهِم جنتينِ ذَواتى أُكُلٍ خمط وأَثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قَليلٍ ـ ذَلك جزيناهم بِما كَفَروا وهلْ نجازِي إِلا الْكَفُور} [4]. وقال تعالى {ولَو أَن أَهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنا علَيهِم بركَات من السماء والأَرضِ ولَكن كَذبواْ فَأَخذْناهم بِما كَانواْ يكْسِبونَ} [5] .

2 ـ فعل الذنوب :

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزيد العمر إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) [6] . " (إن الرجل) يعني الإنسان الإنسان (ليحرم) بالبناء للمفعول أي يمنع (الرزق) أي بعضه يعني ثواب الآخرة أو نعم الدنيا من نحو صحة ومال بمعنى محق البركة منه (بالذنب يصيبه) وفي رواية بذنبه أي بشؤم كسبه للذنب ولو بأن تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه أو ينسى العلم حتى قال بعضهم

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (3 / 1366) رقم 1747 .

(2) انظر : الرزق مصدره أسباب حصوله وزيادته حلاله وحرامه شروطه للدكتور: مسفر الغامدي / 66 ـ 67 .

(3) سورة النحل / 112 .

(4) سورة سبأ / 15 ـ 17 .

(5) سورة الأعراف / 96 .

(6) سبق تخريجه في صفحة / 333 .

إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال آخر أعرفه من تغير الزمان وجفاء الإخوان . ولا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أعظم مالا وصحة من العلمـاء لأن الكـلام في مسلم يريد الله رفع درجته في الآخرة فيعقبه من ذنوبه في الدنيا فاللام في الرجل للعهد والمعهود بعض الجنس من المسلمين . وقد وجه بعضهم الخبر بأن لله لطائف يحدثها للمـؤمن ليصـرف وجهه إليه عن اتباع شهوته والا ماك في ◌ّ مته فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقـه فيكـون زجرا له إليه عما أقبل عليه وتأديبا له أن لا يعود لمثله كطفل دعته أمه فأعرض عنها فيعـدو إلى لهو فيعثر فيقوم ويعدو إليها راجعا . قال بعضهم : واعلم أن من الحوادث ما ظـاهره عنـف وباطنه لطف كحرمان الرزق بما يصيبه من الذنب فإن العبد إذا أعرض عن ربه واشتغل بما أسبغ عليه وأحب إقباله عليه حرمه سعة ما بسط له ليخاف فيرتدع ويضيق عليه جهات الرزق فيلجأ إليه ويقبل بالتضرع إليه ، ومن أراد غير ذلك زاده على ذنبه نعما ليزداد إعراضا وشغلا . فـإن قيل كيف يحرم الرزق المقسوم ؟ قلنا يحرم بركته أو سعته أو الشكر عليه ذكره بعضهم . وقيل : الذنوب كلها نجاسات باطنة وإن كان لبعضها خواص تتعدى من الباطن إلى الظاهر وهو مـا أشار إليه ذا الحديث . ولهذا الحديث سر آخر وهو أن الحرمان قد يكون بالنسبة إلى الـرزق المعنوي والروحاني وقد يكون من الرزق الظاهر المحسوس " [1] .

3ـ منع الزكاة ، ومنع حقوق الفقراء والمساكين :

قال صلى الله عليه وسلم (ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا) [2] . " أي لم يـ ل إليهم المطر عقوبة بشؤم منعهم للزكاة عن مستحقيها فانتفاعهم بالمطر إنما هو واقع تبعا للبهائم فالبهائم حينئذ خير منهم وهذا وعيد شديد على ترك إخراج الزكاة أعظم به من وعيد " [3] ولنا في قصة أصحاب الجنة عبرة ، قال تعالى : {إنا بلَوناهم

---

(1) انظر : فيض القدير للمناوي (2 / 332) رقم 1975 .

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه (2 / 1332) رقم 4019 وحسنه الألباني وأخرجه الحاكم في مستدركه(4 / 582) رقم 8623 وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وصححه الذهبي .

(3) انظر : فيض القدير (5 / 297) رقم 7369 .

كما بلَونا أصحاب الْجنة إذْ أقْسموا لَيصرمنها مصبِحين ـ ولَا يستثْنونَ ـ فَطَاف علَيها طَائف من ربك وهم نائمونَ ـ فَأَصبحت كَالصرِيمِ ـ فَتنادوا مصبِحين ـ أَن اغْدوا علَى حرثكُم إن كُنتم صارِمين ـ فَانطَلَقُوا وهم يتخافَتونَ ـ أَن لَا يدخلَنها الْيوم علَيكُم مسكين ـ وغَدوا علَى حرد قَادرِين ـ فَلَما رأَوها قَالُوا إنا لَضالونَ ـ بلْ نحن محرومونَ} (1) .

4ـ **نقص المكيال والميزان :**

قال صلى الله عليه وسلم : (ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق) (2) . وقـد توعد الله تعالى المطففين فقال {ويلٌ للْمطَففين ـ الذين إِذَا اكْتالُواْ علَى الناسِ يستوفُونَ ـ وإِذَا كَالُوهم أَو وزنوهم يخسِرونَ} (3) قال ابن كثير رحمه الله " **والمراد بالتطفيف ها هنا البخس** في **المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس وإما بالنقصان إن قضاهم ولهذا فسر تعالى** المطففين **الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى (الذين إذا اكتـالوا علـى الناس) أي من الناس (يستوفون) أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد (وإذا كـالوهم أو وزنوهم** يخسرون **) أي ينقصون** " (4) " **والتقديم في افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففـين يشعر بشدة خطر هذا العمل وهو فعل خطير لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل فـإذا اختل أحدث خللا** في **اقتصاده وبالتالي اختلال** في **التعامل وهو فساد** كبير " (5) .

5ـ **الكذب وكتمان العيوب** في **البيوع :**

فقد جاء في الصحيحين وغيرهما قوله صلى الله عليه وسلم (البيعان بالخيار ما لم يتفرقـا – أو قال : حتى يتفرقا – فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركت بيعهما

---

(1) سورة القلم / 17 ـ 27 .
(2) أخرجه مالك في موطأه برواية يحيى الليثي (2 / 460) رقم 981 .
(3) سورة المطففين / 1 ـ 3 .
(4) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 484) .
(5) انظر : أضواء البيان للشنقيطي (8 / 454) .

) [1] أي " إن صدقا وبينا أي صدق البائع في إخبار المشترى مثلا وبين العيب إن كان في السلعة ، وصدق المشترى في قدر الثمن مثلا وبين العيب إن كان في الثمن . قوله (بورك لهما في بيعهما) أي كثر نفع المبيع والثمن ، ويحتمل أن يكون الصدق والبيان بمعنى واحد وذكر أحدهما تأكيد للآخر . قوله (محقت بركة بيعهما) أى ذهبت بركته وهي زيادته ونماؤه ، ويحتمل أن يكون على ظاهره وأن شؤم التدليس والكذب وقع في ذلك العقد فمحق بركته وإن كان الصادق مأجورا والكاذب مأزورا ، ويحتمل أن يكون ذلك مختصا بمن وقع منه التدليس والعيب دون الآخر . وفي الحديث فضل الصدق والحث عليه وذم الكذب والحث على منعه وأنه سبب لذهاب البركة وأن عمل الآخرة يحصل خيري الدنيا والآخرة " [2] .

6ـ الظلم بشتى أنواعه :

ويشمل الذنب الكبير والصغير وهو مجاوزة الحق ، أو وضع الشيء في غير موضعه والمختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه [3] ، ومن ذلك : ظلم النفس ، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل ، قال تعالى {وظَلَّلْنا علَيكُم الْغمام وأَنزلْنا علَيكُم الْمن والسلْوى كُلُواْ من طَيبات ما رزقْناكُم وما ظَلَمونا ولَكن كَانواْ أَنفُسهم يظْلمونَ} [4] . وقال تعالى {فَبِظُلْمٍ من الذين هادواْ حرمنا علَيهِم طَيبات أُحلت لَهم وبِصدهم عن سبِيلِ اللّه كَثيرا ـ وأَخذهم الربا وقَد نهواْ عنه وأَكْلهِم أَموالَ الناسِ بِالْباطلِ وأَعتدنا للْكَافرِين منهم عذَابا أَليما}[5] قال السعدي في تفسيره لهذه الآيات " **أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرا من الطيبات التي كانت حلالا عليهم وهذا** تحريم **عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم وصدهم الناس عن سبيل الله ومنعهم إياهم من الهدى وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه فمنعوا المحتاجين**

---

(1) أخرجه البخاري (2 / 732) رقم 1973 ، وأخرجه مسلم (3 / 1164) رقم 1532 .
(2) انظر : فتح الباري لابن حجر (4 / 329) . وشرح النووي على مسلم (10 / 176) .
(3) انظر : المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (1 / 315) .
(4) سورة البقرة / 57 .
(5) سورة النساء / 160 ـ 161 .

ممن يبايعونه عن العدل فعاقبهم الله من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها لكو ا طيبة " [1] .

7 ـ العلو والتكبر المفضي إلى الشرك :

وضرب الله مثلا لذلك قصة رجلين ـ في سورة الكهف ـ لأحدهما جنتان مثمرتان ، ما أنواع الفاكهة والزرع فلم ينظر فيهما أ ما خلق الله أرادهما له ، فأدركه العلو فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر من ك مالاً وولدا ، فأخبره صاحبه أن ذلك المال منة من الله ، وأرشده إلى الحال التي ينبغي أن يستقبل ا نعم الله استدامة لها وتزكية ، ولكنه الغرور والتعالي . قال تعالى {ودخلَ جنته وهو ظَالم لنفْسِه قَالَ ما أَظُن أَن تبِيد هذه أَبدا ـ وما أَظُن الساعةَ قَائمةً ولَئن رددت إِلَى ربي لَأَجِدن خيرا منها منقَلَبا} إلى قوله تعالى {وأُحيطَ بِثَمرِه فَأَصبح يقَلِّب كَفيه علَى ما أَنفَق فيها وهي خاوِيةٌ علَى عروشها ويقُولُ يا لَيتنِي لَم أُشرِك بِربي أَحدا} [2] .

8 ـ الطغيان :

كل شيء تجاوز الحد والقدر وعلا فقد طغى [3] ، قال تعالى {يا بنِي إِسرائيلَ قَد أَنجَيناكُم من عدوكُم وواعدناكُم جانِب الطورِ الْأَيمن ونزلْنا علَيكُم الْمن والسلْوى ـ كُلُوا من طَيبات ما رزقْناكُم ولَا تطْغوا فيه فَيحل علَيكُم غَضبِي ومن يحللْ علَيه غَضبِي فَقَد هوى} [4] قال الألوسي " **(كلوا من طيبات ما رزقناكم) أي من لذائذه أو حلالاته على أن المراد بالطيب ما يستطيبه الطبع أو الشرع وجوز أن يراد بالطيبات ما جمعت وصفى اللذة والحل والجملة مستأنفة مسوقة لبيان إباحة ما ذكر لهم وإتماما للنعمة عليهم . وقدم سبحانه نعمة الإنجاء من العدو لأ ا من باب درء المضار وهو أهم من جلب المنافع ومن ذاق مرارة كيد الأعداء خذلهم الله تعالى ثم أنجاه الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم علم قدر هذه النعمة ، وثنى جلا**

---

(1) انظر : تفسير السعدي (1 / 214) .

(2) سورة الكهف / 35 ـ 42 .

(3) انظر : المفردات في غريب القرآن (1 / 304) .

(4) سورة طه / 80 ـ 81 .

وعلا بالنعمة الدينية لأ ا الأنف في وجه المنافع ، وأخر عز وجل النعمة الدنيوية لكو ا دون ذلك فتباً لمن يبيع الدين بالدنيا . (ولا تطغوا فيه) أي فيما رزقناكم بـ الإخلال بشـكره وتعدى حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على معاصـي الله تعـالى ومنـع الحقوق الواجبة فيه . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي لا يظلم بعضـكم بعضـا فيأخذه من صاحبه بغير حق ، وقيل أي لا تدخروا (فيحل عليكم غضبي) جواب للنـهى أي فيلزمكم غضبي ويجب لكم (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أي هلك " [1] .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على سنة الرزق .

❁ قصة قوم سبأ .

تبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم ، وما طلب إليهم من شكر المنعم بقـدر ما يطيقون {لَقَد كَانَ لسبإٍ في مسكَنِهم آيةٌ جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا مـن رزقِ ربكُـم واشكُروا لَه بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور } [2] .

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم . وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم مـن البحـر في الجنوب والشرق ، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فـم الـوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ، تحكموا فيها وفق حاجتهم . فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم وقد عرف باسم : سد مأرب . وهذه الجنـان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آيـة تذكر بالمنعم الوهاب ، وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين (كلوا مـن رزق ربكـم

---

(1) انظر : روح المعاني (16 / 239) .

(2) سورة سبأ / 15 .

واشكروا له) وذكروا بالنعمة ـ نعمة البلد الطيب ـ وفوقها نعمة الغفران على القصور مـن الشكر والتجاوز عن السيئات (بلدة طيبة ورب غفور) سماحة في الأرض بالنعمة والرخـاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران ، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟ ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا {فَأعرضوا فَأرسلْنا علَيهم سيلَ الْعرِمِ وبدلْناهم بِجنتيهم جنتينِ ذَواتى أُكُلٍ خمـط وأَثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قَليلٍ }[1] أعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح والتصرف الحميـد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه ، وأرسـل السـيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت الميـاه فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت وتبدلت تلـك الجنـان إلى صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة ، من الخمط وهو شجر الأراك أو كـل شـجر ذي شوك ، والأثل شجر يشبه الطرفاء ، والسدر النبق . وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل (ذلك جزيناهم بما كفروا) والأرجح أنه كفران النعمة (وهل نجازي إلا الكفور) [2] .

❁ قصة أصحاب القرية .

ولقد حكى الله تعالى هذه القصة في سورة النحل فقال {وضرب اللّه مثَلاً قَريةً كَانـت آمنـةً مطْمئنةً يأْتيها رِزقُها رغَدا من كُلِ مكَان فَكَفَرت بِأَنعمِ اللّه فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ} [3] .

فإن حال هذه القرية " أشبه شيء بحال مكة ، جعل الله فيها البيت وجعلها بلداً حراماً من دخله فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلاً ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو في جوار بيت الله الكريم ، وكان الناس يتخطفون من حول البيت ، وأهل مكة في حراسته وحمايتـه آمنـون مطمئنون ، كذلك كان رزقهم يأتيهم هيناً هنيئاً من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة ، مع أ م في واد قفر جدب غير ذي زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء فيتذوقون طعـم

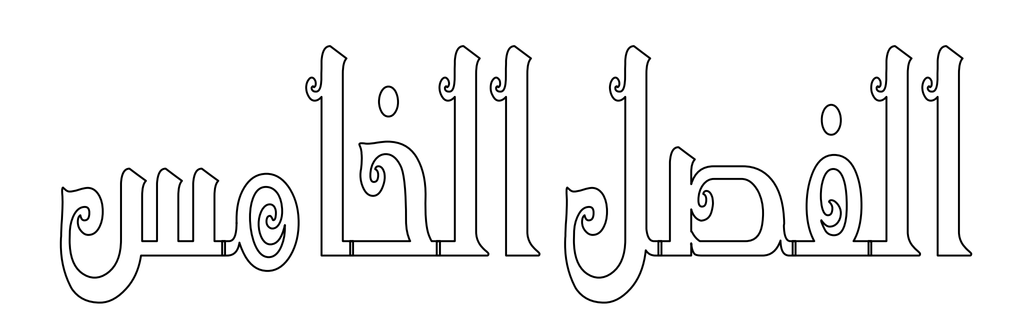
---

(1) سورة سبأ / 16 .

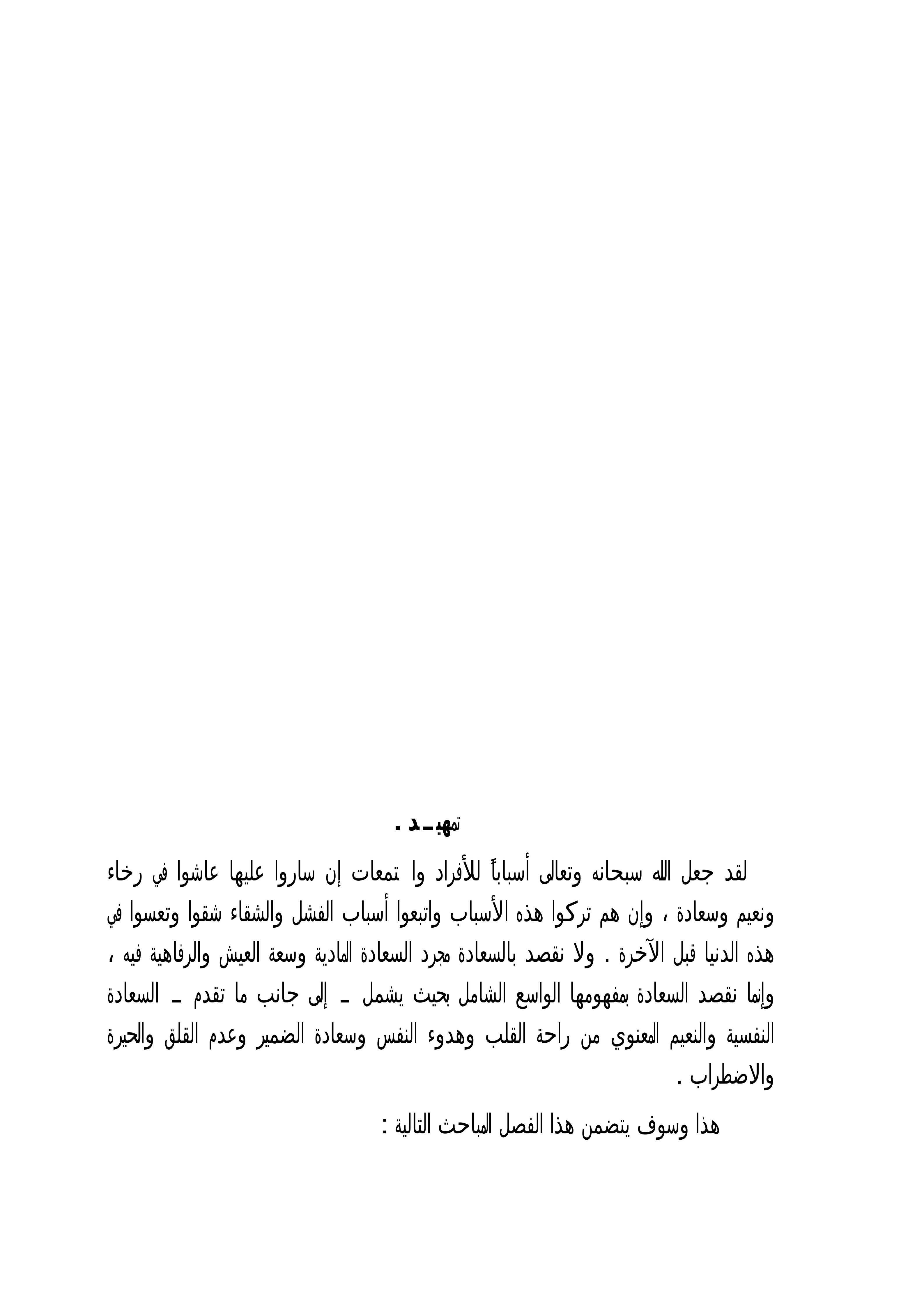
(2) انظر : في ظلال القرآن (5 / 2900 ـ 2901) .

(3) سورة النحل / 112 .

الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام . ثم إذا رسول منهم يعرفونه صادقاً أميناً ولا يعرفون عنه ما يشين يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين ، دينه دين إبراهيم باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغيد ، فإذا هم يكذبونه ويفترون عليه الافتراءات ويقتلون به ومن اتبعوه الأذى وهم ظالمون والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم ، وعاقبة المثل أمامهم ، مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله وكذبت رسوله (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون . ويجسم التعبير بالجوع والخوف فيجعله لباساً ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقاً ، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد ، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس ، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون [1] .



سنة الله في السعادة والشقاوة



تمهيـد :

لقد جعل الله سبحانه وتعالى أسباباً للأفراد والمجتمعات إن ساروا عليها عاشوا في رخاء ونعيم وسعادة ، وإن هم تركوا هذه الأسباب واتبعوا أسباب الفشل والشقاء شقوا وتعسوا في هذه الدنيا قبل الآخرة . ولا نقصد بالسعادة مجرد السعادة المادية وسعة العيش والرفاهية فيه ، وإنما نقصد السعادة بمفهومها الواسع الشامل بحيث يشمل ـ إلى جانب ما تقدم ـ السعادة النفسية والنعيم المعنوي من راحة القلب وهدوء النفس وسعادة الضمير وعدم القلق والحيرة والاضطراب .

هذا وسوف يتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : التعريف العام بالسنة .

المبحث الثاني : عرض الآيات المتعلقة ـذه السنة .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على هذه السنة .

المبحث الأول : التعريف العام بسنة السعادة والشقاوة .

❁ تعريف السعادة :

السعادة لغة :

عرف اللغويون السعادة فقالوا : من سعد ، والسعد : اليمن . تقول سعد يومنا من باب خضع ، وهو نقيض النحس . والسعودة : خلاف النحوسة . والسعادة خلاف الشقاوة . يقال : يوم سعد ويوم نحس ، وقد سعد يسعد سعداً وسعادةً فهو سعيد ، نقيض شقي مثل

سلم فهو سليم ، أو سعد بالضم فهو مسعود . والجمع سعداء والأنثى بالهاء [1] . وأصل الإسعاد والمساعدة : متابعة العبد أمور ربه ورضاه [2] .

السعادة اصطلاحاً :

السعادة هي : معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير . وتضادها الشقاوة . سعدت به وسعدت ، وهو سعيد ومسعود ، وهم سعداءُ ومساعيد . وأسعده الله ، وأسعد جده . وأعظم السعادات الجنة ، ولذلك قال تعالى {وأما الذين سعدواْ فَفي الْجنة}[3]. والمساعدة : المعاونة بما يظن به سعادة . وقولهم : لبيك وسعديك أي أسعدك الله إسعاداً بعد إسعاد ، أو أُساعدك مساعدة بعد مساعدة . والأُولى أولى . والإسعاد في البكاء خاصة . وقد استسعدته فأسعدني. وأسعدت النائحةُ الثّكلَى : أعانتها على البكاء والنوح. وسعدانة البعير : كركرته ، ومن النعل : عقدة الشسع تحتها . وسعدانات الميزان : عقَد في أسفله ، وسعدانة الثدي : سواد حول الحَلَمة . ويقال في السؤال عن الخير والشر : أَسعد أم سعيد . وأمر ذو سواعد : ذو وجوه ومخارج [4] .

✽ تعريف الشقاوة :

الشقاوة معروف ، وقد شقي يشقَى شقْوة ـ بالكسر ـ وشقَاوة وشقَاء . فالشقوة كالردة . والشقاوة كالسعادة من حيث الإضافة ، وكما أن السعادة في الأصل ضربان : سعادة أخروية ، وسعادة دنيوية ، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب : نفسية وبدنية وخارجية ، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب . وفي الشقاوة الأخروية قال تعالى {فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى}[5] وفي الدنيوية قال {فَلَا يخرجنكُما من الْجنة فَتشقَى}[1] وقيل : قد

---

(1) انظر : لسان العرب (4 / 54) .

(2) انظر : تاج العروس (1 / 98) .

(3) سورة هود / 108 .

(4) انظر : بصائر ذوي التمييز (3 / 76) .

(5) سورة طه / 123 .

وضع الشقاء موضع التعب نحو : شقيت في كذا ، وكل شقاوة تعب ، وليس كل تعب شقاوة [2] .

المبحث الثاني : الآيات المتعلقة بسنة السعادة والشقاوة .

أسباب السعادة وأسباب الشقاوة .

أولاً : أسباب السعادة :

1 / الإيمان .

---

(1) سورة طه / 117 .

(2) انظر : بصائر ذوي التمييز (4 / 76) .

من أهم هذه الأسباب الإيمان ، الإيمان بالله إيماناً حقيقياً ، يستقر في القلوب فيملؤها ، وفي النفوس فيغيرها ، ويجعلها مستسلمة لله راضية بأمره وقضائه . والإيمان الحق بالله وما يستلزم ذلك من الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله .

والإيمان بالله يستلزم عبادته ، وإفراده سبحانه وتعالى بالعبودية ، والعبادة ليست مقصورة على الشعائر التعبدية ؛ بل تشمل كل أمر في الإسلام وكل ي فيه ، فإذا أطاع الإنسان ربه في أمر فقد عبده ، وإذا اجتنب ما اه عنه فقد عبده كذلك ، وإذا عمل أي عمل وهو لا يخالف شرع الله فيه ونيته خالصة لله فهو عبادة له سبحانه وتعالى .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله " القلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذّ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة ، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده ، و اية مقصوده . ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة ـ لا إله إلا الله ـ ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله ، وكافيه من نقص التوحيد والإيمان ؛ بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك [1] . ولذا فإن الآيات التي جاءت تبين جزاء الإيمان كانت تربط بينه وبين أعمال سلوكية ؛ لأن الإيمان البارد الذي لا يؤثر في الحياة ولا يوجهها ؛ ليس هو الإيمان المقصود .

قال الله تعالى {الذين آمنواْ وتطْمئن قُلُوبهم بِذكْرِ اللّه أَلاَ بِذكْرِ اللّه تطْمئن الْقُلُوب ـ الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات طُوبى لَهم وحسن مآبٍ}[2]. وطمأنينة القلب : هي الحب له والأنس به عز وجل وكذلك هي السكون من غير شك . والطوبى في بعض أقوال المفسرين

---

(1) انظر : العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية / 100.

(2) سورة الرعد / 28 ـ 29 .

: هي الفرح وقرة العين ، وعند بعضهم إ ا العيش الطيب [1] . وقال الله تعالى {هو الذي أَنزلَ السكينةَ في قُلُوبِ الْمؤمِنِين ليزدادوا إِيمانا مع إِيمانِهِم}[2] . والسكينة : هي السكون والاستسلام لقضاء الله [3] . ولا سعادة بدون طمأنينة وسكينة وهي خاصة للمؤمنين . هذه السكينة والطمأنينة التي عمرت قلب رسول الله ﷺ وقال مصرحاً بذلك حين قال له أبو بكر رضي الله عنه وهما في الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال له (لا تحزن إن الله معنا . ما ظنك باثنين الله ثالثهما) [4] .

وقد رتب الله الحياة الطيبة على الإيمان ووعد ا المؤمنين الذين يتبعون إيما م بالأعمال الصالحة ، لأن الإيمان يستلزم ذلك . يقول الله تعالى {من عملَ صالحا من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمن فَلَنحيِينه حياةً طَيبةً ولَنجزِينهم أَجرهم بِأَحسنِ ما كَانواْ يعملُونَ}[5].

وضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا والحياة الطيبة " فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف " [6] .

والحياة الطيبة التي وعدها الله للمؤمنين تشمل بالإضافة إلى سعادة القلوب وهناءة النفوس الراحة من أي جهة كانت [7] ، فالرزق الحلال والقناعة والتوفيق للطاعة وحلاو ا ، والاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق كلها من وجوه الحياة الطيبة [8] التي وعد الله عباده

---

(1) انظر : زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (4 / 328) .

(2) سورة الفتح / 4 .

(3) انظر : زاد المسير (3 / 440) .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (3 / 1337) رقم3453 وأخرجه مسلم في صحيحه (4 / 1854) رقم2381.

(5) سورة النحل / 97 .

(6) انظر : الجواب الكافي / 84) .

(7) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 586) .

(8) انظر : تفسير القرطبي (10 / 174) .

المؤمنين ا . يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه) [1] .

وقد وعد الله الأبرار وهم المؤمنون القائمون بشرائعه بالنعيم في قوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [2]. والنعيم الذي وعدهم الله به وإن كان متوجهاً إلى نعيم الجنة [3] ، فإنه لا مانع من أن يكون عاماً للمؤمنين في دورهم الثلاثة ؛ الدنيا والبرزخ والآخرة .

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله " ولا تظن أن قوله (إن الأبرار لفي نعيم ـ وإن الفجار لفي جحيم) يختص بيوم المعاد فقط ؛ بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة .. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من برد القلب وسلامة الصدر ، ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ، وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ والقلب السليم هو الذي يسلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا وحب الرياسة . ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد . والإخلاص يعم هذه الخمسة " [4] .

وإذا كان وعد الله للمؤمنين بالحياة الطيبة يشمل الحياة المادية من السعة ورغد العيش وكثرة المال ، فإن الحياة الطيبة تكون مع كثرة المال وقد تكون بدونه ـ ويكون ذلك ابتلاء للمؤمنين ـ لأن حياة القلب وطمأنينته أهم الحياتين . فهي التي يرتاح ا الفرد . فكم من فقير يعيش في راحة وطمأنينة ، وكم من غني يعيش في قلق وحيرة واضطراب . " وإن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض ، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال ، فقد تكون به وقد لا يكون معها . وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (2 / 730) رقم 1054 .

(2) سورة الانفطار / 13 .

(3) انظر : تفسير الرازي (31 / 77) .

(4) انظر : الجواب الكافي / 84 .

تطيب ا الحياة في حدود الكفاية ، فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة وسكن البيوت ومودات القلوب ، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة ، وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله "[1]

كما أن إيمان العبد يجب ألا يقتصر على الإيمان بالله فقط ؛ بل يجب عليه أيضاً أن يؤمن بأسمائه التي يسمى ا بأنه : الأول والآخر والظاهر والباطن والخالق والقوي ... إلخ ، ويؤمن بصفاته التي يتصف ا بأنه : العدل البر الرحيم التواب الغفور الودود ... إلخ . وقد جاء في الحديث الشريف (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) [2] . يقول ابن القيم " والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجبا ا ومقتضيا ا ـ أعني من موجبات العلم ا والتحقق بمعرفتها ـ وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة ؛ يثمر له عبودية التوكل وثمراته ظاهراً . وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فإنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله ، وأنه يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطناً ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه ، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بم لة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات " [3].

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2193) .

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (2 / 981) رقم2585 وأخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2062) رقم2677 .

(3) انظر : مفتاح دار السعادة (2 / 90) .

ولما كانت هذه هي حقيقة الإيمان بالله تعالى الذي يعد أول أركان الإيمان الستة ، فإن هناك أركاناً أخرى لا يتم إيمان العبد إلا بها ، والمتمثلة في الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة على أنبيائه ورسله ، وبالقضاء والقدر خيره وشره كله من الله تعالى . فإذا آمن العبد بهذه الأركان كمل إيمانه وحسن عمله وعرف معنى السعادة . أما إذا كذب بركن من هذه الأركان فقد كفر والعياذ بالله وأصبح من الأشقياء . يقول الرسول ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب من إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) [1] ، وقال أيضاً (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) [2] .

هذا هو الإيمان حين يتعمق في النفوس لكنه لن يكتمل إلا باتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولن ينال المؤمن السعادة إلا بإتباعها . لأن الإسلام هو دين الله المنزل على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم ودينه المنزل على أنبيائه السابقين ، لأن أصول الدين واحدة عند كل الأنبياء لا تختلف في شيء ، وإنما الذي يختلف هو أحكام الشرائع التي أتى بها كل نبي للقوم الذين عاش بينهم . إذا نظر إلى كل شريعة نظرة جامعة دون النظر إلى جزيئاتها ، ثم إن كل نبي من الأنبياء الذين سبقوا نبينا محمداً ﷺ كان يبعث إلى أمة معينة ، بينما الرسول ﷺ لما كان خاتم النبيين بعثه الله إلى الناس كافة . جاءهم بدين الإسلام الذي فيه سعادتهم قال تعالى {وما أرسلْناك إلا رحمةً للْعالمين }[3]. وقال أيضاً {ويخرِجهم منِ الظلُمات إِلَى النورِ}[4]. وقال {ويضع عنهم إِصرهم والأَغْلاَلَ التي كَانت علَيهم}[5]. وبما أن هذا النبي بعثه الله رحمة ومخرجاً لمن تبعه من الظلمات إلى النور ويضع عنهم الإصر والأغلال فهذه هي السعادة الحقة ، لذا فإن الواجب اتباعه والعمل بالقرآن الذي أنزل عليه وتطبيق سنته ، ولهذا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (1 / 14) رقم 16 ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1 / 66) رقم 43 .

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (1 / 62) رقم 34 .

(3) سورة الأنبياء / 107 .

(4) سورة المائدة / 16 .

(5) سورة الأعراف / 157 .

كان معنى الإسلام : الاستسلام والإذعان والانقياد ، أي يجب على كل مسلم أن يستسلم ويذعن وينقاد لهذا الدين .

يقول ابن القيم رحمه الله " وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " [1] . وقد دلت الأدلة المتواترة من الكتاب والسنة الصحيحة على وجوب اتباع سنة النبي ﷺ والعمل والتمسك بها ، لأن كل طريق إلى الجنة مقطوعة على صاحبها ما لم يتبع سنة نبيه ﷺ ، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى {يا أيها الذين آمنواْ أطيعواْ اللّه ورسولَه ولاَ تولوا عنه وأنتم تسمعونَ} [2] وقال تعالى {وأطيعواْ اللّه والرسولَ لَعلكُم ترحمونَ}[3]. في هذه الآيات نجد أن الله سبحانه وتعالى قرن طاعة الرسول بطاعته ؛ يعني إذا أطاعوا النبي فقد أطاعوه فإن في ذلك الفوز العظيم الذي هو الظفر بسعادة الدنيا والآخرة . ومن السنة قوله ﷺ (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعينين وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل ما أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق)[4] فهذا هو مثل من أطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثل من عصاه ، ضربه لأمته . إذاً فالذي يريد أن يكون من أهل السعادة في الدنيا ، ويفوز بالجنة وينجو من النار فعليه أن يفرح بنعمة الإسلام التي تعد من أكبر النعم التي تفضل الله بها على عباده . يقول ابن القيم بشأن قوله تعالى {قُلْ بِفَضلِ اللّه وبِرحمته فَبِذَلك فَلْيفْرحواْ هو خير مما

---

(1) انظر : زاد المعاد (1 / 68) .

(2) سورة الأنفال / 20 .

(3) سورة آل عمران / 132 .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (6 / 2656) رقم6854 وأخرجه مسلم في صحيحه (4 / 1788) رقم2283.

يجمعونَ} [1] " وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته الإسلام والسنة ، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما ، وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحاً حتى أن القلب إذا باشر روح السنة ليرقص فرحاً أحزن ما يكون الناس ، فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين ، وبابه الأعظم الذي من دخله كان من الواصلين " [2] .

2 / اتباع هدى الله .

ومن أسباب تحقق السعادة في المجتمع الإنساني اتباع هدى الله والاستقامة على النهج الذي رسمه لعباده ، وقد وعد الله سبحانه من هذه صفتهم عدم الضلال والشقاء . قال تعالى {قَالَ اهبِطَا منها جميعا بعضكُم لبعضٍ عدو فَإما يأْتينكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى}[3] " فمن اتبع هدى الله وهو شرعه الذي أنزل على محمد ﷺ فهو في أمان من الضلال والشقاء ، لأن الشقاء هو نتيجة الضلال [4]. فهو يعيش في هذه الدنيا هنيئاً غير مهموم [5]. ويعيش في سعادة لأن هذا وعد الله ، وكذلك لأنه يؤمن بالله ويتوكل عليه فيستسلم ويرضى ويقنع بما يقدره الله له أو يعطيه إياه [6] . ووعدهم بعدم الحزن والخوف فقال تعالى {فَمن تبِع هداي فَلاَ

---

(1) سورة يونس / 58 .

(2) انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم (1 / 6) .

(3) سورة طـه / 123 .

(4) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2355) ، الفوائد لابن القيم / 134 .

(5) انظر : فتح القدير (3 / 391) .

(6) انظر : تفسير القرطبي (11 / 258 ـ 259) .

خوف عليْهِم ولاَ هم يحزنونَ}[1] " فمن اتبع هدى الله من البشر فلا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب [2] . لأ م يعلمون ذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضي الله ويوجب مثوبته ، ويفتح للإنسان باب الاعتبار بالحوادث ، ويقويه على مصارعة الكوارث ، فيكون له في ذلك خير عوض عما فاته ، وأفضل تعزية على ما فقده . فالمهتدون داية الله تعالى لا يخافون مما هو آت ولا يحزنون على ما فات ، لأن اتباع الهدى تسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ، ويعدهم بسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته تسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب في الكسب لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذي يقع ويتوقع [3] " . وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ففتحت لهم الأرض التي يغدقون فيها الماء ، ويتدفق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيرا م استلاباً ، وما يزالون في نكد وشظف حتى يفيئوا إلى الطريقة فيتحقق فيهم وعد الله " [4] .

3 / التقوى .

ومن أسباب السعادة الدنيوية والأخروية تقوى الله سبحانه وتعالى ، والتي تعني فعل ما أمر الله به وترك ما ى عنه .

وقد جاءت آيات كثيرة تؤكد هذه الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى {ولَو أن أَهلَ الْقُرى آمنواْ واتقَواْ لَفَتحنا علَيهِم بركَات من السماء والأَرضِ ولَكن كَذبواْ فَأَخذْناهم بِما كَانواْ يكْسِبونَ} [5] " فهو في هذه الآية يخبر سبحانه أن الأمم التي أصا ا البلاء والشقاء لو أ ا آمنت بالله واتقت واتقت الله فيما أمرها به و اها عنه ، لما نزل ا العذاب ولكان جزاؤها هو فتح بركات السماء

(1) سورة البقرة / 38 .

(2) انظر : روح المعاني (11 / 146) ، وتفسير أبي السعود (1 / 93) ، وتفسير المنار (1 / 285) .

(3) انظر : تفسير المنار (1 / 285) .

(4) انظر : في ظلال القرآن (6 / 3734) .

(5) سورة الأعراف / 96 .

والأرض[1] والمقصود عموم البركة كما رجح ذلك الشوكاني رحمه الله حيث قال " والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك .. أي يسرنا لهم خير السماء والأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوا ا " [2] .

ومن الآيات التي جاءت تقرر حقيقة أن التقوى سبب في السعادة والرخاء قوله تعالى {ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب ومن يتوكلْ علَى الله فَهو حسبه إن الله بالغُ أمرِه قَد جعلَ الله لكُل شيءٍ قَدرا}[3]. وهذه الآية من أكبر الآيات فرجاً فهو يخبر سبحانه وتعالى أن من اتقاه جعل الله له مخرجا من كل ضيق ومن كل شدة ؛ فيجعل له من كل شيء ضاق على الناس مخرجا وينجيه من كروب الدنيا ويكفيه همها وغمها ويرزقه رزقاً من حيث لا يدري ولا يعلم ويبارك له فيما يعطيه ، ثم إن رزقه ما يكفيه فإنه يقنعه بما أعطاه فيعيش في هناء عيش وهدوء بال ، ومن توكل على الله وفوض أمره إليه كفاه ما أهمه [4] .

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى {ومن يتقِ الله يجعل له من أمرِه يسرا} [5] أي " يسهل له أمره وييسره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً " [6] . وقال مقاتل : ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة " [7] واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان ، وإ ا لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (2 / 232) ، وفتح القدير (2 / 228) .

(2) انظر : فتح القدير (2 / 228) .

(3) سورة الطلاق / 2 ـ 3 .

(4) انظر : تفسير القرطبي (18 / 159 ـ 162) ، تفسير ابن كثير (4 / 380) ، البحر المحيط (8 / 283) .

(5) سورة الطلاق / 4 .

(6) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 382) .

(7) انظر : تفسير القرطبي (18 / 165) .

ضيق ، يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره ، وينالها بيسر في حركته وعمله و ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها ، ويعيش من هذا في يسر رخي ندي حتى يلقى الله [1] .

4 / التوبة والاستغفار .

ومن أسباب السعادة اللجوء إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار . فهذا نبي الله هود عليه السلام يقرر هذه الحقيقة لقومه حينما قال لهم مخاطباً {ويا قَومِ استغفرواْ ربكُم ثُم توبوٓاْ إلَيه يرسلِ السماء علَيكُم مدرارا ويزدكُم قُوةً إلَى قُوتكُم ولاَ تتولواْ مجرمين} [2] . " أي استغفروا ربكم مما أنتم فيه وتوبوا إليه فابدؤوا طريقاً جديداً يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوا م في الصحراء ، ويحتفظون به بالخصب الناشيء من هطول الأمطار في تلك البقاع . ويزدكم قوة إلى قوتكم ، هذه القوة التي عرفتم ا ، ولا تتولوا مجرمين مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب .

وننظر في هذا الوعد وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة ، وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الاستغفار ا وما علاقة التوبة ؟ فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ؛ بل واقع مشهود. فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدا م صحة في الجسم بالاعتدال ، والاقتصار على الطيبات في الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب ، والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن ، ويزيدا م صحة في ا تمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحراراً كراماً ، لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه . كما تطلقان طاقة الناس ليعملوا وينجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض ، غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل ار لتملأ فراغ الإله الحق في فطرة البشر " [3] .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (6 / 3602) .

(2) سورة هود / 52 .

(3) انظر : في ظلال القرآن (4 / 1897) .

ولقد جاء نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه الحقيقة وفقاً لسنة الله في خلقه ، فدعا أمته في محكم القرآن إلى الإيمان بالله ونبذ عبادة ما سواه ، والإنابة إليه سبحانه واستغفاره والتوبة الدائمة إليه ، وبين لهم أن جزاءهم إن فعلوا ذلك أن يمتعوا متاعاً حسناً وأن يسعدوا سعادة دائمة في الدارين . قال الله تعالى {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير}[1] . أي اطلبوا غفرانه عما سلف منكم ، ثم توبوا إلى الله بالطاعة يمتعكم متاعاً حسناً بأن تعيشوا في أمن ودعة وسعادة وهي الراحة فـ " من أخلص لله في القول والعمل عاش في أمن من العذاب والراحة مما يخشاه ، وأما ما يلقاه من بلاء الدنيا فلا يتنافى في ذلك بما فيه من رفع الدرجات وزيادة الحسنات ، فلا ينافي هذا كون الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، ولا كون أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، لأن المراد أمنه من غير الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وراحته وطيب عيشه برجاء الله والتقرب إليه حتى يعد المحنة منحة "[2] . " والمتاع الحسن الذي وعد الله به المؤمنين قد يكون بالنوع كما يكون بالكم في هذه الحياة الدنيا ، أما في الآخرة فهو بالنوع والكم ، وبما لم يخطر على قلب بشر . فلننظر في المتاع الحسن في هذه الحياة .

وهنا تساؤل : أننا نشاهد كثيراً من الطيبين الصالحين المستغفرين التائبين العاملين في الحياة مضيقاً عليهم في الرزق ؛ فأين إذن هو متاع الحسن ؟ وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على ألسنة الكثيرين !! ولابد لإدراك المعنى الكبير الذي يتضمنه النص القرآني أن ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع ، وننظر إليها في محيطها الشامل العام ، ولا نقتصر منها على مظهر عابر .

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح قائم على الإيمان بالله والدينونة له وحده وإفراده بالعبودية والقوامة ، وقائم على العمل الطيب المنتج في الحياة ... إلا كان لها التقدم والرخاء والسعادة والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة ، وإلا ساد فيها العدل بين الجهد والجزاء والرضا

---

(1) سورة هود / 3 .

(2) انظر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (5 / 69) .

والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة ، فإذا شاهدنا في جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم في الرزق والمتاع الطيب ، فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان بالله ، القائم على العدل بين الجهد والجزاء .

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين في هذه الجماعة يمتعون متاعاً حسناً حتى لو ضيق عليهم في الرزق ، وحتى لو كانت الجماعة تطاردهم وتؤذيهم ، كما كان المشركون يؤذون القلة المؤمنة ، وكما تؤذي الجاهليات القلة الداعية إلى الله ، وليس هذا خيالاً وليس ادعاءً ، فطمأنينة القلب إلى العاقبة والاتصال بالله ، والرجاء في نصره وإحسانه و فضله .. عوض عن كثير ، ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحس المادي الغليظ .

ولا نقول هذا لندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاءً عادلاً على جهدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة . فالإسلام لا يسكت على مثل تلك الأوضاع ، والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد ، ليتحقق المتاع الحسن للطيبين العاملين المنتجين . إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون بالله ، المضيق عليهم في الرزق ، وهم مع هذا يعملون ويجاهدون لتحقيق الأوضاع التي تكفل المتاع الحسن لعباد الله المستغفرين التائبين العاملين ـدى الله " [1] .

" وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة كما رأينا قاعدة صحيحة تقوم على أسبا ا من وعد الله ومن سنة الحياة . كما أن الواقع العملي يشهد لتحققها على مدار القرون والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله واتجهت اتجاهاً حقيقياً إلى العمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله .. ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران والصلاح سواء " [2] .

5 / تحكيم شرع الله والعمل بموجبه .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 1854) .

(2) انظر : في ظلال القرآن (6 / 3713) .

اهتم القرآن بهذه القضية اهتماماً كبيراً ، وعني بها عناية فائقة . وهذا الاهتمام يرجع إلى أن مصير البشرية متعلق بهذه القضية إن سعادةً أو شقاءً . فإن كانت الحاكمية لله رب العالمين في جميع نواحي الحياة وجزئياتها سعد الناس ورغد عيشهم ، واطمأنت نفوسهم ، لأن ما شرعه الله من قوانين قد طبقت عليهم توافق الفطرة التي فطر الله الناس عليها وتنسجم هذه القوانين مع هذه الفطرة .

قال تعالى {ولَو أنهم أقَاموا التوراةَ والإِنجيلَ وما أُنزِلَ إِلَيهم من ربهم لأكَلُوا من فَوقهم ومن تحت أَرجلهم منهم أُمةٌ مقْتصدةٌ وكَثير منهم ساء ما يعملُونَ}[1] .

وفي تحكيم شرع الله والتزامه ظاهراً وباطناً حياة للفرد والمجتمع يقول تعالى {يا أَيها الذين آمنواْ استجِيبواْ للّه وللرسولِ إِذَا دعاكُم لما يحيِيكُم واعلَمواْ أَن اللّه يحولُ بين الْمرءِ وقَلْبِه وأَنه إِلَيه تحشرونَ}[2] " إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ، فمن لم يحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات . فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً ، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان ، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول "[3] .

ومن المقتضى تحكيم شرع الله العدل بين الناس وعدم ظلمهم قال تعالى {إِن اللّه يأْمركُم أَن تؤدواْ الأَمانات إِلَى أَهلها وإِذَا حكَمتم بين الناسِ أَن تحكُمواْ بِالْعدلِ}[4].

ومن ثمرات تحقيق العدل ما قاله ابن تيمية رحمه الله " وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق؛ وإن لم تشترك في إثم،

(1) سورة المائدة / 66 .
(2) سورة الأنفال / 24 .
(3) انظر : الفوائد لابن القيم / 88 .
(4) سورة النساء / 58 .

ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ، وقيل: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً في الآخرة ، وذلك لأن العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق" (1) .

والتاريخ البشري يشهد أن أسعد الفترات التي كانت تعيشها البشرية على الإطلاق ، تلك الفترات التي كانت تحكم فيها شريعة الله ويحكم بين الناس بالعدل . فقد كان العرب قبل مجيء الإسلام من أفقر الأمم وأقلهم شأناً ، وهذه الحقيقة كان يعيرهم ا الأعداء وهم يعترفون ، فلما اجتمع الجيش الإسلامي بنهاوند أرسل إليهم بيداد : أن أرسلوا إلينا معشر العرب رجلاً منكم نكلمه ، فاختار الناس المغيرة بن شعبة . فقال : يا معشر العرب إنكم كنتم أطول الناس جوعاً وأعظم الناس شقاءً وأقذر الناس قذراً وأبعد الناس داراً وأبعده من كل خير ، وما كان منعني أن آمر هذه الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجساً لجيفتكم لأنكم أرجاس ، فإن تذهبوا يخلى عنكم ، وإن تأبوا نبوئكم مصارعكم . فقال المغيرة : فحمدت الله وأثنيت عليه وقلت : والله ما أخطأت صفتنا ونعتنا شيئاً ، إنْ كنا لأبعد الناس داراً وأشد الناس جوعاً وأعظم الناس شقاءً وأبعد الناس من كل خير ، حتى بعث إلينا رسولاً فوعدنا بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة . فلما نزل نتعرف من ربنا مذ جاءنا رسوله صلى الله عليه وسلم الفلاح والنصر حتى أتيناكم ، وإنا والله نرى لكم ملكاً وعيشاً لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نقتل في أرضكم (2) .

هكذا كان العرب . ولكنهم عندما اهتدوا دى الله وتحاكموا إلى شريعته وعدلوا بين الناس ؛ فتح الله عليهم الخيرات والنعم وأنزل عليهم البركات من السماء والأرض ، وعاشوا في سعادة ورخاء وأمن واستعلاء . وتتابعت الخيرات والنعم حتى جاء عهد الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله فكثرت الخيرات وعم الرخاء وساد الأمن بفضل تحكيمه شريعة الله ،

---

(1) انظر : الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (2 / 246 ـ 247) .

(2) انظر : موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (421 ـ 422) .

وبفضل عدله بين رعيته ورد المظالم إلى أهلها . ففي عهده كثر الخير حتى أن عمال الزكاة كانوا يبحثون عن الفقراء فلا يجدون أحداً يقبل الصدقة . فلقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فعندما قدم بعض أهل المدينة عليه ، جعل يسأله عنهم فقال : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا ؟ قال : قد قاموا منه وأغناهم الله . وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط للمسافرين فالتمس ذلك منهم فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه فيما يعطينا عمر[1] .

وولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ـ ثلاثين شهراً ـ لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء . فما يبرح حتى يرجع بماله فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس [2] .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز كف الخوارج عن حرب المسلمين ، وعم الأمن في الناس [3] حتى إن الدواب عم الأمن بينها ، فعن مالك بن دينار رحمه الله قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس ؟ فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : إنا إذا قام على الناس خليفة صالح كفّت الذئاب والأسد عن شائنا [4] .

وهكذا يظهر جلياً معنا أن تطبيق شريعة الله بحق ، والحكم بين الناس بالعدل ؛ سبب في السعادة والرخاء ، ومما يدل على ذلك أيضاً أنه في آخر الزمان سواءً عند خروج المهدي وحكمه بشريعة الإسلام ، أو عند نزول عيسى عليه السلام وحكمه بشريعة الإسلام ، تخرج الأرض بركتها وتعم الخيرات وتتوفر النعم .

يقول ابن القيم رحمه الله " فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة ، ويخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً ،

---

(1) انظر : سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / 62 .

(2) انظر : المصدر السابق بنفس الصفحة .

(3) انظر : مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودي (3 / 200) .

(4) انظر : سيرة عمر بن عبد العزيز / 56 .

ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث به رسوله ، وتخرج الأرض بركا ا ، وتعود كما كانت ، حتى أن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ، ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس " [1] .

6 / الشكر .

ومن أسباب تحقق السعادة والرخاء في ا تمع الإنساني الشكر . والمستوجب لشكر الله نعمه الكثيرة التي امتن الله ا على عباده ، فهو سبحانه قد أنعم على الإنسان بنعمة الوجود بعد العدم . يقول تعالى {أَولَا يذْكُر الْإِنسانُ أَنا خلَقْناه من قَبلُ ولَم يك شيئًا}[2]. وزوده بالسمع والبصر {واللّه أَخرجكُم من بطُونِ أُمهاتكُم لاَ تعلَمونَ شيئًا وجعلَ لَكُم الْسمع والأَبصار والأَفْئدةَ لَعلَّكُم تشكُرونَ }[3] .

ومن النعم التي أنعمها على البشر سبحانه نعمة تسخير السماوات والأرض وما فيهن لخدمته {وسخر لَكُم ما في السماوات وما في الْأَرضِ جميعا منه إِن في ذَلك لَآيات لقَومٍ يتفَكَّرونَ}[4].

فهو سبحانه قد سخر لنا الفلك والأ ار والبحار والشمس والقمر والليل والنهار . يقول تعالى {اللّه الذي خلَق السماوات والأَرض وأَنزلَ من السماء ماء فَأَخرج بِه من الثمرات رِزقًا لكُم وسخر لَكُم الْفُلْك لتجرِي في الْبحرِ بِأَمرِه وسخر لَكُم الأَنهار ـ وسخر لَكُم الشمس والْقَمر

(1) انظر : الجواب الكافي / 43 ، وتفسير ابن كثير (3 / 435) .
(2) سورة مريم / 67 .
(3) سورة النحل / 78 .
(4) سورة الجاثية / 13 .

دآئبين وسخر لَكُم الليلَ والنهار ـ وآتاكُم من كُل ما سأَلْتموه وإِن تعدواْ نِعمت اللّه لاَ تحصوها إِن الإِنسانَ لَظَلُوم كَفار} [1].

ومن نعمه سبحانه المستوجبة لشكره نعمة الغذاء والماء اللذين لا قوام لحياة الإنسان بدو ما {وآيةٌ لهم الْأَرض الْميتةُ أَحييناها وأَخرجنا منها حبا فَمنه يأْكُلُونَ ـ وجعلْنا فيها جنات من نخيلٍ وأَعنابٍ وفَجرنا فيها من الْعيون ـ ليأْكُلُوا من ثَمرِه وما عملَته أَيديهِم أَفَلَا يشكُرونَ}[2] ويقول تعالى {أَولَم يروا أَنا خلَقْنا لَهم مما عملَت أَيدينا أَنعاما فَهم لَها مالكُونَ ـ وذَلَّلْناها لَهم فَمنها ركُوبهم ومنها يأْكُلُونَ ـ ولَهم فيها منافع ومشارِب أَفَلَا يشكُرونَ}[3] .

ومن نعم الله العظيمة على الناس أن أرسل عليهم رسلاً منهم يهدو م ويرشدو م إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة ، وهذه النعمة من أجلّ النعم ، ولولا هذه النعمة لفسد الإنسان وفسدت الحياة على ظهر الأرض {قَالَ اهبِطَا منها جميعا بعضكُم لبعضٍ عدو فَإِما يأْتينكُم مني هدى فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى}[4]. ويقول تعالى {قُلْنا اهبِطُواْ منها جميعاً فَإِما يأْتينكُم مني هدى فَمن تبِع هداي فَلاَ خوف علَيهِم ولاَ هم يحزنونَ}[5] .

ومن حكمته ورحمته أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير كما قال تعالى {وإِن من أُمة إِلَّا خلَا فيها نذير}[6] . ويقول تعالى {ولكُل قَومٍ هاد } [7].

وقد امتن الله على العرب بالرسول ﷺ فقال {كَما أَرسلْنا فيكُم رسولاً منكُم يتلُو علَيكُم آياتنا ويزكيكُم ويعلمكُم الْكتاب والْحكْمةَ ويعلمكُم ما لَم تكُونواْ تعلَمونَ ـ فَاذْكُرونِي أَذْكُركُم واشكُرواْ لي ولاَ تكْفُرون} [1] .

---

(1) سورة إبراهيم / 32 ـ 34 .

(2) سورة يـ ـس / 33 ـ 35 .

(3) سورة يس / 71 ـ 73 .

(4) سورة طـه / 123 .

(5) سورة البقرة / 38 .

(6) سورة فاطر / 24 .

(7) سورة الرعد / 7 .

ولو أراد الإنسان أن يستقصي نعم الله الظاهرة والباطنة لطال به الحديث ، وإن العقل ليعجز عن وصف نعمة من نعم الله والإحاطة ا ، فضلاً عن الإحاطة بأنعم الله وآلائه كلها ، وصدق الله العظيم إذ يقول {وإن تعدواْ نِعمت اللّه لاَ تحصوها إن الإِنسانَ لَظَلُوم كَفار}[2].

هذه هي بعض النعم التي توجب على العبد شكر المنعم عز وجل . وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث تدعو الناس إلى شكر الله على هذه النعم وتبين لهم حقيقة الشكر وطرائقه . ومن هذه الآيات قوله تعالى {واشكُرواْ نِعمت اللّه إن كُنتم إِياه تعبدونَ} [3]. وقوله {واشكُرواْ لي ولاَ تكْفُرون}[4]. وقوله {يا أَيها الذين آمنواْ كُلُواْ من طَيبات ما رزقْناكُم واشكُرواْ للّه إن كُنتم إِياه تعبدونَ} [5].

وقد استحق بعض عباد الله المدح من الله بالشكر ، فمن هؤلاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى في حقه {إِن إِبراهيم كَانَ أُمةً قَانِتا للّه حنِيفًا ولَم يك من الْمشرِكين ـ شاكرا لِّأَنعمه اجتباه وهداه إِلَى صراط مستقيمٍ } [6].

والشكر غاية الرب من عبده وأهله هم القليلون من عباده وهم خواصه [7] ، كما قال تعالى {وقَليلٌ من عبادي الشكُور} [8]. وسمى نفسه (شاكراً) و (شكوراً) وسمى الشاكرين ذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وساهم باسمه ، وحسبك ذا محبة للشاكرين [9] .

---

(1) سورة البقرة / 151 ـ 152 .

(2) سورة إبراهيم / 34 .

(3) سورة النحل / 114 .

(4) سورة البقرة / 152 .

(5) سورة البقرة / 172 .

(6) سورة النحل / 120 ـ 121 .

(7) انظر : مدارج السالكين (2 / 242) .

(8) سورة سبأ / 13 .

(9) انظر : مدارج السالكين (2 / 243) .

وإذا كان الله عز وجل قد أمر بالشكر ومدح القائمين به وجعلهم من خواصه فلابد أن نعرف حقيقة الشكر وكيفية تحقيقه في الواقع . فالشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح ، ولكل نوع من هذه الأنواع أقسام .

أما الشكر بالقلب فيكون بالعلم والاعتراف بأن كل ما في الوجود من هذه النعم هي منه سبحانه وتعالى ، وأن الأسباب ما هي إلا مجرد وسائط لحدوث النعم ، ويكون بخضوع القلب واستكانته لله عز وجل وحبه والإنابة إليه، وتلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليه سبحانه، وإن وصول النعم بغير استحقاق منه ولا بذل ثمن ؛ بل هي مجرد فضل ومن منه سبحانه وتعالى [1] .

وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ حيث قال (ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً) [2] وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه (أبوء لك بنعمتك علي) [3] وقوله (أبوء) أي اعترف ا [4] وقوله ﷺ (من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فإ ا منك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر؛ فقد أدى شكر يومه) [5] .

وأما شكر اللسان ؛ فيكون بالثناء والحمد والذكر والتحدث بنعم الله تعالى ، وقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى شكر الله باللسان فقال (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها) [6] . وقوله ﷺ يشكر ربه ويحمده بلسانه فيقـول (

---

(1) انظر : إحياء علوم الدين (4 / 82) ، مدارج السالكين (2 / 244 ـ 245 ، 247) ، الوابل الصيب / 17. 17.

(2) أخرجه ابن ماجه (1 / 596)1856وصححه الألباني وأخرجه أحمد (5 / 282)22490وحسنه الأرناؤوط . .

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2323) رقم 5947 .

(4) انظر : فتح الباري لابن حجر (11 / 100) .

(5) أخرجه أبو داود (2 / 738) رقم 5073 ، وأخرجه ابن حبان (3 / 142) رقم 861 وحسنه الأرناؤوط .

(6) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2095) رقم 2734 .

(الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) [1] وكان يقول (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي) [2] ومن شكر اللسان أيضاً التحدث بنعمة الله كما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه يقول تعالى {وأما بِنِعمة ربك فَحدثْ}[3] .

أما شكر الجوارح فيكون باستعمال نعم الله في طاعته ، والتوقي من الاستعانة ا على معصيته والتقرب إليه بأنواع محابه التي يحبها من الطاعات والقربات [4] . وقد قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً آل داود بقوله {اعملُوا آلَ داوود شكْرا}[5].

ومن شكر الجوارح التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة من صلاة وصوم وسجود ، واستعمال نعم الله من المال وغيره فيما يحبه الله من وجوه الإنفاق ، وعدم استخدام المال ونعمه في معصيته من الربا والرشوة وإنفاق المال فيما لا يحل .

وقد قال رسول الله ﷺ (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل ليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ، و ي عن المنكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى) [6] . وقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : إن كان النبي ﷺ ليقوم أو يصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول (أفلا أكون عبداً شكوراً) [7] .

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (5 / 2326) رقم5953 وأخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2083) رقم2711.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (4 / 2085) رقم 2715 .

(3) سورة الضحى / 11 .

(4) انظر : الوابل الصيب / 17، إحياء علوم الدين (4 / 82) .

(5) سورة سبأ / 13 .

(6) أخرجه مسلم (1 / 498) رقم 720 .

(7) أخرجه البخاري في صحيحه (1 / 380) رقم 1078 .

ولقد اقتضت سنة الله تعالى دوام النعمة وزياد ا بالبركة والنماء لمن لزم شكره على نعمه . قال تعالى مقرراً هذه السنة{وسنجزي الشاكرين}[1] . ويقول عز وجل{ما يفْعلُ اللّه بِعذَابِكُم إِن شكَرتم وآمنتم}[2] .

فهو سبحانه وتعالى يبين أنه لا يعذب عباده إذا شكروا نعمته ، وجاء ذلك بصيغة الإنكار . ومعنى الآية أي " أيشفى به ـ أي العذاب ـ من الغيظ أم يدرك به الثأر ، أم يستجلب به نفعاً أم يستدفع به ضرراً ، كما يفعل الملوك بعذا م ، وهو الغني الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ؟ وإنما هو أمر استوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء ، فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم العذاب " [3] .

ومما يدل على هذه الحقيقة أيضاً قوله تعالى {وإِذْ تأَذنَ ربكُم لَئن شكَرتم لأَزِيدنكُم ولَئن كَفَرتم إِن عذَابِي لَشديد}[4] . فهو سبحانه وتعالى قد أذن إيذاناً بليغاً تنتفي عنه الشكوك وت اح عنه الشبه ، والمعنى : لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم نعمة تفضلاً مني [5] .

ففي الآية الأولى بين سبحانه أن الشكر سبيل لدوام النعم وبقائها ، وبين في الآية الثانية أن الشكر سبب في زيادة النعم ونمائها. " ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر والعذاب الشديد على الكفر ، نحن نقف أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة ؛ لأ ا وعد من الله صادق ، فلابد أن يتحقق على أية حال ، فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ، ونبحث عن أسبا ا المدركة لنا فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية ، فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة . هذه واحدة .. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على

---

(1) سورة آل عمران / 145 .

(2) سورة النساء / 147 .

(3) انظر : الكشاف (1 / 615) .

(4) سورة إبراهيم / 7 .

(5) انظر : فتح القدير (3 / 96) .

نعمته وتراقبه في التصرف ـذه النعمة ، بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والفساد . وهذه وتلك مما يزكي النفس ويدفعها إلى العمل الصالح في النعمة ، بما ينميها ويبارك فيها ، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عوناً ويصلح روابط ا تمع فتنمو فيه الثروات في أمان . إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة ، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أو لم يدركها ، فهو حق واقع لأنه وعد الله " [1].

وكما كان شكر النعمة على ثلاثة طرائق بالقلب واللسان والجوارح بالعمل ، فإن كفر النعمة يكون كذلك ا . فأما كفر النعمة في القلب فبجحودها وعدم الإذعان القلبي بأ ا من فضل الله .

وأما كفر النعمة باللسان فبأن يكتم الإنسان الاعتراف الواجب بشكر الله على نعمه ولا ينطق به ، ويزيد على ذلك بأن يدعي أن النعم التي أوتيها إنما حصلت له بذكائه وعلمه وليس بفضل الله ويسندها إلى غير الله من قوى الطبيعة كما قال ﷺ (ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس ا كافرين يـ ل الله الغيث فيقولون : الكواكب كذا وكذا)[2] وأما كفر النعمة بالعمل : فيكون بعدم أداء الإنسان لما وجب في هذه النعمة من حقوق ، سواء في ذلك نعمة البدن أو نعمة المال ، ويكون كذلك باستعمالها في معصية الله .

وقد جعل الله من سنته أن يـ ل بالذين يكفرون نعمه العذاب والشدة ، كما كان شكرها موجباً حسب سنته للسعادة والرخاء {وإِذْ تأَذنَ ربكُم لَئن شكَرتم لَأَزِيدنكُم ولَئن كَفَرتم إِن عذَابِي لَشديد} [3]. وقد ضرب الله في القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهؤلاء الذين كفروا نعمة الله عليهم فأجرى الله سنته فيهم فأزال نعمته عنهم ونزل ـم عذابه الشديد ونقمته .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2088 ـ 2089) .
(2) أخرجه مسلم في صحيحه (1 / 84) رقم 72 .
(3) سورة إبراهيم / 7 .

ومن ذلك قوله تعالى {وضرب اللّه مثَلاً قَريةً كَانت آمنةً مطْمئنةً يأْتيها رِزقُها رغَدا من كُل مكَان فَكَفَرت بِأَنعمِ اللّه فَأَذَاقَها اللّه لباس الْجوعِ والْخوف بِما كَانواْ يصنعونَ}[1]. وقوله تعالى {واضرِب لَهم مثَلًا رجلَينِ جعلْنا لأَحدهما جنتينِ من أَعنابٍ وحفَفْناهما بِنخلٍ وجعلْنا بينهما زرعا ـ كلْتا الْجنتينِ آتت أُكُلَها ولَم تظْلم منه شيئًا وفَجرنا خلَالَهما نهرا}إلى قوله تعالى {وأُحيطَ بِثَمرِه فَأَصبح يقَلب كَفَّيه علَى ما أَنفَق فيها وهي خاوِيةٌ علَى عروشها ويقُولُ يا لَيتنِي لَم أُشرِك بِربي أَحدا}[2] . وهكذا تمضي سنة الله في الكافرين لنعمه ، بأن يزيل تلك النعم فيحرمهم إياها ، وبذا يعيشون في ضنك وشدة جزاء كفرهم وجحودهم لنعم ر م ، وعدم إذعا م وخضوعهم له سبحانه ، واغترارهم بنعمه التي أنعمها عليهم وتكبرهم على عباد الله .

7 / الدعاء .

ومن أسباب السعادة والنعيم والرخاء ودفع الشقاوة والشدة والبلاء ؛ التوجه إلى الله عز وجل بذلك ، لأنه سبحانه أمر عباده بدعائه ووعدهم بالإجابة ووعده حق . يقول تعالى {ادعونِي أَستجِب لَكُم إِن الذين يستكْبِرونَ عن عبادتي سيدخلُونَ جهنم داخرِين}[3] . فهو سبحانه وتعالى أمر بتوجيه رغباتنا إليه والتعويل عليه ، وكفل لنا الإجابة بإعطائنا ما نريد ، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين . وهو سبحانه القريب من عباده إذا دعوه {وإِذَا سأَلَك عبادي عني فَإِني قَرِيب أُجِيب دعوةَ الداعِ إِذَا دعان فَلْيستجِيبواْ لي ولْيؤمنواْ بِي لَعلهم يرشدونَ} [4]. فهو سبحانه يسمع الدعاء ويجيب ، وهو أقرب إلى أحدنا من حبل الوريد . ومن دعا الله فهو حري بأن تستجاب دعوته ومن دعا غيره فهو كمن يدعو أصماً لا يسمع ، لأن غيره لا يملك الضر والنفع {أَمن يجِيب الْمضطَر إِذَا دعاه ويكْشف السوءَ} [5] أي : " من

---

(1) سورة النحل / 112 .

(2) سورة الكهف / 32 ـ 42 .

(3) سورة غافر / 60 .

(4) سورة البقرة / 186 .

(5) سورة النمل / 62 .

هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي يكشف ضر المضرورين سواه " [1] . فإنه لا يقدر أحد على كشف الضر الذي وقع له ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة ؛ إلا القادر الذي لا يعجزه شيء ، والقاهر الذي لا ينازع في شيء[2]. والدعاء الذي يستجاب هو الدعاء الذي تتوفر فيه شروطه وتنتفي موانعه فهو سبحانه قد أمر به مقروناً بالإخلاص ، لأن دعاء من لا يخلص الدين لله لا يجاب كما قال تعالى {وادعوه مخلصين له الدين}[3] " فكل من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه وجده واجتهاده فهو في الحقيقة ما دعا إلا باللسان ، وأما القلب فإنه معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله ، فهذا الإنسان ما دعا ربه في وقت ، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله ، فالظاهر أنه تحصل الإجابة " [4] .

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 371) .

(2) انظر : تفسير الرازي (24 / 179) .

(3) سورة الأعراف / 29 .

(4) انظر : تفسير الرازي (4 / 98) .

ثانياً : أسباب الشقاوة :

1 / الكفر .

لأن الكافر قد افتقد الشرط في السعادة وكل الصفات الحميدة ، فإذا فقد الشرط فقد الجزاء وهو السعادة ، والآيات التي تتحدث عن ارتباط كل سوء بالكفر كثيرة .

ومن ذلك قوله تعالى {ولَا تكُونوا كَالذين نسوا الله فَأَنساهم أَنفُسهم أُولَئك هم الْفَاسقُونَ}[1] " فالذين نسوا الله هم الكفار حيث تركوا عبادة الله وامتثال ما أمر به واجتناب ما ى عنه ، وهذا تنبيه على فرط غفلتهم واتباع شهوا م ، فأنساهم أنفسهم حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب " [2] . فإذا لم يعرف الإنسان ربه ـ وهو أقرب إليه من حبل الوريد ـ فما أشقى حياته وما أتعس حظه وما أخيب سعيه ، إنه لن يجد السعادة ولن يجد السكينة ولن يجد الحقيقة ، بل لن يجد نفسه ذا ا " فالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم هم المنافقين أصالة ، وشاملاً كل تلك الطوائف لاشتراكهم جميعاً في أصل النسيان وهم اليهود والنصارى والمشركون "[3].

وإن الإيمان بآلهة متعددة سبب في تشتت الإنسان بين هذه الآلهة المختلفة التي تتعدد إراد ا وتختلف ، فيقع الإنسان معها في الحيرة والاضطراب وعدم السكينة . ومن هنا جاء قوله تعالى{

---

(1) سورة الحشر / 19 .

(2) انظر : البحر المحيط (8 / 93) .

(3) انظر : أضواء البيان (8 / 55) .

أأرباب متفَرقُونَ خير أمِ اللّه الْواحد الْقَهار }[1]. فلا شك ولا ريب أن الإله الواحد الأحد الفرد الصمد خير وأفضل من الآلهة المتفرقين . ولذلك ضرب الله مثلاً للإنسان المؤمن بالله وحده والإنسان المشرك فقال تعالى {ضرب الله مثَلًا رجلًا فيه شركَاء متشاكسونَ ورجلًا سلَما لرجلٍ هلْ يستوِيان مثَلًا الْحمد لله بلْ أَكْثَرهم لَا يعلَمونَ}[2] .

حيث " ضرب الله هنا مثلاً لعابد آلهة كثيرة ومن يعبد الله وحده ، مثل الرجل المملوك اشترك فيه ملاك سيئو الأخلاق ، فهو لا يقدر أن يوفي كل واحد منهم مقصوده ، إذ لا يتغاضى بعضهم لبعض لمشاحتهم وطلب كل منهم أن يقضي حاجته على التمام ، فلا يزال في عناء وتعب ولوم من كل منهم . ورجل آخر مملوك جميعه لرجل واحد فهو معني بشغله لا يشغله عنه شيء ، ومالكه راضٍ عنه أن خلص لخدمته وبذل جهده في قضاء حوائجه ، فلا يلقى من سيده إلا إحساناً " [3] فكما لا يستوي هذان الرجلان فإنه " كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فأين هذا من هذا " [4] .

ويبين الله تعالى أن المصائب مستمرة في الـ ول على الكفار بسبب كفرهم ، وهذه سنة مستمرة في كل الكفار حتى يوم القيامة . قال تعالى { ولاَ يزالُ الذين كَفَرواْ تصيبهم بِما صنعواْ قَارِعةٌ أَو تحل قَرِيبا من دارِهم حتى يأْتي وعد اللّه إِن اللّه لاَ يخلف الْميعاد}[5]. وهذا " عام في جميع الكفار ، وهذا الأمر مستمر فيهم إلى يوم القيامة . قال الحسن : أو هو ظاهر اللفظ . وقال الزمخشري : تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تقرعهم ، بما يحل الله م في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في أنفسهم وأولادهم وأموالهم . أو تحل القارعة قريباً

---

(1) سورة يوسف / 39 .

(2) سورة الزمر / 29 .

(3) انظر : البحر المحيط (7 / 424) ، وفتح القدير (4 / 460 ـ 461) .

(4) انظر : تفسير ابن كثير (4 / 53) .

(5) سورة الرعد / 31 .

منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شررها وتتعدى إليهم شرورها ، حتى يأتي وعد الله وهو موتهم أو القيامة " [1] .

وقد جعل الله الغم والحزن في الشك والسخط ، فالسخط والشك صفتان عميقتان في نفس الكافر ، لأنه لا يؤمن بالله ويشك في توحيده وفي وجوده وفي ألوهيته وقد يكون في ربوبيته . ويحصل له من المصائب ما يسخط ولا يرضي ، والسخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال والظن بالله خلاف ما هو أهله . والرضى بخلاف ذلك ؛ يخلصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة ، وهو يوجب له أيضاً الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره والسخط يوجب اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره .

2 / الإعراض عن هدى الله وعدم الاستقامة على منهجه وعدم المبالاة بأوامره ونواهيه.

والآيات التي تدل على هذا المعنى كثيرة نذكر منها : قوله تعالى {ومن أعرض عن ذكْرِي فَإِن لَهُ معيشةً ضنكًا ونحشره يوم الْقيامة أعمى} [2]. أي : ومن أعرض عن ذكري الذي أذكره به وتولى عنه ولم يتعظ به فينزجر عما هو مقيم عليه من مخالفة أمر ربه .

وذكر الله هو دينه وكتابه وهديه الذي أنزله على محمد ﷺ ، فإن له معيشة ضنكا ؛ أي عيشاً ضيقاً شديداً فهو يعيش في ضيق وتعب ونصب [3]. والضنك من المنازل والأماكن والمعايش الشديد ، يقال : هذا منزل ضنك إذا كان ضيقاً وعيش ضنك [4].

" والمعرض عن الدين يعيش في ضنك لأنه مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى ازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق ؛ فعيشه ضنك وحاله مظلمة . كما قال بعض المتصوفة : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه . ومن الكفرة من ضربت عليه الذلة والمسكنة لكفره " [5].

---

(1) انظر : البحر المحيط (6 / 98) .

(2) سورة طـه / 124 .

(3) انظر : تفسير الطبري (16 / 225) ، فتح القدير (3 / 391) ، مفتاح دار السعادة لابن القيم (1 / 43) .

(4) انظر : تفسير الرازي (22 / 112) .

(5) انظر : الكشاف للزمخشري (3 / 95) ، وتفسير القرطبي (11 / 258 ـ 259) .

والمعرضون عن هدى الله يعيشون في ضنك لأن حيا م ومعيشتهم حرام ، والحرام وإن اتسع فهو ضنك [1] ، فهم يعيشون في ضنك وإن اتسعت عليهم الدنيا ، لأ م ينفقون ما ينفقون من أموالهم على تكذيب منهم بالخلف من الله ، وإياس من فضل الله ، وسوء ظن منهم بر م فتشتد لذلك عليهم معيشتهم وتضيق [2] .

والمعرض عن ذكر الله تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي بشيء منها [3] . والمعرضون عن هدى الله ووحيه " يردهم الله تعالى إلى أنفسهم وإلى معيشة أضيق وأشد من أن يرد الإنسان إلى نفسه ، وعن عطاء قال : المعيشة الضنك هي معيشة الكافر ؛ لأنه غير مؤمن بالثواب والعقاب " [4] .

ويقول الله تعالى {ومن يعرض عن ذكْرِ ربه يسلُكْه عذَابا صعدا}[5]. والإعراض عن ذكر الله وهو كتاب الله عز وجل وهديه الذي أنزله على محمد بن عبد الله ﷺ يكون بالرفض وعدم القبول ، وإما أن يكون بعدم العمل والتطبيق ، وجزاء هؤلاء المعرضين عن ذكر الله أن يسلكهم الله عذاباً صعداً . والصعد في اللغة المشقة ، تقول : تصعد بي الأمر إذا شق عليك ، وهو مصدر صعد ، فوصف به العذاب مبالغة ، لأنه يتصعد المعذب ؛ أي : يعلوه ويغلبه فلا يطيقه [6] ، وبذا فهو يعيش في تعب لا راحة معه وشقاء لا اية له [7] .

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة الله ثم تنال الوفر والغنى ؛ فإ ا تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ؛ تسلُب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعنة مشئومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته [8] .

---

(1) انظر : تفسير الطبري (16 / 226) .

(2) انظر : المرجع السابق (16 / 227) .

(3) انظر : زاد المسير لابن الجوزي (5 / 331) .

(4) انظر : تفسير الرازي (22 / 113) .

(5) سورة الجن / 17 .

(6) انظر : تفسير الرازي (30 / 143) ، فتح القدير (5 / 309) .

(7) انظر : الطبري (29 / 116) ، تفسير ابن كثير (4 / 432) .

(8) انظر : في ظلال القرآن (6 / 3734) .

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى {فَلْيحذَرِ الذين يخالفُونَ عن أمرِه أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذَاب أليم}[1] . " ومخالفة أمر الرسول ﷺ تكون بإحدى صورتين :

الأولى : مخالفة أمره بترك مقتضاه ، ويذهبون سمتاً خلاف سمته .

والثانية : الذين يصدون الناس عن دين الله " [2] .

" وقد توعد هؤلاء الذين يخالفون عن أمره بأحد الجزاءين وهما : الفتنة أو العذاب الأليم ، وعبر بـ (أو) لمنع الخلو من العقاب للذين يخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] . واختلف المفسرون بالمراد بالفتنة فقيل : القتل ، وقيل : الزلازل والأهوال ، وقيل : سلطان جائر ، وقيل : بلاء [4] . وذهب ابن جرير إلى أن الفتنة هي الكفر [5]. وقال صاحب التسهيل " الفتنة هي بالرزايا أو بالفضيحة " [6] وعمم الرازي فقال : هي العقوبة في الدنيا [7] قال أبو حيان : وهذه الأقوال خرجت مخرج التمثيل لا الحصر [8] .

فدلت هذه الأقوال جميعاً على أنه عز وجل توعد الذين يخالفون أمر الرسول ﷺ بالفتنة ، وهي تشمل الوجوه السالفة الذكر وغيرها من الوجوه التي يكون فيها عقاب للذين يخالفون أمر الرسول ﷺ .

وأما العقاب الثاني الذي حذرهم من وقوعه م إذا خالفوا أمر رسول الله ﷺ فهو العذاب الأليم ، وذهب أكثر المفسرين إلى أنه العذاب في الآخرة [9]. ولكن ذهب ابن جرير إلى أن العذاب

---

(1) سورة النـ ـور / 63 .

(2) انظر : تفسير أبي السعود (6 / 198) ، والبحر المحيط (6 / 477) .

(3) انظر : فتح القدير (4 / 58) .

(4) انظر : تفسير القرطبي (12 / 323) ، والبحر المحيط (6 / 477) .

(5) انظر : تفسير ابن جرير (18 / 178) .

(6) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (3 / 74) .

(7) انظر : تفسير الرازي (24 / 38) .

(8) انظر : البحر المحيط (6 / 477) .

(9) انظر : فتح القدير (4 / 58) ، وتفسير أبي السعود (6 / 198) .

الأليم هو العذاب في الدنيا فقال " وقوله : أو يصيبهم عذاب أليم . يقول : أو يصيبهم في عاجل الدنيا عذاب موجع على صنيعهم ذلك وخلافهم أمر رسول الله ﷺ "[1]. وهذا التهديد والوعيد عام لكل من يخالف رسول الله ﷺ ، وإن كان سببها خاصاً في الذين كانوا يتركون مواقع الجهاد دون إذن الرسول ﷺ " وإنه لتحذير مرهوب و ـديد رهيب ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ويتبعون ـجاً غير ـجه ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة . ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحيا ـا ، فلا يأمن على نفسه أحد ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر ، وهي فترة شقاء للجميع ، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة " [2] .

ثم يبين سبحانه وتعالى أن المصائب التي تـ ـل بالعباد ما هي إلا نتيجة معصية الله ومخالفة أمره . قال تعالى {وما أَصابكُم من مصيبة فَبِما كَسبت أَيديكُم ويعفُو عن كَثيرٍ ـ وما أَنتم بِمعجِزِين في الْأَرضِ وما لَكُم من دون الله من ولي ولَا نصيرٍ}[3] "فهو يخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية : أن ما أصاب الناس من مصائب من الآلام والسقام والقحط والخوف حتى خدش العود وعثرة القدم واختلاج العرق ، وغير ذلك في البدن أو في المال أو في الأهل والعيال إنما هو بسبب المعاصي التي اقترفوها وبما اجترحوا من الآثام فيما بينهم وبين ر ـم"[4]. يقول ابن القيم رحمه الله الله مبيناً ما تسببه الذنوب من النقم " ومن عقوبات الذنوب أ ـا تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن البعد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة. وقد أحسن القائل :

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم

---

(1) انظر : تفسير الطبري (18 / 178) .

(2) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2535 ـ 2536) .

(3) سورة الشورى / 30 ـ 31 .

(4) انظر : تفسير الطبري (25 / 32 ـ 33) .

وحطْها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم "[1] .

وقال في موضع آخر " ومن عقوبا ا أ ا تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة .. وقد جعل الله لكل شيء سبباً وآفة ، سبباً يجلبه يجلبه وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفتها المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه ا ، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في غيره ، وسماعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيهم ، وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم ! وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه ! فأي جهل أبلغ من هذا ؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلي الكبير "[2] .

وبين سبحانه أن ظهور الفساد وشيوعه في البر والبحر بسبب ما يرتكبه الناس من معاص ، وما يخالفون به شرع الله الذي شرعه لهم ، بقوله تعالى{ظَهر الْفَساد في الْبر والْبحرِ بِما كَسبت أَيدي الناسِ ليذيقَهم بعض الذي عملُوا لَعلهم يرجِعونَ}[3] أي بسبب شرك الناس ومعاصيهم وذنو م والغفلات وتتبع الشهوات وتضييع الأوقات [4] والابتعاد عن هدى الله ؛ ظهر الفساد في البر والبحر .

فالله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه [5] .

ولو أن الله سبحانه يأخذ الناس بذنو م لما ترك عليه من دابة ، ولكن الله رؤوف رحيم . والذنوب تتبع الشدائد " وإلا فما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد فجاسوا

(1) انظر : الجواب الكافي / 49 .
(2) انظر : المرجع السابق / 73 ـ 74) .
(3) سورة الروم / 41 .
(4) انظر : تفسير الخازن (5 / 210) .
(5) انظر : روح المعاني (21 / 48) .

خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار و نهبوا الأموال ، ثم بعث عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرا ، وما الذي سلط عليهم بأنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى{لَيبعثَن علَيهم إِلَى يومِ الْقيامة من يسومهم سوءَ الْعذَابِ }[1] " [2] .

3 / عدم تحكيم شرع الله .

فقد بين الله عز وجل أن الحكم بغير ما أنزل الله حكم الجاهلين ، وأن الإعراض عن حكم الله تعالى سبب لحلول عقابه وبأسه الذي لا يرد عن القوم الظالمين [3] . يقول سبحانه {وأَنِ احكُم بينهم بِمآ أَنزلَ اللّه ولاَ تتبِع أَهواءهم واحذَرهم أَن يفْتنوك عن بعضِ ما أَنزلَ اللّه إِلَيك فَإِن تولَّواْ فَاعلَم أَنما يرِيد اللّه أَن يصيبهم بِبعضِ ذُنوبِهِم وإِن كَثيرا من الناسِ لَفَاسقُونَ ـ أَفَحكْم الْجاهلية يبغونَ ومن أَحسن من اللّه حكْما لِّقَومٍ يوقنونَ }[4]. فقوله (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم) أي : بالعقوبة في الدنيا [5]. وقد حصر الله صفة السفاهة حصراً فيمن تنكب عن ملة إبراهيم ورغب عن شريعة محمد ﷺ [6] ؛ إذ قال {ومن يرغَب عن ملَّة إِبراهيم إِلاَّ من سفه نفْسه} [7]. وشبه من لم ينتفع بالقرآن بالحمار ، ومن انسلخ من آياته بالكلب [8] فقال تعالى {مثَلُ الذين حملُوا التوراةَ ثُم لَم يحملُوها كَمثَلِ الْحمارِ يحملُ أَسفَارا} [9] . فشبه من لم

---

(1) سورة الأعراف / 167 .

(2) انظر : الجواب الكافي / 27 .

(3) انظر : وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه لابن باز / 9 .

(4) سورة المائدة / 49 ـ 50 .

(5) انظر : السراج المنير (1 / 363) .

(6) انظر : الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة لعبد الرحمن الدوسري / 32 .

(7) سورة البقرة / 130 .

(8) انظر : الأجوبة المفيدة / 32 .

(9) سورة الجمعة / 5 .

ينتفع بما أنزل الله عليه بحمله الصحيح بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد منها ، وضرب الله مثلاً آخر لمن انخلـع من آيات الله ووحيه وعن تحكيم شرع الله [1] بقوله تعالى {واتلُ علَيهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فَانسلَخ منها فَأَتبعه الشيطَانُ فَكَانَ من الْغاوِين ـ ولَو شئْنا لَرفَعناه بِها ولَكنه أَخلَد إِلَى الأَرضِ واتبع هواه فَمثَلُه كَمثَلِ الْكَلْبِ إِن تحملْ علَيه يلْهثْ أَو تتركْه يلْهث ذلك مثَلُ الْقَومِ الذين كَذبواْ بِآياتنا فَاقْصصِ الْقَصص لَعلهم يتفَكَّرونَ}[2].

وهذه طبيعة حتمية للمنحرفين عن هدى الله ورسوله ، تجدهم يتهارطون تهارط الكلاب علانية على رؤوس الأشهاد ولا يخجلون من تفكه أعدائهم عليهم [3] .

وإن البشرية كلما انحرفت عن منهج الله سبب لها هذا الانحراف شقوة فـ " لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ومرت البشرية في أقطار الأرض بتجارب شتى ، فإذا هذه التجارب تثبت أن كلما ما انحرف به الناس عن شريعة الله سبب لهم شقوة مريرة ، لا تكاد تطاق ، وهدد أمنهم وراحتهم ومزقهم شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، فضلاً عن الشقاء العالمي الشامل الذي أنتج في التاريخ المعاصر حربين متتاليين في ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تهدد بأفظع دمار عرفه التاريخ ، فضلاً عن تفتت الأسرة وتحلل الأخلاق ، وتمزق أعصاب الفرد بين شتى الاتجاهات، مما تشهد به أمراض الجنون والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم وحوادث الانتحار التي شهدت فيها البشرية في هذا الجيل ما لم تشهده مجتمعاً في أجيال " [4] .

وإن ما يعانيه المسلمون اليوم في كثير من ديارهم من شقاء وتعاسة وذل ناتج عن عدم اتباع هدى الله ، وعدم السير على شريعة الله ، التي هي مصدر عزهم وكرامتهم ومصدر راحتهم وسعادتهم .

---

(1) انظر : الأجوبة المفيدة / 71 ـ 72 .

(2) سورة الأعراف / 175 ـ 176 .

(3) انظر : الأجوبة المفيدة / 72 .

(4) انظر : كتاب هل نحن مسلمون لمحمد قطب / 76 .

4/ ومن أسباب الشقاوة الظلم .

قال الله تعالى {فَبِظُلْمٍ من الذين هادواْ حرمنا علَيهم طَيبات أُحلت لَهم وبِصدهم عن سبِيلِ اللّه كَثيرا ـ وأَخذهم الربا وقَد نهواْ عنه وأَكْلهم أَموالَ الناسِ بِالْباطلِ وأَعتدنا للْكَافرِين منهم عذَابا أَليما } [1] " والآية اقتضت أن تحريم ما حرم عليهم إنما كان عقاباً لهم ، وأن تلك المحرمات ليس فيها من المفاسد ما يقتضي تحريم تناولها ، وإلا لحرمت عليهم من أول مجيء الشريعة . وقد قيل : إن المراد بهذه الطيبات هو ما ذكر في قوله تعالى {وعلَى الذين هادواْ حرمنا كُلَّ ذي ظُفُرٍ ومن الْبقَرِ والْغنمِ حرمنا علَيهم شحومهما إِلا ما حملَت ظُهورهما أَوِ الْحوايا أَو ما اختلَطَ بِعظْمٍ ذَلك جزيناهم بِبغيِهِم وإِنا لَصادقُونَ} [2] فهذا هو الجزاء على ظلمهم [3] " فبسبب من هذه المنكرات ـ وأحدها الظلم ـ حرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم " [4] .

5 / ومن أسباب الشقاوة الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر اتباعاً للهوى .

قال الله تعالى {ثُم أَنتم هؤلاء تقْتلُونَ أَنفُسكُم وتخرِجونَ فَرِيقاً منكُم من ديارِهم تظَاهرونَ علَيهم بِالإِثْمِ والْعدوان وإِن يأتوكُم أُسارى تفَادوهم وهو محرم علَيكُم إِخراجهم أَفَتؤمنونَ بِبعضِ الْكتابِ وتكْفُرونَ بِبعضٍ فَما جزاء من يفْعلُ ذَلك منكُم إِلا خزي في الْحياة الدنيا ويوم الْقيامة يردونَ إِلَى أَشد الْعذَابِ وما اللّه بِغافلٍ عما تعملُونَ} [5] فقد " كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان أشد ما يكون حيان من العرب عداءً . وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين . فكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع

---

(1) سورة النساء / 160 ـ 161.

(2) سورة الأنعام / 146 .

(3) انظر : تفسير ابن عاشور (8 / 143) .

(4) انظر : في ظلال القرآن (2 / 803) .

(5) سورة البقرة / 85 .

حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر ـ وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم ـ وكانوا يخرجو م من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم ـ وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم ـ ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء ، وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته . هذا هو التناقض الذي يواجههم به القرآن وهو يسألهم في استنكار (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ؟ وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب الأشد في الآخرة مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزا .(فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) " [1] .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (1 / 87 ـ 88) .

المبحث الثالث : تطبيقات قرآنية على سنة السعادة والشقاوة .

من الأمثلة القرآنية الدالة على هذه السنة ما جاء في سورة الكهف فيما يخص قصة صاحب الجنتين .

قال الله تعالى{واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففْناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعا ـ كلْتا الْجنتين آتت أُكُلها ولم تظْلم منه شيئًا وفَجرنا خلالَهما نهرا}[1].

فهما جنتان مثمرتان من الكروم محفوفتان بسياج من النخيل تتوسطهما الزروع ويتفجر بينهما نهر ، إنه المنظر البهيج والحيوية الدافعة والمتاع والمال ، وكلتا الجنتين آتت ثمارها ولم تنقص وتمنع منه شيئاً [2] .

ولم يكن صاحب الجنتين مقدراً لنعمة الله عليه بل كان مغتراً بها وبطراً على خلق الله بما أوتي من هذه النعم {وكَانَ لَه ثَمر فَقَالَ لصاحبِه وهو يحاوِره أنا أَكْثَر منك مالًا وأعز نفَرا}[3]. أي أنا أكثر خدماً وحشماً وولداً . قال قتادة : تلك والله أمنية الفاجر : كثرة المال وعزة النفر . {ودخلَ جنته وهو ظَالم لنفْسِه قَالَ ما أَظُن أن تبِيد هذه أبدا ـ وما أَظُن الساعةَ قَائمةً ولَئن رددت إِلَى ربي لَأَجِدن خيرا منها منقَلَبا}[4] لقد خطا بصاحبه ودخل وإياه إحدى الجنتين ، دخلها وهو ظالم لنفسه بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ، وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله . وزاد غروره وكبرياؤه فأنكر قيام الساعة ثم إذا كان هناك معاد فسيجد عند الله خيراً منها منقلباً .

---

(1) سورة الكهف / 32 ـ 33 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2270) .

(3) سورة الكهف / 34 .

(4) سورة الكهف / 35 ـ 36 .

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أ م ما داموا في هذه الدنيا في نعيم ورخاء فسيكونون غداً في يوم القيامة في مثل ذلك من النعيم[1] ونسوا أن هذا النعيم إنما هو ابتلاء لهم وليس كرامة {فَأَمَّا الْإِنسانُ إِذَا مَا ابتلَاه ربه فَأَكْرمه ونعمه فَيقُولُ ربي أَكْرمنِ }[2] ولكن صاحبه المؤمن أرشده إلى ما يجب عليه من شكر النعمة ، وعدم الاغترار ا {قَالَ لَه صاحبه وهو يحاوِره أَكَفَرت بِالذي خلَقَك من ترابٍ ثُم من نطْفَة ثُم سواك رجلًا ـ لكنا هو الله ربي ولَا أُشرِك بِربي أَحدا}[3] .

وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم رغبه وحضه على الإيمان بأن يؤمن بالله ولا يكفر به ، وأن لا يقول بمقالته ، بل يعترف لله سبحانه وتعالى بالوحدانية والربوبية ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً لأن الله هو المعبود وحده لا شريك له ، ثم قال له {ولَولَا إِذْ دخلْت جنتك قُلْت ما شاء الله لَا قُوةَ إِلَّا بِالله إِن ترنِ أَنا أَقَلَّ منك مالًا وولَدا ـ فَعسى ربي أَن يؤتينِ خيرا من جنتك ويرسلَ علَيها حسبانا من السماء فَتصبِح صعيدا زلَقًا ـ أَو يصبِح ماؤها غَورا فَلَن تستطيع لَه طَلَبا}[4] .

هذا تحضيض وحث على ذلك ؛ أي : هلاّ إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك وقلت : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . ثم حذره من بطش الله بأن يرسل على جنته حسباناً من السماء وهو المطر المزعج الذي يقلع الزرع والأشجار ، أو يصبح ماؤها غوراً أي : غائراً في الأرض ، وهو ضد النبع ، فتصبح صعيداً زلقاً ؛ أي : بلقعاً تراباً أملس لا يلبث فيه قدم [5] . وفجأة ينقلنا السياق

---

(1) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2270) .

(2) سورة الفجر / 15 .

(3) سورة الكهف / 37 ـ 38 .

(4) سورة الكهف / 39 ـ 41 .

(5) انظر : تفسير ابن كثير (3 / 23) بتصرف .

من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار ، فلقد كان ما توقعه المؤمن {وأُحيطَ بِثَمرِه فَأصبح يقَلب كَفيه علَى ما أنفَق فيها وهي خاوِيةٌ علَى عروشها ويقُولُ يا لَيتنِي لَم أُشرِك بِربي أَحدا}[1] .

وهو مشهد كامل : الثمر كله مدمر كأ ا أخذت من كل جانب فلم يسلم منه شيء ، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن ويستعيذ منه بعد فوات الأوان . هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة فلا قوة إلا قوته ولا نصر إلا نصره وثوابه هو الثواب وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى[2]{ولَم تكُن له فئَةٌ ينصرونه من دون الله وما كَانَ منتصرا ـ هنالك الْولَايةُ لله الْحق هو خير ثَوابا وخير عقْبا} [3] .

ومن الأمثلة التي ضر ا الله عز وجل على كفر النعم وأنه سبب في عقاب الله بزوال النعم ووقوع أصحاب هذا الذنب العظيم في الشقاء والشدة والضيق بعد السعادة والرخاء والسعة ، ما كان من قصة أصحاب الجنة الوارد ذكرها في سورة القلم ، فلقد كانوا أبناء رجل صالح يعرف قدر نعمة الله عليه فيشكر نعم ربه بالعمل ، فيتصدق على الفقراء والمحتاجين ولا يحرمهم حقهم . ولكن أبناءه بعده استقلوا نعمة الله عليهم وقالوا : إن العيال لكثير وإن المال لقليل ، فحلفوا بالله ليغدون قبل خروج الناس وليقطعن نخلهم أول الصباح ، ولا يستثنون من هذا الثمر شيئاً للفقراء والمساكين ، فبيتوا نية سوء فعاجلهم ر م فبعث عليها ناراً بالليل فاحترقت فصارت سوداء لا ثمر فيها ولا نفع منها .

وفي الصباح الباكر ضوا لتنفيذ ما خططوا له ، وما علموا ما حدث لجنتهم ، فلما رأوها محترقة قالوا : قد ضللنا طريق جنتنا فليست هذه هي ، ثم علموا أ ا عقوبة لهم ، فاعترفوا بذنو م

---

(1) سورة الكهف / 42 .

(2) انظر : في ظلال القرآن (4 / 2271) .

(3) سورة الكهف / 43 ـ 44 .

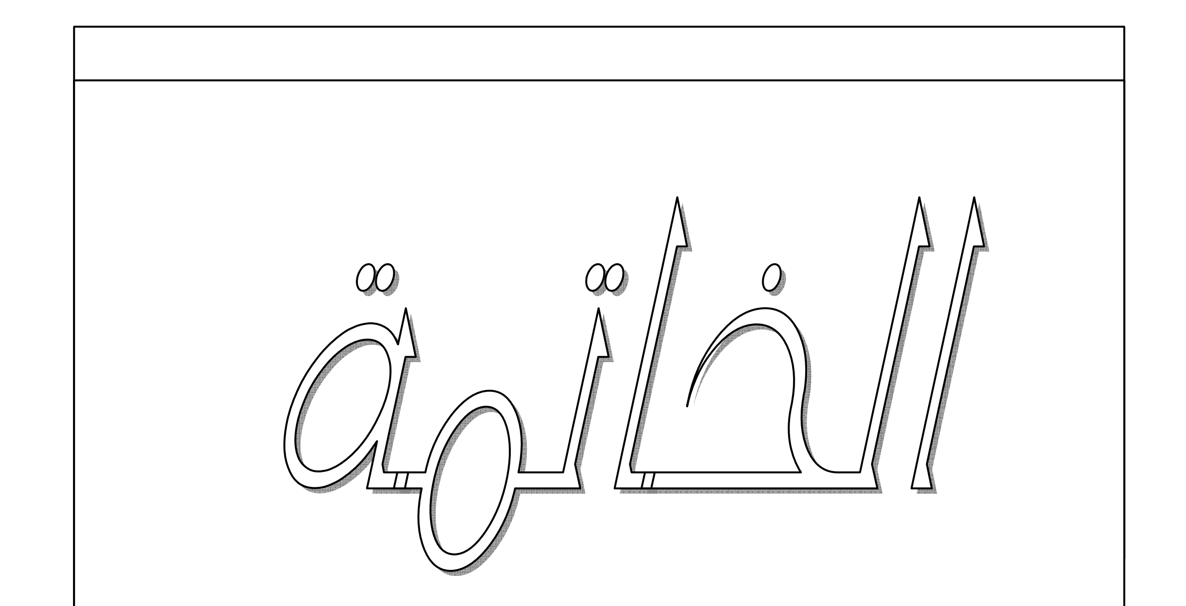
ولكن بعد فوات الأوان ، وأخذ يلوم بعضهم بعضاً ، ثم بين سبحانه بعد ذلك أن هذه سنته في الذين لا يشكرون نعمة ر م ويحرمون منها المحتاجين [1] .

يقول تعالى مبيناً قصتهم وما حدث لهم {إنا بلَوناهم كَما بلَونا أَصحاب الْجنة إِذْ أَقْسموا لَيصرِمنها مصبِحين ـ ولَا يستثْنونَ ـ فَطَاف علَيها طَائف من ربك وهم نائمونَ ـ فَأَصبحت كَالصرِيمِ ـ فَتنادوا مصبِحين ـ أَن اغْدوا علَى حرثكُم إِن كُنتم صارِمين ـ فَانطَلَقُوا وهم يتخافَتونَ ـ أَن لَا يدخلَنها الْيوم علَيكُم مسكين ـ وغَدوا علَى حرد قَادرِين ـ فَلَما رأَوها قَالُوا إِنا لَضالونَ ـ بلْ نحن محرومونَ ـ قَالَ أَوسطُهم أَلَم أَقُل لكُم لَولَا تسبحونَ ـ قَالُوا سبحانَ ربنا إِنا كُنا ظَالمين ـ فَأَقْبلَ بعضهم علَى بعضٍ يتلَاومونَ ـ قَالُوا يا ويلَنا إِنا كُنا طَاغين ـ عسى ربنا أَن يبدلَنا خيرا منها إِنا إِلَى ربنا راغبونَ ـ كَذَلك الْعذَاب ولَعذَاب الْآخرة أَكْبر لَو كَانوا يعلَمونَ} [2] .

وإذا تخلف وقوع هذه السنة أو رأينا في الواقع خلاف ما سبق بيانه في هذه السنة ، بأن رأينـا توفر السعادة المادية عند من لم تتوفر فيهم أسباب هذه السعادة مثلاً ، فقد يكون ذلك ابـتلاءً لهؤلاء ، وهي في الواقع ليست سعادة حقيقية في الظاهر والباطن لمصاحبتها الكثير من الهمـوم والقلق والاضطراب والحيرة مما حدا بكثير من أفراد تلك ا تمعات إلى اللجـوء إلى الأدويـة المهدئة والأطباء النفسيين ، وربما أدى م ذلك إلى الانتهاء من حيا م بالكليـة بـاللجوء إلى الانتحار . ولعل ذلك يتضح بالنظر إلى عدد حالات الانتحار في البلاد الاسكندينافية مثلاً ، مع أن دخل الفرد فيها يعتبر من أكثر المعدلات في العالم .

---

(1) انظر : زاد المسير في علم التفسير (2 / 56) .
(2) سورة القلم / 17 ـ 33 .


الخاتمة

أهم النتائج والتوصيات :

خلصت من هذا البحث إلى النتائج التالية :

1. أن تغيير الله لحالة الناس لا تكون نتيجة لتغيير جميع الناس لحالتهم فحسب ؛ بل قد يحصل التغيير الإلهي بسبب التغيير الحاصل من بعضهم دون بعض ؛ حتى لو كان هذا البعض قليلاً . وهؤلاء في كل وقت وحين ؛ هم الذين تنتقل م الحضـارات مـن أطوار الضعف والذلة والهوان إلى أطوار العزة والمنعة والسيادة ، وإذا نظرنا إلى كل الحركات - إسلامية أو غير إسلامية - التي قدر لها أن تغير حركـة التـاريخ وأن تبدل واقع الناس فإننا نجد أ ا قامت على أكتاف نفر قليلين هم أهل الصبر والتحمل كما كان النفر الذين مع طالوت عليه السلام حيث بين الله عز وجل لنا صـبرهم وتحملهم في قوله تعالى {فَلَما فَصلَ طَالُوت بِالْجنود قَالَ إن اللّه مبتليكُم بِنهرٍ فَمـن

شرب منه فَلَيس مني ومن لم يطْعمه فَإِنه مني إِلا منِ اغْترف غُرفَةً بِيده فَشرِبواْ منه إِلا قَليلاً منهم فَلَما جاوزه هو والذين آمنواْ معه قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنا الْيـوم بِجـالُوت وجنوده قَالَ الذين يظُنونَ أَنهم ملاَقُو اللّه كَم من فئَة قَليلَة غَلَبت فئَةً كَثيرةً بِإِذْنِ اللّه واللّه مع الصابِرِين} (1) ، وكما كان النفر الذين مع موسى عليه السلام فقد كانوا قلة كذلك وقعت بين نارين ـ نار فرعون وطغمته ونار عشيرم التي هـددت في مصالحها وأرزاقها إن هي لم تقنع أبناءها عن الابتعاد عن موسى عليه السلام ـ قال تعالى {فَما آمن لموسى إِلا ذُريةٌ من قَومه علَى خوف من فرعونَ وملَئهِم أَن يفْتنهم وإِن فرعونَ لَعالٍ في الأَرضِ وإِنه لَمن الْمسرِفين} (2) .

2. كما يجب أن تتوافر في هذه القلة التي يتحقق ا التغيير صفات معينة على رأسـها الإيمان العميق بالله إضافة إلى الإعداد الجيد للتغيير والتنظيم المحكم والتخطيط الدقيق.

3. أن السنن الإلهية في تغيير ا تمعات هي : القوانين الكونية التي جعلها الله تعـالى في تبدل أحوال الناس وأمورهم إلى الأحسن أو الأسوأ بحسب ما يصدر منـهم وفـق علمه سبحانه وإرادته وحكمته .

4. بيان عناية القرآن الكريم بالسنن الإلهية عناية فائقة تتضح من تعدد أساليبه في بيا ا ، فتارة يصرح بالسنة بأسلوب مباشر ، وتارة يجيء ا بأسلوب غير مباشر ؛ يفهم من الآية دلالة وفحوى ، وذلك بترتيب نتيجة ما بناءً على شرط معين أو خبر معـين ، أو بذكرها في سياق قصة معينة أو في الحديث عن شأن من شؤون الكفار أو الأمم السابقة .

5. كما تبين لي أن السنن الإلهية تتميز بخصائص عديدة ؛ من أهمها :

---

(1) سورة القرة / 249 .

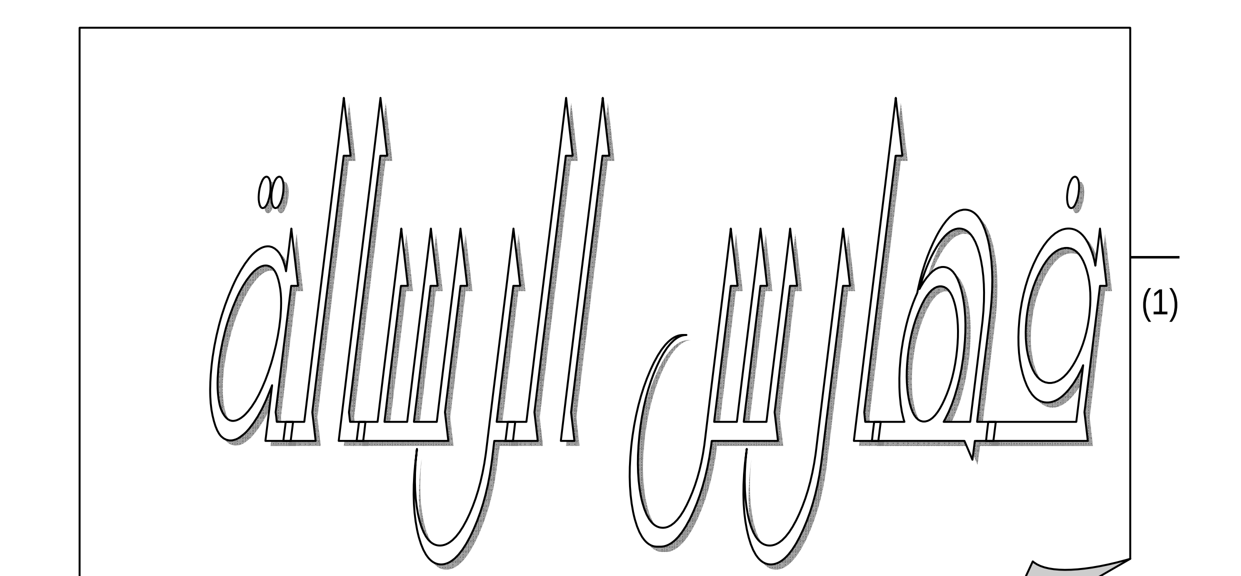
(2) سورة يونس / 83 .

- أن السنن الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتأثر بعوامل الزمان والمكـان ، وذلك كي تنضبط الموازين وتستقر معايير الحكم على الأشـياء والمواقـف والأحداث والرجال .
- كما أ ا تمتاز بالشمول والعموم فهي تشمل كل البشر بلا استثناء ولا تفريق ولا محاباة .
- وهي تتكرر كلما وجدت الظروف المناسبة مكاناً وزماناً وأشخاصاً وأفكاراً

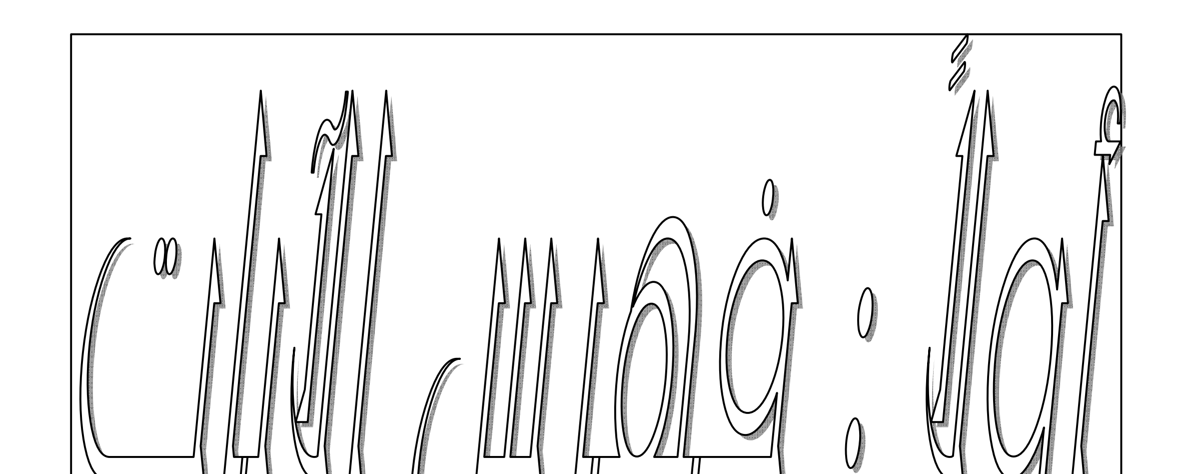
6. أن كيفية الاستفادة من السنن الإلهية في التغيير تعتمد اعتماداً كلياً على قانون السببية المتمثل في ربط الأسباب بمسببا ا ووجوب الأخذ ا ، كما أ ا تعتمد على قانون التهيئة وهو ما هيأه الله من أسباب يقع ا ما أراده من أمور ، بشرط أن تتوفر لهذه الأسـباب شروط عملها وأن تنتفي عنها الموانع المعيقة لهذا العمل . ولكنه في الوقت ذاته لا يتوجه إلى هذه الأسباب بالعبادة بحيث يعتقد فيها أ ا مستقلة بالفعل . وبذلك يتبين لنا أن الله أراد من خلقه عموماً ـ ومن المسلمين على وجه الخصوص ـ أن يتخذوا من (قانون السببية وقانون التهيئة) أصلاً يتعاملون على أساسه وهم يمارسون حيا م مع الكـون ومع الأحياء بشرط واحد ، وهو أن يكون راسخاً في قلب الأمة أن الأسباب من خلق الله ، وأننا مأمورون بالأخذ ا ، وأن اصطناعها لا يكون عبادة لهـا ؛ إذ لـيس مـن الضرورة أن تفضي م هذه الأسباب إلى نتائجها .

7. وإن من أهم ما أوصي به أن يعمل العلماء والدعاة والمفكرون وأهل الرأي في الأمة على نشر وإذاعة هذه السنن بين الناس وجعلها ثقافة عامة في ا تمع وتربية الناس عليها وتذكيرهم الدائم ا ، حتى تنضبط حركة الناس ا . ولن يتم ذلك إلا إذا تضافرت كل الجهود في كافة ا الات لتحقيق ذلك . كما يجب عليهم بث روح التفاؤل والأمل بأن تغيير واقع الأمة أمر ممكن غير مستحيل ، وكذلك تقديم النماذج المشرقة التي تصلح أن يقتدي ا الناس ويلتفوا حولها .

8. وإن هذا البحث ما هو إلا جهد بسيط في بيان أسباب تحقيق بعض السنن الإلهية ، ونقطة في بحر ، حيث أني لم أستوف كل السنن الإلهية وإنما بحثت في العام منها ، لـذا فإني أهيب بالدارسين والباحثين أن يكملوا المسيرة ويبحثوا في هـذه السـنن وغيرهـا ويستكشفوا أغوارها وذلك لأن حاجة الأمة إلى معرفتها ومعرفة أسباب تحققها حاجـة ماسة ؛ كي تستعيد مكانتها المرموقة التي أرادها الله لها حينما قال {كُنتم خيـر أُمـة أُخرِجت للناسِ تأمرونَ بِالْمعروف وتنهونَ عنِ الْمنكرِ وتؤمنونَ بِاللّه ولَو آمـن أهـلُ الْكتابِ لَكَانَ خيرا لهم منهم الْمؤمنونَ وأَكْثَرهم الْفَاسقُونَ} [1] . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .



(1)


أولاً : فهرس الآيات

{الذي جعلَ لَكُم الأَرض فراشاً والسماء بِناء .....}	22	50 ـ 311
{وبشرِ الذين آمنواْ وعملُواْ الصالحات أن لَهم جنات تجري من تحتها الأنهار ......}	25	294
{هو الذي خلَق لَكُم ما في الأَرضِ جميعاً ثُم استوى إِلَى السماء .....}	29	292
{وإِذْ قَالَ ربك للْملائكَة إِني جاعلٌ في الأَرضِ خليفَةً ..... }	30	82
{فَلاَ خوف علَيهم ولاَ هم يحزنونَ ـ والذين كَفَرواْ وكَذبواْ بِآياتنا .....}	38-39	88 ـ 250
{وآمنواْ بِما أَنزلْت مصدقاً لما معكُم ولاَ تكُونواْ أَولَ كَافرٍ بِه ولاَ تشتروا بِآياتي ...}	41	247
{وظَلَّلْنا علَيكُم الْغمام وأَنزلْنا علَيكُم الْمن والسلْوى .....}	57	342
{فَقُلْنا اضرِب بعصاك الْحجر فَانفَجرت منه اثْنتا عشرةَ عيناً}	60	53
{إِن الذين آمنواْ والذين هادواْ والنصارى والصابِئين من آمن بِالله والْيومِ الآخرِ ...}	62	245
{ثُم أَنتم هؤلاء تقْتلُونَ أَنفُسكُم وتخرِجونَ فَرِيقاً منكُم من ديارِهم .....}	85	385
{فَلاَ يخفف عنهم الْعذَاب ولاَ هم ينصرونَ}	86	145
{وما لَكُم من دون اللّه من ولي ولاَ نصيرٍ}	107	146
{ود كَثير من أَهلِ الْكتابِ لَو يردونكُم من بعد إِيمانِكُم كُفاراً ....}	109	211
{وقَالَ الذين لاَ يعلَمونَ لَولاَ يكَلمنا اللّه أَو تأْتينا آيةٌ ....}	118	44
الآيـــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
{إِنا أَرسلْناك بِالْحق بشيرا ونذيرا }	119	219
{ ولَن ترضى عنك الْيهود ولا النصارى حتى تتبِع ملتهم ..... }	120	92-99
{وإِذْ قَالَ إِبراهيم رب اجعلْ هَذَا بلَدا آمنا وارزق أَهلَه من الثمرات ....}	126	273 ـ 325
{ومن يرغَب عن ملة إِبراهيم إِلا من سفه نفْسه}	130	383
{وكَذَلك جعلْناكُم أُمةً وسطًا لتكُونواْ شهداء علَى الناسِ ويكُونَ الرسولُ ...}	143	265
{ولَئن أَتيت الذين أُوتواْ الْكتاب بِكُل آية ما تبِعواْ قبلَتك وما أَنت بِتابِعٍ قبلَتهم ....}	145	99
{كَما أَرسلْنا فيكُم رسولاً منكُم } إلى قوله { فَاذْكُرونِي أَذْكُركُم واشكُرواْ لي ....}	151 ـ 152	368

{وإذْ غَدوت من أَهلك تبوئ الْمؤمِنِين مقَاعد للْقتالِ واللّه سميع عليم}	121	171
{إِذْ تقُولُ للْمؤمِنِين أَلَن يكْفيكُم أَن يمدكُم ربكُم بِثَلاَثَة آلاَف ... }	124ـ 125	188
{وما جعلَه اللّه إِلا بشرى لَكُم ولتطْمئن قُلُوبكُم بِه ...}	126	146
{وأَطيعواْ اللّه والرسولَ لَعلكُم ترحمونَ}	132	356
{قَد خلَت من قَبلكُم سنن فَسِيرواْ في الأَرضِ فَانظُرواْ كَيف كَانَ عاقبةُ الْمكَذِّبِين }	137	22ـ 67
{هذَا بيانٌ للناسِ وهدى وموعظَةٌ للْمتقين}	138	39
{إِن يمسسكُم قَرح فَقَد مس الْقَوم قَرح مثْلُه}إلى قوله{وليمحص اللّه الذين آمنواْ ...}	140- 141	44ـ 154
{وما كان لنفس أن تموت ....وسنجزي الشاكرين}	145	371
{وكَأَين من نبِي قَاتلَ معه رِبيونَ كَثير فَما وهنواْ لما أَصابهم في سبِيلِ اللّه ....}	146	179
{وما كَانَ قَولَهم إِلا أَن قَالُواْ ربنا اغْفر لَنا ذُنوبنا وإِسرافَنا في أَمرِنا ....}	147	182
{ولَقَد صدقَكُم اللّه وعده إِذْ تحسونهم بِإِذْنِه حتى إِذَا فَشلْتم وتنازعتم في .... }	152	40ـ 175
{وشاوِرهم في الأَمرِ}	159	172
{إِن ينصركُم اللّه فَلاَ غَالب لَكُم }	160	146
{أَولَما أَصابتكُم مصيبةٌ قَد أَصبتم مثْلَيها قُلْتم أَنى هذَا قُلْ هو من عند أَنفُسِكُم}	165	40
{ولاَ تحسبن الذين قُتلُواْ في سبِيلِ اللّه أَمواتا}إلى قوله{الذين قَالَ لَهم الناس .... }	169ـ 173	194ـ 290
{إِنما ذَلكُم الشيطَانُ يخوف أَولياءه فَلاَ تخافُوهم وخافُون إِن كُنتم مؤمنِين}	175	246ـ 247
{وما كَانَ اللّه ليطْلعكُم علَى الْغيبِ}	179	51
{قُلْ قَد جاءكُم رسلٌ من قَبلي بِالْبينات}	183	203
{لَتبلَون في أَموالكُم وأَنفُسِكُم ولَتسمعن من الذين أُوتواْ الْكتاب من قَبلكُم ...}	186	189
{ إِن في خلْقِ السماوات والأَرضِ واختلاَف الليلِ }إلى قوله{الذين يذْكُرونَ اللّه ..َ.}	190ـ	102

	191	
رقم الصفحة	رقم الآية	الآيـــــــــــــــــــــــــــــة
230	196 ـ 197	{لاَ يغرنك تقَلب الذين كَفَروا في الْبِلاَد ـ متاع قَليلٌ ثُم مأْواهم جهنم وبِئْس الْمهاد}
180	200	{يا أَيها الذين آمنواْ اصبِرواْ وصابِرواْ ورابِطُواْ واتقُواْ اللّه لَعلكُم تفْلحونَ}
	ســـــورة النـســـــــــاء	
249	3	{وإِنْ خفْتم أَلا تقْسِطُواْ في الْيتامى}
291	5	{ولاَ تؤتواْ السفَهاء أَموالَكُم التي جعلَ اللّه لَكُم قياماً ...}
312	6	{ومن كَانَ غَنِيا فَلْيستعفف ومن كَانَ فَقيرا فَلْيأْكُلْ بِالْمعروف}
312	10	{إِن الذين يأْكُلُونَ أَموالَ الْيتامى ظُلْما إِنما يأْكُلُونَ في بطُونِهِم نارا وسيصلَونَ سعيرا}
355	16	{يهدي بِه اللّه منِ اتبع رِضوانه سبلَ السلاَمِ ويخرِجهم منِ الظُّلُمات إِلَى النورِ ...}
64	19	{فَعسى أَن تكْرهواْ شيئًا ويجعلَ اللّه فيه خيرا كَثيرا}
22 -10	28-26	{يرِيد اللّه ليبين لَكُم ويهديكُم سنن الذين من قَبلكُم ويتوب علَيكُم واللّه عليم حكيم}
247	35	{وإِنْ خفْتم شقَاق بينِهِما فَابعثُواْ حكَما من أَهله وحكَما من أَهلها ...}
212	51	{ويقُولُونَ للذين كَفَرواْ هؤلاء أَهدى من الذين آمنواْ سبِيلاً}
364	58	{إِن اللّه يأْمركُم أَن تؤدواْ الأَمانات إِلَى أَهلها وإِذَا حكَمتم بين الناسِ ...}
174	59	{يا أَيها الذين آمنواْ أَطيعواْ اللّه وأَطيعواْ الرسولَ وأُولي الأَمرِ منكُم ...}
365	66	{ولَو أَنا كَتبنا علَيهِم أَن اقْتلُواْ أَنفُسكُم أَوِ اخرجواْ من ديارِكُم ما فَعلُوه إِلا قَليلٌ ...}
207	72	{وإِن منكُم لَمن ليبطِّئَن فَإِنْ أَصابتكُم مصيبةٌ قَالَ قَد أَنعم اللّه علَي ...}
8	80	{من يطعِ الرسولَ فَقَد أَطَاع اللّه}
173ـ 246	83	{وإِذَا جاءهم أَمر من الأَمنِ أَوِ الْخوف أَذَاعواْ بِه ولَو ردوه إِلَى الرسولِ ...}
207	95	{لا يستوِي الْقَاعدونَ من الْمؤمنِين غَير أُولي الضررِ والْمجاهدونَ في سبِيلِ اللّه ....}
182	104	{ولاَ تهِنواْ في ابتغاء الْقَومِ إِن تكُونواْ تأْلَمونَ فَإِنهم يأْلَمونَ كَما تأْلَمونَ ...}

{وتلْك عاد جحدواْ بِآيات ربهم وعصواْ رسلَه واتبعواْ أمر كُل جبارٍ عنِيد}	59	140
{ولَما جاء أَمرنا نجينا هودا والذين آمنواْ معه}إلى قوله{وأُتبِعواْ في هذه الدنيا لَعنةً ...}	58- 60	131
{قَالُواْ يا لُوطُ إِنا رسلُ ربك لَن يصلُواْ إِلَيك فَأَسرِ بِأَهلك بِقطْعٍ من الليلِ ...}	81	55
{قَالَ يا قَومِ أَرأَيتم إِن كُنت علَى بينة من ربي ورزقَنِي منه رِزقًا حسنا}	88	299
{ويا قَومِ لاَ يجرِمنكُم شقَاقي أَن يصيبكُم مثْلُ ما أَصاب قَوم نوحٍ ...}	89	45
{ذَلك من أَنباء الْقُرى نقُصه علَيك}إلى قوله{إِن في ذَلك لآيةً لمن خاف ...}	-100 103	41 ـ326
{وأَما الذين سعدواْ فَفي الْجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأَرض ....}	108	294ـ 349
{فَلاَ تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدونَ إِلا كَما يعبد آباؤهم من قَبلُ ....}	109	44
{فَاستقم كَما أُمرت ومن تاب معك ولاَ تطْغواْ إِنه بِما تعملُونَ بصير}	112	264
{ولَو شاء ربك لَجعلَ الناس أُمةً واحدةً}إلى قوله{إِلا من رحم ربك ولذَلك خلَقَهم }	-118 119	156
{وللّه غَيب السماوات والأَرضِ وإِلَيه يرجع الأَمر كُله فَاعبده وتوكَّلْ علَيه}	123	63
سـ ـورة يـ ـوسـ ـف		
{ إن أبانا لفي ضلال مبين }	8	81
الآيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
{قَالُواْ يا أَبانا إِنا ذَهبنا نستبِق وتركْنا يوسف عند متاعنا فَأَكَلَه ...}	17	243
{واللّه غَالب علَى أَمرِه ولَكن أَكْثَر الناسِ لاَ يعلَمونَ}	21	210
(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)	24	113
{ قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين }	30	81
{ أَأَرباب متفَرقُونَ خير أَمِ اللّه الْواحد الْقَهار }	39	376
{قَالَ تزرعونَ سبع سنِين دأَبا فَما حصدتم فَذَروه في سنبله إِلا قَليلاً مما تأْكُلُونَ}	47	392
{ولاَ تيأَسواْ من روحِ اللّه إِنه لاَ ييأَس من روحِ اللّه إِلا الْقَوم الْكَافرونَ}	87	219

{وقَالَ الشيطَانُ لَما قُضي الأمر إن اللّه وعدكُم وعد الْحق ووعدتكُم فَأَخلَفْتكُم ....}	22	124ـ 137
{ويضل اللّه الظالمين ويفْعلُ اللّه ما يشاء}	27	87
{اللّه الذي خلَق السماوات والأرض}إلى قوله{وآتاكُم من كُل ما سأَلْتموه ....}	34 -32	291ـ 298
{وإِذْ قَالَ إبراهيم رب اجعلْ هذَا الْبلَد آمنا}إلى قوله{رب إنهن أَضلَلْن كَثيرا....}	36 -35	274
سـ ـورة الحجـ ـر		
{ولَقَد أَرسلْنا من قَبلك في شيعِ الأَولين}إلى قوله{لاَ يؤمنونَ بِه .... }	13 -11	23 -13
{والأَرض مددناها وأَلْقَينا فيها رواسي وأَنبتنا فيها من كُل شيءٍ موزون}	19	311
{ومن لستم لَه بِرازِقين}	20	291
{قَالَ رب بِمآ أَغْويتنِي لأُزينن لَهم في الأَرضِ}إلى قوله{ إلا عبادك منهم الْمخلَصين}	40 -39	124
{قَالَ ومن يقْنطُ من رحمة ربه إلا الضآلُّونَ}	56	219
{فَأَسرِ بِأَهلك بِقطْعٍ من الليلِ واتبِع أَدبارهم}إلى قوله{وقَضينا إِلَيه ذَلك الأَمر ....}	66 -65	55
{واعبد ربك حتى يأْتيك الْيقين}	99	188
سـ ـورة النـحـ ـل		
{ وعلَى الله قَصد السبِيلِ ومنها جائر ولَو شاءَ لَهداكُم أَجمعين }	9	89 -87
{ولَقَد بعثْنا في كُل أُمة رسولاً أَنِ اعبدواْ اللّه واجتنِبواْ الطَّاغُوت ...}	36	87 -84
{إِن تحرِص علَى هداهم فَإِن اللّه لاَ يهدي من يضل وما لَهم من ناصرِين}	37	85
الآيـــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفح**
أَو يأْخذَهم علَى تخوف فَإِن ربكُم لَرؤوف رحيم}	47	249
{ومن ثَمرات النخيلِ والأَعنابِ تتخذُونَ منه سكَرا ورِزقًا حسنا إِن في ذَلك لآيةً ...}	67	247
{واللّه فَضلَ بعضكُم علَى بعضٍ في الْرزقِ فَما الذين فُضلُواْ بِرآدي رِزقهم ....}	71	296
{واللّه جعلَ لَكُم من أَنفُسِكُم أَزواجا وجعلَ لَكُم من أَزواجِكُم بنِين وحفَدةً ...}	72	293
{ويعبدونَ من دون اللّه ما لاَ يملك لَهم رِزقًا}	73	291

{ضرب الله مثَلاً عبدا مملُوكًا لا يقْدر علَى شيءٍ ومن رزقْناه منا رِزقًا حسنا ....}	75	305
{والله أخرجكُم من بطُون أُمهاتكُم لاَ تعلَمونَ شيئًا وجعلَ لَكُم الْسمع .... }	78	367
{والله جعلَ لَكُم من بيوتكُم سكَنا}إلى قوله {والله جعلَ لَكُم مما خلَق ظلاَلاً ....}	80- 81	292
{ونزلْنا علَيك الْكتاب تبيانا لكُل شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى للْمسلمين}	89	218 ـ67
{ولَو شاء الله لَجعلَكُم أُمةً واحدةً ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ....}	93	75
{من عملَ صالحا من ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهو مؤمن فَلَنحيِينه حياةً طَيبةً ....}	97	333ـ94
{ذَلك بِأَنهم استحبواْ الْحياةَ الْدنيا علَى الآخرة وأَن الله لاَ يهدي الْقَوم الْكَافرِين}	107	78
{وضرب الله مثَلاً قَريةً كَانت آمنةً مطْمئنةً}إلى قوله{فَكُلُواْ مما رزقَكُم الله حلالاً طَيبا}	112ـ 114	30، 49
{إِن إبراهيم كَانَ أُمةً قَانِتا لله حنِيفًا}إلى قوله { شاكرا لأَنعمه اجتباه ....}	120- 121	369
ســورة الإســراء		
{إِن هذَا الْقُرآنَ يهدي للتي هي أَقْوم }	9	91
{وجعلْنا الليلَ والنهار آيتينِ فَمحونا آيةَ الليلِ وجعلْنا آيةَ النهارِ مبصرةً ....}	12	295
{منِ اهتدى فَإِنما يهتدي لنفْسِه ومن ضل فَإِنما يضل علَيها ...}	15	84- 89
{ومن أَراد الآخرةَ وسعى لَها سعيها وهو مؤمن فَأُولَئك كَانَ سعيهم مشكُورا}	19	101
{كُلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطَاء ربك وما كَانَ عطَاء ربك محظُورا}	20	306ـ 325
{ولاَ تجعلْ يدك مغلُولَةً إِلَى عنقك}إلى قوله { ولاَ تقْربواْ الزنى ....}	29- 32	304
{إِن ربك يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر}إلى قوله {ولاَ تقْتلُواْ أَولادكُم ....}	30- 31	336
الآيــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفح**
{ولَقَد كَرمنا بنِي آدم وحملْناهم في الْبر والْبحرِ ورزقْناهم من الطيبات ....}	70	294ـ88
{يوم ندعو كُل أُناسٍ بِإِمامهِم فَمن أُوتي كتابه بِيمينِه فَأُولَئك يقْرؤونَ كتابهم ....}	71	135
{وإِن كَادواْ لَيستفزونك من الأَرضِ}إلى قوله {سنةَ من قَد أَرسلْنا قَبلَك من رسلنا....}	76- 77	24ـ12

{ومن يهد اللّه فَهو الْمهتد}	97	79
سـ ـورة الكهـ ـف		
{وربطْنا علَى قُلُوبِهم إِذْ قَاموا فَقَالُوا ربنا رب السماوات والْأَرضِ ...}	14	389
{وترى الشمس إِذَا طَلَعت تزاور عن كَهفهِم ذَات الْيمينِ ....}	17	75
{فَلْيأْتكُم بِرِزقٍ منه }	19	290
{واضرِب لَهم مثَلًا رجلَينِ جعلْنا لأَحدهما جنتينِ}إلى قوله{هنالك الولاية لله الحق...}	32- 44	10، 47
{وما منع الناس أَن يؤمنوا إِذْ جاءهم الْهدى ويستغفروا ربهم ....}	55	24
{وتلْك الْقُرى أَهلَكْناهم لَما ظَلَموا}	59	48
{ويسأَلُونك عن ذي الْقَرنينِ}إلى قوله {قَالَ هذَا رحمةٌ من ربي ...}	83- 98	65 ـ 68
{قُلْ هلْ ننبئُكُم بِالْأَخسرِين أَعمالًا}إلى قوله{الذين ضل سعيهم في الْحياة الدنيا....}	103-104	68ـ98
سـ ـورة مـ ـريم		
{وإِني خفْت الْموالي من ورائي}	5	248
{وهزي إِلَيك بِجِذْعِ النخلَة تساقطْ علَيك رطَبا جنِيا}	25	287ـ327
{إلا من تاب وآمن وعملَ صالحا}إلى قوله {تلْك الْجنةُ التي نورِثُ من	60- 63	293
{أَولَا يذْكُر الْإِنسانُ أَنا خلَقْناه من قَبلُ ولَم يك شيئًا}	67	367
{ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}	76	77
{لتبشر بِه الْمتقين وتنذر بِه قَوما لدا}	97	218
سـ ـورة طـ ـه		
{لَه ما في السماوات وما في الْأَرضِ وما بينهما وما تحت الثرى}	6	286
الآيـــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفح**
{لَا تخافَا إِنني معكُما}	46	250
{قَالَ ربنا الذي أَعطَى كُلَّ شيءٍ خلْقَه ثُم هدى}	50	76ـ288

{فَأوجس في نفْسِه خيفَةً موسى}	67	249
{لَا تخف إنك أنت الْأَعلَى}	68	250
{لَا تخاف دركًا ولَا تخشى}	77	250
{يا بنِي إسرائيلَ قَد أَنجَيناكُم من عدوكُم}إلى قوله {كُلُوا من طَيبات ما رزقْناكُم ...}	80 -81	343
{ فَمنِ اتبع هداي فَلَا يضل ولَا يشقَى ـ ومن أَعرض عن ذكْرِي ... }	-123 124	89- 93
{ومن أَعرض عن ذكْرِي ... }إلى قوله {قَالَ كَذَلك أَتتك آياتنا فَنسِيتها ...}	124ـ 126	97
{ قَالَ اهبِطَا منها جميعاً بعضكُم لبعضٍ عدو فَإِما يأْتينكُم مني هدى ...}	123	95ـ103
{ولَا تمدن عينيك إِلَى ما متعنا بِه أَزواجا منهم زهرةَ الْحياة الدنيا لنفْتنهم فيه ...}	131	208
{وأْمر أَهلَك بِالصلَاة واصطَبِر علَيها لَا نسأَلُك رِزقًا نحن نرزقُك والْعاقبةُ للتقْوى }	132	319
{ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ....}	134	83
ســـورة الأنبيـــاء		
{بلْ نقْذف بِالْحق علَى الْباطلِ فَيدمغه فَإِذَا هو زاهق ولَكُم الْويلُ مما تصفُونَ }	18	149
{لَا يسأَلُ عما يفْعلُ وهم يسأَلُونَ}	23	75
{كُل نفْسٍ ذَائقَةُ الْموت ونبلُوكُم بِالشر والْخيرِ فتنةً وإِلَينا ترجعونَ}	35	30ـ317
{ونصرناه من الْقَومِ الذين كَذبوا بِآياتنا}	77	146
{وعلمناه صنعةَ لَبوسٍ لَكُم لتحصنكُم من بأْسكُم فَهلْ أَنتم شاكرونَ}	80	202
{إِن الذين سبقَت لَهم منا الْحسنى...}إلى قوله {لَا يحزنهم الْفَزع الْأَكْبر ...}	101ـ 103	262
{ولَقَد كَتبنا في الزبورِ من بعد الذكْر}إلى قوله {إِن في هذَا لَبلَاغًا لقَومٍ عابِدين}	-105 106	31- 53
{وما أَرسلْناك إِلا رحمةً للْعالَمين }	107	356
{ولَقَد كَتبنا في الزبورِ من بعد الذكْرِ أَن الْأَرض يرِثُها عبادي الصالحونَ}	105	31ـ72

{رجالٌ لا تلْهيهم تجارةٌ ولَا بيع}إلى قوله{ليجزيهم الله أحسن ما عملُوا ...}	37- 38	332
{قُلْ أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ فَإن تولوا فَإنما علَيه ما حملَ ...}	54	111ـ 259
الآيـــــــــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
{وعد الله الذين آمنوا منكُم وعملُوا الصالحات لَيستخلفَنهم في الْأرضِ ...}	55	52- 72
{فَلْيحذَرِ الذين يخالفُونَ عن أمرِه أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذَاب أليم}	63	379
ســـورة الفــرقـــان		
{وخلَق كُل شيءٍ فَقَدره تقْديرا}	2	64
{ويوم يعض الظالم علَى يديه}إلى قوله{لَقَد أضلنِي عنِ الذكْرِ بعد إِذْ جاءنِي ....}	27- 29	136
{ وكَذَلك جعلْنا لكُل نبِي عدواً من الْمجرمين وكَفَى بِربك هادياً ونصيراً}	31	87
{وما أرسلْناك إِلا مبشرا ونذيرا}	56	219
{والذين لَا يدعونَ مع الله إِلَها آخر ولَا يقْتلُونَ النفْس التي حرم الله إِلا بِالْحق ...}	68	337
ســـورة الشعـــراء		
{ وأنا من الضالين }	20	81
{هلْ ينصرونكُم أو ينتصرونَ}	93	145
{أتتركُونَ في ما هاهنا آمنِين}إلى قوله {فَاتقُوا الله وأطيعون}	146-150	278
{ وما أهلَكْنا من قَرية إِلا لَها منذرونَ}	208	84
ســـورة النمـــل		
{طس تلْك آيات الْقُرآن وكتابٍ مبِينٍ ـ هدى وبشرى للْمؤمنِين}	1- 2	218
لَا تخف إِني لَا يخاف لَدي الْمرسلُونَ}	10	250
{وأدخلْ يدك في جيبِك تخرج بيضاء}إلى قوله{وجحدوا بِها واستيقَنتها أنفُسهم ...}	12- 14	132
{ولَقَد آتينا داوود وسلَيمانَ علْما}إلى قوله{وورِثَ سلَيمانُ داوود ...}	15- 16	202ـ 296

{تلْك الدار الْآخرةُ نجعلُها للذين لَا يرِيدونَ علُوا في الْأَرضِ ولَا فَسادا والْعاقبةُ للْمتقين }	83	70
ســـورة العنكبـــوت		
{الم ـ أَحسِب الناس أَن يتركُوا}إلى قوله {ولَقَد فَتنا الذين من قَبلهم ... }	1- 3	30
{فَابتغوا عند الله الرزق}	17	310ـ 337
{قُلْ سيروا في الْأَرضِ فَانظُروا كَيف بدأَ الْخلْق ثُم الله ينشئُ النشأَةَ ....}	20	228
الآيـــــــــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
{لَا تخف ولَا تحزنْ إِنا منجوك وأَهلَك}	33	250
{وعادا وثَمود وقَد تبين لَكُم من مساكنِهم وزين لَهم الشيطَانُ أَعمالَهم ....}	38	127
{فَكُلا أَخذْنا بِذَنبِه فَمنهم من أَرسلْنا علَيه حاصبا ومنهم من أَخذَته الصيحةُ ....}	40	31
{وما كُنت تتلُو من قَبله من كتابٍ}إلى قوله {بلْ هو آيات بينات في صدورِ ...}	48- 49	118
{وكَأَين من دابة لَا تحملُ رِزقَها}إلى قوله {ولَئن سأَلْتهم من نزلَ من السماء ماء ....}	60- 63	51ـ304
{أَولَم يروا أَنا جعلْنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم .... }	67	274ـ 325
{والذين جاهدوا فينا لَنهدينهم سبلَنا وإِن الله لَمع الْمحسِنين}	69	77ـ113
ســـورة الـــروم		
{أَولَم يسِيروا في الْأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم}	9	228
{وإِذَا أَذَقْنا الناس رحمةً فَرِحوا بِها}إلى قوله {أَولَم يروا أَن الله يبسطُ الرزق }	36- 37	304
ظَهر الْفَساد في الْبر والْبحرِ بِما كَسبت أَيدي الناسِ ليذيقَهم بعض الذي عملُوا ...}	41	382
{ومن آياته أَن يرسلَ الرياح مبشرات}	46	218
{وكَانَ حقا علَينا نصر الْمؤمنِين}	47	187
{وقَالَ الذين أُوتوا الْعلْم والْإِيمانَ لَقَد لَبِثْتم في كتابِ الله إِلَى يومِ الْبعث فَهذَا...}	56	245
{ولَقَد ضربنا للناسِ في هذَا الْقُرآن من كُل مثَلٍ}إلى قوله{كَذَلك يطْبع الله ...}	58- 59	128
ســـورة لقمـــان		

الآيـــــــــــــــــــــــــــــــــــة	رقم الآية	رقم الصفح
		328
ســـورة فـاطـــر		
{إن الشيطَانَ لَكُم عدو فَاتخذُوه عدوا ...ز}	6	115ـ 124
{وما يستوِي الْبحران هذَا عذْب فُرات سائغٌ شرابه وهذَا ملْح أُجاج ...}	12	296
{ إنا أَرسلْناك بِالْحق بشيراً ونذيراً وإِنْ من أُمة إلا خلا فيها نذير}	24	84ـ 368
{أَلَم تر أن الله أَنزلَ من السماء ماء}إلى قوله {ومن الناسِ والدواب والْأَنعامِ ... }	27- 28	117
{إن الذين يتلُونَ كتاب الله}إلى قوله {ليوفيهم أُجورهم ويزيدهم من فَضله ...}	29- 30	334
{ثُم أَورثْنا الْكتاب الذين اصطَفَينا}إلى قوله {جنات عدن يدخلُونها...}	32- 33	319
{وأَقْسموا بِالله جهد أَيمانِهِم}إلى قوله {استكْبارا في الْأَرضِ ومكْر السيئ ... }	42-43	3، 26، 35
{فَلَن تجِد لسنت الله تبديلًا ولَن تجِد لسنت الله تحوِيلًا }	43	3
الآيـــــــــــــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفح**
ســـورة يـــس		
{واضرِب لَهم مثَلاً أَصحاب الْقَرية}إلى قوله {إن كَانت إلا صيحةً واحدةً ...}	13-29	47
{وآيةٌ لهم الْأَرض الْميتةُ}إلى قوله {ليأْكُلُوا من ثَمرِه وما عملَته أَيديهم ...}	33- 35	367
{أَولَم يروا أَنا خلَقْنا لَهم}إلى قوله { ولَهم فيها منافع ومشارِب أَفَلَا يشكُرونَ}	71 ـ 73	368
ســـورة الصـافـــات		
{ما لَكُم لَا تناصرونَ}	25	145
{ولَقَد سبقَت كَلمتنا لعبادنا الْمرسلين} إلى قوله { وإِن جندنا لَهم الْغالبونَ}	171-173	183
ســـورة ص		
{جند ما هنالك مهزوم من الْأَحزابِ}	11	148
{هذَا ذكْر وإِن للْمتقين لَحسن مآبٍ}إلى قوله{إن هذَا لَرِزقُنا ما لَه من نفَاد}	49- 54	293

{الله الذي جعلَ لَكُم الْأَرض قَرارا والسماء بِناء وصوركُم فَأَحسن صوركُم ...}	64	292
{أَفَلَم يسِيروا في الْأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم ....}	82	26ـ228
{أَفَلَم يسِيروا في الْأَرضِ}إلى قوله {فَلَم يك ينفَعهم إِيمانهم لَما رأَوا بأْسنا ....}	82-85	26
ســورة فصلــت		
{قُلْ إنما أَنا بشر مثْلُكُم يوحى إِلَي أَنما إِلَهكُم إِلَه واحد فَاستقيموا إِلَيه ....}	6	264
{قُلْ أَئنكُم لَتكْفُرونَ}إلى قوله {فَأَرسلْنا علَيهم رِيحا صرصرا في أَيامٍ نحسات...}	9-16	141ـ 310
{وقَيضنا لَهم قُرناء فَزينوا لَهم ما بين أَيديهم وما خلْفَهم ....}	25	127
{إِن الذين قَالُوا ربنا الله ثُم استقَاموا}إلى قوله { نزلًا من غَفُورٍ رحيمٍ}	30 -32	250ـ 262
{ومن آياته أَنك ترى الْأَرض خاشعةً فَإِذَا أَنزلْنا علَيها الْماء اهتزت وربت ...}	39	103
{ولَو جعلْناه قُرآناً أَعجمياً لَقَالُوا لَولا فُصلَت آياته أَأَعجمي وعربِي ....}	44	90-105
الآيــــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
ســورة الشــورى		
{لَه مقَاليد السماوات والْأَرضِ يبسطُ الرزق لمن يشاء ويقْدر إِنه بِكُل شيءٍ عليم}	12	303
{ويهدي إِلَيه من ينِيب}	13	87
{ولَو بسطَ الله الرزق لعباده لَبغوا في الْأَرضِ}إلى قوله{وهو الذي ينزلُ الْغيثَ ..}	27 -28	304ـ 324
{وما أَصابكُم من مصيبة}إلى قوله {وما أَنتم بِمعجِزِين في الْأَرضِ ...}	30 -31	381
{ولَمنِ انتصر بعد ظُلْمه فَأُولَئك ما علَيهم من سبِيلٍ}	41	145
{وكَذَلك أَوحينا إِلَيك روحا من أَمرِنا ما كُنت تدرِي ما الْكتاب ولَا الْإِيمانُ ...}	52	78ـ104
ســورة الــزخــرف		
{وكَذَلك ما أَرسلْنا من قَبلك في قَرية من نذيرٍ إِلا قَالَ مترفُوها ...}	23	129

{أهم يقْسِمونَ رحمةَ ربك نحن قَسمنا بينهم معيشتهم في الْحياة الدنيا ...}	32	308
{ولَولَا أن يكُونَ الناس أُمةً واحدةً}إلى قوله {وزخرفًا وإِن كُل ذَلك ...}	33- 35	326
{ومن يعش عن ذكْرِ الرحمنِ}إلى قوله {وإِنهم لَيصدونهم عنِ السبِيلِ ....}	36- 37	97ـ 121
{ولَما ضرِب ابن مريم مثَلًا}إلى قوله {إِنْ هو إِلا عبد أَنعمنا علَيه ... }	57- 59	295
ســـورة الــدخـــان		
{أهم خير أَم قَوم تبعٍ والذين من قَبلهم أَهلَكْناهم إِنهم كَانوا مجرِمين }	37	31
ســـورة الجاثيــــة		
{واختلَاف الليلِ والنهارِ وما أَنزلَ الله من السماء من رزقٍ ....}	5	289ـ 311
{وسخر لَكُم ما في السماوات وما في الْأَرضِ جميعا منه ....}	13	367
{ثُم جعلْناك علَى شرِيعة من الْأَمرِ}إلى قوله {هذَا بصائر للناسِ وهدى ... }	18- 20	104
{أَفَرأَيت منِ اتخذَ إِلَهه هواه وأَضله الله علَى علْمٍ وختم علَى سمعه وقَلْبِه ...}	23	134
ســـورة الأحقــاف		
{ ولَقَد مكناهم فيما إِنْ مكناكُم فيه وجعلْنا لَهم سمعاً وأَبصاراً وأَفْئدةً ...}	26	121ـ 131
الآيـــــــــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
{يا قَومنا إِنا سمعنا كتابا أُنزِلَ من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه ....}	30	91
ســـورة محمـــد		
{ولَو يشاء الله لَانتصر منهم}	4	145
{ والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ـ سيهديهم ويصلح بالهم }	4- 5	116
{يا أَيها الذين آمنوا إِن تنصروا الله ينصركُم ويثَبت أَقْدامكُم}	7	48ـ 117
{أَفَلَم يسِيروا في الْأَرضِ فَينظُروا كَيف كَانَ عاقبةُ الذين من قَبلهم ....}	10	31ـ 229

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقْواهم﴾	17	77- 93
{فَاعلَم أنه لَا إِلَه إِلَا الله واستغفر لذَنبِك وللْمؤمنِين والْمؤمنات ...}	19	66ـ 202
{إِن الذين ارتدوا علَى أَدبارِهم من بعد ما تبين لَهم الْهدى ....}	25	127
ســـورة الفتـــح		
{هو الذي أَنزلَ السكينةَ في قُلُوبِ الْمؤمنِين ليزدادوا إِيمانا مع إِيمانِهم}	4	352
{ولَو قَاتلَكُم الذين كَفَروا لَولوا الْأَدبار}إِلى قوله{سنةَ الله التي قَد ....}	22- 23	3، 27، 36
{هو الذي أَرسلَ رسولَه بِالْهدى ودينِ الْحق ليظْهِره علَى الدينِ كُله ....}	28	112
{كَزرعٍ أَخرج شطْأَه فَآزره فَاستغلَظَ فَاستوى علَى سوقه}	29	46ـ 390
ســـورة الحجـــرات		
{قَالَت الْأَعراب آمنا قُل لم تؤمنوا ولَكن قُولُوا أَسلَمنا ولَما يدخل الْإِيمانُ ...}	14	244
ســـورة ق		
{ونزلْنا من السماء ماء مباركًا فَأَنبتنا بِه جنات وحب الْحصيد}	9	100
{رِزقًا للْعباد}	11	290
الآيـــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
ســـورة الذاريـــات		
{وفي السماء رِزقُكُم وما توعدونَ}	22	51ـ 289
{فَأَخرجنا من كَانَ فيها من الْمؤمنِين ـ فَما وجدنا فيها غَير بيت من الْمسلمين}	35 ـ 36	244
{كَذَلك ما أَتى الذين من قَبلهم}إِلى قوله {أَتواصوا بِه بلْ هم قَوم طَاغُونَ }	52- 53	44
{وما خلَقْت الْجِن والْإِنس إِلَا ليعبدون}إِلى قوله{إِن الله هو الرزاق ...}	56- 58	82ـ 290
ســـورة النجـــم		
{والنجمِ إِذَا هوى ـ ما ضل صاحبكُم وما غَوى ـ وما ينطق عنِ الْهوى}	1- 3	7

{وإِن قُوتلْتم لَننصرنكُم}	11	145
{ولَا تكُونوا كَالذين نسوا الله فَأَنساهم أَنفُسهم أُولَئك هم الْفَاسقُونَ}	19	376
سـ ـورة الممتحنـ ـة		
{قَد كَانت لَكُم أُسوةٌ حسنةٌ في إِبراهيم والذين معه إِذْ قَالُوا لقَومهم ....}	4	111
سـ ـورة الصـ ـف		
{ فلما زاغوا أزاغ الله قلو م }	5	112
{والله لَا يهدي الْقَوم الظالمين}	7	79
{يرِيدونَ ليطْفؤوا نور الله}إلى قوله {هو الذي أَرسلَ رسولَه بِالْهدى ...}	9 -8	225
سـ ـورة الجمعـ ـة		
{مثَلُ الذين حملُوا التوراةَ ثُم لَم يحملُوها كَمثَلِ الْحمارِ يحملُ أَسفَارا}	5	383
فَإِذَا قُضيت الصلَاةُ فَانتشروا في الْأَرضِ وابتغوا من فَضلِ الله}	10	
سـ ـورة المنافقـ ـون		
وأَنفقُوا من ما رزقْناكُم}	10	289
سـ ـورة التغابـ ـن		
{ ومن يؤمن بِالله يهد قَلْبه }	11	106ـ77
الآيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـة	**رقم الآية**	**رقم الصفح**
{ما أَصاب من مصيبة إِلا بِإِذْن الله ومن يؤمن بِالله يهد قَلْبه والله بِكُل شيءٍ عليم}	11	108
سـ ـورة الطـ ـلاق		
{لَا تدرِي لَعل الله يحدثُ بعد ذَلك أَمرا}	1	64
{ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ـ ويرزقْه من حيثُ لَا يحتسِب ...}	3 -2	315ـ30
{ومن يتقِ الله يجعل له من أَمرِه يسرا}	4	360ـ48
سـ ـورة التحـ ـريم		
{يا أَيها الذين آمنوا قُوا أَنفُسكُم وأَهليكُم نارا}	6	319

{وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأةَ فرعونَ ...}	11	138
ســـورة الملـــك		
{وقالوا لو كنا نسمع أو نعقلُ} إلى قوله {فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحابِ السعيرِ}	10- 11	102ـ 138
{هو الذي جعلَ لكم الأرض ذلولًا فامشوا في مناكبِها ... }	15	51ـ 296
{أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمنِ ... }	20	147
ســـورة القلـــم		
{إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة} إلى قوله {كذلك العذاب ...}	17- 33	340ـ 390
{أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين}	35	3
ســـورة نـــوح		
{فقلتُ استغفروا ربكم إنه كانَ غفارا} إلى قوله {ويمددكم بأموالٍ وبنين ...}	10- 12	31ـ 321
ســـورة الجـــن		
{ومن يعرض عن ذكرِ ربه يسلكه عذابا صعدا}	17	379
{وألوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا}	16	316
فلا يخاف بخسا ولا رهقًا}	13	250
الآيـــــــــــــــــــــــــــــة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
ســـورة المزمـــل		
{علم أن سيكونُ منكم مرضى وآخرونَ يضربونَ في الأرضِ ...}	20	302ـ 327
ســـورة المدثـــر		
{وما يعلم جنود ربك إلا هو}	31	24
ســـورة القيامـــة		

{أيحسب الْإنسانُ أن يترك سدى}	36	82
سـ ـورة الإنسـ ـان		
{إناهديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كَفُوراً }	3	87
سـ ـورة النازعـ ـات		
{ هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى }	20ـ19	96
سـ ـورة التكويـ ـر		
{وما تشاؤونَ إلا أن يشاء الله}	29	64
سـ ـورة الانفطـ ـار		
{إن الْأبرار لَفي نعيمٍ}	13	353
سـ ـورة المطففـ ـين		
{ويلٌ للْمطَففين} إلى قوله {وإذَا كَالُوهم أو وزنوهم يخسِرونَ}	3 ـ 1	341
{وما يكَذب بِه إلا كُل معتد أثيمٍ}إلى قوله {كَلا بلْ رانَ علَى قُلُوبِهِم ...}	14 -12	122
سـ ـورة الطـ ـارق		
{فَمهل الْكَافرين أمهلْهم رويدا}	17	230
سـ ـورة الفجـ ـر		
{إن ربك لَبِالْمرصاد}	14	231
{فَأما الْإنسانُ إذَا ما ابتلَاه ربه فَأَكْرمه}إلى قوله { كَلا بل لا تكْرمونَ الْيتيم }	17 -15	307
الآيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـة	**رقم الآية**	**رقم الصفح**
{كَلا بل لا تكْرمونَ الْيتيم}إلى قوله { وتحبونَ الْمالَ حبا جما}	20 -17	133
سـ ـورة البلـ ـد		
{ وهديناه النجدين }	10	86
سـ ـورة الشمـ ـس		
{ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها }	8 -7	86

{ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها }	9- 10	87
ســ ـورة الليـ ـل		
{إن علَينا لَلْهدى ـ وإن لَنا لَلْآخرةَ والْأُولَى}	12- 13	61
{فَأَما من أَعطَى واتقَى ـ وصدق بِالْحسنى ـ فَسنيسره للْيسرى}	5- 7	309
{ فأما من أعطى واتقى}إلى قوله { فسنيسره للعسرى }	5- 10	100
ســ ـورة الضحـ ـى		
{ ووجدك ضالا فهدى }	7	81
{ووجدك عائلًا فَأَغْنى}	8	309
{وأَما بِنِعمة ربك فَحدثْ}	11	370
ســ ـورة الشـ ـرح		
{فَإِن مع الْعسرِ يسرا ـ إِن مع الْعسرِ يسرا}	5-6	220
ســ ـورة العلـ ـق		
{اقْرأْ بِاسمِ ربك الذي خلَق}إلى قوله {علم الْإِنسانَ ما لَم يعلَم}	1- 5	202
{كَلا إِن الْإِنسانَ لَيطْغى ـ أَن رآه استغنى}	6- 7	309
ســ ـورة البينـ ـة		
{إِن الذين آمنوا وعملُوا الصالحات أُولَئك هم خير الْبرِية}	7	245
الآيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـة	**رقم الآية**	**رقم الصفحة**
ســ ـورة التكاثـ ـر		
{أَلْهاكُم التكَاثُر ـ حتى زرتم الْمقَابِر}	1- 2	309
ســ ـورة الفيـ ـل		
{أَلَم تر كَيف فَعلَ ربك بِأَصحابِ الْفيلِ}إلى قوله { فَجعلَهم كَعصف مأْكُولٍ}	1- 5	279
ســ ـورة قريـ ـش		

{لإِيلَاف قُريشٍ} إلى قوله { الذي أَطْعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف}	1- 4	242ـ 243

الحـــديث	رقم الصفحة
حرف الألـــــف	
(أبوء لك بنعمتك علي)	370

(ألا سألوا إذا لم يعلموا)	202
(إلي عباد الله إلي أنا رسول الله)	237
(أما تحزن)	59
(أمتي مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله)	232
(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ....)	302
(إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله)	334
(أن تجعل لله ندا وهو خلقك) قلت : ثم أي ؟ قال (أن تقتل ولدك ....)	337
(إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها.......)	328
(إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ....)	88
(انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ......)	219
(إن الكافر إذا عمل حسنة)	333
(إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ، قامت الرحم فقالت : هذا مقام ....)	324
(إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف)	51
(إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغار ا وسيبلغ ملك أمتي ....)	223
(إن الله عز وجل خلق آدم ثم مسح ظهره)	120
(إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى ا في الدنيا ويجزى ا في الآخرة......)	333

م	طرف الأثر	رقم الصفحة
1	اثنان من الله ، واثنان من الشيطان (الشيطان يعدكم الفقر) يقول...	329
2	الاحتراز بطاعة الله تعالى عن عقوبته ، وهو صيانة النفس ...	313
3	إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر فيه متعجبا	161

391	مالك بن الحويرث	92
367	مالك بن دينار	93
238	مالك بن عوف النضري	94
169	المتنبي	95
122	مجاهد	96
255	مسلم	97
366	المغيرة بن شعبة	98
26	مقاتل	99
6	النسائي	100

214

تركيا

م	اسم المكان	رقم الصفحة
1	أحد	15
2	أفريقيا	214
3	تركيا	214

238	الجعرانة	4
283	الشام	5
236	الطائف	6
15	مكة	7
283	اليمن	8

ألم تر أن الله أوحى لمريم

إني بليت بأربع ما سلطوا

رقم الصفحة	عجز البيت	م
371	إذا كنت في نعمة فارعها	1
53	ألم تر أن الله أوحى لمريم	2
119	إني بليت بأربع ما سلطوا	3

4	تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد	177
5	الرأي قبل شجاعة الشجعان	169
6	سقيناهم كأساً سقونا بمثلها	181
7	فيوم لنا ويوم علينا	153
8	لا تصحب الكسلان في حالاته	136
9	والنفس كالطفل إن ـمله	119

34

24

م	الكلمة	رقم الصفحة
1	الأزلام	61
2	الاستسقام	34
3	الاستفزاز	24

218	المبشرات	26
144	النصر لغة	27
144	النصر اصطلاحا	28
205	النفر	29
76	الهدى لغة	30
76	الهدى اصطلاحا	31
148	الهزيمة لغة	32
148	الهزيمة اصطلاحا	33

(1) القرآن الكريم .
(2) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية – بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 1404 هـ ـ 1984 م .

(3) الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة لفضيلة الشيخ عبد الرحمن الدوسري ـ مكتبة الرشد ـ الطبعة الثانية ـ 1403 هـ .

(4) أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ـ تحقيق محمد عبد القادر عطا ـ دار الفكر للطباعة ـ لبنان .

(5) إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد ـ دار المعرفة – بيروت .

(6) الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ـ تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار البشائر الإسلامية – بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ 1409هـ 1989 م .

(7) أسباب ال ول للواحدي أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 1402 هـ 1982 م .

(8) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : د. محمد رشاد سالم ـ جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة ـ الطبعة الأولى ـ 1403 هـ .

(9) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي ـ تحقيق عبد الله محمود شحاتة ـ المكتبة العربية – القاهرة ـ 1395 هـ 1975 م .

(10) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ـ دار الفكر للطباعة ـ بيروت ـ 1415 هـ .

(11) الأعلام لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الخامسة عشرة 2002 م .

(12) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله بن محمد بن أبي بكر ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت – لبنان 1973م

(13) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ 1369 هـ .

(14) الأمثال في القرآن لمحمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ـ تحقيق إبراهيم محمد ـ مكتبة الصحابة ـ طنطا مصر ـ الطبعة الأولى ـ 1406 هـ .

(15) أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي ـ تحقيق محمد صبحي حسن حلاق ومحمد أحمد الطرش ـ دار الرشيد ـ دمشق بيروت ـ الطبعة الأولى 1421 هت 2000 م .
(16) البحث المقدم من الأستاذ مصطفى كمال ـ من تونس ـ إلى ملتقى السنة بالجزائر عام 1402 هـ 1982 م .
(17) البداية والنهاية للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ـ بيروت ـ مكتبة المعارف ـ الطبعة الثانية .
(18) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ تحقيق الأستاذ عبد العليم الطحاوي ومحمد علي النجار ـ المكتبة العلمية ـ بيروت لبنان .
(19) تاج العروس من شرح جواهر القاموس لمحمد المرتضى الزبيدي ، دار الجيل بيروت
(20) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري أبو جعفر ـ دار الكتب العلمية – بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 1407 هـ .
(21) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا ـ دار الكتب العلمية – بيروت .
(22) تذكرة الحفاظ للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 1419 هـ 1998 م .
(23) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي ـ دار الكتاب العربي ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة ـ 1403 هـ 1983 م .
(24) التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ـ تحقيق د. محمد رضوان الداية ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت دمشق ـ الطبعة الأولى ـ 1410 هـ .
(25) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت .
(26) التفسير الإسلامي للتاريخ ، الدكتور عماد الدين خليل ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة الأولى 1975م.

(27) تفسير البحر المحيط ، لمحمد بن يوسف الشهير بن حيان الأندلسي الغرناطي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية 1398هـ - 1978م .
(28) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس1984م
(29) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ـ الطبعة الثانية ـ شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
(30) تفسير الشعراوي لمحمد متولي الشعراوي ـ مكتبة المسجد النبوي ـ إدارة الكتب والمكتبات بأخبار اليوم .
(31) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 1421 هـ .
(32) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية ـ 1393 هـ 1973 م .
(33) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1401 هـ .
(34) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ دار الشعب ـ القاهرة .
(35) تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي ـ دار الكتاب العربي .
(36) التفسير المنير لوهبة الزحيلي .
(37) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ـ تحقيق مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري ـ مطبعة وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية ـ المغرب ـ 1387 هـ .
(38) تنوير الحوالك بشرح موطأ مالك للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .

(39) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان .
(40) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت لبنان ـ 1421 هـ 2000 م .
(41) الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ـ تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ـ دار إحياء التراث العربي – بيروت .
(42) الجواب الكافي لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(43) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ـ دار صادر ـ بيروت .
(44) الحرب والسلام في الإسلام لعبد الكريم الخطيب .
(45) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي – بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ 1405 هـ .
(46) حول التفسير الإسلامي للتاريخ لمحمد قطب . ا ـموعة الإسلامية ـ الطبعة الثالثة
(47) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المشهور بتفسير الطبري لأبي حعفر محمد بن جرير الطبري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1405 هـ .
(48) جامع الرسائل ، لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ، ا ـموعة الأولى ،تحقيق محمد رشيد سالم ، الطبعة الأولى 1389هـ - 1969م .
(49) الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ـ تحقيق مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير ، اليمامة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ 1407 هـ 1987م.
(50) دائرة المعارف الإسلامية .
(51) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1993 م .
(52) الرزق ؛ مصدره أسباب حصوله وزيادته حلاله وحرامه شروطه للدكتور : مسفر بن سعيد دماس الغامدي ـ دار الطرفين ـ مكتبة الفرقان ـ مكة المكرمة 1422 هـ .

(53) رسالة التقليد ، تأليف الإمام ابن القيم ، تحقيق وتعليق محمد عفيفي ،الناشر المكتب الإسلامي بيروت ، مكتبة أسامة – الرياض ، الطبعة الثانية 1405هـ - 1985م .
(54) رسالة في لفظ القرآن لابن تيمية ضمن كتاب جامع الرسائل ـ تحقيق محمد رشاد رفيق سالم ـ مصر .
(55) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت .
(56) الروض الأنف للسهيلي .
(57) زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت الطبعة الثالثة 1404 هـ .
(58) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت ـ الطبعة الرابعة عشر ـ 1407 هـ 1986 م .
(59) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ الإمام الخطيب الشربيني .
(60) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين لعبد الرؤوف شلبي ـ دار القلم ـ الكويت ـ الطبعة الثالثة ـ 1402 هـ 1982 م .
(61) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور : مصطفى السباعي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ـ 1398 هـ 1978 م .
(62) سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت .
(63) سنن أبي داود ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مذيلة بأحكام الألباني عليها ـ دار الفكر .
(64) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط دي محمد عاشور ـ دار السلام ـ مصر ـ الطبعة الأولى ـ 1427 هـ ـ 2006 م .

(65) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية لعبد الكريم زيدان ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة 1419 هـ 1998 م .
(66) سنن الدارقطني لعلي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي ـ تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني ـ دار المعرفة - بيروت ـ 1386 هـ 1966 م .
(67) سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ـ تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي ـ دار الكتاب العربي – بيروت ـ الطبعة الأولى 1407هـ
(68) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها لمحمد هيشور ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ 1417 هـ 1996 م .
(69) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن لمحمد الصادق عرجون ـ منشورات العصر الحديث ـ 1391 هـ 1971 م .
(70) السيرة النبوية ، للإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير 701- 744هـ ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة بيروت – لبنان 1396هـ -1976م.
(71) السيرة النبوية لابن هشام ـ تقديم عبد الرؤوف سعد ـ دار التراث العربي ـ 1399هـ .
(72) سيرة عمر بن عبد العزيز للحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي ـ دار الفكر .
(73) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ 1391هـ .
(74) شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية – بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 1410 هـ .
(75) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم الجوزية ـ تحقيق محمد بدر الدين أبو فراس الحلبي ـ دار الفكر بيروت ـ 1398هـ 1978 م .
(76) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ليوسف القرضاوي ـ دار الوفاء ـ المنصورة مصر ـ الطبعة الأولى ـ 1412 هـ 1992 م .

(77) صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ 1414 هـ ـ 1993 م .
(78) صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
(79) طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الداوودي ـ تحقيق سليمان بن صالح الخزي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ـ 1410 هـ ـ .
(80) طبقات المفسرين لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1396 هـ ـ .
(81) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ أكاديمي لاهور ـ باكستان ـ 1396 هـ ـ 1976
(82) العقيدة الواسطية لابن تيمية ـ تحقيق محمد بن عبد العزيز بن مانع ـ الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء ـ الرياض ـ الطبعة الثانية ـ 1412 هـ ـ .
(83) فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ـ دار المعرفة - بيروت ـ 1379 هـ ـ .
(84) فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ـ دار الفكر ـ بيروت .
(85) الفوائد لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية – بيروت .
(86) في ظلال القرآن لسيد قطب ـ دار الشروق ـ الطبعة التاسعة ـ 1400هـ ـ 1980 م
(87) فتح ا يد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ـ مكتبة الرياض الحديثة.
(87) فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي ـ المكتبة التجارية الكبرى – مصر ـ الطبعة الأولى ـ 1356 هـ ـ .
(89) القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

(90) القتال في الإسلام لأحمد نار ـ نشر وتوزيع المكتبة الإسلامية ـ حمص الفاخورة ـ الطبعة الثانية ـ 1388 هـ 1986 م .
(91) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين لمحمد صادق عرجون ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ 1386 هـ 1966 م .
(92) قرى الضيف لابن أبي الدنيا عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس ـ تحقيق عبدالله بن حمد المنصور ـ أضواء السلف – الرياض ـ الطبعة الأولى ـ 1997م.
(93) كتاب التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ 1416 هـ 1995 م .
(94) كتاب النبوات لابن تيمية أحمد بن عبد الحليم الحراني أبو العباس ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ 1386 هـ .
(95) الكشاف عن حقائق الت يل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ـ تحقيق عبد الرزاق المهدي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت .
(96) كتاب : طلب الرزق لأحمد بن محمد الطويل .
(97) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور المصري ـ دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى
(98) لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة مصر ـ الطبعة الأولى ـ 1412 هـ 1992 م .
(99) المثلث لابن السيد البطليموسي .
(100) ا تبى من السنن لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ـ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ـ الطبعة الثانية 1406هـ 1986 م.
(101) مجلة البيان ـ العدد 115 .
(102) مجلة الوعي الإسلامي الكويتية عدد ربيع الآخر 1414 هـ .
(103) مجموع فتاوى ابن تيمية .

(104) محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ـ تحقيق أحمد بن علي وحمدي صبح ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ 1424 هـ .

(105) المحرر الوجيز لبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ـ تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ الطبعة الأولى 1413 هـ 1993م .

(106) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ـ تحقيق محمود خاطر ـ مكتبة لبنان ناشرون ـ بيروت ـ 1415 هـ 1995 م .

(107) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار الكتاب العربي بيروت ـ الطبعة الثانية ـ1393 هـ1973 م.

(108) مدخل إلى دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم ـدي عاشور ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ القاهرة ـ 1425 هـ 2004 م .

(109) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الرابعة ـ 1384 هـ 1964 م .

(110) المستدرك على الصحيحين ، لمحمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ـ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 1411هـ 1990 م .

(111) المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ـ مؤسسة قرطبة ـ القاهرة .

(112) مسند الشافعي لمحمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي ـ دار الكتب العلمية بيروت.

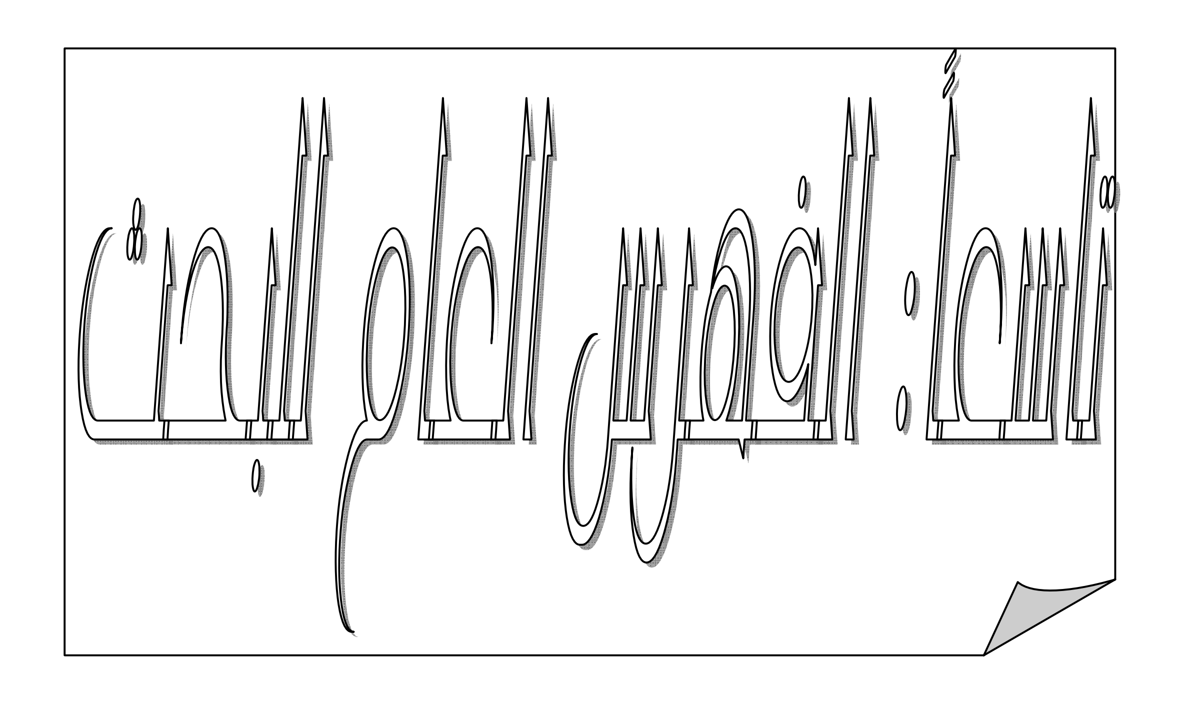
(113) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد حكمي ـ تحقيق عمر بن محمود أبو عمر ـ دار ابن القيم ـ الدمام ـ الطبعة الأولى ـ 1410هـ 1990 م

(114) مصنف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ـ تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ـ المكتب الإسلامي – بيروت ـ الطبعة الثانية ـ 1403 هـ .

(115) المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ـ تحقيق كمال يوسف الحوت ـ مكتبة الرشد – الرياض ـ الطبعة الأولى ـ 1409هـ .

(116) معالم التن يل في التفسير والتأويل للبغوي .
(117) المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ـ دار الحرمين القاهرة ـ 1415 هـ .
(118) المعجم المفهرس لألفاظ القرىن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ 1406 هـ 1986 م .
(119) المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ـ تحقيق حمدي بن عبد ا يد السلفي ـ مكتبة العلوم والحكم الموصل ـ الطبعة الثانية ـ 1404هـ1983
(120) المعجم الوسيط .
(121) معركتنا مع اليهود لسيد قطب ـ دار الشروق ـ القاهرة مصر ـ الطبعة الحادية عشرة 1412 هـ 1992 م .
(122) المغني مع الشرح الكبير لموفق الدين ابن قدامة ـ دار الكتاب العربي ـ 1392هـ
(123) مفاتيح الرزق في ضوء الكتاب والسنة للدكتور : فضل إلهي ـ مؤسسة الجريسي ـ الطبعة السابعة 1419 هـ 1998 م .
(124) مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1987 م .
(125) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية – بيروت .
(126) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ لبنان .
(127) مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ـ دار الفكر ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 1416 هـ 1996 م .
(128) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ مؤسسة قرطبة ـ الطبعة الأولى ـ 1406 هـ .

(129) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ـ دار إحياء التراث العربي – بيروت ـ الطبعة الثانية ـ 1392هـ .
(130) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ـ تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ـ دار الكتب العلمية .
(131) الموافقات في أصول الفقه لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ـ تحقيق عبد الله دراز ـ دار المعرفة – بيروت .
(132) موطأ الإمام مالك برواية يحيى الليثي ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي مصر .
(133) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ 1399 هـ 1979 م .
(134) هل نحن مسلمون لمحمد قطب ـ دار الشروق ـ 1403 هـ 1983 م .
(135) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم الجوزية ـ تحقيق فضيلة الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري ـ توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية .
(136) الوافي في الوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ـ تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ـ إحياء التراث ـ بيروت ـ 1420 هـ 2000 م .
(137) واقعنا المعاصر لمحمد قطب ـ مؤسسة المدينة ـ السعودية ـ الطبعة الثالثة ـ 1410 هـ 1989 م .
(138) وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية ـ الطبعة الرابعة ـ 1401 هـ 1981 م .


تاسعاً: الفهرس العام للبحث